مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع .ح

هنري ميللر

نكسوس

ثلاثية "الصلب الوردي"

(٣)

ترجمة
أسامة منزلجي

Author: Henry Miller
Title : *Nexus*
(The rosy crucifixion3)
Translator:Osama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2004
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : هنري ميللر
عنوان الكتاب : نكسوس
ثلاثية الصلب الوردي٣
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة٢٠٠٤
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٢-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**
E-mail:almada112@yahoo.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

twitter @baghdad_library

هنري ميللر

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع. ح

نكسوس

ثلاثية " الصَلْب الوردي"

الجزء الثالث

ترجمة
أسامة منزلجي

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

ووف! ووف! ووف! ووف!

أنبح في الليل. أنبحُ وأنبحُ، أزعقُ وما مِن مُجيب. أصرخُ ولا أسمعُ حتى صدى صوتي.

" ماذا تريد - أشرقَ زيريكس أم شرق المسيح؟ "

أنا وحدي - مع أكزيما الدماغ.

على الأقلّ أنا وحدي. ما أروعَ هذا! ولكن ليس هذا ما توقّعتُ أن أكون. ليتني كنتُ وحدي مع الله!

ووف! ووف ووف!

أستدعي صورتَها وأنا مُغمضُ العينين. ها هي، تطفو في الظلام، كقناعٍ يبرزُ من زبد الأمواج: لها فمُ تيلاً دوريو، مقوّس، أبيض، فيه حتى أسنان، وعينان سوداوان مع مسكرة، والجفنان دبِقان، بلونٍ أزرق برّاق، وشعر ينهمرُ جامحاً، أسودَ كالأبنوس. الممثلة المنحدرة من الجبال الكارباثية[1]، ومن فوق أسقف فيينا، تبرزُ كفينوس من أراضي بروكلن المنبسطة.

ووف! ووف ووف! ووف! ووف!

أصرخُ، ولكنَّ الصراخ يبدو للعالم كلّه كالهمس.

اسمي اسحق دست. أنا سماءُ دانتى الخامسة. أردِّدُ، كما فعل

ستريندبرغ وهو يهذي: " ماذا يهمّ؟ سواء أكان المرءُ فريداً من نوعه، أو كان له مُنافس، ماذا يهمُّ؟ "

لماذا تقفز هذه الأسماء الغريبة فجأة إلى الذهن؟ كل رفاق الصف في ألما ماتر[2] القديمة العزيزة: مورتن شناديغ، وليم مارفن، اسرائيل سيغل، برنارد بيستر، لويس شنايدر، كلانس دونوهيو، وليم أوفريند، جون كرتس، بات ماكافري، وليم كورب، آرثر كونفيسار، سالي ليبوفيتز، فرانتس غلانتري... لم يسبق لأيّ منهم أن أبرزَ رأسه. إنهم مبتلون منذ البداية ؛ مسحوقون كالأفاعي.

أما زلتم موجودين، يا رفاق؟

لا جواب.

أهذا أنت، عزيزي أوغست، يا مَن تُبرزُ رأسك من الظلام المكفهرّ؟ نعم، إنه ستريندبرغ. ستريندبرغ بقرنين يُبرزُ رأسه. Le con manifique "الأحمق الرائع"

في إحدى الحُقَب السعيدة - متى؟ على أي بُعد تقع؟ على أي كوكب؟ - كنتُ أنتقل من جدار إلى جدار أحيّي هذا وذاك، وكلهم أصدقاء حميمون: ليون باكست، ويسلر، لوفيس كورنيث، بروغل الأب، بوتيتشيللي، بوش، جيوتو، تشيمابيو، بييرو ديلاّ فرانشيسكا، غرونفالد، هولباين، لوكاس كراناش، فان غوخ، أوتريللو، غوغان، بيراينزي، هوكوساي، هيروشنغه[3] - وحائط المبكى. وغويا أيضاً، وترنر. كل منهم كان لديه شيءٌ نفيسٌ ليمنحه. ولكن خاصّةً تيلا دوريو، بشفتيها الفصيحتين، الحسّيتين، ذواتا الحُمرة القانية بلون البتلات.

الجدران عارية الآن. حتى وإن كانت تزدحمُ بالتُحف الفنيّة لَمَا رأيتُ

twitter @baghdad_library

شيئاً. لقد عمَّ الظلام. إنني، مثل بلزاك، أعيشُ مع لوحاتٍ وهميّة. حتى الأُطُر وهميّة.

اسحق دست وُلِدَ من غبارٍ وسيعودُ غباراً. من الغبار وإلى الغبار. أضَفْ مُلحقاً إكراماً للأيام الخوالي.

أناستيسيا، الياس هيغوروبورو، الياس برثا فيليغري من بحيرة تاهو-تيتيكاكا والبلاط الملكي للقياصرة، موجودة مؤقّتاً في جناح المراقبة في المستشفى. ذهبتْ إلى هناك طوعاً، لترى إنْ كان سليماً أم لا. شاؤول ينبح بهذيان، معتقداً أنه اسحق دست. الثلوج تحتجزنا داخل غرفة نوم شاسعة فيها مغسلة خاصة وأسرّة مزدوجة. البرق يلمعُ بشكلٍ متقطِّع. الكونت بروغا، ذلك الدمية العزيزة، يضطجع على المنضدة مُحاطاً بأوثانٍ جاويّة وتيبيّة[4]. يحملُ نظرةَ رجلٍ مجنون يعبُّ من طاسٍ من السترنو. شعره المستعار، المصنع من خيوط قرمزية اللون، تعلوه قبّعة مُصغَّرة، على الطريقة البوهيميّة، أُحضِرَتْ من معرض دوفاييه. ظهره يرتاحُ على بضعةِ مجلّداتٍ مختارة أودعتها لدينا ستيسيا قبل أن تنطلق إلى المَصَحّ العقليّ. عناوينها من اليسار إلى اليمين -

القصف الملكي - خداع الفاتيكان - فصلٌ في الجحيم - موتٌ في البندقية - أناثيما - بطل من زماننا - حسٌّ الحياة المأساوي - قاموس الشيطان - أغصانُ شهر تشرين ثاني - ما بعد مبدأ اللذة - ليستراتا - ماريوس الأبيقوريّ - الحمار الذهبي - جود المغمور - الغريب الغامض - بيتر ويفل - الأزهار الصغيرة - Virginibus Pueresque[5] الملكة ماب - الإله العظيم بات - رحلات ماركوبولو - أغاني بيليتس - حياة يسوع المجهولة - تريسترام شاندي - جرّة الذهب - نبات الفاشر الأسود - الجذر والزهرة.

هناك فقط ثغرة واحدة: كتاب روزانوف " ميتافيزيقيا الجنس ".

على مُزقةٍ من ورق لفّ اللحم وجدتُ ما يلي، مكتوباً بخط يدها، واضحُ أنه مُقتَطَفٌ من أحد الكتب: " إنَّ ذلك المفكِّر الغريب، ن. فيديروف، وهو روسيٌ من بين الروس، سوف يعثر على صيغةِ الفوضويّة الملائمة له، المعادلة للدولة "

لو أني بحثتُ بهذا لكرونسكي لهرع من فوره إلى مستشفى المجانين وقدَّمه كبرهان. برهان على ماذا ؟ على أنَّ ستيسيا تملك قواها العقليّة.

أكان هذا بالأمس؟ نعم، بالأمس، عند نحو الساعة الرابعة صباحاً، بينما كنتُ أسيرُ في طريقي إلى محطة القطار النفقيّ لأبحثَ عن مونا وصديقها المصارع جيمي دريسكول. ولو رأيتَهما لاعتقدتَ أنهما يفتشان عن أزهار الليلك في مرجٍ براّق. لم يكونا يفكّران في ثلجٍ أو جليد، ولا يهتمان بالعواصف القطبيّة التي تهبُّ من جهة النهر، ولا يخشيان الله أو الإنسان. كانا فقط يتمشّيان لا أكثر، يضحكان، يتحدثان، يهمهمان ؛ حُرَّان كقُبّرات المرج.

" اسمعوا، اسمعوا، القُبَّرة عند بوابة السماء تغرِّد! "

تبعتهما على بُعد مسافةٍ منهما. كدتُ أُصابُ بعدوى لا مبالاتهما التامّة. وفجأةً استدرتُ استدارة منحرفة إلى اليسار جهة شقة أوزيكي. يجب أن أقول " جناحه ". كانت الأضواء مُضاءة حتماً وتصدر عن آلة البيانولا أنغام marceaux choisis (مقطوعات مختارة) من تأليف دوخناني[6].

قلتُ في نفسي " تحيّتي إليك، أيها القملة اللذيذة "، وتابعتُ سيري. كان الضباب يتصاعدُ جهة قنال غوانوس. ربما هناك نهرٌ جليديّ يذوب.

twitter @baghdad_library

لدى وصولي إلى المنزل وجدتُها تدهنُ وجهها بالكريم.
سألتني " أين كنتِ بحقّ الله؟ " بنبرةٍ شبه مُتّهمة.
أجبتها بسؤالٍ مقابل " هل عدتِ منذ وقتٍ طويل؟ "
" منذ ساعات "
" غريب. أستطيع أن أقسم على أني غادرت هذا المكان قبل فقط عشرين دقيقة. لعلّي كنتُ أسير أثناء نومي. أمرٌ غريب ولكن لديَّ انطباعٌ شخصيّ بأني شاهدتكِ مع جيم دريسكول تسيران وأنتما متشابكا الذراعين... "
" فال، أنت مريضٌ فعلاً "
" كلا، أنا فقط ثمل. أقصد... **أهلوس** "
وضعتْ يداً باردةً على جبيني، وجسَّتْ نبضي. يبدو أنَّ كل شيءٍ طبيعيّ. وهذا يحيُّرها. لماذا أختلقُ تلك الحكايات؟ أفقط لكي أعذِّبها؟ أليس هناك ما يكفي من القلق، مع وجود ستيسيا في المصحّ العقلي والإيجار المتأخِّر تسديده؟ كان ينبغي أن أكون أكثر مراعاة لمشاعرها.
مشيتُ حتى ساعة المنبّه وأشرتُ إلى عقربيها. إنها الساعة السادسة.
قالت " أعلم "
" إذن أليستْ أنتِ مَنْ شهدتُ قبل بضع دقائق؟ "
نظرتْ إليّ وكأني وصلتُ إلى حافة الجنون.
غرَّدتُ قائلاً " لا داعي للقلق يا عزيزتي، لقد أمضيتُ الليلَ في شرب الشمبانيا. أنا واثق الآن من أنَّ مَنْ شاهدتُها ليست أنتِ - كان جسدك الوهميّ " فترة صمت. " على أي حال، إنَّ ستيسيا سليمة العقل. لقد تحدَّثتُ لتوي مطوَّلاً مع أحد الأطباء المقيمين... "

" أنتَ... ؟ "

" نعم، أردتُ أن أفعلَ شيئاً أفضل ففكَّرتُ في أن أعرِّجَ عليها وأرى كيف تسير حالتها. .أخذتُ لها بعضاً من حلوى الشارلوت روس "

" يجب أن تأوي إلى السرير، يا فال، أنت مُرهق " ثم صمت. " إذا أردتَ أن تعرف لماذا تأخّرتُ كثيراً أخبرك. لقد تركتُ ستيسيا لتوّي. أخرجتها قبل حوالي ثلاث ساعات ". وأخذت تضحكُ بصوتٍ خافت - أم هل أقولُ تقوِّقُ؟ " سأخبرك عن الأمر كله غداً. إنها قصة طويلة "

ذُهِلتْ حين أجبتُها " لا عليكِ، لقد سمعتُها كلها قبل قليل "

أطفأنا الأنوار وزحفنا إلى السرير. سمعتها تضحك مع نفسها.

همستُ على سبيل تحية مساء: " برثا فيليغري من بحيرة تيتيكاكا"

*

غالباً، بعد جلسةٍ مع شبنغلر[٧] أو إيلي فور، كنتُ أرتمي على السرير وأنا بملابسي الكاملة، وبدل أنْ أتأمَّل في الثقافات العريقة، أجدني أتلمَّس طريقي خلال عالمٍ متاهيّ من التلفيقات. يبدو أن كلتيهما غير قادرتين على قول الحقيقة، حتى حول مسألةٍ شديدة البساطة مثل الذهاب إلى المرحاض. فستيسيا، لأنها إنسانٌ صادقٌ في الأساس، اكتسبتْ هذه العادة إرضاءً لمونا، حتى في تلك الحكاية المختلقَة حول كونها ابنة حرام من عائلة رومانوف هناك ذرَّة من الحقيقة. معها لا تكونُ الكذبةُ كاملةً، خلافاً لما هو الحال مع مونا. أيضاً، إذا ما واجهها أحدهم بالحقيقة لا تُصاب بنوبةٍ هستيريّة أو تخرج من الغرفة بخطى بطيئة على عكازين. كلا، إنها ببساطة ترسم ابتسامة واسعة ترقّ تدريجياً لتغدو ابتسامةَ

twitter @baghdad_library

طفلٍ ملائكيّ عذبة. وأحياناً كنتُ أعتقدُ أني أستطيعُ أن أتوصّل إلى التفاهم مع ستيسيا، ولكن حالما أشعر أنَّ اللحظة المناسبة حانت، إذا بمونا، مثل أنثى حيوانٍ تحمي جروَها، تنزعها بسرعة ورشاقة وتنطلق.

إحدى أغرب فترات الانقطاع في أحاديثنا الحميمة، ذلك أننا كنا بين حينٍ وآخر نتبادلُ أحاديثَ-ولائمَ مطوّلة تتّسِمُ بمنتهى الصدق، أقولُ إحدى تلك الثغرات التي لم يكن لها أي تعليل، كانت لها صلة بعهد الطفولة. إذ كان أمراً مُبهماً كيف كانتا تلعبان، وأين، ومع مَنْ. فقد بدا أنهما قفزتا من المهد مباشرةً إلى مرحلة الأنوثة. لم يكن هناك أي ذكرٍ لأي صديق طفولة أو لاستمتاعٍ بأي مزاح راق ؛ ولا تحدَّثتا قط عن شارعٍ أحبّتاه أو حديقةٍ عامة لعبتا فيها أو لعبةٍ استمتعتا في ممارستها. وطرحتُ عليهما دون مقدِّمة ما يلي : " هل تحسنان التزلّج؟ هل تسبحان؟ هل سبق لكما أن لعبتما الجاكس[٨]؟ " نعم حتماً، إنهما تُحسِنان هذا كله وأكثر. ولِم لا ؟ ومع ذلك لم تسمحا لنفسيهما بان تعودا إلى الماضي. ولا هما تذكّرتا مرةً فجأةً، كما يحدثُ عادةً في الأحاديث الحميمة، تجربةً ما غريبةً أو رائعة لها صلة بعهد الطفولة. أحياناً كانت إحداهما تذكُر أنها ذات مرة كسرت ذراعاً أو لَوَتْ كاحلاً، ولكن أين، متى؟ وقد حاولتُ مراتٍ عدّة أن أعينهما على العودة إلى الماضي، برفقٍ وبملاطفةٍ، كما يفعل المرءُ مع حصان وهو يقودُه إلى الإسطبل، ولكن عبثاً. التفاصيل تثيرُ ضجرهما. وتسألان، ما أهمية مكانِ وزمانِ وقوع ذلك؟ حسنٌ، إذن، فلنغيّر لموضوع! وأنتقلُ إلى الحديثِ عن روسيا أو رومانيا، آملاً في أن أتبيَّنَ ومضةً أو قَبَساً من التعرُّف. وقد فعلتُ ذلك بمهارةٍ مُبتدئاً بتاسمانيا أو باتاغونيا وواصلتُ

طريقي بالتدريج وبأسلوبٍ ملتوٍ منتقلاً إلى روسيا، ورومانيا، وفيينا وأراضي بروكلن المنبسطة. وفجأةً تبدءآن بدورهما، وكأنهما لا ترتابان أبداً بلعبتي، بالتحدُّث عن أماكن غريبة، بما فيها روسيا ورومانيا، ولكن كما لو أنهما تسردان كلاماً سمعتاه من شخصٍ غريب أو اقتطفتاه من كتابٍ للرحلات. بل إنَّ ستيسيا، الأكثر دهاءً، قد تتظاهر بأنها تعطيني مفتاحاً لحلّ اللغز. فمثلاً، قد تقرِّر أن تحكي حادثةً منحولةً عن دوستويفسكي آملة في أن تكون ذاكرتي ضعيفة أو أنه حتى وإنْ كانت حكايةً جيدة، لا يمكنُ أن أتذكّر آلاف الحوادث التي تزدحم بها أعمال دوستويفسكي الضخمة. وكيف لي أنا نفسي أن أتأكّد من أنها لا تُلقي على سمعي حكاية دوستويفسكي الأصلية؟ ذلك أني أتمتَّعُ بذاكرةٍ ممتازة في تقصّي عبير الأشياء المقروءة، ومن المستحيل ألاّ أميّزَ اللمسة الدوستويفسكيّة الزائفة. ولكن لكي أجرَّها إلى مزيدٍ من الكلام أتظاهرُ بأني تذكَّرتُ الحادثة التي تسردها وأهزُّ رأسي موافقاً، وأضحكُ، وأصفِّقُ بيديّ، وأفعلُ كل ما تشاء، لكني لم أُبيِّن لها أبداً أني أعرفُ أنها تزيِّف. لكني، مع ذلك، سوف أذكِّرها، بروحِ التمثيل ذاتها، بشيءٍ صغير موَّهته أو بتشويهٍ ما أحْدَثَته، بل إني أجادلها مُطوَّلاً حوله إذا ما تظاهرت بأنها كانت صادقةً في سردِه. وطوال الوقت تكون مونا جالسة هناك، تصغي بانتباه، دون أن تعي الحقيقة أو الزيف، لكنها تكون سعيدة كعصفورة لأننا نتحدثُ عن معبودها، وإلهها، دوستويفسكي.

كم يمكن لهذا العالم من الكذب والتزييف أن يكونَ فاتناً، ومبهجاً، حين لا يكون ثمة شيء آخر نفعله، ولا مخاطرة. ألسنا كاذبين لعينين، مرحين ورائعين؟ أحياناً قد تهتفُ مونا قائلة: " أليس من

twitter @baghdad_library

المؤسف أنَّ دوستويفسكي نفسه ليس معنا ؟ "، وكأنه" **اختلقَ** " كل تلك الشخصيات المخبولة ؛ كل تلك المشاهد الجنونية التي تفيضُ بها رواياته. أقصد، أنه اختلقها لمتعته الخاصة، أو لأنه أبله وكاذب بالفطرة. ولم يخطر في بالهما مرة أنهما **هما** قد تكونان الشخصيتين " المجنونتين" في كتاب تخطّه الحياة بمدادٍ غير مرئيّ.

لذا ليس غريباً أنَّ كل شخص، ذكَراً كان أم أنثى، يثير إعجاب مونا هو" مجنون "، أو أنَّ كل مَن تمقته هو " أبله ". ومع ذلك، حين تقرِّر أن تنفحني مديحاً فإنها دائماً تناديني بأبله. " أنت أبله محبوب، يا فال"، وتعني بذلك أني، في تقديرها على الأقلّ، من العَظَمَة، والتعقيد بحيث أني أنتمي إلى عالم دوستويفسكي. وأحياناً، حين تأخذ بالهذيان حول كتبي التي لم أكتبها، تتمادى إلى درجة القول إني دوستويفسكي آخر. من المؤسف أني لا أُصاب بنوبةِ صرعٍ بين حين وآخر. إنَّ ذلك كفيلٌ بأنْ يمنحني المكانة الضرورية. وما يحدث، لسوء الحظ، ما يكسرُ طوقَ السحر، هو أني وبسرعةٍ كبيرةٍ أنحطُّ إلى مرتبةِ " بورجوازيّ ". بعبارةٍ أخرى، أُصبحُ فضولياً، وتافهاً، ومتعصِّباً أكثر مما ينبغي. ودوستويفسكي، وِفقاً إلى مونا، لا يُبدي أقلَّ اهتمامٍ بـ " الوقائع ". (وهي إحدى تلك الحقائق القريبة التي تجعل المرءَ يجفلُ أحياناً) كلا، إذا صدَّقناها، فإنَّ دوستويفسكي كان دائماً شارد الذهن - أو مدفوناً في الأعماق. لم يكن يزعج نفسه أبداً بالسباحة على السطح. لم يكن يفكِّرُ في القفازات أو في أغطيةِ الأيدي أو المعاطف، وهو يقتحم أكياس دراهم النساء بحثاً عن أسماء وعناوين. كان فقط يعيشُ في الخيال.

الآن، لستيسيا رأيها الخاص في دوستويفسكي، وفي أسلوبِ

حياته، ومنهجه في العمل. وعلى الرغم من تقلُّبات أهوائه، إلا أنها كانت أقرب قليلاً إلى الواقع. كانت تعلَم أنَّ الدُمى تُصنَع من الخشب أو الورق المُعجَّن، وليس فقط من " الخيال ". ولم تكن واثقة كثيراً من أنه لم يكن لدوستويفسكي جانبه " البورجوازي ". وما كان يعجبها خاصّةً في دوستويفسكي هو العنصر الشيطاني. فبالنسبة إليها الشيطان كيانٌ حقيقيّ، والشر حقيقيّ. من ناحيةٍ أخرى، بدت مونا غير متأثرة بالجانب الشرير في دوستويفسكي. بالنسبة إليها كان مجرَّد عنصر آخر من عناصر " مخيلته ". لا شيء في الكتب يُخيفها. بل لا يكادُ أي شيء في العالم يُخيفها، في هذا المجال. وربما هذا هو السبب في أنها تخوض في النار دون أن ينالها الأذى. كانت تشتمُّ رائحةَ الشرّ، وتتقصّى وجوده حتى في وجبة الحبوب الباردة. بالنسبة إلى ستيسيا الشيطانُ كيانٌ كُلّيّ الوجود حتى وهو في انتظار ضحيته. كانت تحملُ حجاباً ليقيها القِوى الشريرة؛ وكانت تقومُ ببعض الإشارات لدى ولوجها منزلاً غريباً، أو تُردِّدُ تعويذات بلغاتٍ غريبة. وكانت مونا تبتسم أمام هذا كله بتسامح، معتقدةً أنه شيء " لذيذ " من ستيسيا أن تكونَ بدائيّةً، ومتطيِّرةً إلى هذا الحد، فتقول " إنه العِرقُ السلافيّ فيها ".

*

الآن بعد أن وضعتْ السُلُطاتُ ستيسيا بين يديّ مونا توجَّبَ علينا أن ننظر إلى الوضع بجلاءٍ أعظم، وأن نزوِّدَ تلك المخلوقة المعقَّدة بنمطٍ أكثر رسوخاً وسكينة من الحياة. ووفقاً لحكاية مونا التي تستدرّ الدموع، لم تحصل ستيسيا على حريتها من الاحتجاز إلاّ على مضضٍ شديد. وما حَكَتهُ لهما عن صديقتها - وعن نفسها أيضاً - لا يأملُ إلا الشيطان

twitter @baghdad_library

في معرفته. وعلى مدى أسابيع، وفقط بمعيّة أشدّ المناورات براعة، نجحتْ في تجميعِ قطعِ الأحجية التي ألَّفتها من الحوار الذي أجرته مع طبيبها المسؤول. ولو لم يكن لديَّ أي شيءٍ أفعله لقلتُ إنهما معاً تنتميان إلى المصحّ. ولحسن الحظ كنتُ قد حصلتُ على نسخةٍ أخرى من المقابلة، بشكلٍ غير متوقَّع، من كرونسكي، ولا أقلّ. ولا أدري ما الذي أثار اهتمامه بالقضية. ولم تنتَبْ مونا أي شكوك حين صرَّحتُ باسمه للسلطات - باعتباره طبيب العائلة. وربما اتَّصَلَتْ به في منتصف الليل وأخذت تتوسَّلُ إليه، والنشيج يملأ صوتها، أن يفعل شيئاً من أجل صديقتها الحبيبة. وما لم تقُله لي، على أي حال، كان أنَّ كرونسكي هو الذي أمَّنَ إطلاقَ سراح ستيسيا، وأنَّ ستيسيا لم تكن تحظى بأي عناية، وأنَّ كلمةً منه (للسُلُطات) قد يكون لها تأثير فاجع. وهذا الشيء الأخير كان هراءً، وقد قبلَته على هذا الأساس. ولعلَّ الحقيقة هي أنَّ أجنحة المستشفى كانت مملوءةً حتى الزبى. وقد قرّرت بيني وبين نفسي أن أقوم بنفسي بزيارة المستشفى ذات يوم جميل لأعرف بدقَّة ما حدث. (فقط من أجل السجل). ولم أكن في عجلةٍ من أمري. شعرت أنَّ الوضع الحالي لم يكن إلا مقدمةً، أو ممراً، إلى أمورٍ آتية.

في تلك الأثناء اعتدتُ أن أتنقَّل في أرجاء " الفيليج " كلما رغبتُ في ذلك. رحتُ أتجوَّل في المكان، ككلبٍ ضال. وحين وصلتُ إلى عمودِ نورٍ رفعتُ قائمتي الخلفيّة وتبوَّلتُ عليه. ووف ووف! **ووف!**

هكذا كنتُ غالباً أجدُ نفسي واقفاً خارج حانة " المرجل الحديديّ " عند السياج الذي يتفادى بقعة الأرض المعشوشبة التي أضحتْ الآن مغطَّاةً بطبقةٍ من الثلج الأسود بعلوّ الركبة، لكي أراقبُ الداخلين

والخارجين. كانت الطاولتان الأقرب إلى الواجهة مُخصَّصتين لمونا. رحتُ أراقبها وهي تخبُّ رائحةً غادية على ضوءِ الشموعِ الخفيفِ، وهي تُمرِّر الطعام، وكانت هناك دائماً سيجارة تتوهَّج بين شفتيها، ويرسم وجهها الذاوي ابتسامةً وهي تُحيِّي زبائنها أو تتلقَّى طلباتهم. وكانت ستيسيا تجلس على إحدى الطاولات، أحياناً، وتستند دائماً بظهرها على الواجهة، وتتَّكئ بمرفقها على الطاولة، وتدعم رأسها بين يديها. عادةً كانت تظل جالسة هناك حتى بعد رحيل آخر زبون. حينئذٍ تنضمّ مونا إليها، وأفهم من تعبير وجه هذه الأخيرة، أنهما تتبادلان حديثاً يكون دائماً حيوياً. وأحياناً كانتا تضحكان من أعماق قلبيهما حتى تنطويان على نفسيهما. وفي مثل ذلك المزاج، إذا ما حاول أحدُ أصدقائهما المفضّلين الانضمام إليهما تدفعانه، أو تدفعانها، بعيداً كذبابة واقفة على زجاجة.

عمَّ يمكن لتينك المخلوقتين العزيزتين أن تتحدَّثا بحيث تستغرقان فيه إلى تلك الدرجة، وهو مفرط الفكاهة؟ أجِبْ عن هذا السؤال وسوف أدوِّن لك تاريخ روسيا في جلسةٍ واحدة.

حالما أدرك أنهما تتأهّبان للرحيل أفرُّ هارباً. وأتسكَّع، بكآبةٍ ورويّة، أطلُّ برأسي داخل المرابع الليلية واحداً بعد آخر، إلى أنْ أصلَ إلى ساحة شيريدان. في أحد أركان الساحة كان ميني دوشباغ يقفُ في مكانه المعتاد، ودائماً مشرقاً كحانة عتيقة الطراز. كنتُ أعرفُ أنه سينتهي بهما المطاف إلى هذا المكان. وكل ما كنتُ أنتظره هو أنْ أتأكَّدَ من أنهما جلستا على مقعديهما. ثم ألقي نظرة على الساعة، مُقدِّراً أنَّ إحداهما على الأقل سوف تعود إلى العرين. كان من المُريح، عند إلقاء

twitter @baghdad_library

نظرةٍ باتجاههما، أن ألاحظ أنهما قد أصبحتا مركز انتباهٍ قلق. ومن المريح - يالها من كلمة! - أن أعلم أنهما ستتلقّيان حمايةَ مخلوقاتٍ عزيزةٍ تفهمهما جيداً ودائماً تهرعُ لدعمهما. كان من المُسلّي أيضاً أن أفكِّرَ، لدى ولوجي القطار النَفَقي، في أنه مع إجراءٍ قليلٍ من التعديل على الملابس قد يجد حتى خبير برتيّون[9] صعوبةً في تقريرِ مَنْ الفتى بينهما ومَنْ الفتاة. الفتية دائماً مستعدون للموت من أجل الفتيات - والعكس بالعكس. أليسوا جميعاً يضمّهم وعاء البول الزنخ نفسه الذي يُخصِّص لكل إنسان نقيّ ومهذّب؟ وكانوا أعزاء. " **أعزاء** "، حقاً. ويا للفتيات اللواتي يرافقونهم، " **رائعات!** ". كل واحد منهم، خاصة الفتية، وُلِدَ فناناً. حتى أولئك الصغار الخجلين الذين يختبئون في إحدى الزوايا لكي يمضغوا أظافرهم.

هل استنتجت ستيسيا فكرةَ أنَّ الأمورَ لا تجري على ما يرام بين مونا وبيني من اتصالها بهذا الجو حيث يسود الحبّ والتفاهم المشترك؟ أم أنَّ ذلك راجعٌ إلى الضربات الموجعة التي كنتُ أسدِّدها في لحظات الحقيقة والصراحة؟

ذات مساء تقول لي " يجب ألاّ تتّهم مونا بخداعك والكذب عليك". ولا أتخيَّل كيف تصادفَ وكنا وحدنا. لعلّها كانت تتوقَّع ظهور مونا في أي لحظة.

أجبتها " بمَ كنت تفضّلين أن أتّهمها ؟ "، وتساءلتُ ماذا سيلي هذا.

" مونا ليست كاذبة، وأنت تعلم هذا. إنها تُلفِّق، تشوِّه، تفبرك... لأنَّ هذا أشدُّ إثارةٍ للاهتمام. إنها تعتقد أنك ستحبُّها أكثر حين تجعل الأشياء أشدّ تعقيداً. إنها تُكنُّ لك الكثير جداً من الاحترام بحيث لا يمكنُ أن تكذب عليك "

لم أزعج نفسي بالرد عليها.

قالت، وقد ارتفعت نبرة صوتها " ألا تعلم هذا ؟ "

قلت " بصراحة، لا! "

" أتقصد أنك تبتلع كل تلك الحكايات الغريبة التي تسردها على مسمعك؟ "

" إذا كنتِ تقصدين أني أعتبر الأمر بمثابة لعبة صغيرة بريئة، فالجواب لا "

" ولكن لماذا تريد أن تخدعك في حين أنها تحبك بشكل واضح؟ أنت تعلم أنك كل شيء بالنسبة إليها. نعم، كل شيء "

" ألهذا تغارين مني؟ "

" **أغار**؟ إنني أثورُ غضباً حين أجدكَ تُعاملها كما تفعل، ولابد أنك مِنْ فرط العمى، والقسوة، و... "

رفعتُ يدي، وسألتها " فقط قولي إلامَ ترمين؟ ما هي لعبتك؟ "

" **أتقول لعبة؟ لعبة؟** "، وانتصبتْ في جلستها كقيصرةٍ ساخطةٍ أصابها هولٌ شامل. كانت جاهلة تماماً أنَّ أزرارَ قميصَها محلولةٌ وطرَفَه يتدلّى.

قلت " اجلسي. خذي، دخِّني سيجارة أخرى "

رفضتْ أن تجلس، وأصرَّت على أن تخطو جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً.

باشرتُ فقلت " والآن ماذا تفضّلين أن تصدِّقي ؛ أنَّ مونا تحبّني حبّاً جمّاً بحيث أنَّ عليها أن تكذب عليَّ ليلاً ونهاراً؟ أم أنها تحبّكِ أنت حبّاً جمّاً حتى أنها لا تتحلّى بالشجاعة الكافية لتصرِّح بهذا لي؟ أم أنكِ

twitter @baghdad_library

أنتِ تُحبِّينها هي حبّاً جمّاً بحيث لا تطيقين أن تريها تعيسة؟ أم، دعيني أسألك هذا أولاً - هل تعرفين ما هو الحب؟ قولي لي، هل سبق لكِ أن أحببتِ رجلاً؟ أنا أعلمُ أنّه كان لديك كلب وكنتِ تحبّينه، أو هذا ما قلتِه أنت، وأعلمُ أنكِ كنتِ تمارسين الجنس مع الأشجار. وأعلم أيضاً أنكِ تحبّين أكثر مما تكرهين، ولكن - **هل تعرفين ما هو الحب**؟ إذا قابلتِ شخصين مُتيّمٌ كلٌ منهما بحبّ الآخر، فهل سيعملُ حبّكِ لأحدهما على زيادةِ حبّهما ذاك أم على تدميره؟ سأعبِّرُ عن هذا بطريقةٍ أخرى، لعلّها توضِّح الأمر. لو أنكِ كنتِ تعتبرين نفسكِ مجرَّد موضعٍ للشفقة وأبدى أحدهم لكِ عاطفة حقيقية، حبّاً حقيقياً، فهل كنتِ ستهتمّين إنْ كان ذلك الشخص رجلاً أو أنثى، متزوجاً أو عزباً؟ أقصد، هل كنتِ سترضين، أو ستستطيعين أن ترضي، بمجرَّد قبول ذلك الحب؟ أم هل كنتِ سترغبين بالاستئثار به؟ "

صمتٌ. صمتٌ ثقيل.

تابعتُ " وما الذي يجعلك تعتقدين أنك تستحقين الحب؟ أو أنكِ كنتِ مرةً محبوبة؟ أو، إذا كنتِ تعتقدين أنَّ ذلك قد حدث، أنكِ قادرةً على مبادلته؟ **اجلسي، لمَ لا تجلسين**؟ في الواقع، يمكننا أن نتبادل حديثاً مثيراً للاهتمام. بل قد نصل إلى نتيجةٍ ما، قد نبلغ حقيقةً ما. إنني راغب في المحاولة ". رمتني بنظرةٍ غريبةٍ، مُجفلة. " تقولين إنّ مونا تعتقد أني أحب الأشياء المعقّدة. ولكي أكون شديد الصدق معك أقول إني لست كذلك. أنت مثلاً، أنتِ كائنٌ شديدُ البساطة... متجانس، أليس كذلك؟ متكاملة، كما يقولون. إنكِ متّحدة بأمانٍ مع نفسك ومع العالم بأكمله بحيث أنك، ومن باب التأكُّد، وضعتِ نفسكِ تحت

الملاحظة. هل تجدينني مفرطَ القسوة؟ هيا، اضحكي مني إنْ شئتِ. إنَّ الأشياء تبدو غريبةً حين تقلبيها رأساً على عقب. ثم إنكِ لم تذهبي إلى جناحِ الملاحظة برضاك، أليس كذلك؟ إنها مجرَّد حكاية من حكايات مونا، ماذا! طبعاً أنا ابتلعتُ الطعمَ، مع الخيط والثقل الرصاصي - لأني لم أرِدْ أن أفسدَ صداقتكما. والآن بعد أن انفصلتِ عنها، بفضل جهودي، ها أنتِ تريدين أن تُبدي امتنانك، أليس كذلك؟ أنتِ لا تريدين أن تريني تعيساً، خاصةً أني أعيشُ مع شخصٍ قريبٍ إلى قلبك وعزيزٍ عليك "

أخذتْ تقهقه على الرغم من أنها غضبت غضباً شديداً.

" اسمعي، لو أنكِ سألتني إنْ كنتُ أغارُ منكِ لقلتُ نعم، على الرغم من كرهي للاعتراف بهذا. إنني لستُ خجلاً من الاعتراف بأني أشعر بالمهانة حين أفكر في أنَّ شخصاً مثلك يستطيع أن يثير غيرتي. إنك آخر نمط من البشر يمكن أن أختاره ليكونَ منافساً لي. إنني أكره المخنثين بقدر كرهي لأصحاب الأباهم[10] المزدوجة المفاصل. إنني متحامل "بورجوازي "، إنْ شئتِ. ولم أحبّ كلباً في حياتي، لكني لم أكره أي كلب. وقد قابلتُ منايكَ مُسلّين جداً، وبارعين، وموهوبين، وممتعين، ولكن يجب أن أقول إني لا أهتمّ بالعيش معهم. إنني لا ألقي مواعظ، وأنتِ تفهمين هذا، إنني أتحدَّث عمّا أحبُ وما أكره. ثمة أشياء تزعجني. وبعبارة معتدلة أقول إنه من سوء الحظ أن تشعر زوجتي بقوة أنها منجذبة إليك. يبدو هذا سخيفاً، أليس كذلك؟ كأنه مقولةٌ أدبية. ما أقصدُ أنْ أقوله هو إنَّه من المؤسف جداً أنَّها لم تتمكن من اختيارِ رجلٍ حقيقي، إذا كان لابد لها أن تخونني، حتى وإن كان شخصاً أمقته. أما أَنت... خراء! إنَّ هذا يجعلني أعزل. إنني أجفل لمجرد التفكير في

twitter @baghdad_library

أنَّ شخصاً يمكن أن يقول لي - " ما عيبك؟ "، إذ يجب أن يكونَ في الإنسان عيب - على الأقل هذا ما يعتقده العالم - حين تنجذب زوجته بعنف إلى امرأة أخرى. لقد بذلتُ أقصى جهودي لأكتشف العيبَ فيَّ، إنْ كان هناك أي عيب، لكني لا أجد أي شيء. ثم إنه إذا كانت امرأةٌ قادرةٌ على عشقِ امرأةٍ أخرى بالإضافة إلى الرجلِ المرتبطةِ به، فلا عيبَ في هذا، أليس كذلك؟ لا لومَ عليها إذا ما كانت تتمتَّع بمخزونٍ غير عاديّ من الحب، أليس كذلك؟ ولكن لنفرض أنَّ زوجَ هذه المخلوقة الخارقة انتابه الشكُّ في مقدرةِ زوجته الاستثنائية على الحب، فماذا عندئذ؟ لنفرض أنَّ لدى الزوج سبباً للاعتقاد بأنَّ هناك مزيجاً من الزيف والحقيقة له صلة بتلك الموهبة الخارقة في الحب؟ وأنه من أجل إعدادِ الزوجِ، من أجل تكييفه، إن صحَّ التعبير، كافحتْ بخبثٍ ومكرٍ كي تُسمِّمَ تفكيره، وتختلقَ وتلفّقَ أشدّ القصص غرابة، وكلّها بريئة طبعاً، عن تجاربها مع صديقاتٍ لها قبل زواجها. ولم تعترف أبداً صراحةً بأنها ضاجعتهنَّ، بل ألمحت إليه تلميحاً، كانت تشير مداورةً... دائماً مداورةً، إلى أنه يمكنُ أن يكونَ الأمرُ كذلك. وحالما كان الزوج... أو أنا، بعبارةٍ أخرى... يلاحظُ عليها الخوفَ أو الرعبَ، كانت تُنكِرُ بعنفٍ وجودَ أي شيءٍ من هذا القبيل، وتصرّ على أنه لابد أن خيالي هو الذي أوحى إليَّ بتلك الصورة... هل تتابعينني؟ أم أنَّ الأمرَ أصبحَ شديد التعقيد؟ "

جلسَتْ، وقد تلبَّسَ وجهُها فجأةً الجدّية، على حافة السرير وألقَتْ عليَّ نظرةً متفحِّصة. وفجأة افترَّتْ شفتاها عن ابتسامة، ابتسامة شيطانيّة، وهتفت " إذن هذه هي لعبتك! والآن تريد أن تُسمِّمَ تفكيري أنا! "، وانبجستْ الدموعُ من عينيها وأخذت تنشج بالبكاء.

وشاء حسن الحظ أن تصلَ مونا في تلك اللحظة.

كانت أولى كلماتها هي " ما الذي تفعله لها ؟ "، وهي تطوِّقُ المسكينة ستيسيا بذراعها، وتمسِّدَ على شعرها، وتواسيها بكلمات مُهدهِدة.

مشهد مؤثِّر. لكنه كان أشدَّ صِدقاً من أن يؤثِّرَ فيَّ كما ينبغي.

باختصار – يجب ألاّ تحاول ستيسيا أن تعود إلى المنزل. يجب أن تمكثَ وتنام نوماً هانئاً.

نظرتْ إليَّ ستيسيا نظرةً مُستفهمة.

قلت " طبعاً، طبعاً. ما كنتُ لأطردَ كلباً في ليلةٍ كهذه.

الجزءُ الأشدّ غرابة من المشهد، حين أسترجعه، كان ظهور ستيسيا بثوبِ النوم الناعم، الهفهاف. لو كانت تضعُ غليوناً في فمها لاكتملَ المشهد.

*

فلنعُد إلى فيودور... أحياناً كانتا تثيران حفيظتي بهرائهما الأبدي حول دوستويفسكي . من ناحيتي، لم أدَّعِ مرةً أني " أفهم " دوستويفسكي. ليس كل شيء عنه، على أي حال. (أنا أعرفه، كما يعرفُ المرءُ روحاً لطيفةً) ولا قرأتُ إنتاجه كله، حتى هذا اليوم. كنتُ دائماً أرى أنْ أتركَ الفُتات الأخيرة لأقرأها على سرير الموت. مثلاً، لستُ واثقاً مما إذا كنتُ قرأتُ قصته " **حلم رجل هُزأة** "، أو أنَّ أحداً أخبرني عنها. ولا أنا متأكِّد من أني أعرفُ مَنْ هو مارشيون ولا ما هي المارشيونيّة[11]. وهناك أشياء كثيرة عن دوستويفسكي، كما عن الحياة نفسها، يسعدني أن أتركها على غموضها. أحبّ أن أفكِّرَ في دوستويفسكي كشخصٍ مُحاطٍ بهالةٍ لا يمكنُ اختراقها من الغموض. فمثلاً، لا أستطيع أن أتصوَّره معتمراً قبعةً – كالتي يضعها سويدنبرغ

twitter @baghdad_library

على رؤوس ملائكته. أيضاً، أنا دائماً أُفتَنُ بمعرفة ما يقوله الآخرون عنه، حتى حين لا تعني آراؤهم لي أي شيء. بالأمس القريب فقط صادفتُ ملاحظةً صغيرةً كنتُ قد كتبتُها في أحد الدفاتر، لعلّي أخذتُها من برديبف[١٢]. وها هي: " بعد دوستويفسكي، لم يعد الإنسانُ أبداً كما كان من قبل ". فكرةٌ مُفرحة للإنسانيّة المتألمة.

أما بالنسبة إلى ما قاله بعد ذلك، ولا يمكنُ إلاّ لبردييف أن يكون قد قاله، فهو:" كان لدى دوستويفسكي موقفٌ معقَّد من الشر. قد يبدو إلى حدٍ بعيدٍ أنه قد ضلّ عن جادّة الصواب. أولاً، الشرُّ هو الشرّ، ويجب كشفه ومن ثم حرقُه. وثانياً، الشرُّ هو تجربةٌ روحيّةٌ بالنسبة إلى الإنسان؛ إنه دور الإنسان. وبينما الإنسانُ يتابعُ طريقه يزدادُ غنى باختبارِ الشر، ولكن مِن الضروري أن نفهمَ هذا فوراً. ليس الشرّ بحد ذاته هو ما أغناه، بل تلك القوة الروحيّة التي استيقظت فيه ليتغلّب بها على الشر. إنَّ مَنْ يقول " سوف أستسلم للشرِّ إكراماً للغِنى " لا يحصل أبداً على الغِنى ؛ بل يفنى. لكنّ الشرَّ يختبرُ حريّةَ الإنسان... "

وهاكَ استشهاداً آخر (مرةً أخرى من بردييف) بما أنه يُقرِّبنا خطوةً من السماء...

" إنَّ الكنيسة ليست مملكة الله ؛ الكنيسة ظهرتْ في التاريخ ونشطت في التاريخ، وهي لا تعني تجلِّي العالم، وبزوغ فجر سماء جديدة وأرضٍ جديدة. مملكة الله هي تجلّي العالم، ليس فقط بوصفه تجلّي الإنسان الفرد، بل أيضاً تجلّي الفرد الاجتماعيّ والكونيّ ؛ وهذه هي نهاية عالمنا هذا، عالم البطلان والقُبح، وبداية عالم جديد، عالم الحق والجمال. وحين قال دوستويفسكي إنَّ الجمالَ سيُنقذ العالمَ كان يفكِّرُ في تجلِّي العالم ومجيء مملكة الله، وهذا هو الأمل بالآخرة... "

إذا تحدَّثتُ بلساني فيجب أن أقولَ إنه إذا ما كانت لي أي آمال في الآخرة أو في غيرها، فإنَّ دوستويفسكي قد بدّدها. أو ربما يجب أن أُعدِّلَ كلامي فأقول إنه " أبطَلَ " الطموحات الثقافية التي ولّدتها لديّ تنشئتي الغربيّة. باختصار، لقد بقيَ الجانب الآسيويّ، المنغولي، مني سليماً وسوف يبقى كذلك دائماً . هذا الجانب المنغولي مني لا صِلةَ له بالثقافة وبالشخصية ؛ إنه يمثِّلُ الكيان المتجذِّر الذي يعود نسغه إلى غصنٍ سَلَفيّ دائمِ الشباب في شجرةِ النَسَب. هذا الخزّان الذي لا قرارة له ابتلع العناصر العمائيّة كلها لطبيعتي ولإرثي الأميركي، كما يبتلع المحيط الأنهار التي تصبُّ فيه. والغريب في الأمر، أني فهمتُ دوستويفسكي، أو بالأحرى شخصيات رواياته والمشاكل التي تعذِّبها، بشكلٍ أفضل، بما أني أميركيّ المولد، ممّا لو أني كنتُ أوروبياً. ويبدو لي أنَّ اللغةَ الإنكليزية هي الأنسب لترجمته (إذا كان لابد من قراءته مُترجَماً)، من الفرنسية، أو الألمانيّة، أو الإيطاليّة، أو أي لغةٍ لا سلافيّة. والحياة الأميركية، من المستوى السوقيّ إلى المستوى الفكريّ، تتّصل بصِلات قُربى هائلة متناقضة ظاهرياً مع حياة دوستويفسكي اليوميّة الروسيّة المتعدِّدة الجوانب. ماذا يمكنُ للمرءِ أن يطلب كأسس للبرهان أفضل من نيويورك الضخمة، التي تزدهر في تُربتها المختلطة كلُ فكرةٍ مجنونةٍ، خسيسةٍ، وخليعةٍ، كعشبةٍ ضارة؟ هناك، يكفي المرءُ أن يفكِّرَ في فصل الشتاء أو في معنى أن يكونَ جائعاً، ووحيداً، ويائساً في تلك المتاهة من الشوارع الرتيبة التي تحفُ بها منازلُ رتيبةٌ مزدحمةٌ وفي الوقت نفسه غير محدودة!

على الرغم من أنَّ ملايينَ بيننا لم يقرؤوا أبداً دوستويفسكي ولن

twitter @baghdad_library

يتعرَّفوا إلى اسمه عندما يُذكَر، إلا أنَّ ملايينَ منا، مع ذلك، يعيشون، هنا في أميركا، متأثرون بدوستويفسكي، بالحياةَ " المجنونة " الغريبة الأطوار نفسها التي تعيشها شخوص دوستويفسكي في روسيا التي يتخيّلها. وإذا كانوا بالأمس ما يزالون يُعتَبَرون أنهم يحملون جوهراً إنسانياً، فإنَّ عالمهم غداً سوف يمتلك شخصيةً من شخصيات بوش[١٣] أو كلها. اليوم هي تمشي إلى جانبنا كتفاً إلى كتف، دون أن تُفاجئ أحداً، ظاهرياً، بمظهرها العتيق. بل إنَّ بعضها لا يزالُ يُلبِّي نداء الباطني - يبشِّرُ بالإنجيل، يُلبِّسُ الجثثَ، يمدُّ يد العون للمجانين - وكأنَّ الزمن توقَّفَ تماماً. ليس لديها أدنى فكرة عن أنَّ " الإنسانَ لم يعُد كما كان من قبل".

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

آه، يا للإثارة الرتيبة التي يبعثها السيرُ في الشوارع في صباحِ يومٍ شتائيّ، حيث العوارضُ الحديديةُ متجمِّدة حتى الأرض؛ والحليب في الزجاجات يرتفعُ مثل ساقِ نبات الفطر. فلنقل إنه يومٌ شماليٌّ، لا يجرؤ خلاله أشدُّ الحيوانات حماقةً على أنْ يُبرزَ أنفه من جُحره. في مثل ذلك اليوم كان استيقافُ شخصٍ غريبٍ وطلبُ صَدَقَةٍ منه أمراً غير وارد أبداً. ففي ذلك البرد القارص، الناهش، والريح الثلجيّة تصفر خلال الشوارع الضيقة الكئيبة، لا يمكنُ لأحدٍ يملكُ قواه العقليّة أن يتوقَّفَ مدةً تكفي لمدّ يده إلى جيبه بحثاً عن قطعةٍ نقدية. في مثل هذا الصباح، الذي يصفُهُ صاحبُ مصرفٍ مرتاحٍ بأنه" صافٍ ومنعش "، لا يحقُّ لشحَّاذٍ أن يشعرَ بالجوعِ أو بالحاجةِ إلى أجرةِ مواصلات. الشحاذون خُلقوا من أجل الأيام المشمسة الدافئة، حين يتوقفُ حتى صاحب أشد القلوب ساديّة ليرمي فُتات من الخبز للعصافير.

في مثل ذلك اليوم كنتُ أعمدُ إلى جمع كميةٍ من العيِّنات لكي أنطلقَ بها وأعرِّج على أحد زبائن والدي، وأنا أعلمُ مُسبقاً أني لن أحصلَ على أي طلبٍ بل ذهبتُ مدفوعاً بجوعٍ مُهلكٍ إلى فتح حديث.

لم يكن هناك شخص بعينه أنتقيه دائماً لأقومَ بزيارته في مثل تلك

المناسبات، لأنَّ النهارَ بصحبته قد ينتهي، وهذا ما كان يحدثُ عادةً، بشكلٍ غير متوقَّع على الإطلاق. ويجب أن أُضيفَ أنه نادراً ما كان هذا الشخص يطلب تفصيلَ بذلة، وحين فعل ذلك أخيراً استغرقَ منه تسديد الفاتورة سنين عديدة. ومع ذلك، كان زبوناً لنا. كنتُ أتظاهرُ أمام والدي أني أعرِّجُ على جون ستايمر لكي أدفعه إلى شراءِ بذلةٍ كاملة كنا دائماً نفترضُ أنه سوف يحتاجُ إليها. (كان يقولُ لنا على الدوام أنه سوف يصبح قاضياً ذات يوم، هذا الستايمر)

إنَّ ما لم أُفشِهِ لوالدي كان طبيعة الأحاديث اللا خيّاطيّة التي كنتُ أتبادلها عادة مع الرجل.

" مرحبا! ما سبب هذه الزيارة؟ "

هكذا كان عادةً يُحيِّيني.

" لا بد أنك مجنون إذ تعتقد أني أحتاجُ إلى مزيدٍ من الملابس. إنني لم أُسدِّد بعد ثمن البذلة الأخيرة التي اشتريتها، أليس كذلك؟ متى كان ذلك - أقبل خمس سنوات؟ "

لم يكن قد رفعَ رأسه عن كومةِ الأوراق التي دفن فيها أنفه. كانت غرفة المكتب تعبقُ برائحةٍ كريهةٍ، بسبب عادته المتأصِّلة في إطلاق الضراط - حتى في حضور كاتب الاختزال. وكان دائماً يلكز أنفه أيضاً. فيما عدا ذلك - أقصد، في المظهر - يمكنُ أن يكونَ أي شخص. محام، كأي محامٍ آخر.

ويغرِّدُ قائلاً، ولا يزالُ رأسه مدفوناً في متاهةٍ من الوثائق القانونية: " ماذا تقرأ هذه الأيام؟ "، وقبل أن أتمكن من الإجابة يُضيفُ: " هل لكَ أن تنتظر في الخارج بضع دقائق؟ إنني مُشوَّش. ولكن لا تهرب... أريد

twitter @baghdad_library

أن أتسامرَ معك "، قال هذا ووضع يده في جيبه وأخرجَ ورقةً نقديةً بقيمة دولار. " خذ، اشرب قهوة أثناء انتظارك، وعُدْ بعد ساعة أو نحوها... سنتناول طعامَ الغداء معاً، ماذا! "

في غرفة الانتظار كانت هناك حفنةٌ من الزبائن تنتظر ليُعيرها سمعه. وقد طلبَ من كل واحد أن ينتظر قليلاً. أحياناً كانوا يجلسون طوال النهار.

في طريقي إلى الكافتيريا صرفتُ الورقة النقدية لكي أشتري صحيفة. وأثناء قراءة الصحيفة كنتُ أفكِّرُ في مشكلة ستايمر الكبرى: **الاستمناء**. فمنذ سنوات وهو يحاولُ أن يتخلَّص من تلك العادة الأثيمة. وأستحضرُ شذرات من آخرِ حديثٍ لنا. أذكرُ كيف أني نصحته بزيارةِ ماخورٍ جيد - والتعبير المشمئز الذي رسمه على وجهه عندما نطقتُ هذا الاقتراح، " ماذا! أنا، المتزوج، أعاشر حفنةً من العاهرات القذرات؟ ". وكل ما استطعتُ أن أقوله كان: " لسنَ **جميعاً** قذرات! "

ولكن المثير للشفقة في الأمر، الآن وأنا آتي على ذِكرِه، كان الطريقة الرصينة، التي توسَّلَ بها إليَّ، عند فراقنا، كي أخبره بأيِ فكَرة تخطر على بالي لمساعدته... أي شيء مهما كان. وأردتُ أن أقول "اقطعه! "

ومرَّت الساعة. بالنسبة إليه كانت مدَّةَ الساعة تعادلُ خمس دقائق. وأخيراً نهضتُ واتجهتُ نحو بابه. أردتُ أن أخبَّ قاطعاً العراء المصقع.

دُهشتُ إذ وجدته في انتظاري. كان جالساً متشابك اليدين وتستقرّان على أعلى طاولةِ المكتب، وعيناه تتركزان على نقطةٍ في الأبدية. كانت حزمةُ العيِّنات التي تركتها على الطاولة مفتوحة. وأبلغني أنه قرَّرَ أن يطلبَ تفصيل بذلة له.

قال " لستُ مستعجلاً عليها ؛ لستُ بحاجةٍ إلى أي ملابس جديدة "

" إذن، لا تشترِ واحدة. أنت تعرف أني لم آتِ إلى هنا لكي أبيعك بذلة "

قال " أنت تعلم أنك ربما الشخص الوحيد الذي نجحت في إقامة حديث معه. في كل مرة أراك أتفاءلُ... بماذا توصيني هذه المرة؟ أقصد في مجال الأدب. آخر كتاب كان " أبلوموف "، أليس كذلك؟ لم يترك عندي أثراً يُذكر "

سكتَ، لا ليُصغي إلى ما لديّ من جواب أُدلي به، بل لكي يستجمعَ زخمه.

" منذ أن اجتمعت بي آخر مرة وأنا أُقيمُ علاقةً مع إحداهنّ. هل يفاجئك هذا ؟ نعم، فتاة صغيرة، صغيرة جداً، وشبقة حتى أخمصها. لقد استنزفتني. ولكن ليس هذا ما يزعجني - بل زوجتي. إنّ معاملة زوجتي لي تُعذِّبني. أكادُ أرغبُ في القفز من جلدي "

حين لاحظَ الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجهي أضافَ: "هذا ليس مضحكاً أبداً، أؤكّدُ لك "

رنَّ جرس الهاتف. أصغى بانتباه. ثم بعد أن اكتفى من قول نعم، لا ، أعتقدُ ذلك، إذا به فجأةً يصرخُ في المهتاف: " لا أريد شيئاً من مالك القذر. فليبحث عن شخص آخر ليدافع عنه "

قال " تصوَّر أنه يحاولُ أن يرشوني "، وضرب السماعة " وهو قاضٍ، ولا أقلّ. وشخصية هامة، أيضاً "، وتمخَّطَ بحيوية " حسن، أين كنا ؟ "، ونهضَ واقفاً، " ما رأيك في تناول لقمة؟ الحديث يكون أفضل مع الطعام والشراب، ألا تظن؟ "

twitter @baghdad_library

نادينا على سيارة أجرة وانطلقنا إلى المربع الإيطالي الذي يتردَّد عليه. كان مكاناً أليفاً، يفوحُ برائحةٍ قويةٍ من مزيجِ الخمر، ونشارة الخشب، والجبن. وكان أيضاً مهجوراً.

بعد أن طلبنا الطعام قال: "لا أظنكَ تمانع إذا تحدَّثتُ عن نفسي، أليس كذلك؟ أعتقد أنَّ هذه هي نقطة ضعفي. حتى وأنا أقرأ، حتى وإنْ كان كتاباً جيداً، لا أستطيع إلا أنْ أفكِّر في نفسي، في مشاكلي. وهذا لا يعني أني أعتقد أني شخصيةٌ هامة جداً، أنت تفهم. إنني ممسوسٌ، لا أكثر"

ثم يتابعُ قائلاً " أنت أيضاً ممسوس، ولكن بطريقةٍ صحّيةٍ أكثر. في الواقع إني منهمك بنفسي وأكره نفسي. أمقتها مقتاً حقيقياً، أؤكد لك. ولا يمكن أن أشعر هكذا حيال أي كائنٍ إنساني آخر. إنني أعرف نفسي معرفةً كُلّية، وتفكيري في ذاتي، وفي كيف يجب أن أبدو في عيون الآخرين، يرعبني. إنني أتَّصِفُ فقط بمزيّةٍ واحدة: صدقي. بل إني حتى لا أصدِّق هذه الصفة... إنها سِمةٌ غريزيّة صِرف. نعم، أنا صادق مع الزبائن - وصادق مع نفسي "

قاطعته " لعلَّكَ صادقٌ مع نفسك، كما تقول، ولكن من الأفضل لك أن تكون أكثر سماحة. أقصد، **مع نفسك**. إذا كنتَ غير قادرٍ على أن تُعاملَ نفسك بكياسة فكيف تتوقَّع من الآخرين أن يعاملوك هكذا ؟ "

أجابَ على عجل " ليس من طبعي أن أحملَ مثل هذه الأفكار. أنا تطهُّريّ منذ زمن بعيد. تطهُّريّ منحطّ، أؤكد لك. المشكلة هي أني لستُ منحطاً كفاية. أتذكر ذات مرة حين سألتني إن كان قد سبق لي أن قرأتُ شيئاً للمركيز دو ساد ؟ حسن، لقد حاولتُ، لكنه أضجرني حتى الموت. لعلَّه شديد الفرنسيّة بالنسبة إلى ذوقي. لا أدري لماذا يُطلقون عليه لقب المركيز " **المقدَّس** "، أتدري أنت؟ "

حينئذٍ كنا قد اختبرنا مذاق الكيانتي وامتلأنا حتى آذاننا بالسباغيتي. كان للنبيذ تأثيرٌ رشيق. كان في وسعه أن يشرب الكثير منه دون أن يفقد وعيه. في الواقع، كانت تلك هي إحدى مشاكله - عجزه عن الإفلات من نفسه، حتى وهو تحت تأثير الخمر.

قال، وكأنه خمّنَ أفكاري، مُشيراً إلى أنه ذهنيٌّ قلباً وقالباً، "الذهنيُّ هو الذي يستطيعُ أن يجعل حتى إيره يفكّر. ها أنتَ تضحك من جديد. لكنَّ الأمر مأساويّ. إن الفتاة الصغيرة التي تحدَّثت عنها - تعتقد أني ناكحٌ عظيم. أنا لستُ كذلك. بل هي كذلك ؛ إنها ناكحةٌ حقيقية. أما أنا، فأنكحُ بعقلي. وكأني أجري استجواباً، ولكن بأيري وليس بعقلي. يبدو هذا سخيفاً، أليس كذلك؟ هو ذلك أيضاً. لأني كلما نكحتُ يزدادُ تركيزي على نفسي. وبين حينٍ وآخر يحدثُ ما يشبه العودة إلى وعيي - أقصد، معها - وأتساءلُ مَنْ يوجد على الطرف المقابل. لابد أنَّ ذلك من الأثر المتخلِّف عن ممارسة الاستمناء. هل تتابعُ ما أقول؟ فبدلَ أن أفعله بنفسي يتولّى شخصٌ آخر فعله لي نيابةً عني. وهذا أفضل من الاستمناء، لأنك تصبح حتى أكثر انفصالاً. والفتاة، طبعاً، تقضي وقتاً ممتعاً جداً. إنها تستطيع أن تفعل ما تشاء معي. أنت تعرفُ التعبير الشائع - كُلّي آذانٌ صاغية. حسن، أنا كُلّي عقلٌ منتبه ؛ عقلٌ موصولٌ به أير، إذا صحّ تعبيري هذا.. بالمناسبة، أحياناً أرغبُ في أن أسألك عن نفسك. كيف تشعر وأنت تفعل... ما هي ردود فعلك... وما إلى ذلك. وهذا لا يعني أنك بهذا تساعدني. إنه مجرد فضول "

فجأةً غيَّرَ الموضوع. أراد أن يعرف إن كنتُ قد كتبتُ شيئاً بعد. وعندما قلت كلا، أجاب: " أنتَ تكتبُ الآن، لكنك لا تعي ذلك. إنك تكتبُ طوال الوقت. ألا تدركُ هذا ؟ "

twitter @baghdad_library

هتفتُ، وقد دُهشتُ من هذه الملاحظة:

" تقصد **أنا** – أم كل إنسان؟ "

" طبعاً لا أقصد **كل إنسان**! أنا أقصد **أنت، أنت** ". أصبحَ صوته أكثر حِدَّة وفظاظة " أنت قلت لي ذات مرة أنك تودُّ أن تكتب. حسن، متى تتوقَّع أن تبدأ؟ ". سكتَ لكي يتناول ملء فمٍ من الطعام. ثم تابع الكلام، ولا يزال يزدرد. " لماذا تعتقد أني أتكلَّم معك بهذه الطريقة؟ ألأنك مستمعٌ جيد؟ أبداً! أنا أستطيع أن أُفضي بما في قلبي إليك لأني أعلمُ أنكَ غير مهتم بصورة حيوية. لستُ أنا، جون ستايمر، مَنْ يُثيرُ اهتمامك، بل ما أقول، أو الأسلوب الذي أقوله به. ولكن أنا مهتمٌ بك **أنت**، حتماً. فرقٌ كبير "

أخذ يمضغُ قليلاً في صمت.

ثم تابعَ " إنك تقريباً مُعقَّدٌ مثلي. أنت تعلمُ هذا، أليس كذلك؟ إنني متلهِّفٌ لأعرفَ ما الذي يدفعك إلى الفعل، خاصةً واحد من نمطك. لا تقلق، لن أحقق معك لأني أعرفُ مسبقاً أنك لن تعطني الأجوبة الصحيحة. أنت تقاتلُ شبحاً. وأنا، أنا محام. وعملي هو أن أعالج القضايا. أما أنت، لا أستطيع أن أتخيَّل مع ماذا تتعامل، إلا إذا كان مع الهواء "

هنا أغلقَ فكَّيه كسمكة بطلينوس، راض بالمضغ والابتلاع بعض الوقت. وسرعان ما قال " لديّ رغبةٌ قويةٌ في دعوتك لمرافقتي بعد ظهر هذا اليوم لن أعود إلى المكتب. سأذهب لأقابل تلك الفتاة التي أخبرتُك عنها. فلم لا تأتي؟ يمكنك أن تُملي بصركَ منها، وهي سهلةُ المعشر. أحب أن أراقبَ ردود فعلك ". سكتَ برهةً ليرى كيف أتقبَّل العرض. ثم

أضاف " إنها تُقيمُ في لونغ أيلند. المسافة طويلة قليلاً، ولكن الأمر يستأهل. سوف نأخذ معنا بعض النبيذ وبعض الستريغا. إنها تحب المشروبات. ما رأيك؟ "

وافقتُ. مشينا حتى المرآب حيث يحفظ سيارته. واستغرقَ منه إزالة الصقيع عنها بعض الوقت. ولم نكن قد سرنا إلاّ مسافة قصيرة حين بدأتْ الأمورُ تتوالى. فمع محطات التوقُّف في المرائب وورش التصليح لابد أنَّ الخروج من حدود المدينة استغرق منا ما يُقاربُ الثلاث ساعات. حينئذٍ كنا قد تجمَّدنا من شدَّة الصقيع. وكان ما يزال أمامنا أن نقطع مسافة ستين ميلاً وقد حلَّ الظلام.

حالما بلغنا الطريق العامة توقَّفنا مراتٍ عدَّة لكي ندفئ نفسينا. وبدا أنه معروفٌ في كل موقع توقفنا عنده، وكان يُعامَل دائماً باحترام. وقد شرح لي، أثناء انطلاقنا، كيف عقد صداقته مع هذا ومع ذاك. قال " إنني لا أتولى أي قضية إلا إذا كنتُ واثقاً من أني سأربحها "

حاولتُ أن أستدرجه للتحدُّث عن الفتاة، لكنَّ ذهنه كان مُنصبّاً على أمورٍ أخرى. والغريب في الأمر أنَّ الموضوع الذي تبوَّأ ذهنه في تلك اللحظة كان الخلود. كيف يشعر المرءُ وهو في الحياة الآخرة، أراد أن يعرف، إذا كان المرء يفقد شخصيته عند الموت؟ كان مقتنعاً أنَّ حياةً واحدةً هي مدةٌ قصيرةٌ جداً لكي يحلّ المرءُ خلالها مشاكله. قال " إنني لم أبدأ بعد بعيش حياتي، وها أنا أقتربُ من سن الخمسين. على المرء أن يعيشَ حتى يبلغ المائة والخمسين أو المائتين، لكي يُحقِّق أي شيء. إنَّ المشاكل الحقيقية لا تبدأ إلا بعد أن تنتهي من أمر الجنس ومن كل المشاكل الماديّة. في الحادية والعشرين اعتقدتُ أني أعرفُ أجوبة الأسئلة

twitter @baghdad_library

كلهـا. والآن أشـعـرُ أني لا أعـرفُ أي شيء عن أي شيء. وها نحن، ذاهبان لمقابلة فتاةٍ صغيرةٍ شبقة. ما معنى هذا؟ " أشعلَ سيجارة، واستنشقَ منها مرةً أو مرتين ثم رماها. بعد ذلك مباشرة أخرج سيجاراً ثخيناً من جيب صدره.

" تريد أن تعرف شيئاً عنها. ولكن أولاً سأقولُ لك ما يلي - لو أني أتحلّى بالشجاعة اللازمة لاختطفتُها وانطلقتُ بها إلى المكسيك. لا أدري ماذا سأفعل هناك. ربما سأبدأ حياةً جديدة. ولكن هذا ما يشغلُ بالي... لكني لا أملك الشجاعة الكافية لفعله. أنا أخلاقيّ جبان، هذه هي الحقيقة. ثم إني أعلمُ أنها تضحك عليّ. في كل مرة أنالها أتساءلُ مَنْ الذي سيحلُّ محلي في السرير بعد خروجي مباشرةً. هذا لا يعني أني غيور - كل ما في الأمر أني لا أحبُّ أن أتعرَّضَ للخديعة. أنا فعلاً مغفَّل. في كل شيء ما عدا القانون أنا مغفَّل تماماً "

تابعَ قيادته وهو على هذه الحال بعض الوقت. لا شك في أنه كان يحبُّ أن يُرهِقَ نفسه. واسترخيتُ في مقعدي مستمتعاً.

بعد ذلك اتَّخذ مساراً جديداً. " أتعرف لماذا لم أصبح كاتباً؟ "

أجبتُ، وقد أصابني الذهول لأنه لم يفكِّر في هذا الأمر قط، " كلا "

" لأني اكتشفتُ فوراً تقريباً أنه ليس لدي أي شيء أقوله. وباختصار، أنا لم أعش أبداً؛ لم أخاطر بشيء؛ لم أكتسب شيئاً. ما هو ذلك القول الشرقي؟ يقول " الخوف هو ألاّ تبْذُر بسبب وجود الطيور". وأولئك الروس المجانين الذين أعطيتني مؤلفاتهم لأقرأها، كلهم لديهم خبرة في الحياة، حتى وإنْ لم يتزحزحوا من مساقط رؤوسهم. إذ لكي تحدث الأمور يجب أن يتوفَّرَ مناخٌ مناسب. وإذا ما غاب المناخ، تبتكر

غيره. أي، إذا كنتَ عبقرياً. أنا لم أبتكر أي شيء. إنني أشارك في اللعب، ألعبُ حسب الأصول. والجواب على هذا، إن كنتَ لا تعلم، هو الموت. نعم، إنني عاقل وميت منذ الآن. ولكن دعكَ من هذا الآن: إنني حين أكونُ ميتاً أكثر أنكحُ بشكلٍ أفضل. تصورَّ الوضع، إن استطعت! في آخر مرة ضاجعتها، أقول هذا فقط لأصوِّر لك الأمر، لم أزعج نفسي بخلع ملابسي. وصعدتُ إليها - بالمعطف، والحذاء، وكل شيء. بدا ذلك طبيعياً تماماً، إذا أخذنا بعين الاعتبار الحالة الذهنية التي كنتُ فيها. ولا هي انزعجتْ البتة من ذلك. كما قلتُ، ارتقيتُ السرير معها وأنا بكامل ملابسي وقلتُ: " لمَ لا نستلقي هكذا ونتناكح حتى الموت؟ ". فكرةٌ غريبة، ما رأيك؟ خاصةً حين تخرج من محامٍ محترمٍ ذي نَسَبٍ وما إلى ذلك. على أي حال، حالما خرجت هذه الكلمات من فمي قلتُ في نفسي " أيها المغفَّل! أنت ميّتٌ أصلاً. لِمَ الادِّعاء؟ " ما رأيك في هذا؟ قلتُ هذا واستسلمتُ... للنكاح أقصد "

هنا رميتُهُ بما يزعجه. سألته، هل سبق له أن تصورَّ نفسه يملكُ أيراً... ويستخدمه!... في الحياة الآخرة؟

هتفَ " أتسألني؟ إنَّ هذا بالضبط ما يقلقني، هذه الفكرة بالذات. لا أحبّ أبداً أن أتخيَّل حياةً أبدية مع أيرٍ ممتدّ معلّق بعقلي. وهذا لا يعني أني أريد أن أعيشَ حياة ملاك ؛ أُريدُ أن أكونَ نفسي، جون ستايمر، مع كل مشاكلي اللعينة. أريد وقتاً أفكِّرُ خلاله في الأمور... ألف عام أو أكثر. يبدو كلامي أحمق، أليس كذلك؟ ولكن هكذا خُلقتُ. لقد توفَّرَ للمركيز دو ساد الكثير من الوقت، وقلّبَ التفكير في أشياء كثيرة، يجب أن أعترف بهذا، ولكن لا أتّفق مع النتائج التي توصَّلَ

twitter @baghdad_library

إليـهـا. مـهـمـا يكن، مـا أريدُ أن أقـوله هو - لـيس أمـراً فظيـعـاً جـداً أن تقـضي حيـاتك في السجن... إذا كـان لديك عـقل فعِّل. الأمـر الفظيع هو أن تجـعل من نفـسك سـجـيناً. وهذا مـا يفـعله مُـعظمنا - نجـعل أنفـسنا سجناء بأيدينا. وفي كل جيل بالكاد توجد حفنة من الرجال تستطيع أن تهـرب. وحالما ترى الحيـاة بعين صـافـيـة يصـبح كل شيء مـهـزلة. مـهـزلة كـبرى. تصـوَّر رجلاً يقـضي حيـاته وهـو يدافـع عن الآخرين أو يقنعـهم! إنَّ مهنة القانون هي جنونُ صرف. لا أحد تتحسَّن حياته مثقال ذرة لأنَّ لدينا قـوانين. كلا، إنهـا لعـبة حـمقـاء، نبـجِّلهـا بخلع اسمٍ طنَّانٍ عليـهـا. غداً قـد أجـد نفـسـي مـتـبـوِّءاً مـقـعـد القـضـاء. قـاض، ولا أقـلّ. فـهـل سـأكـفّ عن التـفـكير في نفـسي لأني أصـبحت قـاضـيـاً؟ هل سـأكـون قـادراً على تغـيير أي شيء؟ لا شيء على الإطلاق. سـوف أنخـرط فـي اللعـبـة مـن جـديد... لعـبـة القـضـاء. لهـذا تراني أقـول إننا منهـزمـون منذ البـداية. إنـني أعـي حقـيقة أنَّ لكلٍ منا دوراً يلعـبه وأنَّ كل مـا يسـتطيع أي إنسـان أن يفـعله، افـتـراضـاً، وهـو أن يؤدي دوره باذلاً فـي ذلك أقـصى جـهـده. حسن، إنَّ دوري لا يعـجبني. وفكرة لعب دور لا تعـجبني. حتى وإن كـانت الأدوار قابلة للتبادل. أتفهمني؟ أعتقد أنه حان الوقت لكي نوجد أسلوباً جديداً في التـعـامل، بُنيـة جـديدة. يجب التـخلُّص من قـاعـات المحـاكم، ومن القـوانين، والشـرطة، والسـجـون. إنه جنون، هذا المجـال كله. لهـذا تجـدني أنكحُ حتى الهـلاك. وهذا مـا سـتـفـعله أنت أيضـاً، إذا نـظرت إلى الوضع كـمـا أفـعـل". وفـجـأةً سكت، وأخذ يغـمـغمُ بـكلمـات مـخـتـلطة ويفـرقـع كالألعاب النارية.

بعـد فـتـرة من الصـمت أبلغني أنـنا سنصل قـريبـاً. " تذكَّر، تصـرَّف

على راحتك. افعل أي شيء، قُل أي شيء تشاء. لن يمنعك أحد. إذا رغبتَ في خرقها، لا مانع عندي. ولكن لا تجعلها عادة! "

لدى دخولنا الممر وجدنا المنزل غارقاً في الظلام. كانت هناك ملاحظة مشبوكة بدبوس على مفرش طاولة غرفة الطعام. من " بِل "، الناكحة الكبرى. لقد ملّت انتظارنا، واعتقدت أننا لن نصل، وما إلى ذلك.

سألته " أين هي، إذن؟ "

" لعلّها ذهبت إلى المدينة لتقضي الليل مع صديق "

يجب أن أقول إنه لم يُبدِ الكثير من القلق. وبعد أن نَخَرَ قليلاً... "العاهرة كذا " و " العاهرة كيت "... وذهب إلى البرّاد ليرى ما يحتويه من بقايا.

قال " يمكننا أيضاً أن نقضي الليل هنا. أرى أنها تركت لنا بعض البقول المطبوخ ولحم الخنزير البارد. هل يقنعك هذا بالبقاء؟ "

بينما كنا نمسح البقايا أبلغني أنه توجد غرفة مريحة في الطابق العلوي تحتوي سريرين. وقال " والآن يمكننا أن نتبادل حديثاً ممتعاً "

كنت على أتمّ الاستعداد للإيواء إلى السرير ولكن ليس لتبادل حديثٍ حميم. أما بالنسبة إلى ستايمر، فقد بدا أنَّ لا شيء قادراً على إبطاء ماكينة عقله ؛ لا الصقيع ولا الشرب ولا التعب نفسه.

كان يمكن أن أغوص في النوم فوراً حالما يلمس رأسي الوسادة لو لم يفتح ستايمر النار على طريقته. وفجأةً وجدتني في حالة يقظةٍ تامّةٍ وكأني تناولت جرعةً مضاعفةً من البنزدرين[١٤]. كلماته الأولى، التي نطقها بنبرة صوت ثابتة، متوازنة، كهربتني.

" لقد لاحظت أنَّ لا شيء يدهشك كثيراً. حسن، إليك المزيد من هذا... "

twitter @baghdad_library

هكذا بدأ...

" إنَّ أحد الأسباب التي تبقيني محامياً جيداً يعود إلى أني أيضاً أحملُ شيئاً من صِفات المجرم. أعتقد أنَّ من المستحيل عليك أنْ تتصوَّرني قادراً على التخطيط لقتل شخص آخر، أليس كذلك؟ حسن، أنا قادر على ذلك. لقد قرَّرت أن أتخلَّص من زوجتي. في هذه اللحظة، لست متأكداً بعد. والأمر لا صلِة له بـ " بِل ". كل ما في الأمر أنها تضجرني حتى الموت. لم أعد أطيق الحياة معها. منذ عشرين عاماً لم أتبادل معها كلمة واحدة عقلانيّة. لقد أوصلتني إلى الحد الأخير، وهي تعلم ذلك. وتعلم كل شيء عن " بل " ؛ لم يكن بيننا مرةً أي أسرار. إنَّ كل ما يهمها هو ألاّ يتسرَّب الخبر. إنها زوجتي، لعنها الله! التي حوَّلتني إلى مُستمنٍ. لقد بلغ سأمي منها، منذ البداية تقريباً، درجةً باتَ عندها مجرَّد التفكير في مضاجعتها تثير اشمئزازي. صحيح أنه كان يمكن أن نتَّفق على الطلاق، ولكن ما الذي يُجبرني على إعالة كتلة من الطين طوال البقية الباقية من حياتي؟ منذ أن وقعتُ في حب " بل " أُتيحَ لي أن أفكر قليلاً وأحفظ. إنَّ هدفي الوحيد هو أن أغادر البلد، إلى مكانٍ بعيد، وأبدأ الحياة من جديد. بماذا، لا أعلم. ليس بمهنة القانون، حتماً. أريد العزلة وأريد أن أقوم بأقلّ قدرٍ من العمل "

أخذَ نَفَسَه. لم أُدلِ بأي تعليق. وهو لم يتوقَّع ذلك.

" بصراحة، كنت أَتساءلُ إنْ كان في وسعي أن أغريك بالانضمام إليّ. سوف أعتني بك ما دام هناك نقود، وهذا مفهوم. لقد فكَّرت في الأمر وأنا أقود السيارة. تلك الملاحظة من " بل " - أنا الذي أمليتُ رسالتها. لم أكن أنوي أن أُغيِّرَ الأمورَ عندما بدأنا، صدِّقني أرجوك.

ولكن كلما تحدَّثنا ازداد شعوري بأنك الشخص المناسب الذي أرغبُ في الاحتفاظ به، إذا ما قمتُ بالقفزة "

ترددَ لحظة، ثم أضاف: " يجب أن أخبرك عن زوجتي لأنَّ... لأنَّ العيشَ في مسكنٍ ضيِّق مع شخص وتحتفظ بسرٍ من ذلك النوع يعني التعرُّض لضغطٍ لا يُطاق "

" ولكن أنا أيضاً لديّ زوجة! "، هكذا وجدتني أهتف، " على الرغم من أني لا أفيدها بشيء، ولا أرى أني أخدعها لمجرد الفرار إلى مكانٍ ما معكَ أنت "

قال ستايمر بهدوء " فهمت، لقد فكَّرتُ في هذا أيضاً "

" إذن؟ "

" أستطيع أن احصل لك على طلاق بسهولة كبيرة وأضن لك ألاّ تدفع أي نفقة. ما رأيك في هذا؟ "

أجبت " لست مهتماً بهذا، حتى ولو دبَّرتَ امرأةً أخرى لي. لديّ خططي الخاصة "

" لا أظنك تعتقد أني شاذ، أم ماذا؟ "

" لا، أبداً. أنت شاذ، حتماً، ولكن ليس بذلك المعنى. وبصراحة، أنت لستَ من النوع الذي أريد أن أصاحبه مدة طويلة. ثم إنّ الأمر كله شديد الغموض. إنه أشبه بكابوس "

تقبَّل هذا بهدوئه الثابت المعهود. وعلى الأثر، شعرت بأني مضطرٌ إلى قول المزيد، فطلبت أن أعرف ماذا يتوقَّع مني، وماذا يأمل أن يحصل من مثل تلك الصداقة؟

لم يكن لديّ أدنى خوف من الاستسلام إلى تلك المغامرة المجنونة،

twitter @baghdad_library

طبعاً، ولكن رأيت أنه من الكياسة أن أتظاهر بأني أستدرجه إلى الكلام. ثم إني كنت فعلاً تواقاً إلى معرفة فكرته عن دوري في ذلك.

تشدَّقَ قائلاً " من الصعب أن أعرف من أين نبدأ. لنفرض... أقصد، مجرد فرض... أننا عثرنا على مكانٍ جيدٍ للاختفاء فيه. كوستاريكا، مثلاً، أو نيكاراغوا، حيث الحياة سهلة والمناخ الممتع. ولنفرض أننا عثرنا على الفتاة التي تعجبك... ليس صعباً تصورُ ذلك، أليس كذلك؟ إذن... لقد أخبرتني أنك تحب... أنك تنوي... أن تكتب ذات يوم. أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تفعل. ولكن لدي أفكاراً، الكثير منها، أؤكد لك. أنا لم أكن محامياً جنائياً من فراغ. أما أنت، أنت لم تقرأ دوستويفسكي وكل أولئك الروس المجانين الآخرين من فراغٍ أيضاً. هل بدأتَ تفهمُ المغزى؟ اسمع، لقد مات دوستويفسكي، انتهى أمره. ومن هنا نبدأ. من دوستويفسكي. إنه يتعامل مع الروح ؛ ونحن سنتعامل مع العقل "

كان يسكت من جديد. قلت " تابع، كلامك ممتع "

استأنف قائلاً " حسن، سواء أكنتَ تعلم أم لا، لم يعُد في العالم ما يُسمّى بالروح، ولهذا تجد صعوبةً في البدء، ككاتب. كيف يمكن للمرء أن يكتب عن أناسٍ لا أرواح لهم؟ أما أنا فأستطيع. إنني أعيش مع كل هؤلاء الناس، وأعمل معهم، وأدرُسُهم، وأحلّلهم. ولا أقصد بهم زبائني فقط. فمن السهل أن تنظر إلى المجرمين كأشخاص بلا أرواح. ولكن ماذا تقول إذا أخبرتك أنه لا يوجد في العالم إلا المجرمين، أينما نظرت؟ ليس من الضروري أن يكون المرء مذنباً بجريمةٍ ما ليكون مجرماً. ولكن على أي حال، إليك ما أفكّر فيه... أنا أعلم أنك قادرٌ على الكتابة. وزيادة

على ذلك، لا مانع عندي مطلقاً أن يتولّى شخص آخر تأليف كتبي. وبالنسبة إليك سوف يستغرق منك تجميعُ المواد الأوليّة التي لمتُها حيوات عديدة. فما الداعي لهدر مزيدٍ من الوقت؟ آه نعم، نسيتُ أن أذكرَ شيئاً... ربما يُخيفك. وهو ما يلي... سواء أنُشرتْ الكتب أم لم تُنشَر سيان عندي. إنني أريد أن أخرجها مني، لا أكثر. الأفكار عالمية: لا أعتبرها ملكي الخاص... "

تناول جرعة من الماء المثلج من إبريق موجود بجوار السرير.

" لعلّك ترى في هذا شيئاً غريباً. لا تحاول أن تتخذ قراراً فورياً. فكِّر في الأمر! انظر إليه من كل زاوية. لا أريدك أن تقبله ومن ثم تفتر همّتك بعد شهر أو شهرين. ولكن دعني أُلفت انتباهك إلى شيء. إذا ما استمريت على هذا المنوال نفسه أكثر من ذلك لن تواتيك الشجاعة على تحقيق الانطلاق. لا عذر لك في مواصلة أسلوبك في الحياة مدةً أطول. كل ما في الأمر أنك مستسلمٌ لقانون الخمول "

تنحنح، وكأنه شعر بالارتباك من ملاحظته. ثم تابعَ بوضوحٍ وسرعة.

" أوافقك على أني لست الرفيق المثالي لك. إنَّ بي كل ما تتخيّله من عيوب وأنا أناني بشكل كامل، كما قلتُ سابقاً مراتٍ عديدة. لكني لستُ حسوداً أو غيوراً، أو حتى طموحاً بالمعنى المعتاد. وبعيداً عن ساعات العمل - ولا أنوي أن أرهِقَ نفسي به - سوف تبقى وحدك معظم الوقت، حرّاً في أن تفعل ما تشاء. معي ستكون وحيداً، حتى وإن ضمّتنا غرفة واحدة. لا يهمني أين نعيش، ما دام ذلك على أرضٍ أجنبية. ومن الآن فصاعداً ستكون حياتي حلماً. سوف أنفصل عن

twitter @baghdad_library

الناس. لا شيء قادراً على إغوائي بالمشاركة في اللعبة. لا يمكن لأي شيء ذي قيمة، في نظري على الأقلّ، أن يُنجَزَ في الوقت الحالي. أنا أيضاً قد لا أنجز أي شيء، لأكون صادقاً. ولكن على الأقل يُرضيني أن أفعل ما أؤمن به... اسمع، لعلّي لم أعبِّر بشكلٍ شديد الوضوح عمّا أعنيه بذلك الشيء عن دوستويفسكي. إنَّ الأمرَ يُغري بالاسترسال، إذا ما أحسنتَ الإصغاء إليّ. وكما أراه، فمع وفاة دوستويفسكي ولجَ العالمُ مرحلةً جديدةً كلّياً من الوجود. لقد اختصر دوستويفسكي العصرَ الحديث بقدرِ ما فعل دانتى بالعصور الوسطى. والعصر الحديث - وهي تسميةٌ مغلوطةٌ، بالمناسبة - كان مجرد مرحلةً انتقالية، فترة من استرداد الأنفاس، استطاع الإنسان أثناءها أن يتواءمَ مع موت الروح. إننا منذ الآن نعيش ما يشبه الحياة القمرية الغريبة الأطوار. إنَّ المعتقدات، والآمال، والمبادئ، والقناعات التي دعمت حضارتنا زالت. ولا يمكن أن تُستعاد. كن واثقاً من هذا في الوقت الحاضر. كلا، منذ الآن وإلى وقتٍ طويل آتٍ سوف نعيش بالعقل. وهذا يعني الدمار... الدمار الذاتي. فإذا سألتني عن السبب أستطيع أن أقول فقط - لأنَّ الإنسان مقدَّر له أن يعيشَ بكامل كيانه. لكنَّ فطرة هذا الكيان ضاعت، نُسيَتْ، دُفِنَت. إنَّ هدف الحياة على الأرض هو اكتشاف الإنسان لكيانه الحقيقي - وليكون أهلاً له! ولكننا لن نخوضَ في هذا. الأمر منوط بالمستقبل البعيد. المشكلة هي - ماذا نفعل حتى ذلك الحين. وهنا يأتي دوري. دعني أختصر الأمر لك قدر الإمكان... إنَّ كل ما خنقناه، أنت، وأنا، وكلنا جميعاً، منذ بدء الحضارة، يجب أن يعود إلى الحياة. يجب أن نرى أنفسنا كما نحن. وما نحن إلا النِتاج الأخير لشجرةٍ لم تعُد قادرةً على

طرحِ ثمار. لذلك، يجب أن نُدفَن تحت الأرض، كالبذور. لكي ينبت شيء جديد، شيء مختلف. والأمر ليس بحاجة إلى الوقت، وإنما إلى أسلوب جديد في النظر إلى الأشياء. وبعبارة أخرى، إلى شهية جديدة للحياة. وواقع الأمر هو أنه لا يتوفَّر لنا إلا ما يشبه الحياة. نحن أحياء فقط في الأحلام. والعقل فينا يرفض أن يُقتل. العقلُ صلبٌ - وأشدُّ غموضاً من أكثرِ أحلامِ اللاهوتيين جموحاً. ولعلّ من الممكن أنَّه لا يوجد هناك إلا العقل... ليس العقل الصغير الذي نعرفه، حتماً، وإنما العقل العظيم الذي نسبح فيه، العقل الذي ينفذ في الكون كله. ودعني أذكِّرك بأنَّ دوستويفسكي كان يتمتَّع ببصيرةٍ مُذهلةً لا تنفذ فقط في روح الإنسان بل في عقل الكون وروحه. لهذا السبب من المستحيل التخلُّص منه، على الرغم من أنَّ، كما قلت، ما يمثّله قد فات أوانه "

هنا كان لابد أن أقاطعه، قلت " عذراً، ولكن ما الذي كان يمثّله دوستويفسكي، في رأيك؟ "

" لا يمكنني أن أجيب عن هذا بكلماتٍ قليلة. لا أحد يستطيع. لقد مُنِحنا إلهاماً، والأمر يعود إلى كل منا لكي يستفيد منه. البعض يهبُ نفسه للمسيح. يمكن للمرء أن يهب نفسه أيضاً لدوستويفسكي. إنه يوصلك إلى نهاية الدرب... هل هذا يعني لك أي شيء؟ "

" نعم و لا "

قال ستاير " بالنسبة إليّ هو يعني أنه ليست هناك إمكانيات اليوم كما يتصورَّ الناس ؛ إنه يعني أننا مُضلَّلون تماماً - في كل شيء. لقد اكتشف دوستويفسكي الساحة مقدَّماً، ووجد الطريق مسدودةً عند كل المنعطفات. كان رجلاً حدودياً، بالمعنى العميق للكلمة. تنقَّلَ بين المواقع،

twitter @baghdad_library

وقف عن كل نقطة خطرة، وواعدة، ووجد أنَّ لا قضيّة لنا هناك، وهذا صحيح. وأخيراً لجأ إلى الكيان الأسمى "

" لا، إنه ليس يائساً على الإطلاق ؛ إنه واقعي – بمفهوم الإنسان المتفوِّق. إنَّ آخر ما كان يمكن لدوستويفسكي أن يؤمن به هو بآخرةٍ كالتي يعدنا بها رجال الدين. إنَّ الأديان كلها تعطينا حبوباً ملبَّسة بالسُّكر لنبتلعها. إنها تريدنا أن نبتلع ما لا يمكننا ولا نريد أن نبتلعه – الموت. إنَّ الإنسان لن يقبل أبداً فكرة الموت، ولا أن يتصالح معها... لكني أخرجُ عن مسارِ الموضوع. أنت تتكلَّم عن مصير الإنسان لن يقبل أبداً الحياة دون نقاش إلى أن يهدِّده الفناء. بل أقول إنه كان يؤمن، ويعتقد بعمق، بأنَّ الإنسانَ يمكن أن يحصلَ على الحياةِ الأبديةِ إذا رغِبَ في ذلك من أعماق قلبه وكيانه. لا موجبَ هناك، بأي حال، للموت. إننا نموت لأننا نفتقر إلى الإيمان بالحياة، لأننا نرفض أن نستسلمَ استسلاماً كاملاً للحياة... وهذا يوصلني إلى الحاضر، إلى الحياة كما نعرفها اليوم. أليس جليّاً أنَّ كاملَ أسلوبِ حياتنا هو تكرسٌ للموت؟ إننا بالجهود البائسة التي نبذلها لنحافظ على أنفسنا، لنحافظ على ما أبدعناه، نسبِّب موتنا. إننا لا نستسلم للحياة، ونكافح لنتجنَّب الموت ؛ وهذا لا يعني أننا فقدنا إيماننا بالله بل أننا فقدنا إيماننا بالحياة نفسها. أن نعيش حياةً خطرةً، على حدّ قول نيتشه، معناه أن نعيش عُراة ودون خجل. معناه أن يضعَ الإنسانُ ثقتَه في قوةِ الحياة وأن يكفَّ عن التقاتل مع شبحٍ اسمه الموت، شبحٍ اسمه المرض، شبحٍ اسمه الإثم، شبحٍ اسمه الخوف، وما إلى ذلك. **إنه عالم الأشباح!** هذا هو العالم الذي بنيناه لأنفسنا. فكِّر في رجال الجيش، وحديثهم المستمر عن العدو ؛ فكّر في رجال الدين

وحديثهم المستمر عن الإثم والخطيئة المميتة ؛ فكِّر في أعضاء جمعية الإخاء القانونية، وحديثهم المستمر عن الغرامة والسجن ؛ فكِّر في مهنةِ الطب وحديث الأطباء الدائم عن المرض والموت، وفي معلّمينا، أكبر الحمقى قاطبة، واستظهارهم الببغائي وعجزهم المتأصل عن قبول أي فكرة إلا إذا كان عمرها مائة عام أو ألف. أما بين الذين يحكمون العالم فتجد أشدَّ المخلوقات خداعاً، ونفاقاً، وضلالاً وافتقاراً إلى المخيلة الخلاّقة يمكن تصوّرهم. أنت تتظاهر بأنك مهتمٌ بمصيرِ الإنسان. والمعجزةُ هي أنَّ الإنسانَ عزَّزَ وَهْمَ الحرية. كلا، إنَّ الطريق مسدودة، أينما تتوجه. وكل جدار، وحاجز، وعقبة تعيقنا هي من وضعنا. لا حاجة لإدخال الله في الموضوع، أو الشيطان، أو الحظ. إنَّ رب الخليقة يأخذ غفوة أثناء محاولة حلّنا للّغز. لقد سمح لنا أن نحرم أنفسنا من كل شيء ما عدا من العقل.ففي العقل تتّخذ قوة الحياة لها ملجأً. كل شيء تمّ تحليله حتى درجة العدم. ربما الآن سوف يصبحُ لخواءِ الحياة ذاته معنى، وسوف يعطينا مفتاح الحل "

ثم سكتَ، بقي ساكنَ الحركة تماماً فسحةً من الوقت، ثم نهضَ مستنداً إلى أحد مرفقيه.

" **الجانب الإجرامي من العقل**! لا أدري كيف أو أين عثرتُ على هذه العبارة، ولكنها تأسرني إلى أقصى درجة. وتصلح أن تكون عنواناً عاماً للكتب التي أنوي أن أكتبها. وكلمة مجرم بحدّ ذاتها تهزّني من الأعماق. اليوم لم يعد لها أي معنى، ومع ذلك هي أشد - ماذا أقول؟ - أشدّ الكلمات جدّية بين مفردات الإنسان. إنَّ فكرة الجريمة ذاتها مرعبة. إنَّ لها جذوراً شديدة العمق والتشابُك. وذات يوم كانت كلمة

twitter @baghdad_library

"متمرِّد " هي الكلمة الضخمة بالنسبة إليّ. ولكن حين أقول " مجرم " أجدُني في حالةِ حيرةٍ شاملة. أحياناً، أعترفُ بأني لا أعلم ماذا تعني هذه الكلمة. أو، إذا اعتقدتُ أني أعلم، أضطرُّ إلى أنْ أنظرَ إلى كامل الجنسِ البشري وكأنه وحشٌ ذو رؤوس أفعوانيّةٍ متعدِّدةٍ فظيعةِ المنظر، اسمه " **مجرم** ". أحياناً أكتبها على طريقتي الخاصة - **الإنسانُ مجرم بحق نفسه**. وهي تعني أي شيء. إنَّ ما أحاولُ أن أقوله، على الرغم من أنه مبتذل، وتافه، ومسطَّح، هو ما يلي... إذا كان هناك شيءٌ اسمه مجرم، فإنَّ الجنس البشري كله ملوَّثٌ به. لا يمكنك إزالة العنصر الإجرامي من الإنسان بإجراءِ عمليةٍ جراحيّةٍ على المجتمع. العنصر الإجراميّ هو عُضال، والعضال شيءٌ غير نظيف. الجريمة ليست فقط معاصرة للقانون والنظام، الجريمة توجد قبل الولادة، إنْ صحَّ التعبير. إنها موجودة في عمق وعي الإنسان، ولن تطرد منه، لن تُستأصل، إلى أن يولد وعي جديد. هل أوضحت فكرتي؟ إنَّ السؤال الذي أطرحه على نفسي مراراً وتكراراً - كيف توصَّلَ الإنسانُ إلى أن يعتبرَ نفسه، أو أخيه الإنسان، مجرماً؟ ما الذي دفعه إلى أن يضمرَ مشاعر الإحساس بالذنب؟ إلى أن يجعل حتى الحيوانات تشعر بالذنب؟ أو بعبارةٍ أخرى، كيف توصَّلَ إلى أن يُسمِّمَ حياته من المنبع؟ من المريح جداً أن نضع اللوم على الكهنة، ولكني لا أستطيع أن أجزمَ بأنهم يمتلكون الكثير من السلطة علينا. فإذا كنا ضحايا، فهم أيضاً كذلك. **ولكن ضحايا لمن**؟ ما الذي يعذِّبنا، شباناً وشيباً على حدٍ سواء، الحكماء والأبرياء منا؟ في اعتقادي أنَّ هذا ما سوفَ نكتشفه الآن بعد أن أصبحنا تحت الأرض؛

بعد أن صرنا عُراةً ومحرومين سوف نتمكن من تكريس أنفسنا لحلّ المشكلة الكبرى لا يُعيقنا شيء، وإلى أبد الآبدين، إذا لزم الأمر. ألا ترى أنه لا شيء آخر يفوق هذا أهمية؟ لعلّك لا ترى ذلك. ربما أنا أراه بجلاء تام بحيث أعجزُ عن التعبير عنه بإحاطةٍ كافية بالكلمات. على أي حال، هذا هو منظور عالمنا... "

هنا خرج من السرير ليعدّ لنفسه مشروباً، وسألني وهو يفعل ذلك إنْ كنتُ أتحمّل المزيد من هذا الهراء، فأومأت له برأسي إيجاباً.

تابع " كما ترى، لقد أنهيتُ كلامي. وفي الواقع ها أنا أرى الأمر بصفاء شديد من جديد، بعد أن بتُّ جاهزاً لك، وأكادُ أشعر أنَّ في استطاعتي أن أؤلّفَ الكتب بنفسي. وإذا كنتُ لم أعش لنفسي فقد عشتُ حتماً حيوات أناسٍ آخرين. ربما سأبدأ بعيشِ حياتي الخاصة عندما أباشرُ الكتابة. في الواقع، إنني منذ الآن أشعر بتعاطفٍ أكبر مع العالم، بعد أن أزحتُ كلَّ ذلك العبء عن صدري. لعلك كنتَ على حق حول كوني أكثر سخاءً مع نفسي. إنها دون شك فكرةٌ مريحة. من الداخل أنا مُدعَّم بالفولاذ. يجب أن أذوب، أن أُنمّي أليافاً، وغضاريف ولِنفاً وعضلاً. فظيع أن نتصوَّر أنَّ أي إنسان يمكنُ أن يجعل نفسه ينمو صلباً... شيء سخيف، لا تقُل لي! هذا ما ينتج من قضاء الحياة في الكفاح "

سكتَ فترةً كافيةً لتناولِ جرعةً كبيرة، ثم تابع صب الكلام.

" في الواقع، لا يوجد في العالم كله أي شيء يستحق الكفاح من أجله غير راحة البال. وكلما أحرزت الانتصار في هذا العالم هزمت نفسك أكثر. كان يسوع على حق. على المرء أن ينتصر على العالم.

twitter @baghdad_library

"تغلَّب على العالم! "، أعتقد أنَّ هذا هو تعبيره. وأنْ نحقِّق هذا، طبعاً، معناه اكتساب وعي جديد، نظرة جديدة إلى الأشياء. وهذا هو المعنى الوحيد الذي يمكنُ خلعه على الحرية. لا أحد يستطيع أن يبلغ الحرية وهو موجود في العالم. مُتْ بالنسبة إلى العالم وسوف تجد الحياة السرمدية. أعتقد أنك تعلم أنَّ مجيء المسيح كان ذا أهميةٍ عظمى بالنسبة إلى دوستويفسكي. فدوستويفسكي لم ينجح إلا في معانقة فكرة الله عبرَ تصوُّرِ إنسان-إله. لقد أنسنَ مفهوم الله، وقرَّبه منا، جعله مفهوماً أكثر، وأخيراً، على الرغم من غرابة هذا، جعله أقرب شبهاً بالله... مرةً أخرى يجب أن أعودَ إلى المجرم. إنَّ الإثمَ الوحيد، أو الجريمة التي يمكنُ للإنسان أن يقترفها، في نظر يسوع، هي الإثم ضد الروح القُدُس. هي أن ننكر الروح، أو قوة الحياة، إنْ شئت. والمسيح لم يلاحظ وجود المجرم. لقد تجاهل كل هذا الهراء هذه الفوضى، هذا التشاؤم المطلق الذي أرهق الإنسان به نفسه على مدى آلاف السنين. " مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليكن أول مَنْ يرمي الحجر! ". وهذا لا يعني أنَّ المسيح اعتبرَ أنَّ الناس كلهم خطاة. كلا، بل أننا جميعاً متشربون، مصبوغون، ملوّثون بفكرة الخطيئة. وحسب فهمي لكلماته، فنحن نختلق الخطيئة والشر بسبب شعورنا بالذنب، وهذا لا يعني أنَّ الخطيئة والشر لهما أي وجود واقعيّ بحدّ ذاتيهما. وهذا يُعيدني من جديد إلى المأزق الحالي. فعلى الرغم من كل الحقائق (truths) التي يُعلنها المسيح، فإنَّ العالمَ الآن مشوَّه، ومُشبَّع بالإثم. كل إنسان يسلك سلوك المجرم مع أخيه الإنسان. وهكذا، إذا لم نباشر بقتل أحدنا الآخر - في مذبحةٍ ساحتُها العالمُ كله - فيجب أنْ

نقبضَ على القوةِ الشيطانيةِ التي تتحكَّمُ فينا ؛ يجب أن نحوِّلها إلى قوةٍ فعَّالةٍ، صحّية، ليس فقط لتُحرِّرنا وحدنا - فنحنُ لسنا مُهمِّين كثيراً! - وإنما لتُحررّ قوة الحياة المخزونة داخلنا، حينئذ فقط سنبدأ بالعيش. وأنْ نعيشَ يعني حياةً أبدية، ولا أقلّ. الإنسان هو الذي أوجدَ الموت، وليس الله. الموت هو علامة القابليّة للعطَب، لا أكثر "

وأخذ يتكلّم ويتكلّم. ولم يغمض لي جفن حتى طلوع الفجر. وحين استيقظتُ كان قد رحل. وعلى الطاولة وجدتُ ورقةً ماليّةً بخمسة دولارات ورسالة مقتضبة يقول فيها بأنَّ عليَّ أن أنسى كل ما تحدَّثنا حوله، وأنه لا أهمية له. وأضاف " ومع ذلك إنني أطلبُ تفصيل بذلة جديدة. يمكنك أن تختار نوعية القماش نيابة عني "

وطبعاً لم أنسه كما طلبَ مني. في الواقع، لم أتمكن من التفكير في أي شيءٍ آخر على مدى أسابيع إلا " الإنسان المجرم ". أو، على حدّ قول ستايمر " الإنسان المجرم بحق نفسه "

إحدى التعبيرات الكثيرة التي خلّفها وراءه كانت تَغيْرُ عليّ على فترات، وتقول " إنسان يتخذ من العقل ملجأ ". وأعتقد أنها كانت المرة الأولى التي أناقش فيها وجود العقل كشيءٍ منفصل. وفكرة أنَّه من الممكن أنّ كلَّ شيءٍ هو عقلٌ فتنتني. بدتْ أكثر ثوريّة من أي شيء سمعت عنه حتى ذلك الحين.

أقلُّ ما يُقالُ إنَّ من الغريب حقاً أنَّ إنساناً مِنْ عيِّنة ستايمر كان يجب أن يكون ممسوساً بفكرةِ الغوص تحت الأرض هذه، باتِّخاذِ العقل ملجأً. وكلما فكرت في الموضوع ازداد إحساسي بأنه كان يحاول أن

twitter @baghdad_library

يجعل من الكون مصيدةَ فئرانٍ ضخمة، مذهلة. وبعد بضعة أشهر، وإثر طلبي منه أن يأتي لتجربة البذلة، وحين علمتُ أنه قد توفي متأثراً بنزيف في الدماغ، لم أفاجأ أبداً. لقد كان جلياً أنَّ عقله رفضَ النتائج التي فرضها عليه. كان يستمني نفسه ذهنياً حتى الموت. وبهذا توقّفتُ عن القلق بشأن العقل كملجأ. والعقل بوصفه كل شيء. وأنَّ الله هو كل شيء. وماذا في هذا؟

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث

حين يسوءُ وضعٌ ما كثيراً بحيث يبدو أنَّ لا حلَّ ممكناً لا يبقى إلا ارتكاب جريمة قتل أو الانتحار، أو كلاهما. وإذا فشلا يصبح المرءُ مهرِّجاً.

مذهلٌ كم يصبح الإنسان فعَّالاً حين لا يبقى ما يتنافس به إلا يأسه. وتتراكم الأحداث من تلقاء نفسها، ويتحوَّلُ كل شيء إلى دراما... إلى ميلودراما.

بدأت الأرض تنفتح تحت قدميّ مع إدراكي ببطءٍ أنه لم يكن هناك أي إظهار للغضب، أو التهديد، الحزن، أو الحنان أو الندم، لا شيء قلتُه أو فعلتُه، يعني لها أي شيء. وما يسمّى " إنسان " كان جديراً دون شك بأن يبتلع كبرياءه أو حزنه ويتخلّى عن العرض. ليس هذا البعلزبوب[١٥] الحقير!

أنا لم أعُد إنساناً ؛ كنتُ مخلوقاً عادَ إلى الحالة البرّية. الرعب المستمرّ، تلك كانت حالتي العادية. وكلما أصبحتُ غير مرغوبٍ فيه، ازددتُ التصاقاً. وكلما جُرِحت وتعرَّضتُ للإذلال، تقتُ أكثر إلى تلقّي العقاب. كنت دائماً أصلي كي تحدث معجزة، ولم أفعل أي شيء لأستجلب واحدة. وزيادة على ذلك، كنتُ عاجزاً عن لومها، أو لوم ستيسيا، أو أي إنسان، حتى نفسي، على الرغم من أني غالباً ما كنتُ أتظاهر بذلك. ولا استطعتُ، على الرغم من ميلي الطبيعي، أن أدفع

نفسي إلى الإيمان بأنَّ هذا ما " حدثَ " فعلاً. كان قد تبقّى لدي ما يكفي من الفهم لأدرك أنَّ وضعاً كالذي كنا فيه لم يحدث هكذا ببساطة. كلا، كان يجب أن أعترف لنفسي أنه كان يتمّ الإعداد له منذ وقت طويل. وأيضاً، اقتفيتُ أثرَ الدرب الذي كنتُ أعرفه خطوة خطوة . ولكن حين يصيب المرء إحباط إلى درجة اليأس التام فما فائدة معرفة أين أو متى حدثت تلك العَثَرَة القاتلة الأولى؟ إنَّ ما يهمّ - يا الله، كم هو هام! - هو **الآن**.

كيف نتملَّص من الشر؟

كم من مرَّة ضربت رأسي على الجدار مُحاولاً أنْ أكسر ذلك السؤال. ولو أني فعلت، لأخرجت أفكاري ووضعتها في المعصرة. ومهما فعلت، أو فكّرت، أو حاولت، لم أكن أقدر على التملُّص من سترة المجانين.

أكانَ الحبُ ما أبقاني مقيَّداً؟

كيف أُجيبُ عن هذا؟ كانت مشاعري شديدة التشوُّش والتلوُّن. وكأنك تسأل رجلاً ميتاً إن كان جائعاً.

ربما يمكن صياغة السؤال بشكلٍ مختلف. مثلاً: " هل يمكن استعادة ما ضاع؟ "

الرجل العاقل، ذو الحسّ السليم، سيقول كلا. أما الأحمق فسيقول، نعم.

ومَنْ هو الأحمق إلا المؤمن، المُقامر رغم كل شيء؟

" ما لا يمكنُ استعادته لا يضيعُ أبداً "

مَنْ يقول هذا؟ إنه الله في داخلنا ؛ آدم الذي نجا من الطوفان ، والملائكة جميعاً.

twitter @baghdad_library

فكِّروا قليلاً، أيها الهازئون! إذا كان الخلاص مستحيلاً، ألن يختفي الحب نفسه؟ حتى حب الذات؟

لعلَّ هذا الفردوس الذي سعيت بيأسٍ إلى استعادته لن يكون هو نفسه... فحالما يتمُّ الخروج من الدائرة السحرية حتى تعمل خميرة الزمن عملها بسرعة مُدمِّرة.

ماذا كان ذلك الفردوس الذي أضعته؟ ممَّ كان مصنوعاً؟ أفقط من المقدِرَة على استدعاء لحظةَ نعيمٍ بين حين وآخر؟ أم من الإيمان الذي ألهمتني به؟ (أقصد، الإيمان بنفسي) أم لأننا كنا ملتصقَين معاً كتوأمٍ سياميّ؟

كم يبدو هذا كله بسيطاً وواضحاً الآن! كلمات قليلة تلخِّص القصة كلها: " **لقد فقدتُ القدرة على الحب** ". اكتنفتني غَمامةٌ من الظلام. أعماني الخوف من فقدانها. كان أسهلَ عليَّ أن أتقبَّل موتها.

رحتُ، وأنا ضائعٌ ومشوَّش، أطوفُ في الظلام الذي خلقته بنفسي وكأنَّ شيطاناً يلاحقني. ووسط حيرتي كنتُ أحياناً أخرُّ على أربع وبيديَّ المجرَّدتين أخنقُ، أشوِّه، أسحقُ كل ما يُهدِّد بتعريض كذبنا للخطر. أحياناً كنتُ أتشبَّثُ بهذيانٍ بدمية، وأحياناً أخرى كان مجرَّد جرذ ميِّت. وفي إحدى المرات لم تكن أكثر من قطعة من الجبن البائت. كنتُ أرتكبُ جرائمَ قتل ليلاً ونهاراً. وكلما قتلتُ أكثر، ازدادَ عددُ أعدائي واعتداءاتي.

لِمَ لَمْ أقتل نفسي؟ لقد حاولت، وباءت المحاولة بالفشل. ووجدتُ أنَّ الأكثر فعالية هو اختزال الحياة إلى فراغ.

إنَّ العيشَ بالعقل، بالعقل وحده... هو الطريقة المؤكّدة لجعل الحياة فراغاً، هو أن تصير ضحية للآلة التي لا تكفّ عن الدوران والصرير والطحن.

الآلة-العقل.

" الحب والكراهية ؛ القبول والرفض ؛ التمسُك والازدراء ؛ التوق والنفور: هذا هو مرض العقل "

حتى الملك سليمان ما كان قادراً على وضع صِياغةٍ أفضل.

مذكورٌ في الداماباداِ[١٦]: " إذا تخلّيتَ عن الانتصار والهزيمة معاً، فستنام قرير العين "

هذا إذا!

الجبان، مثلي، يفضّلُ هدير العقل الدائم. إنه يعلم، كما يعلم السيد الماكر الذي يخدمه، أنه يكفي أن تتوقف الآلة عن الدوران لحظةً واحدةً حتى ينفجر مثل نجمٍ ميِّت. ليس الموت... **بل العَدَم!**

يقول ثرفانتث، يصفُ الفارس المطوِّف: " الفارسُ المطوِّف يفتِّش في أركان العالم كله ؛ يلجُ أشد المتاهات تعقيداً، ومع كل خطوةٍ يخطوها يحقِّقُ المستحيل، يتحمَّل أشعة الشمس الحارقة في صحارى مقفرة، والرياح العاصفة وصقيع الشتاء ؛ لا الأسود تستطيع أن تُرعبه ولا الشياطين تُخيفه، ولا التنانين، ذلك أنَّ السعيَ إلى الاعتداء، والسيطرة، هو عملُ حياته كله ووظيفته الحقيقية "

غريبٌ كم يشترك الأحمق والجبان مع الفارس المطوِّف في صفاته. فالأحمق يؤمن على الرغم من كل شيء ؛ يؤمن في وجه المستحيل. الجبان يتحدَّى الأخطار كلها، ويركب كل مخاطرة، ولا يخشى شيئاً، لا شيء على الإطلاق، ما عدا فقدان ما يكافح كفاحاً عقيماً للاحتفاظ به.

إنه إغواءُ عظيم أنْ أقول إنَّ الحبَ لا يمكن أن يجعل من أي إنسانٍ جباناً. لعلَّ الحبَّ الحقيقي لا يفعل. ولكن مَنْ منَّا عرف الحب الحقيقي؟ مَنْ بلغَ من شِدَّة الحب، والثقة والإيمان بحيث يرفض أن يبيعَ نفسه

twitter @baghdad_library

للشيطان على أن يرى محبوبته تتعذّب، أو تُذبح، أو يلحقها الخزي؟ مَنْ منّا آمنُ وجبّارُ بحيث لا ينزل عن عرشه ليعلن عن حبه؟ صحيح أنه كانت هناك شخصيات عظيمة قَبِلَتْ قَدَرَها، جلسَتْ متباعدةً في صمتٍ وعزلةٍ، تعتصرها المرارة. فهل تستحق الإعجاب أم الشفقة؟ حتى أعظم المحرومين من الحب لم يستطيعوا أن يتنقلوا متهلّلاً ويهتف - " كل شيء على ما يرام في العالم! "

قال أحد المعجبين " في حالة الحب النقيّ (الذي حتماً لا وجود له مطلقاً إلاّ في مُخيِّلتنا) لا يعي الواهب أنه يهب ولا ما يهب، ولا إلى مَنْ يهب، وأقل من هذا وعيه ما إذا كان المتلقِّي يقدِّر منه ذلك أم لا "

أقول من كل قلبي "D' accord!" (أوافق) لكنِّي لم أقابل قط كائناً قادراً على التعبير عن مثل هذا الحب. لعلَّ أولئك الذين لم يعودوا بحاجة إلى الحب فقط يطمحون إلى أداء مثل هذا الدور.

أيُ نعيمٍ في التحرُّر من قيد الحب، الاحتراق كالشمعة، الذوبان في الحب، الذوبان حباً هل هذا ممكن بالنسبة إلى مخلوقات مثلنا ضعفاء، متكبِّرون، تافهون، امتلاكيون، حاسدون، غيورون، عنيدون، لا يتسامحون؟ حتماً لا. إنه بالنسبة إلينا سباق جرذان في فراغ العقل ؛ هلاك، هلاك لا ينتهي. إذا صدَّقنا أننا نحتاج إلى الحب، فإننا سنتوقَّف عن منح الحب، عن أنْ نُحَب.

ولكن حتى نحن، على الرغم من خسّتنا، نعرف أحياناً شيئاً من هذا الحب الإيثار الصادق. مَنْ منّا لم يقُل لنفسه في غمرة عشقه لمحبوبةٍ بعيدةٍ عن مناله - " لا يهم إذا لم تكنْ لي! كل ما يهمّني هو أن تكونَ موجودة، وأني يمكن أن أصلّي في محرابها وأتعبَّد إلى الأبد! "؟ وعلى

الرغم من أنَّ المشهد المُثير بعيد المنال، فإنَّ العاشقَ الذي يتأمَّل هكذا يقفُ على أرضٍ صلبة. لقد عرف لحظة من الحب النقيّ. ليس هناك حب آخر، مهما كان صافياً، ودائماً، يُقارَن به.

على الرغم من سرعة زوال مثل هذا النوع من الحب، هل يمكننا أن نقول إنه كانت هناك خسارة؟ إنَّ الخسارة الوحيدة - وكم يعرفها العاشق الصادق جيداً! - هي الافتقار إلى تلك العاطفة الخالدة التي يثيرها الآخر. ما أشدّ كآبة، ووحشة، وشؤم ذلك اليوم الذي يدرك فيه العاشق فجأة أنه لم يعد مدلَّهاً، وأنه شُفيَ، إنْ صحَّ التعبير، من حبِّه العظيم! حين يشير إليه، حتى بلا وعي منه، على أنه " جنون ". وشعور الارتياح الذي يتولَّد عن مثل تلك اليقظة قد تقود المرء إلى الإيمان بكل صدق بأنه قد استعاد حرّيته. ولكن ما أفدح الثمن! يا لها من حرية مبتلية بالفاقة. أليس مُفجعاً أن نُحدِّق من جديد إلى العالم بعينِ كل يوم، وحكمة كل يوم؟ أليس مما يسحقُ القلب أنْ يجدَ المرءُ نفسه مُحاطاً بكائناتٍ مألوفةٍ ومُبتذلة؟ أليس مُخيفاً التفكير في أنَّ على المرء أن يتابع طريقه، كما يُقال، ولكن على أن يكونَ بطنُه مملوءاً بالحجارة وفمه مملوءاً بالحصى؟ وأنْ يجدَ رماداً، لا شيء غير الرماد، حيث كانت هناك ذات يومٍ شموسٌ تتلظّى، وأعاجيبُ، وأمجاد، وأعاجيبُ فوق أعاجيب، ومجدٌ فوق مجد، وكله خُلِقَ بحرّية وكأنما من ينبوعٍ سحريّ؟

إنْ كانَ ثمة ما يستحقّ أن يُسمَّى مُعجِزاً، أليس هو الحب؟ أية قوةٍ أخرى، أي قوة غامضة أخرى يمكنها أن توظِّف الحياة بمثل تلك الروعة المُبهرة؟

الكتاب المقدَّس مملوء بالمعجزات التي قَبلَها المفكِّرون وغير المفكرين على حدٍ سواء. لكنَّ المعجزة التي أُجيزَ للجميع أن يختبروها أحياناً في

twitter @baghdad_library

حياتهم، المعجزة التي لم تكن تتطلّب تدخُّلاً من أحد، أو وسيطاً، أو مجهوداً جبّاراً من الإرادة، المعجزة المفتوحة أمام الأحمق والجبان كما أمام البطل والقديس، هي الحب. إنه يولد في اللحظةِ، ويعيشُ إلى الأبد. إذا كانت الطاقة لا تفنى، فكم ينطبقُ هذا على الحبِ أكثر من غيره! الحب، كالطاقة التي ما تزال لغزاً مُطبقاً، موجودٌ دائماً، ودائماً في المتناول. إنَّ الإنسان لم يخلِق أقلّ قدرٍ من الطاقة، ولا هو خلق الحب. الحب والطاقة كانا دائماً موجودين، وسوف يبقيان إلى الأبد. لعلّهما في جوهرهما شيءٌ واحد. ولِمَ لا؟ لعلَّ هذه الطاقة الغامضة المتطابقة مع حياة الكون، التي هي الله أثناء عمله، كما قال أحدهم، لعلَّ هذه القوة السرّية، المتوسعة باستمرار، ليست إلا مظهراً للحب. والفكرة الأشدّ بثاً للرعب هي أنه إذا لم يبقَ في كوننا أي شيء غير مُعزَّز بهذه القوة الخفيّة، فماذا عن الحب؟ ماذا يحدث عندما يختفي الحب (ظاهرياً)؟ ذلك أنَّ أحدهما ليس أكثر صلابةً من الآخر. نحن نعلم أنه حتى أشدّ ذرّات المادة موتاً قادرة على إطلاق طاقة متفجِّرة. وإذا كان في الجثة حياة، ونحن نعلم أنه يوجد، كذلك الروح التي كانت يوم تبثُّ فيه الحيوية. وإذا كان أليعازر قام من بين الموتى، وإذا كان يسوع نهضَ من قبره، فإنَّ الأكوان كلها التي لم يعد لها وجود الآن يمكنُ إعادتها إلى الحياة، ولاشك في أنه ستُعاد إلى الحياة، عندما يحين الوقت، أو بعبارةٍ أخرى، حين يتغلَّبُ الحب على الحكمة.

إذن، إذا كان هذا كله ممكناً، كيف نتكلّم، أو حتى نفكِّر، في فقدان الحب؟ وعلى الرغم من أننا يمكن أن ننجح فترةً وجيزة في إغلاق الباب، فإنَّ الحب سيعثر على طريقه. وعلى الرغم من أننا نغدو باردين وقُساة

كـالمعـادن، لا نسـتطيع أن نبـقى إلى الأبد لا مبـالين وكسـالى. لا شيء يموت حقاً. الموت دائماً مُلفَّق. الموت هو ببساطة إغلاقُ الباب.

لكن لا أبواب للكون، حتـماً ليس أبواب يعـصى على قـوة الحب أن تفتحه أو تخترقه. وهذا أمرٌ يعرفه الأحمق في القلب، ويعبِّر عن حكمته بطريقـةٍ دونكيـخوتيّة. ومـاذا يمكن للفـارس المطوِّف أن يكـونه وهو الذي يسعى إلى الاعـتداء لكي ينتـصر إذا لم يكن رسول الحب؟ ومَنْ يُعرِّض نفسه باستمرار للإهانة والأذى، ممَّ يهرب إذا لم يكن من اجتياح الحب؟

*

في الأدب الذي يتَّسِم بالأسى المفـرط هناك دائمـاً وفـقط رمـزٌ واحـدٌ (يمكن التـعبيـر عنه رياضـياً وأيضاً روحـياً) يدور حـوله كل شيء: **الحب السلبي**. فـالحيـاة يمكنُ أن تُعـاش، وعـادةً تُعـاش، على الجانب السلبي بدل الجانب الإيجابي. قد يكافح الناس إلى الأبد، وبلا أمل، حين يختارون أن يعلنوا أنَّ الحبَّ غـيـر وارد. إنَّ " ألمَ الخـواء العـمـيق الشـديد الذي يمكنُ للخليـقة كلها أن تغرقَ فـيه ويظلّ مع ذلك خواءً " ذاك، ذلك التوجُّع لبلوغ الله، كما سُمِّيَ، ما هو إنْ لمْ يكن وصفاً لحالةِ الروح الخالية من الحب؟

ثم ولجتُ حـالةً تقع على تخـومِ هذه الحـالة من الوجـود وأنا مُـدجَّجُ بالأسلحـة. وأخـذتْ الأحـداث تتـراكم من تلقـاء ذاتهـا، ولكن بشكلٍ مـرعب. كـان هناك شيء جنوني في الزخم أخــذت أنزلقُ به الآن إلى الأسفل وإلى الخلف. ومـا استـغرقَ بناؤه قروناً انهارَ في لمح البصر. كل شيء تقوَّضَ بلمسةٍ واحدة.

بالنسـبـة إلى آلةِ فِكرٍ لا فـرق إنْ تمَّ التـعـبيـرُ عن مـشكلةٍ مـا بلغـةِ السـالبِ والموجب. وحينَ يتـكيَّفُ إنسـانٌ ما مع الانزلاق يصبحُ الأمـرُ في

twitter @baghdad_library

النهاية سيَّان. أو تقريباً هكذا. إنَّ الآلة لا تعرفُ الأسفَ، أو الندم، أو الشعور بالذنب. ولا تتبدَّى علامات الاضطراب إلا حين لا تُغذَى كما يجب. أما الكائن البشري الممنوح آلةَ فكرٍ مُفزعةٍ فلا يُعطى شيء. ومهما كان الوضع غير مُحتمل، فإنه أبداً لا يرمي الإسفنجة. وما دام فيه قبسٌ من حياة فسوف يُقدِّمَ نفسه أضحية لأي شيطانٍ يختاره لكي يسكنه. وإذا لم يجد أي شيء، أو شخص، يزعجه، أو يخونه، أو يُهينه أو يشوهٍ سمعته، فسوف يقومُ هو بإزعاج نفسه، أو خيانتها، أو إهانتها أو تشويه سمعته بنفسه.

إنَّ العيشَ في فراغِ العقل يعني العيشَ في " هذا الجانب من الجنة"، ولكن بشمولٍ، واكتمالٍ، بحيث أنَّ حتى تخشُّي الموت يبدو أشبه بمرضِ الرقَّاص. ومهما كانت الحياة اليومية كئيبةً ومُضجرةً وتَفهةً، فإنها لا تقترب أبداً من الخاصيّة الموجعة لهذا الفراغ اللا متناهي الذي ينجرفُ الإنسانُ معه وينزلقُ وهو في كامل وعيه اليقظ. وفي الواقع اليوميّ الرزين هناك الشمسُ وأيضاً القمرُ، والأزهارُ وأيضاً الورقة الميتة، والنوم وأيضاً اليقظة، والحلم وأيضاً الكابوس. أما في فراغِ العقلِ فلا يوجدُ إلا حصانٌ ميِّتٌ يجري بقوائم لا تتحرَّكُ، شبحٌ يقبضُ على الخواء اللا متناهي.

وهكذا، وكحصانٍ ميّتٍ لا يملُّ سيّده أبداً جلدَه، رحتُ أخبُّ إلى الزوايا الأبعد من الكون دون أن أعثرَ على أي سكينةٍ، أو راحةٍ أو استقرار. قابلت أشباحاً غريبة أثناء تلك الرحلات المندفعة! كان التشابه بيننا هائلاً، ومع ذلك لم يكن هناك أدنى صلة. كان الغشاءُ الرقيق الذي يفصل بيننا يعمل عمل شِعارَ نبالةٍ ممغنطٍ يعجزُ أقوى تيارٍ كهربائيّ على التأثير فيه.

*

إنْ كان هناك فرقٌ مُطلقٌ بين الأحياء والأموات فهو أنَّ الموتى لم يعودوا يتعجَّبون. لكنَّ الموتى، كالأبقار في الحقل، يتوفَّر لديهم وقت لا حدود له للتأمل. يقفون غائصين حتى ركبهم وسط نبات البرسيم، ويواصلون التأمل حتى بعد أن يغيبَ القمر. فبالنسبة إلى الموتى هناك أكوانٌ لا حصرَ لها عليهم أن يكتشفوها ؛ أكوانٌ من المادة فقط ؛ مادة مجرَّدة من الجوهر ؛ مادة تحرثها آلةُ العقل وكأنها ثلجٌ ناعم.

تذكَّرتُ ليلةَ متُّ لكي أتعجَّب. وكان كرونسكي قد عرَّجَ عليَّ وأعطاني بعض الحبوب البيضاء البريئة لأبتلعها. ابتلعتُها، ومن ثم، بعد رحيله، فتحتُ النوافذ على مصارعها، ورميتُ الأغطية، واستلقيتُ وأنا عارٍ تماماً. كان الثلجُ في الخارج يُدوِّم بعنفٍ والرياح المُصقِعة تُصفر وتضرب أركان الغرفة الأربعة وكأنها آلة تهوية.

استغرقت في النوم كبقَّة الفراش. وبُعيدَ الفجر فتحتُ عينيَّ وذُهلتُ إذ اكتشفتُ أني لم أنتقل إلى الدار الآخرة. ومع ذلك لا أستطيعُ أن أقول أني كنتُ ما أزال أقيمُ بين الأحياء. لم أدرِ ما الذي مات ؛ كل ما أعرفه هو أنَّ كلَّ ما يؤلِّفُ ما يُسمَّى " حياة إنسان " تلاشى. كلّ ما تبقَّى لي كان الآلة... آلة العقل. كالجندي الذي يحصلُ أخيراً على ما كان يُصلّي كي يناله، أُرسلتُ إلى الخطوط الخلفية. "Aux autres de fair la guerre " (وعلى الآخرين أن يشنوا الحرب)

لسوء الحظ لم يُكتَب على جيفتي ما يدلُّ على وجهتها. إلى الخلف، إلى الخلف، تحرّكتُ، غالباً بسرعة طَلَقَة مدفع.

على الرغم من أنَّ كل شيء بدا مألوفاً، إلاّ أنه لم يكن هناك أي مدخل. وحين نطقتُ بدا صوتي أقرب شبهاً بشريطِ تسجيلٍ يُدارُ بالعكس. كان كياني كله مُشوَّشاً.

twitter @baghdad_library

ET HAEC OLIM MEMINISSE IUVABIT

(هذه الذكريات الممتعة السارة)

في ذلك الوقت كنت بصيراً بما يكفي بحيث أخطُّ هذا البيت الذي لا يُنسى من " الإنيادة " على علبة المرحاض المعلّقة فوق سرير ستيسيا النقال.

لعلّي وصفتُ المكان قبلاً. لا يهم. إنَّ ألفَ وصف لا يمكنُ أن يفي واقع ذلك الجو الذي عشنا فيه وتنقّلنا حقّه. إذ هنا، مثل سجينة شيلو، ومثل المركيز المقدَّس، ومثل ستريندبرغ المجنون، عشتُ جنوني كله. قمرٌ ميّت كفَّ عن الكفاح ليقدِّم وجهه الحقيقي.

أكثر ما أتذكر أنَّ المكان كان عادة مظلماً. ظُلمة قبرٍ باردة. تهيمن على كل شيء أثناء سقوط الثلج، ويخيّل إليّ أنَّ العالم كله الواقع خارج بابنا سوف يبقى إلى الأبد مُغطّى بطبقة الثلج الأبيض. والأصوات التي كانت تنفذ إلى عقلي المشوَّش كانت دائماً تُكبَت بفعلِ غطاء الثلج الأبدي. كان ذلك سيبيريا العقل التي سكنتْ فيها، دون أدنى شك. كان رفاقي الذئاب وأبناء آوى، لا يقطع عواءها المثير للشفقة إلا رنين أجراس مركبة الجليد أو دمدمة شاحنة الحليب المتوجهة إلى أرض الأطفال اليتامى.

في وقتٍ مبكّرٍ من الصباح كنتُ عادةً أتأكدُ من أنهما ستظهران متشابكتيّ الذراعين، نضرتين كزهرتيّ ربيع، وَجَنَاتهما تتلألآن بالصقيع وبإثارةِ يومٍ حافلٍ بالأحداث. وكان جامع بطاقات يظهرُ بين حينٍ وآخر، ويهتفُ بصوتٍ عالٍ ومطولاً، ثم يختفي داخل الثلوج. أو يربت أوزيكي، المجنون، برفقٍ على زجاج النافذة. وكان الثلج لا يكفّ عن الهطل، أحياناً برقائق ضخمة ورطبة، كنجومٍ تذوب، أو بهبّاتٍ عاصفةٍ مدوّمةٍ مختنقة بإبر تحت جلدية واخزة.

أثناء الانتظار أحكمتُ وضع حزامي. صبري لم يكن صبر قديسٍ أو سلحفاة، بل بالأحرى صبر مجرم بارد، حذر.

اقتلْ الوقت! اقتلْ الفِكر! اقتلْ وخز الجوع! قتلُ واحدُ طويلُ ومستمرٌ... ممتاز!

لو أني استرقتُ النظرَ من خلال الستارة الباهتة اللون وشاهدت المقطع الجانبي لوجه صديقٍ قد أفتحُ له الباب، لكي أحصلَ على نفحةٍ من الهواء المنعش أكثر من أنْ أسمح بالدخول لروحٍ شقيقة.

كان الحوار الافتتاحيّ هو دائماً نفسه. وقد تعوَّدتُ عليه إلى درجة أني كنتُ أكرِّره لنفسي بعد رحيلهما. دائماً تكون الافتتاحية على طريقة روي لوبيز.

" ماذا ستفعل بنفسك؟ "

" لا شيء "

" أنا ؟ أنت مجنون! "(*)

" ولكن ماذا **تفعل** طوال النهار؟ "

" لا شيء "

بعد ذلك يكون هناك حتماً تنقيب عن بضعة سجائر وحفنة من الفكّة، ثم هجومٌ على كعك الجبن أو على علبةٍ من الكعك المحلّى. أحياناً أقترحُ لعب دور شطرنج.

وسرعان ما تخمد السجائر، ثم الشموع، ثم الحديث.

مرةً أخرى أجدني وحيداً وتغيرُ عليَّ مجموعةٌ من ألذّ وأعجب الذكريات - عن أشخاص، وأماكن، وأحاديث ,وأصوات، وتكشيرات ازدراء، وإيماءات، وأعمدة، وأفاريز مائلة، وطنف، ومروج، وجداول، وجبال... تغيرُ عليَّ كالأمواج، دائماً غير متزامنة، مُشتَّتة... كلُطَخٍ من

* - من الواضح أن هناك نقصاً في الحوار .

twitter @baghdad_library

الدم تقطرُ من سماءٍ صافية. ها هنَّ in extenso (بالتفصيل)، رفيقات فراشي المجنونات: من أشدّ ما يمكنُ لرجلٍ أن يجمعَ بؤساً، ونزويّة، وغرابة أطوار. كلّهن ظهرن، زائرات العوالم العجيبة كلهن، الغريبات، واحدة واحدة. ولكن ما أرقّهن وأشهاهنّ! كملائكة منبوذة مؤقتاً، أجنحتهم مُخبّأة بسرية تحت ملابسهم التنكرية الرثّة.

*

غالباً ما كنتُ أصادفُ في الظلام أثناء انعطافي عند إحدى المنعطفات، والشوارع مُقفرة حرفياً، والريح تصفر بجنون، أحد أولئك النكرات. قد يكون حيّاني ليطلبَ إشعال سيجارة أو لكي يستجدي قطعة نقدية. فكيف يحدث أن تتشابك ذراعانا على الفور، وفوراً ننخرط في تلك الرطانة التي لا يستخدمها إلا المنبوذين والملائكة والمشردين؟

وغالباً ما يكون اعترافٌ بسيطٌ، صريحٌ من جانبِ الشخصِ الغريبِ ما يدفعُ بدولاب الحديث. (جريمة قتل، سرقة، اغتصاب، هروب من الجندية - كانت تُرمى كبطاقات الزيارة)

" أنت تفهمني، **كان يجب** أن... "

" طبعاً! "

" كان الفأس مُلقى هناك، وكانت الحرب دائرة، وأبي دائم السُكر، وأختي تعيشُ حياة التشرُّد... ثم إني كنتُ دائماً أريد أن أكتب... هل تفهم؟"

" ومن ثم النجوم... نجومُ الخريف. وآفاقٌ جديدة، غريبة. عالمٌ جديد جداً ومع ذلك قديم جداً. أمشي، أختبئ، أفتّش عن طعام، أسعى، أبحث، أصلّي... أطرحُ عني جِلداً بعد آخر. في كل يوم اسمٌ جديد، حرفة جديدة. دائماً أهرب من نفسي. أتفهم؟ "

" طبعاً! "

" فوق خط الاستواء، تحت خط الاستواء... لا راحة، لا توقُّف. أبداً لا شيء لا مكان. عوالم شديدة الضياء، والامتلاء، والغنى. لكنها موصولة معاً بالإسمنت المسلَّح والأسلاك الشائكة. دائماً المكان التالي، والتالي. دائماً تمتد اليد إلى الأمام، تستجدي، تناشد، تتوسل. والعالم أصمّ. أصمّ تماماً. بنادق تقرقع، مدافع تدوّي، والرجال، والنساء، والأطفال في كل مكان مستلقون متيبّسون في دمائهم القائمة. وبين حين وآخر زهرة. ربما زهرة بنفسج، ومليون جثة تتعفَّن لإخصابها. أتتابعني؟"

" طبعاً! "

" لقد جُننتُ، جُننتُ، جُننتُ "

" هذا طبيعي! "

وهكذا يتناول الفأس، الشديد الحدَّة، الشديد البريق، ويتعوَّد على التقطيع... هنا رأس، وهناك ذراع أوَ ساق، ثم أصابع أيدي وأصابع أقدام. تشوبْ، تشوبْ، تشوبْ. كتقطيع السبانخ. وطبعاً البحثُ جارٍ عنه. وحين يعثرون عليه سوف يحقنونه بالعصير. وستأخذ العدالة مجراها. فمقابل كل مليون يُذبحون كالخنازير يُعدم وحش واحد بائس بطريقةٍ إنسانيّة.

هلْ أفهم؟ كلَّ الفهم.

ما الكاتب إذا لم يكن زميلاً مجرماً، أو قاضياً، أو جلاداً؟ ألم أكن ضليعاً في فن الخداع منذ الطفولة؟ ألستُ مشوها بالرضوض والعُقد؟ ألم أكن مُلطَّخاً بكل الذنوب والآثام التي يحملها راهب من القرون الوسطى؟

ما هو أشدّ طبيعية، ومفهوماً أكثر، وأشد إنسانيّة ويستحق الغفران من ثورات هياج الشاعر المنعزل الرهيبة تلك؟

twitter @baghdad_library

وكما ولجوا عالمي دون سببٍ مفهوم كذلك غادروه، أولئك الهائمون على وجوههم.

إنَّ التجول في الشوارع ببطنٍ خاويةٍ يجعل المرء منتبهاً. فيعرف غريزياً كيف يتّجه، وعمَّا يبحث: لا يفشل أبداً في تمييز رفيق ترحال.

حين يضيعُ كل شيء تتقدَّم الروح...

لقد أشرتُ إليهم وكأنهم ملائكة متخفّون. وهكذا كانوا، لكنني لم أكن عادةً أدركُ هذه الحقيقة إلا بعد مغادرتهم. إذ نادراً ما يظهر الملاك جاراً وراءه سُحُبَ المجد. ولكن، بين حين وآخر، يكون الأبله المرتّل الذي تستوقفه لتحدِّق إليه فجأةً مناسباً للباب كالمفتاح. ويفتح الباب.

كان الباب الذي يُفتح دائماً يُدعى الموت، وقد وجدت أنه لا وجود للموت، ولا وجود لأي قضاة أو جلأدين إلا في مخيلتنا. كم كافحتُ بيأسٍ حينئذ لأقومَ بحركةِ ارتداد! وقد فعلت. بشكلٍ تام وكامل. الراجا يتعرَّى تماماً من ملابسه. لا تبقى إلا الذات، ذاتٌ تنتفخ وتتورَّم كعلجوم قبيح المنظر. ثم يغمرني جنون الأمر الصرف. لاشيء يمكن إعطاؤه أو أخذه ؛ لا شيء أضيف أمام المحيط الجبّار نفسه. محيط الحب. ها هو – in perpetuum (إلى الأبد). دائماً في حالة ازدهارٍ مكسور، هدير شلال، انقضاض طائر جيفيّ كالقذائف الهادرة التي يطلقها النبي. إننا نتنقَّل بعيون مغمضة وآذان مسدودة ؛ نحطِّم الجدران في حين أنَّ الأبواب تنتظر مَنْ يفتحها بلمسةٍ واحدة ؛ تتلمَّس طريقنا نحو السلالم، ناسين أنَّ لنا أجنحةً ؛ ونصلِّي وكأنَّ الله أصمّ وأعمى، وكأنه موجود في فضاء. لا عجب أننا لا نميِّز الملائكة بيننا.

ذاتَ يومٍ سيكونُ ممتعاً تذكُّرُ هذه الأشياء.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع

وهكذا، أتنقَّلُ في الظلام أو أقفُ على مـدى سـاعـات كـمنصَبٌ القبعات في إحدى زوايا الغرفة، أغوصُ أعمق فأعمق في الحفرة. تصبح الهستريا هي المعيار. الثلج لا يذوب أبداً.

بينما كنتُ أنسخ أشدّ الخطط شيطانيّة لأثير جنون ستيسيا المُطبق، وأتخلّص بهذا منها إلى الأبد، حلمتُ أيضاً بأشدّ الخطط حماقة لشنّ حملة غَزَل ثانية. في كل واجهة محل مررتُ بها شاهدتُ هدايا أردتُ أن أشتريها لها. النساء يعشقن الهدايا، خاصة الغالية منها. ويحببن أيضاً الأشياء الصغيرة التافهة، وفقاً لأمزجتهن. كان في إمكاني أن أقضي النهار بطوله متسائلاً ماذا أنتقي لها بين زوجٍ من الأقراط العتيقة الطراز، والغالية جداً، وبين شمعة سوداء كبيرة. ولا أعترف لنفسي أبداً بأنَّ الغرضَ الغالي الثمن بعيد المنال. كلا، إذا كان في إمكاني أن أقنع نفسي بأنَّ الأقراط سوف تسرّها أكثر، أستطيع أيضاً أنْ أقنع نفسي بأني أستطيع أن أجد وسيلة لشرائها. أقول، كان في استطاعتي أن أقنع نفسي بهذا، لأنني في قرارة أعماقي كنتُ أعلم أنَّ قراري لن يستقرّ على أي منهما. إنها مضيعة للوقت. صحيح أنه كان من الأفضل أن أمضي الوقت في مناقشة القضايا العليا، حول ما إذا، مثلاً، كانت الروح قابلة

للفساد أم لا، ولكن بالنسبة إلى آلة العقل كل المسائل جيدة على قدم المساواة. بتلك الروح نفسها كان في استطاعتي أن أُثيرَ لديَّ الحافزَ لأمشي خمسةَ أميالٍ أو عشرة لكي أقترضَ دولاراً، وأشعر بالانتصار كما لو أني نجحتُ في تملُّق قطعة دايم أو نكلة. وليس هاماً ما يمكنُ أن آمل أنْ أفعله بدولار؛ بل المهم هو تلك المحاولة التي ما يزال في إمكاني أن أقومَ بها. وهذا يعني، حسب وجهة نظري الفاسدة من الأشياء، أني كنتُ ما أزال أضعُ قدماً في العالم.

نعم، كان هاماً حقاً أن أذكِّر نفسي بمثل تلك الأشياء بين حين وآخر وألا أنجرف مثل أكوند السواتي[١٧]. وكان أيضاً من المفيد أن ألكزهما مرةً كل حين، أن أقولَ لدى عودتهما إلى المنزل في الثالثة صباحاً خاويتيِّ الوفاض: " لا تنزعجا نفسيكما، أنا ذاهب لأشتري شطيرة ". وأؤكد لك أني أحياناً كنتُ أكتفي بأكل شطيرةٍ وهميّة. ولكن كان يفيدني أن أدَعَهُما تظنان أني لستُ مفلساً تماماً. بل إني في مناسبةٍ أو اثنتين أقنعتهما بأني تناولت شريحةً من اللحم المشوي. وطبعاً، كنتُ أفعلُ ذلك لأغيظهما (ما هو العمل الذي قمتُ به حتى أستحقّ أنْ آكلَ شريحةً من اللحم المشوي في حين أنهما أمضيتا ساعات طوالاً جالستين في الكافيتريا في انتظار مَنْ يقدِّم لهما لقمة؟)

أحياناً كنتُ أحيِّهما هكذا: " إذن فقد نجحتما في الحصول على شيءٍ من الطعام؟ "

وكان السؤال دائماً يُربكهما.

وأقولُ " أعتقد أنكما تكادان تموتان جوعاً "

على الأثر تبلغاني أنهما ليستا مهتمَّتين بالموت جوعاً. ثم تضيفان بأني أنا أيضاً لا سببَ لديّ لأموت جوعاً. كنت أقبل ذلك فقط لأعذّبهما.

twitter @baghdad_library

إذا كانتا في مزاجٍ مرح تُسهبان في خوضِ الموضوع. ما هو العمل الشيطاني الذي أخطِّطُ للقيام به؟ ألم أقابلُ كرونسكي مؤخراً؟ ثم يبدأ الحديث المموَّه - عن صديقاتهما الجديدات، والحانات الرخيصة، والجولات الجانبية إلى حيِّ هارلم، والمحترَف الذي تنوي ستيسيا أن تستأجره، الخ، الخ. آه نعم، لقد نسيتَا أن تخبراني عن بارلي، صديق ستيسيا الشاعر، الذي التقيتاه مصادفةً في إحدى الأمسيات. سوف يُعرِّجُ عليهما بعد ظهر ذات يوم. يريد أن يقابلني.

وذات أمسية انساقت ستيسيا مع ذكرياتها. ذكريات صادقة، كما فهمت. عن الأشجار التي كانت تحكُّ نفسها عليها تحت ضوء القمر، وعن المليونير المنحرف جنسياً الذي عشقها بسبب ساقيها الكثيفتيّ الشعر، وعن الفتاة الروسية التي حاولت أن تضاجعها لكنها صدَّتها لأنها كانت شديدة الفجاجة. ثم إنها كانت حينئذٍ على علاقةٍ عاطفية مع امرأة متزوجة، ولكي تذرّ الرماد في عينيّ الزوج كانت تدعه ينكحها... وهذا لا يعني أنها كانت تستمتع بذلك، ولكن لأنَّ الزوجة، التي تحبُّها، وجدتْ أنه التصرُّف الصحيح.

قالت " لا أدري لماذا أحكي لك هذه الأشياء كلها، إلا إذا... "

فجأةً تذكَّرت السبب ؛ إنه بارلي. وبارلي كان من النوع الغريب الأطوار. لم تفهم نوع التجاذب الذي جرى بينهما. كان دائماً يتظاهر بأنه يرغبُ في مضاجعتها، ولكن لا شيء حدثَ. على أي حال، كان شاعراً جيداً جداً، هي متأكدة. قالت، إنها ستعمل على تأليف قصيدة في حضوره. ثم أدلتْ بهذا التعليق الغريب: " أستطيع أن أواصل الكتابة بينما هو يحلبني "

ثم ضحكَ شبه مكبوت.

" ما رأيكَ في هذا؟ "

تطوَّعتُ بالقول " يبدو وكأنه مأخوذٌ من أحد كتب كرافت-إيبنغ[18]"

تبعَ ذلك نقاشٌ طويل بخصوص المواهب النسبية لكلٍ من كرافت-إيبنغ، وفرويد، وفوريل، وشتيكل، وفايننغر، et alia (وآخرون)، انتهى بتعليق ستيسيا بأنهم جميعاً كانوا حفنة من العجائز.

وهتفت " أنت تعلم ماذا أنوي أن أفعل لأجلك؛ سوف أسمح لصديقك كرونسكي أن يفحصني "

" ماذا تعنين - بـ " يفحصك "؟ "

" أن يستكشف تركيبتي "

" حسبتُ أنك تعنين رأسك "

قالت، بهدوء خيارة، " يستطيع أن يفعل هذا أيضاً "

" وإذا لم يجد أي خطبٍ فيك، تكونين مجرَّد منحرفة متعدِّدة الأشكال، أليس كذلك؟ "

التعبير المُستعار من فرويد، أرضاها أيّما رضا. وقد بلغ إعجاب ستيسيا درجةً حتى أنها أقسمَتْ على أن تكتب قصيدة تحت ذلك العنوان.

وصدَّقتُ كلامها، واستُدعيَ كرونسكي لكي يأتي ويقوم بالفحص اللازم. وصلَ وهو في مزاجٍ طلقٍ، يفرك يديه معاً ويفرقع براجمه.

" ما الأمر هذه المرة، مستر ميللر؟ أيوجد مرهَمٌ هنا؟ مهمّة مُحرجة، أنا أعرف طبيعة عملي. لكنها فكرةٌ لا بأس بها. على الأقل ستعرف إن كانت خُنثى أم لا. لعلّنا نكتشف أثراً أوَلياً... "

كانت ستيسيا قد خلعت بلوزتها للتو وباشرَتْ بعرض ثدييها بحلمتَيْها المرجانيتين اللذيذتين.

twitter @baghdad_library

قال كرونسكي، وهو يضمّهما بكفّيه، " لا عيبَ فيهما. والآن اخلعي سروالك! "

هنا انكمشتْ، وصرخت " ليس هنا! "

قال كرونسكي " أينما تشائين. ما رأيك بالمرحاض؟ "

قالت مونا "لِمَ لا تُجري فحصك في غرفتها؟ هذا ليس عرضاً عاماً"

قال كرونسكي، وهو يرميهما بنظرةٍ شزراء قذرة، " أوه، أليس هو كذلك؟ حسبتُ أنَّ هذه هي الفكرة الأساسية "

انتقلَ إلى الغرفةِ المجاورة ليُحضر حقيبته السوداء.

" لكي أجعل الأمر رسمياً أكثر أَحضرتُ معي أدواتي "

صرخت مونا " لا أظنك ستسبِّب لها ألماً؟ "

أجاب " إلاّ إذا قاومتْ. هل وجدتم المرهم؟ إذا لم يكن لديكم منه، زيت الزيتون يفي بالغرض... بل هو أفضل "

رسمتْ ستيسيا تعبير استياء على وجهها. وسألت " أهذا كله ضروري؟ "

قال كرونسكي " الأمر يعود إليك، ويتوقف على مدى حساسيتك. إذا تمدَّدت بسكون وكنتِ مهذَّبة لن تواجهنا أي صعوبة. إذا استمتعتِ قد أغرز فيه شيئاً آخر "

صرخت مونا " أوه كلا لن تفعل! "

" ماذا بك، أأنتِ غيور؟ "

" لقد دعوناك إلى هنا بوصفك طبيباً. وهذا المكان ليس مبغى "

قال كرونسكي ساخراً " لو أنه مبغى لكان حالك أفضل. هي، على الأقلّ، كان سيكون حالها أفضل... هيا، دعونا ننتهي من الأمر! ؟

قال هذا وقاد ستيسيا من يدها إلى الغرفة الصغيرة المجاورة للمرحاض. أرادت مونا أن ترافقهما، لتتأكد من أنه لن يُصيب ستيسيا أي أذى. لكن كرونسكي لم يوافق أبداً.

قال " هذه زيارة مهنيّة "، وفرك يديه معاً " أما أنتَ، يامستر ميللر"، ورماني بنظرةٍ عارفة، " لو كنتُ في مكانك لقمتُ بنزهةٍ قصيرة سيراً على القدمين "

توسّلت مونا " كلا، ابقَ. أنا لا أثقُ فيه "

وهكذا بقينا، مونا وأنا، ونحن نذرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً دون أن ننطق أي كلمة.

مرّت خمس دقائق، ومن ثم عشر. وفجأةً صدرتْ عن الغرفة المجاورة صرخة ثاقبة " أنقذوني! أنقذوني! إنه يغتصبني! "

اندفعنا إلى داخل الغرفة. وهناك وجدنا، دون شك، كرونسكي وقد أرخى سرواله الداخلي، ووجهُهُ أحمرُ اللونِ كالشوندر، ويحاول أن يمتطيها. وَثَبَتْ مونا، كالنَمرة، عليه وأبعدَتْه عن السرير. ثم قفزتْ ستيسيا خارج السرير ووثبتْ عليه وإمتطته وأخذت تنشب مخالبها فيه وتلكمه. أربكَ الانقضاضُ المسكينَ حتى أنه عَجِزَ عن الدفاعِ عن نفسه. ولو لم أتدخَّل لاقتلعتا عينيه.

زعقت ستيسيا " يا ابن الحرام!"

وزعقت مونا " يا سادي! "

أثارتا جَلَبَة هائلة حتى أني حسبتُ أنَّ صاحبة المنزل سوف تهبط علينا حاملةً ساطوراً.

وقفَ كرونسكي على قدميه مترنِّحاً، وسرواله ما يزال مرخيّاً حول

twitter @baghdad_library

كاحليه، وأخيراً نجح في أن يغمغم: " ما سبب كل تلك الجَلَبَة؟ إنها طبيعية، كما حسبت. في الواقع، هي طبيعية أكثر مما يجب. وهذا ما أثارني. ما الخطأ في هذا؟ "

تدخَّلت، مُنقِّلاً بصري من طرفٍ إلى آخر، " نعم، ما الخطأ في هذا؟"

زعقتا " اطرده من هنا! "

قال كرونسكي، مُضفياً شيئاً من التهدئة على صوته " مهلاً! مهلاً! أنتما طلبتما مني أن أفحصها، وكنتما تعلمان مثلي أنه لا خطب فيها " جسدياً ". برجُ عقلها هو الذي يحتاج إلى إلقاءِ نظرةٍ عليه، وليس عورَتها. أستطيع أن أقوم بهذا أيضاً، لكنَّ ذلك يستغرق وقتاً. وماذا تريدان مني أن أُثبت؟ أجيبا عن هذا، إنْ استطعتما! هل تريدان أن تعرفا شيئاً؟ أستطيع أن أحبسكم أنتم الثلاثة "، وفرقع أصابعه في وجوهنا. قال " هكذا! "، وفرقع أصابعه مرةً أخرى. " لماذا؟ بسبب الفساد الخُلُقي. لن يكون لديكم سندٌ تعتمدون عليه، ولا واحد منكم "

سكتْ لحظةً كاملة، ليدع هذا الكلام يستقرّ فينا.

" لكني لستُ خسيساً إلى هذه الدرجة لأفعل ذلك. أنا صديقٌ مفرط في طيبة القلب، ألست كذلك، يا مستر ميللر؟ ولكن لا تحاول أن ترميني إلى الخارج لأني عملتُ معك معروفاً "

كانت ستيسيا واقفة هناك عارية تماماً، وسروالها الداخلي يتدلّى من ذراعها. وأخيراً شعرتْ بالخجل وبدأت ترتدي بنطالها. وكانت وهي تفعل ذلك تنزلق وتسقط. فهرعتْ مونا فوراً إلى مساعدتها، لكنها أبعدتها جانباً بقوة.

صرخت ستيسيا "دعيني وشأني! أستطيع أن أساعد نفسي بنفسي.

لست طفلة ". قالت هذا ثم نهضت واقفة. وقفت منتصبة برهةً، ثم أحنت رأسها إلى الأمام، ونظرت إلى نفسها إلى مركز تكوين جسمها. وهنا انفجرت ضاحكة، ما يشبه الضحك المخبول.

قالت، وما تزال تضحك بعنف " إذن فأنا طبيعية. يا لها من نكتة! طبيعية، لأنَّ هناك ثقباً هنا يكفي لإدخال عصا فيها. هات اعطني شمعة! سأريكم كم أنا طبيعية! "

قالت هذا وبدأت تقوم بأشدّ الإيماءات فحشاً، وهي تُمعِّج حوضها، وتتلوى وكأنما تمرُّ بانفعالات الرعشة الجنسية.

وزعقت " أريد شمعة! هاتوا أكبر شمعة سوداء ثخينة! سأريكم كم أنا طبيعية! "

صرخت مونا " أرجوك، يا ستيسيا، كفى، أتوسل إليك! "

قال كرونسكي بصرامة " نعم، كفى! لست بحاجة إلى أن تقدمي استعراضاً "

بدا أنَّ كلمة استعراض فاقَمَتْ من إثارتها.

زعقتْ " هذا استعراضي أنا، وهو بالمجّان هذه المرة. في المعتاد أتلقّى أجراً مقابل أن أجعل من نفسي مصدراً للسخرية، أليس كذلك؟"، والتفتت إلى مونا، وهسَّتْ " أليس كذلك؟ أم أنكِ لم تخبريهما كيف دفعنا قيمة الإيجار؟ "

ناشدتها مونا " أرجوكِ، ستيسيا، أرجوك "، وكانت الدموع تطفر من عينيها.

ولكن حينئذٍ لم يكن في قدرة أي شيء أن يوقفها. فقبضت على شمعة تناولتها من سطح طاولة المكتب، وحشرتها في شقِّها، وبينما هي تفعل ذلك كانت تدير حوضها بحركةٍ مسعورة.

twitter @baghdad_library

صرختْ " ألا يستحقُ هذا خمسين دولاراً؟ هذا الذي لا أعرف اسمه مستعدٌ أن يدفعَ أكثر، لكني عندئذٍ سأضطر إلى أنْ أدعه يمصّني حتى يهلكني، ولا أحب أن أُمَصّ حتى الهلاك. ليس من شخصٍ منحرفٍ، على أي حال "

وصدرَ عن مونا " كفى! كفى! أو سأفرُّ هاربة! "

هدأتْ، وسقطت الشمعة على الأرض. والآن ساد قسماتها تعبير جديد. وقالت وهي ترتدي بلوزتها وتوجه كلامها إليّ بصوتٍ هادئ:

" كما ترى، فال، إنْ كان هناك مَنْ يجب أن يشعر بالألم والمهانة فهو أنا وليس زوجتك العزيزة. أنا ليس لديّ حس أخلاقي. لدي فقط حب. فإذا ما احتَجْتُ إلى نقود، أكون دائماً على استعداد لأداء فصلٍ تمثيليّ. وبما أني مجنونة، لا يهمّ ". وسكتَتْ، ثم التفتَتْ جهةَ طاولةِ الزينةِ الكائنةِ في الركنِ المقابلِ من الغرفة. فتحتْ الدرجَ وأخرجَتْ منه مغلقاً. قالتَ وهي تلوّح بالمغلّف في الهواء " أترون هذا ؟ في هذا شيك أرسله الأوصياء عليّ ؛ مبلغ يكفي لسداد إيجار الشهر القادم. ولكن " - وانتقلت بهدوء إلى تمزيق المغلّف إلى قطع صغيرة - " نحن لا نريد هذا النوع من النقود، أليس كذلك؟ نحن نعرف كيف نشق طريقنا بأنفسنا... بإقامة الاستعراضات... بالتظاهر أننا سحاقيات... بالتظاهر بأننا سحاقيات مُدّعيات نتظاهر، نتظاهر... لقد مللتُ ذلك. لِمَ لا نتظاهر بأننا مجرد كائنات بشرية؟ "

ثم جاء دور كرونسكي في الكلام.

" طبعاً أنتِ كائن بشري، واستثنائية جداً. وقد تعرّضتِ للخديعة في وقتٍ ما - أما كيف، فلا أعلم. وزيادة على ذلك، أنا لا أَريد أن أعلم.

لو أني أعتقد أنك ستصغين إليّ لحثثتكِ على الخروجِ من هذا المكان، وترك هذين الاثنين "، ورمانا أنا ومونا بنظرة احتقار، " نعم، اتركيهما ليحلُّوا مشاكلهما وحدهما. إنهما ليسا بحاجة إليك، وأنتِ حتماً لستَ في حاجةٍ إليهما. أنت لا تنتمين إلى مكانٍ مثل نيويورك. بصراحة، أنت لا تتلاءمين مع أي مكان... ولكن ما أريد قوله هو ما يلي... لقد جئتُ إلى هنا كصديق. أنت بحاجة إلى صديق. أما هذان الاثنان، فهما لا يعرفان معنى الكلمة. لعلّك بينكم أنتم الثلاثة أنت الأسلم صحة، وتتّصفين بالعبقرية أيضاً... "

حسبتُ أنه سيستمر هكذا إلى ما لانهاية. ولكن، فجأة. تذكّر بصوتٍ عالٍ أنه يجب أن يقوم بزيارة عاجلةٍ وأسرعَ بالرحيل.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة - كانتا قد قرَّرتا ألاّ تخرجا - حدث أمرٌ غريب. كان ذلك بُعيدَ العشاء، وسط حديثٍ ممتع. كانت السجائر قد نفدت، فطلبت مونا أن أبحث عن بعضها في حقيبتها. وعادةً توجدُ واحدة ضالة في قعرِ الحقيبة. نهضتُ ومشيتُ إلى طاولة الزينةِ حيث كانت الحقيبة، وحين فتحتُها لاحظتُ وجودَ مغلّف مُعَنْوَن بخطِ يدِ ستيسيا إلى مونا. وفي الحال أصبحتْ مونا إلى جواري. ولو لم تُبدِ كل ذلك الرعب لتجاهلتُ وجودَ المغلّف. قبضتْ على المغلّف، غير قادرة على التحكُّم في نفسها. انتزَعْتُهُ من يدها. فقامت مرةً أخرى بالقبض عليه وتَبِعَ ذلكَ مشادّة سقطَ المغلّف أثناءها، بعد أن تمزّق. تشبَّثت ستيسيا به، ثم سلّمته مرةً أخرى لمونا.

ردَّت الاثنتان في وقتٍ واحد: " هذا ليس من شأنك "

لم أزِدْ. لكنَّ فضولي كانَ قد أُثير بشكلٍ كامل. كان لديَّ حدسٌ

twitter @baghdad_library

بأنَّ الرسالةَ ستظهرُ مرةً أخرى. ومن الأفضل أن أتظاهرَ بأني غيرُ مهتمٍّ على الإطلاق.

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة نفسـهـا، وعندمـا توجَّـهت إلى المرحاض، اكتشفت نتَفاً من المغلّف تطفو في الحوض. قهقهت. يا لها من طريقةٍ رديئة لإخباري بأنَّ الرسالةَ قد دُمِّرَتْ! لم أُخدَع بتلك السهولة. التقطت نُتفَ المغلّف من الحوض وأخذتُ أتفحصها بعناية. لم يلتحم أي جزءٍ من الرسالة مع أيٍ من القطع. كنت واثقاً حينئذٍ من أن الرسالة نفسها قد تمّ الاحتفاظ به، وأنها أخفيت في مكانٍ ما، مكانٍ لا يخطرُ في بالي أبداً أن أفتش فيه.

بعد ذلك ببضعة أيام وصلتني معلومةٌ غريبة. سمعتُها في سياقِ جِدالٍ حامٍ بينهما. كانتا في غرفة ستيسيا الصغيرة، حيث كانتا عادةً تجتمعان لمناقشة شؤون سرّية. كانتا تتبادلان كلماتٍ ما كان ينبغي أن تصلَ إلى أُذنيّ، غير مُدركتين وجودي في المنزل، أو ربما كانتا من فرط الحماس بحيث لم تُخفضا صوتيهما.

كانت مونا تثير جحيماً مع ستيسيا، في اعتقادي، لأنَّ هذه الأخيرة تُبدِّد النقود كالحمقاء. أي نقود؟ تساءلتْ. هل وَقَعَتْ على ثروة؟ ويبدو أنَّ ما أثارَ غضب مونا أنَّ ستيسيا أعطتْ أحدَ الحمقى التافهين - لم أستطع سماع الاسم - ألفَ دولار. كانت تحثّها على بذل بعض الجهد لاسترجاع جزءٍ من المبلغ على الأقل. وأخذت ستيسيا تُكرِّر أنها لا يمكنُ أن تفعل ذلك، وأنه لا يهمها ما يفعله ذلك الأحمق بنقودها.

ثم سمعتُ مونا تقول: " إذا لم تنتبهي ستتعرَّضين لاعتداءٍ ذات ليلة"

قالت ستيسيا ببراءة: "سيكون سيء الحظ. لم يعد معي أي شيء"

" **تقولين لم يعُد معك أي شيء؟** "

" طبعاً لا شيء! ولا قرش أحمر "

" أنت مجنونة! "

" أعلمُ هذا. ولكن ما نفعُ النقود إذا لم نُبدِّدها ؟ "

كنتُ قد سمعتُ ما يكفي، فقرَّرتُ أن أتمشَّى. ولدى عودتي لم تكن مونا موجودة.

سألتُ، ليس رعباً بل فضولاً، " إلى أين ذهبت؟ "

تلقَّيتُ نَخْراً كجواب.

" أكانت غاضبة؟ "

نخرٌ آخر، تلاه - " أعتقد ذلك. لا تقلق، ستعود "

دلَّ مظهرها على أنها كانت مسرورة في سرِّها. في الحالةِ العاديّةِ كانت ستضطرب، أو ستخرجُ للبحثِ عن مونا.

سألتني " هل أحضر لك بعضَ القهوة؟ ". كانت تلك المرة الأولى التي تقدِّم فيها ذلك الاقتراح.

قلتُ، بأشدّ ما أستطيع من دماثة " ولمَ لا ؟ "

جلست عند الطاولة، قبالتها. كانت قد قرَّرت أن تشرب قهوتها وهي واقفة.

قالت ستيسيا، لاغيةً كل التمهيدات، " امرأةٌ غريبة، أليس كذلك؟ ماذا تعرف عنها حقاً؟ هل سبق لك أن قابلتَ إخوتها أو أمها أو أختها؟ إنها تدَّعي أنَّ أختها أجمل منها بكثير. أتصدِّق هذا؟ لكنها تكرهها. لماذا؟ إنها تخبركَ الكثير، ثم تتركك مُعلَّقاً. هل لاحظتَ أنَّ كل شيء يتحوَّلُ معها إلى لغز؟ "

twitter @baghdad_library

سكتَتْ برهةً لترشفَ من قهوتها.

" لدينا الكثير لنتحدَّث بشأنه، إذا ما أتيحَتْ لنا الفرصة. ربما نستطيع معاً أن نُعيدَ ترتيب الأشياء "

أوشكتُ أنْ أُعلِّقَ بالقولِ إنه من العَبَثِ حتى أنْ أحاولَ حين استأنفتْ حديثها الإفرادي.

" أعتقدُ أنكَ شاهدتها وهي على خشبة المسرح، أليس كذلك؟ "

أومأتُ إيجاباً.

" أتعلمْ لماذا أسألُ؟ لأنها لا ترى فيَّ ممثِّلة. ولا حتى كاتبة. لا شيء يناسبُ أي شيء. كل شيء هو جزءٌ من تركيبةٍ ضخمةٍ، حتى هي نفسها. الشيء الحقيقي فيها هو ادِّعاؤها. وأيضاً - حبُّها لك "

الجملة الأخيرة جعلتني أنتفض. " أراكِ تصدِّقين هذا حقاً، أليس كذلك؟ "

ردَّدتْ " أصدِّقه؟ إذا لم ترتبط بك لن يكون لديها أي سبب للوجود. أنت حياتها... "

" وأنت؟ أين موقعك؟ "

ابتسمَتْ لي ابتسامةً غريبة. " أنا؟ أنا مجرد قطعة أخرى من الوهم الذي خَلَقَته حولها. أو ربما مرآةٌ تلمَحُ فيها انعكاسَ ذاتها الحقيقية بين حينٍ وآخر ؛ مشوَّهةً، طبعاً "

ثم قالت، منتقلةً إلى أرضيةٍ أكثرَ ألفة، " لماذا لا تدفعها إلى الكفِّ عن هذا التنقيب عن الذهب؟ لا حاجة بها إليه. ثم إنَّ الطريقةَ التي تلجأ إليها تثير الاشمئزاز. لا أدري ما الذي يدفعها إلى فعل ذلك. ليست النقود هي ما تسعى إليه. النقود مجرد ذريعة لشيءٍ آخر. وكأنها تنقِّب

عن شخصٍ ما فقط لتثير الاهتمام بها. وحالما يُبدي أحدُ دلالةَ اهتمام حقيقي تذلّه. حتى المسكين ريكاردو لم ينجُ من تعذيبها ؛ جعلته يتلوّى كسمكةِ حنكليز... يجب أن نفعلَ شيئاً، أنت وأنا. يجب إيقافُ هذا "

وتابعتْ " لو أنكَ تجدُ عملاً لما اضطُرّتْ إلى أن تذهبَ إلى ذلك المكان الفظيع في كل ليلةٍ لتصغي إلى تلك المخلوقات القذرةِ الأفواه التي تتودَّد إليها. ما الذي يمنعك؟ هل تخشى أن تصبحَ تعيسةً وهي تعيشُ حياةً مملّة؟ أم لعلكَ تعتقد أني أنا أدفعها إلى طريقِ الضلال؟ أتعتقد هذا ؟ أتظنُ أني أحب هذا النوع من الحياة؟ مهما كان رأيك فيَّ يجب أن تدرك جيداً أنّ لا علاقةَ لي بهذا كله "

لم أنطق بأي حرف.

" لِمَ لا تتكلم؟ قُلْ شيئاً! "

حالما هممتُ بفتحِ فمي إذا بمونا تدخل - مع باقةٍ من زهر البنفسج. عربون سلام.

سرعان ما ساد السلام التام الجوَّ العام، والانسجام. حتى أنهما خرجتا عن طورهما. فأخرجت مونا عِدَّة الرفو وأخرجت ستيسيا علبة ألوانها. فقبلتُ الأمرَ وكأنه يحدث على خشبة مسرح.

وسرعان ما أنجزتْ مونا صورةً شخصية لي مثيرةً للإعجاب - علّقَتها على الجدار المقابل لي. كانت مرسومةً على هيئة موظف صيني كبير، يرتدي سترةً زرقاء صينية تُبرِزُ التعبير المتزمّت، الخليق بحكيم، الذي كان جلياً أني كنت أتلبَّسه.

رأتْ مونا أنها تسلبُ اللب. ومدحتني أيضاً بأسلوبٍ أموميَّ

twitter @baghdad_library

على جلوسي بسكونٍ ولأني كنت شديد اللطف مع ستيسيا. كانت دائماً متأكدةً من أننا ذات يوم سنتعارَف، ونصبح صديقين حميمين، وما إلى ذلك.

كانت من شِدَّة الفرح بحيث أنها في غمرةِ إثارتها أفرغتْ دون قصدٍ منها محتوى كيس نقودها على الطاولة - أثناء بحثها عن سيجارة - فسقطت الرسالة منه. وكم دُهِشتُ حين التقطتُها وسلَّمتُها إياها، دون أي محاولةٍ مني لاختلاس النظر إلى سطرٍ أو سطرين.

قالتْ ستيسيا " لِمَ لا تدعيه يقرأها؟ "

قالت " سأفعل، ولكن ليس الآن. لا أريدُ أن أُفسِدَ هذه اللحظة "

قالت ستيسيا: " ليس فيها ما يستدعي الخجل منه "

قالت مونا " أعلمُ هذا "

قلت " دعكِ منها، لم يعُد لدي فضول "

" أنتما الاثنان رائعان! كيف يمكنُ لأي إنسان ألاّ يحبكما؟ أنا أحبكما، من كل قلبي"

على هذا الفيض العاطفي الجيّاش أجابت ستيسيا، التي أصبحتْ عندئذٍ في مزاجٍ شيطانيّ قليلاً: " أخبرينا، مَنْ منا تحبين أكثر؟ "

دون أدنى تردُّد جاء الجواب " لا يمكن أن أحبَّ كليكما أكثر مما أفعل. أحبكما أنتما الاثنان. وحبي لأحدكما لا صِلةَ له بحبي للآخر. إنني كلما أحببتكَ يا فال ازداد حبي لستيسيا "

قالت ستيسيا، وهي تلتقط فرشاتها لتعود إلى رسمها: " هذا الجواب لك "

ساد صمتُ بضع لحظات، ثم تكلَّمت مونا " عمَّ كنتما تتحدثان أثناء غيابي؟ "

قالت ستيسيا " عنكِ، طبعاً. أليس كذلك، فال؟ "

" نعم، كنا نقول كم أنتِ مخلوقةٌ رائعة. غير أننا لم نفهم لماذا تحاولين إخفاءَ الأمورَ عنا "

على الفور اتَّخذتْ موقفاً عِدائياً. " أي أمور؟ ماذا تعني؟ "

قالت ستيسيا، وهي تعبثُ بفرشاتها، " دعونا من الخوض في هذا. ولكن علينا قريباً أن نجلس، نحن الثلاثة، لنضع الأمورَ في نِصابها، ألا تعتقدان هذا؟ "، وعلى الأثر استدارت ونظرت مباشرةً إلى وجه مونا.

كان جواب مونا البارد: " لا مانع عندي "

قالت ستيسيا " أترى، إنها غاضبة "

قلتُ " إنها لا تفهم "

مرةً أخرى استشاطت غضباً " ما هو الذي لا أفهمه؟ ما الذي يجري؟ إلامَ ترميان، أنتما الاثنان؟ "

قلتُ " لم يكن لدينا حقاً الكثير لنقوله أثناء غيابك. كنا نتحدث عن الحقيقة وعن الصدق بالدرجة الأولى... وكما تعلمين، ستيسيا إنسان صادق جداً "

انتشرتْ ابتسامةٌ واهيةٌ على شفتيّ مونا. كادت تقولُ شيئاً، لكني قاطعتُها.

" لم يكن شيئاً يستحق أن تقلقي بشأنه. لا ننوي أن نُخضِعَكِ لاستجواب "

twitter @baghdad_library

قالت ستيسيا " نريدُ فقط أن نعرف مدى صدقك "
" إنكِ تتكلمين وكأني ألعبُ معك لعبة "
قالت ستيسيا " بالضبط "
" إذن هذا هو الأمر! أترككما أنتما الاثنين بضع دقائق فإذا بكما تغتابانني. ماذا فعلتُ أستحقُ عليه مثل هذه المعاملة؟ "
هنا، أضعتُ خطَّ الحديث. كل ما استطعت أن أفكِّرَ فيه هو تلك الملاحظة الأخيرة - " **ماذا فعلتُ أستحقُ عليه مثل هذه المعاملة؟** ".
كانت عبارةَ أمي المفضَّلة حين تكون مبتئسةً. في المعتاد كانت ترفُقها بإمالة رأسها بشكلٍ أخرق، وكأنها توجِّه كلامها إلى الله تعالى. حين سمعتُها للمرة الأولى - وكنتُ مجرد طفل - ملأتني رعباً واشمئزازاً. ونبرة الصوت وليست الكلمات ما أثار امتعاضي. يا له من ورعٍ مصطنع! يا له من رثاء للذات! وكأنَّ الله اختارها، هي، المخلوق المثالي، لمعاقبتها على خلاعتها.
حين سمعتُها الآن، من شفتي مونا، شعرتُ كأنَّ الأرضَ انشقَّت من تحت قدميّ. قلت لنفسي " إذن فأنتِ مذنبة **حقاً** ". مذنبة **بماذا**. لم أحاول أن أعرف. هي مذنبة، لا أكثر. وبين حينٍ وآخر كان بارلي يُعرِّج بعد الظهر ويختلي بستيسيا في غرفتها الصغيرة، ويضع بضع بيضات (قصائد)، ثم يندفع هارباً. وفي كل مرة كان يأتي لزيارتنا تصدر أصوات غريبة من غرفة النوم. صرخات حيوانية، يمتزج فيها الخوف بالنشوة. وكأن قطاً زقاقياً ضالاً يقومُ بزيارة لنا.
وذات مرة زارنا ألريك، لكنه وجدَ الجوَّ العامَّ مُقبضاً جداً وعرفتُ أنه

لن يُكرِّر الزيارة أبداً، تكلّم وكأني كنتُ أمرُّ بأحد " الأطوار ". كانت وجهة نظره تقول - حين تخرج من النَفَق، تعال وزرني! كان من شِدةّ الكتمان بحيث لم يتفوّه بأي تعليق حول ستيسيا. كل ما أفلتَ منه كان: "هذه المرأة غريبة الأطوار! "

لكي أعزِّز توددُّي قرَّرتُ ذات يوم أن أحصلَ على بطاقات لحضور عرضٍ مسرحي. وقد اتفقنا على أن نتقابل خارج دار المسرح. وحلّت الأمسية الموعودة. وانتظرت بصبرٍ مدة نصف ساعة بعد رفع الستارة، ولكن مونا لم تظهر. وكتلميذ مدرسة كنتُ قد ابتعتُ باقةً من أزهارِ البنفسج لأقدِّمها لها. وحين لمحتُ انعكاسَ صورتي على واجهةِ أحدِ المحالّ، والبنفسج في يدي، شعرت فجأةً أني شديد الحمق حتى أني رميت الأزهار ومشيت مبتعداً. حين اقتربت من المنعطف استدرت في الوقت المناسب لألمح فتاة صغيرة تلتقط أزهار البنفسج. رفعَتْها إلى منخريها، واستنشقت عبيرها، ثم رمتها بعيداً.

لدى وصولي إلى المنزل لاحظت أنَّ الأنوارَ مُضاء بكامل سطوعها. وقفتُ في الخارج بضع دقائق، مذهولاً من أغنيةٍ تصدح من الداخل. للبرهة الأولى تساءلتُ إنْ كان لدينا زوّار. ولكن لا، لا يوجد أحد غيرهما. لا شك في أنهما كانتا في حالةِ ابتهاج.

الأغنية التي كانتا تغنيانها بأعلى ما في استطاعة رئتيهما كانت

- " دعيني أناديك حبيبتي "

قلت، وأنا أدخل " فلنُغنها من جديد! "

وفعلنا، نحن الثلاثة.

twitter @baghdad_library

" دعيني أناديك حبيبتي، أنا أحبك... "

وأعدنا الغناء، مرةً بعد مرة. في المرة الثالثة رفعتُ يدي.

صحتُ " أين كنتِ؟ "

قالت مونا " أين كنتُ؟ هنا، طبعاً "

" وماذا عن موعدنا ؟ "

" اعتقدتُ أنكَ لستَ جاداً بشأنه "

" أحقاً؟ ". قلتُ هذا وسدَّدتُ صفعةً مدوّيةً إلى وجهها. كانت ضربةً قوية حقاً.

" في المرة القادمة، يا سيدتي، سوف أجرُّكِ إلى هناكَ من ثوبك "

جلستُ على طاولةِ الردهة وأمعنتُ النظرَ فيهما. وخَمَدَ غضبي.

قلت، وأنا أخلع قبعتي، " لم أقصد أن أضربك بقوة. إنَّ مرحكما غير عادي هذا المساء. ماذا حدث؟ "

أمسكتاني من ذراعي وقادتاني إلى مؤخَّر المنزل، حيث تقوم أحواض الغسيل.

قالت مونا، وهي تشير إلى أكوام البقالة. " لهذا السبب كان يجب أن أكون موجودة حين وصلت. لم تكن هناك من طريقة لإعلامك بالأمر. لهذا السبب لم أقابلك "

أقحمت يدها داخل الكومة واستخرجت زجاجة من نبيذ البندكتين. كانت ستيسيا قد انتقت لتوِّها بعض الكافيار الأسود والبسكويت.

لم أزعج نفسي بسؤالهما كيف حصلتا على الغنيمة. سوف يتسرَّب ذلك منهما، لاحقاً.

سألتُ " أليس هناك أي نبيذ؟ "

نبيذ؟ طبعاً يوجد. ماذا أفَضِّل - بوردو، نبيذ راين، موزيل، كيانتي، برغندي...؟

فتحنا قنينة نبيذ راين، وقطرميز من الـ lachs، وعلبة من البسكويت الإنكليزي - من أفخره. ثم عدنا إلى أماكننا حول طاولة الردهة.

قالت مونا " ستيسيا حُبلى "، كما لو أنها قالت " ستيسيا اشترت ثوباً جديداً "

" ألهذا السبب كنتما تحتفلان؟ "

" طبعاً لا "

التفتُ إلى ستيسيا. قلت " أخبرينا، كُلِّي آذانٌ صاغية "

احمرَّ وجهها ونظرت إلى مونا تطلب العون. قالت " دعها هي تخبرك "

التفتُّ إلى مونا " حسن؟ "

" إنها حكاية طويلة يا فال، ولكن سأختصرها. لقد تعرَّضت لهجوم من عُصبة من قُطّاع الطرق في منطقة فيليج، واغتصبوها "

" تقولين عُصبة؟ كم كان عددها؟ "

قالت مونا " أربعة. أتذكر ليلة غبنا فيها عن المنزل؟ في تلك الليلة وقع الحادث "

" إذن فأنتما لا تعرفان مَنْ هو الوالد؟ "

كرَّرتا " **الوالد**؟ نحن لسنا قلقتين على مسألة **الوالد** "

twitter @baghdad_library

قلتُ " أنا مستعد للعناية بالطفل. كل ما عليَّ أن أعرفه هو كيف أُنتجُ الحليب "

قالت مونا " لقد تحدثنا مع كرونسكي، وقد وعد بمعالجة الأمور. ولكن أولاً يريد أن يتفحَّصها "

" مرةً أخرى؟ "

" يجب أن يتأكَّد "

" ألست أنت متأكِّدة؟ "

" ستيسيا متأكدة. إنها لم تعد تحيض "

قلتُ " هذا لا يعني أي شيء، يجب أن يكون لديك دليلٌ أفضل "

الآن تكلّمتْ ستيسيا. " ثدياي يثقلان "، وفكَّت أزرار بلوزتها وأخرجت أحدهما. " أترى! "، وضغطته بلطف فخرجت قطرةٌ أو قطرتان مما بدا أشبه بصديدٍ أصفر. قالت " هذا حليب "

" كيف تعرفين؟ "

" تذوَّقته "

طلبتُ من مونا أن تضغط ثدييها وترى ماذا يحدث، لكنها رفضت. قالت إنَّ ذلك محرج.

" محرجٌ؟ إنك تجلسين متصالبة الساقين وترينا كل ما لديك لكنك ترفضين أن تكشفي عن ثدييك. هذا ليس إحراجاً ؛ إنه تحفُّظ "

انفجرت ستيسيا تضحك. قالت " هذا صحيح. ما الخطأ في أن تكشفي عن ثدييك؟"

قالت مونا " أنتِ الحبلى ولستُ أنا "

" متى سيأتي كرونسكي؟ "

" غداً "

صببتُ لنفسي كأساً أخرى من النبيذ ورفعته عالياً. قلت " في صحة الوليد الذي لم يولد "، ثم أخفضتُ صوتي، وسألت إنْ كانتا قد أبلغتا الشرطة.

تجاهلتا سؤالي، ولكي تُبلغاني بأن الموضوع قد أُقفِلَ، أعلنتا أنهما كانتا تخططان للذهاب إلى المسرح، وأنه يسعدهما أن أرافقهما، إنْ شئت.

سألتُ " لأشاهدَ ماذا؟ "

قالت ستيسيا " مسرحية **الأسيرة**، وهي مسرحيةٌ فرنسية. الجميع يتحدثون عنها "

أثناء الحديث كانت ستيسيا تحاولُ أن تقصَّ ظفر إصبع قدمها الأكبر. كانت خرقاء حتى أني توسَّلتُ إليها أن تترك الأمرَ إليّ. وبعد أن أنهيتُ عملي اقترحتُ أن تدعني أمشِّطَ لها شعرها. فابتهجت.

بينما كنتُ أمشِّطَ شعرها راحت تقرأ بصوتٍ عالٍ قصيدة " القارب السكران "[١٩]. ولما كنتُ أصغي باستمتاعٍ جليّ قَفَزَتْ وهرعَتْ إلى غرفتها لتُحضِرَ سيرة حياة رامبو. كانت من تأليف كاريه " فصل في الجحيم ". ولو لم تتآمر الأحداثُ لتُحبِطَ الأمر لأصبحتُ نصيراً لرامبو في التو واللحظة.

يجب أن أقول إننا لم نكن كثيراً نقضي أمسيةً معاً بذلك الأسلوب، أو ننهيها بمثل ذلك الجَرسْ الجميل.

مع وصول كرونسكي في اليوم التالي ونتائج الفحص السلبية،

twitter @baghdad_library

بدأت الأمورُ تتشوهُ من فرط جدِّيتها. أحياناً كان عليّ أن أتخلّى عن وعودي بينما هما ترفِّهان عن صديقٍ مميَّز، يكونُ عادةً مُحسِناً جَلَبَ معه مؤونةً من البقالة أو ترك شيك على الطاولة، بما أنهما كانتا تتحدثان أمامي فإنهما غالباً ما كانتا تنغمسان في حديثٍ مموَّه. أو تتبادلان ملاحظات مكتوبة كتبتاها أمام عينيّ. أو قد توصدان عليهما باب غرفة ستيسيا وتبقيان تتهامسان فترةً طويلةً. حتى القصائد التي ألَّفتها ستيسيا أخذت تصبحُ مبهمةً أكثر فأكثر. على الأقل تلك التي تنازلت وأرتني إياها. قالت إنه تأثير رامبو. أو صندوق المرحاض الذي لا يكفّ عن الغرغرة.

بين حينٍ وآخر كنا نمرّ بفترات راحة بزيارات متفرِّقة من أوزيكي الذي اكتشف حانة ظريفة غير مُرخَّصة، تقعُ فوق مؤسسة لدفن الموتى، وغير بعيدة. شربتُ بضع كؤوس من البيرة معه - إلى أن شحبَ لون عينيه وبدأ يهرشُ نفسه. أحياناً كان يخطر في بالي أن أذهب إلى هوبوكن، وبينما أنا أتجوَّل في المكان يائساً، أحاولُ أن أقنع نفسي بأنها مدينةٌ مسلّية. كانت هوبوكن مكاناً آخر تخلّى الله عنه وكنت أتردَّدُ عليه أحياناً، عادةً لكي أشاهدَ عرضِ منوعات، أو أي شيء لأهربَ من جو الطابق التحتيّ المعتوه، من الغناء المتواصل لأغاني الحب - كانتا مولعتين بالغناء بالروسية، والألمانية وحتى باليديية! - ومن المسامرات الغامضة داخل غرفة ستيسيا، والأكاذيب الوقحة، والحديث المُقبض عن العقاقير، ومباريات المصارعة...

نعم، كانتا بين حينٍ وآخر تقومان بمباراة مصارعة لصالحي. **فهل**

كانتا تقدِّمان مباريات مصارعة؟ يصعبُ إعطاء جواب. أحياناً، ومن باب كسر الروتين المملّ، كنتُ أستعيرُ الفرشاة والألوان وأرسم رسوماً كاريكاتيرية لستيسيا.

كانت دائماً تعلِّقها على الجدران، كردٍّ لطيفٍ منها. وذات يوم رسمت جمجمةً وعظاماً متصالبةً على بابها. وفي اليوم التالي وجدتُ سكينَ نحتْ مُعلَّقة فوق الجمجمة والعظام.

ذات يوم قدَّمتْ لي مسدساً ذات مقبض مرصَّع باللؤلؤ. قالت "تحسُّباً"

كانتا تتهماني حينئذٍ بأني أتسلل إلى غرفتها وأفتش في أشيائها.

وذات أمسية، بينما كنتُ أتجول وحيداً مستوحشاً في الجزء البولوني من حيِّ مانهاتن صادفتُ مكتباً للمراهنات، وكم فوجئتُ حين قابلتُ كرلي مع صديقٍ له من رواق الرماية. وصديقه هذا كان فتى غريب الأطوار، خرجَ حديثاً من السجن، وكان سريع الهياج وذا مُخيِّلة غنية. وأصراً على أن يعودا معي إلى المنزل لنتبادل حديثاً بهيجاً.

في القطار النفقي حكيتُ لكرلي الكثير عن ستيسيا. بدا من ردَّة فعله كأنه على معرفةٍ تامةٍ بالوضع.

علَّقَ باقتضاب " يجب أن نفعل شيئاً "

حين أدرت الأضواء قَفَزا مُجفلين.

قال كرلي " لابد أنها مجنونة! "

تظاهر صديقه بأنَّ الرسومات تخيفه. لم يستطع أن يُبعِد عينيه عنها.

قال " لقد رأيتها من قبل "، يقصد في السجن.

twitter @baghdad_library

قال كرلي " أين تنام هي؟ "

أريته غرفتها. كانت في حالةٍ من الفوضى الشاملة - كتب، ومناشف وسراويل داخلية نسائية، وقطعٍ من الخبز منثورة على السرير وعلى الأرض.

قال صديق كرلي " مجنونتان! مجنونتان تماماً! "

في تلك الأثناء كان كرلي قد بدأ يتجول في المكان بفضول. انهمكَ في فتح الأدراج واحداً بعد آخر، ويخرجُ محتوياتها، ثم يُعيدها إلى الداخل.

سألت " عمَّ تبحث؟ "

نظر إليَّ ورسم ابتسامةً عريضة. قال " مَنْ يدري "

على الفور ثبَّتَ عينيه على الصندوق الكبير الكائن في الركن تحت صندوق المرحاض.

" ماذا يوجد هناك؟ "

هززتُ كتفيَّ.

قال " دعنا نرى ". فتح المشبك، لكنَّ الغطاء كان مُقفلاً. ثم التفتَ إلى صديقه، وقال " أين أداتك السحرية؟ هيا اشتغل! لدي حدسٌ بأننا سنعثر على شيءٍ مثير "

سرعان ما خلع القفل. فتحا غطاء الصندوق بنخعةٍ واحدة. أول ما قابل عيوننا علبةٌ صغيرةٌ من الحديد، صندوق لحفظ الأحجار الكريمة، دون شك. لم ينفتح. مرة أخرى جرَّبَ صديقه أداته السحرية، ولم يستغرق فتح العلبة أكثر من لحظة.

وسط كومةٍ من الـ billets-doux (رسائل غرام) - من أصدقاء

مجهولين - اكتشفنا الرسالة القصيرة التي من المفترض أنها غرقتْ في المرحاض. كانت مكتوبةً بخط يد مونا، بلا شك. وتبدأ هكذا: " أنا يائسة، يا حبيبي... "

قال كرلي " احتفظ بها، قد تحتاجُ إليها لاحقاً "، وبدأ يحشر باقي الرسائل داخل العلبة. ثم التفت إلى صديقه ونصحه بأن يجعل القفل يبدو كما ينبغي. ثم أضاف" احرص أيضاً على أن يعمل بشكلٍ صحيح؛ يجب ألاّ تشكّان في أي شيء "

ثم، وكاثنين من عُمّال المسرح، راحا يُعيدان الغرفة إلى حالة الفوضى السابقة، وحتى نثر فتات الخبز. تجادلا بضع دقائق حول ما إذا كان أحد الكتب الملقاة على الأرض مفتوحاً أم مغلقاً.

حين همَمنا بمغادرة الغرفة أصرَّ الشابُ على أنَّ البابَ كان موارباً، وليس مغلقاً.

قال كرلي " أيري فيه! لن تتذكّرا ذلك "

لفتت هذه الملاحظة انتباهي فقلت " ما الذي يجعلك متأكداً جداً؟ "

أجاب " إنه مجرد حدس. إنَّ المرءَ لا يتذكّر إلا إذا كان لديه سبب لترك الباب موارباً. أي سبب كان لديها يا تُرى؟ ولا أي سبب. الأمر بسيط "

قلتُ " إنه بسيط أكثر مما ينبغي. الإنسان يتذكّر أحياناً أشياء تافهة دون أي سبب "

كان جوابه هو أنَّ كلَّ مَنْ يعيشُ وسط القذارة والفوضى لا يمكنُ أن يتمتع بذاكرة جيدة، وقال " خذ عندك اللص مثلاً، إنه يعرفُ ما يفعل،

twitter @baghdad_library

حتى حين يرتكبُ خطأً. إنه يحفظ مسار الأشياء. وعليه أن يفعل وإلاّ خانه الحظ. اسأل هذا الشاب! "

قال صديقه " معه حق. إنَّ الأخطاء التي ارتكبتها نتجت عن إفراطي في الحرص "، وأراد أن يحكي لي حكايته، لكنني حثثتهما على المغادرة. قلت " وفِّرها للمرة القادمة "

أثناء إبحارنا في الشارع، والتفت كرلي نحوي ليبلغني بأني أستطيع أن أعتمد على مساعدته في أي وقت. وقال " سوف ندبِّرها "

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

بدأتْ الأمورُ تتّخذ شكل سلسلةَ مشاهد في حلمٍ أفيونيّ، من قراءة الأحشاء، إلى حل سر الأكاذيب، والمباريات مع أوزيكي، والهيام وحيداً ليلاً على طول الواجهة المائيّة، ومقابلة " الأساتذة " في المكتبة العامة، واللوحات الجدارية، والتحاور مع الذات الأخرى في الظلام، وما إلى ذلك. لم يعد هناك ما يفاجئني، ولا حتى وصول سيارة إسعاف. وكان أحدهم، هو كرلي في الغالب، قد خرجَ بتلك الفكرة عن تخليصي من ستيسيا. ولحسن الحظ كنتُ وحدي حين وصلت سيارة الإسعاف. لا وجود لأي شخصٍ مجنون في هذا العنوان، كما أبلغتُ السائق. بدا مُحبَطاً. لقد طلب أحدهم منهم بالهاتف أن يأتوا ويأخذوها. قلتُ، إنها غلطة.

كانت الأختان الألمانيتان اللتان تملكان البناء تمرّان أحياناً لتطمئنان على أنَّ كل شيء على ما يرام، ولا تمكثان أكثر من دقيقة أو اثنتين. وأنا لم أرهما إلا مُهملتيّ المظهر وقذرتين. إحدى الأختين كانت ترتدي إحدى فردتيّ جوربها زرقاء اللون والأخرى وردية وبيضاء مُخطَّطة. كانت الخطوط لولبيّةً، كما في عمودِ محل الحلاقة.

ولكن فلنتكلّم عن " **الأسيرة** " ... ذهبتُ لأشاهد المسرحية وحدي، دون أن أُعلمها. وبعد مرور أسبوعٍ ذهبتا لمشاهدتها، وعادتا مع أزهار البنفسج ومُترعتين بأغنية. هذه المرة كانت " فقط قبلة في الظلام "

ثم ذات أمسية - كيف حدث ذلك بحق الله؟ - ذهبنا نحن الثلاثة لنتناول الطعام في مطعمٍ يوناني. وهناك كَسَرتا الصمت وتحدَّثتا عن "**الأسيرة** "، كم كانت مسرحيةً رائعة وأنه ينبغي أن أشاهدها في وقتٍ ما، فقد توسِّعَ مجال أفكاري. قلت " ولكني شاهدتها فعلاً. شاهدتها قبل أسبوع ". وعلى الأثر بدأ نقاش حول مزايا المسرحية توَّجناه بزجاجة خمرٍ ممتاز لأني فشلتُ في أن أشاركهما رأيهما، لأني فسَّرتُ كل شيءٍ بطريقةٍ مبتذلة، سوقيّة. ووسط الجدال قدَّمتُ الرسالة المسروقة من علبة المجوهرات الصغيرة. وبعيداً عن الشعور بالخيبة أو بالمهانة انهالتا عليّ بالتوبيخ السامّ، وأثارتا عاصفة من الاحتجاج، وسرعان ما ساد المطعم كله صخبٌ وطُلِبَ منا ليس بكثير من التهذيب، أن نغادر المكان.

في اليوم التالي اقترحتْ مونا، وكأنما لتُصلِح ما أفسدته، أن نخرجَ معاً لنسهر في الخارج ذات ليلة ن من دون ستيسيا. في أول الأمر تردَّدتُ لكنها ظلّت تلحّ. وحسبتُ أنَّ لديها سبباً خاصاً بها، سوف تكشف عنه في الوقت المناسب. فوافقت. وتقرَّرَ أن نخرجَ في ليلةِ بعد غد.

وحلّت الأمسية ولكن، بينما كنا نهمُّ بالمغادرة، أصبحت مترددِّة. صحيح أني كنتُ أوبِّخها حول مظهرها - أحمر الشفاه، والرموش الخضراء اللون، والوجنتان المبودرتان باللون الأبيض، ورداء الكتفين الذي يبلغ طوله الأرض، والتنورة التي بالكاد تصل إلى ركبتيها، وفوق ذلك كله، الدمية ذات النظرة الشذراء وتمثّلَ الكونت بروغا ذا المظهر المنحطّ، التي كانت تُعلِّقها على صدرها وقصدت أن تأخذها معها.

قلت " كلا، لن تأخذي **هذه**، وحق الله! "

" ولماذا ؟ "

" لأنَّ... اللعنة، **كلا**! "

twitter @baghdad_library

أعطتْ الكونت إلى ستيسيا، وخلعت رداء كتفيها، ثم أجلستني لكي نفكِّرَ في الأمر. وقد أنبأتْني تجربتي أنَّ تلك هي نهاية تلك السهرة. ولكن كم دُهِشتُ حين اقتربتْ ستيسيا وأحاطتنا بذراعيها - كما لو كانت أختنا الكبرى - وناشدتنا ألاَّ نتشاجر. قالت " اذهبا! اذهبا واستمتعا بوقتكما! سأنظف المنزل أثناء غيابكما "، ودفعتنا بلطف نحو الخارج. وبينما نحن نبتعد كانت هي تصيح - " اقضيا وقتاً ممتعاً! استمتعا! "

كانت بدايةٌ عرجاء، ولكن كنا قد قرَّرنا أن نمضي فيها حتى النهاية. وبينما نحن نحثُّ خطانا - ولكن لماذا؟ لِمَ العجلة؟ - شعرتُ كأني أكادُ أنفجر. لكني عجزتُ عن النطق بأي كلمة، كنتُ مربوطَ اللسان. ها نحنُ، متشابكا الذراعين " لنستمتع بوقتنا ". ولكن دون وجود أي خطة محدَّدة. هل كنا فقط نستنشق الهواء؟

أدركتُ في الحال أننا متوجهان إلى القطار النفقي. دخلنا المحطة، وانتظرنا وصول القطار، ثم ولجناه، وجلسنا. ولم تكن أي كلمة قد عَبَرَتْ بيننا. عند محطة ساحة تايمز نهضنا، كإنسانين آليين مدَوزنين على طول موجة واحدة، وأخذنا نرتقي الدرجَ بخطى متعثِّرة إلى شارع برودواي. برودواي القديم نفسه، نار جحيم النيون القديم نفسه. اتجهنا شمالاً غريزياً. توقَّفَ الناسُ عن مواصلة سيرهم وأخذوا يحدِّقون إلينا. تظاهرنا بأننا لا نلاحظهم.

أخيراً وصلنا إلى واجهة مطعم تشن لي. سألَتْ " هل ندخل؟ ". أومأتُ برأسي إيجاباً. سارت مباشرة إلى المقصورة التي كنا قد شغلناها في تلك الليلة الأولى - قبل ألف عام.

حالما أُحضِرَ الطعام انحلَّتْ عقدة لسانها. عاد كل شيءٍ يفيض:

الطعام الذي أكلناه، والطريقة التي جلسنا فيها متقابلَين، والأنغام التي أصغينا إليها، والكلام الذي تبادلناه... لم نترك تفصيلاً واحداً.

مع توالي الذكريات ازددنا رومانسيةً. " الوقوع في الحب من جديد... لم أرغب في ذلك... ماذا أفعل...؟ " وكأنَّ لا شيءَ حدث خلال الفترة الزمنية الفاصلة - لا ستيسيا، ولا حياة في الدرك الأسفل، ولا سوء فهم. نحن الاثنان فقط ؛ عصفوران متآلفان، أمامنا الحياة الأبدية.

كان الأمرُ أقرب إلى بروفة ملابس كاملة. غداً سوف نمثِّل أدوارنا - في مسرحٍ ممتلئ حتى آخره.

لو أني سُئلتُ ما هو الواقع الحقيقي، أهذا الحلمُ بالحب، هذه التهويدة، أم الدراما الزائفة التي ألهمتْ به، لقلتُ - " بل هذا الواقع، **هنا**! "

الدراما والواقع - أليسا قابلَين للتبادُل؟

منحنا لسانينا مطلق الحرية، متجاوزَين نفسينا، وتبادلنا النظرات بعيونٍ جديدةٍ، عيون أشدُّ جوعاً، ونهماً من ذي قبل، مُصدّقين، نُعطي وعوداً، وكأنها آخر ساعة لنا على الأرض. أخيراً عثر كلٌّ منا على الآخر، وتفاهمنا، وسوف نبقى على حب أحدنا للآخر إلى أبد الآبدين.

غادرنا، وما نزال منتعشين، ونترنّحُ فعل أبخرة السعادة، متشابكي الذراعين وأخذنا نجوب الشوارع. لم يتوقف أحدٌ لينظر إلينا.

في مقهى برازيليّ جلسنا مرةً أخرى واستأنفنا حوارنا. هنا أبدى التيار الساري دلائل التقلُّب. هنا تمَّ البوحُ باعترافاتٍ عرجاء مشوبةٍ بشعورٍ بالذنب وبالندم على كل ما فعلتُ، وقد فعلتُ أشياء هي أسوأ مما تصوَّرتُ أنه أُنجِزَ عبر الخوف من فقدان حبي. ولما كنتُ ساذجاً أصررتُ على أنها تبالغُ ؛ ناشدتُها أن تنسى الماضي، وأعلنتُ أنه لا يهمّ إنْ كان

twitter @baghdad_library

صحيحاً أو مزيّفاً، حقيقياً أم وهمياً. وأقسمتُ على أنه لا يمكنُ أن يوجد غيرها في حياتي.

الطاولة التي كنا نجلس عليها كانت على شكل قلب، وإلى ذلك القلب العقيقيّ بحنا بتعهّدنا بالإخلاص إلى الأبد.

وأخيراً، لم أعد أتحمَّل الوضع. لقد سمعتُ أكثر مما ينبغي. ناشدتُها " هيا نذهب "

دَرَجنا إلى المنزل في سيارةِ أجرة، وكنا من فرط الإرهاق بحيث لم نتبادل أي كلمة أخرى.

دخلنا على مشهدٍ مختلفٍ تماماً. كل شيء كان مُنظَّماً، ومُلمَّعاً، وبراقاً. كانت المائدة قد أُعدَّتْ لثلاثة أشخاص. وفي وسط المائدة وضعت مزهريةٍ ضخمة تبرز منها باقة هائلة من أزهار البنفسج.

كان يمكن أن يكونَ كل شيءٍ على أحسن ما يرام لولا أزهار البنفسج. لقد بدا وجودها طاغياً على كل ما تبادلناه من كلمات. وكانت لغة الأزهار الصامتة فصيحة ومُفحمة. فمن دون أن تنفرج شفاهها وَضَّحَتْ لنا أنَّ الحبَّ شيءٌ يُشاطَر. " أحبِّني كما أحبك ". تلك كانت الرسالة.

*

كان عيد الميلاد يقترب موعده، واحتراماً لروح العيد قرَّرتا أن تدعوا ريكاردو لزيارتنا، وكان منذ شهور طويلة وهو يستجدي السماح له بنيل هذا الامتياز ؛ ولم أفهم كيف استطاعتا أن تُخفيا ذلك المتودِّد اللجوج عني كل تلك الفترة الطويلة.

لما كانتا قد ذكَرَتا اسمي كثيراً على مسامع ريكاردو - كنتُ

صديقهما الكاتب الغريب الأطوار، وربما العبقري! - فقد تقرَّرَ أن أظهر فجأةً فور وصوله. وكان لتلك الاستراتيجية هدف مزدوج، لكنَّ الفكرةَ الرئيسيّة كانت التأكُّد من أنَّ ريكاردو سوف يغادرُ مع مغادرتهما.

وصلتُ لأجدَ ريكاردو يقومُ بإصلاح تنورة. كان الجو العام يشبه جو لوحات فرمير[20]. أو غلاف صحيفة " **ساترداي إيفننغ بوست** " يصوِّر نشاطات " سيدات المساعدة المنزلية "

أحببتُ ريكاردو على الفور. كان مُطابقاً لكل ما قالتاه عنه بالإضافةِ إلى شيءٍ بعيد عن التقاط هوائيهما. باشرنا الحديث دون مقدمات وكأننا كنا صديقين طوال حياتنا. أو أخوين. كانتا فد قالتا إنه كوبيّ، لكنني سرعان ما اكتشفتُ أنه كاتالونيّ هاجرَ إلى كوبا وهو شاب. وكباقي سلالته، كان جدّياً، إلى درجةِ الكآبة، في المظهر. ولكن حالما يبتسم يستشفُّ المرءُ قلبه الطفوليّ. ونبرة صوته الحَلْقيّة الأجشة جعلت كلماته أشبه بأنغام أوتار موسيقية. ومن الناحية الجسدية كان يحملُ شبهاً قوياً بكاسال[21]. كان جدّياً بعمق، ولكن ليس إلى حد التطرُّف، كما دفعتاني إلى الاعتقاد.

حين رأيته منحنياً فوق خياطته تذكَّرتُ الخطاب الذي ألقته مونا عنه ذات مرة. وخاصة تلك الكلمات التي نطقها بهدوء شديد. " ذات يوم سأقتلك "

كان بحقّ رجلاً قادراً على تنفيذ مثل ذلك العمل. والغريب في الأمر أني شعرتُ بأنَّ كل ما يقرِّر ريكاردو أن يفعله مُبرَّر بشكلٍ مطلق. وفي حالته، لا يمكنُ وصفُ القتل بالجريمة، بل هو إقرارٌ للعدالة. لقد كان

twitter @baghdad_library

الرجلُ عاجزاً عن القيام بأي عمل قذر ؛ كان رجلَ قلبٍ، بل كلّه قلب، في الواقع.

كان يرشفُ على فترات الشاي الذي قدّمتاه له. ولو أنه كان ألعاباً نارية فأعتقد أنه كان رشفها بالطريقة الهادئة والمنتشية نفسها. كان طقساً يحرصُ على أدائه. حتى أسلوبه في الكلام يعطي انطباعاً بأنه جزءٌ من طقس.

في أسبانيا كان موسيقياً وشاعراً ؛ وفي كوبا أصبح إسكافياً. هنا هو نكرة. ولكنَّ وضعِ النكرة ناسبه تماماً. كان لا شخصاً وكل شخص. لا شيء لديه ليُثبته، لا شيء يُنجزه. كان راسخاً، كصخرة.

كان مألوفاً كالإثم، ولكن من كلّ سُمٍّ في كيانه كان لا يشعُّ إلاّ الرقّة، والرحمة والصبر. هذا هو الرجل الذي كانتا تتصوران أنهما تقدمان له معروفاً عظيماً! ما كان أقلّ إدراكهما لفهمه الحادّ! من المستحيل عليهما أن تُصدِّقا أنه، على الرغم من معرفته بكل شيء، كان ما يزال لا يستطيع أن يهبَ إلاّ الحب، أو أنه لا يتوقَّع من مونا أكثر من امتيازِ إزكاء نار عاطفته المشبوبة.

قال بهدوء "ذات يوم سأتزوجك. حينئذٍ سيكون كل هذا أشبه بالحلم"

رفع عينيه ببطءٍ، ونظر أولاً إلى مونا، ثم إلى ستيسيا، ثم إليّ. وكأنه يقول - " لقد سمعتني "

قال، وهو يُثبِّتني بتحديقه المباشر، الرقيق، " كم أنت محظوظ، كم أنت رجل محظوظ لأنك تستمتعُ بصداقةِ هاتين الاثنتين. أنا لم يُسمَح لي بالانضمام إلى الحَلَقَة المركزية "

ثم يتّجه إلى مونا ويقول " سوف تملّين قريباً من كونك غامضةً دائماً. وكأنكِ تقفين أمام المرآة طوال النهار. إنني أراكِ من خلف المرآة. الغموض لا يكمنُ فيما تفعلين ولكن فيما أنتِ عليه. وحين سأخرجكِ من هذه الحياة المَرضيّة ستصبحين عارية كتمثال، الآن جمالك هو كل أثاثك. وقد تنقَّلَ أكثر مما ينبغي في المكان. ويجب أن نعيده إلى حيث ينتمي - فوق كومةِ الزبالة. وكان يا ما كان ذات مرة حسبتُ أنَّ كل شيء يجب التعبير عنه شعرياً، أو موسيقياً. لم أدرك أنَّ هناك مبرراً، للأشياء القبيحة. بالنسبة إليّ أسوأ شيء هو السوقيّة. لكنَّ السوقيّة يمكن أن تكون صادقة، بل وممتعة، كما اكتشفت. إننا لسنا بحاجة إلى أن نرفع كل شيء إلى مستوى النجوم. كل شيء يقوم على أساسٍ رخو. حتى هيلين الطروادية. لا أحد، ولا حتى أجمل النساء، يجب أن تختبئ خلف جمالها... "

بينما كان يتكلّم هكذا، بأسلوبه الهادئ المتَّزِن، تابع عملية إصلاح الثوب. قلت في نفسي، هذا حكيم حقيقي. ذكرٌ وأنثى منقسمَين بالتساوي ؛ جيّاش العاطفة، لكنه هادئ وصبور ؛ ومنفصل، لكنه يمنحُ نفسه بأكملها ؛ يرى بوضوح عمق روح محبوبته، وهو راسخ، ومخلص، وعاشق أعمى، لكنه واعٍ حتى لأقلّ نقائصها. إنه بحق روح لطيفة، كما كان يمكن لدوستويفسكي أن يقول.

كانتا قد ظنتا أني سأستمتع بلقاء هذا الشخص لأنَّ لديَّ نقطةَ ضعف أمام الحمقى!

بدل أن تتحدثا معه راحتا تمطرانه بالأسئلة، أسئلة سخيفة. كان القصد منها الكشف عن طبيعته البريئة الحمقاء. وقد أجابَ عن

twitter @baghdad_library

استفساراتهما كلها بالأسلوب نفسه. أجاب عنها وكأنه يُجيبُ على تعليقات أطفال لا معنى لها. وفي حين كان على وعي تام بلا مبالاتهما العميقة بشروحه، التي كان يُطيلها عن عمد، فإنه كان يتكلّم كما يُخاطب رجلٌ حكيمٌ غالباً طفلاً: زرعَ في عقليهما بذوراً ستنبتُ لاحقاً، وحين تنبت ستذكرهما بقسوتهما، وجهلهما المتصلّب، وبميزة الحقيقة الشافية.

في الواقع لم تكونا عنيدتين كما قد ينمّ عليه سلوكهما. لقد انجذبتا إليه، بل يمكن القول إنهما أحبتاه، بطريقة كانت في نظرهما فريدة من نوعها. لم يكن في إمكان أي شخص يعرفانه أن يُبدي مثل ذلك الحب الصادق، والاحترام العميق. وهما لم تسخرا من ذلك الحب حتى وإن كان كذلك، لكنه سبَّب لهما الحيرة. كان حباً من النوع الذي لا يثيره إلا الحيوان. إذ أنَّ الحيوان فقط، كما يبدو، قادر على إبداء ذلك القبول التام للرقة الإنسانية التي تؤدي إلى استسلام الكيان بأكمله - وهو، زيادةً على ذلك، استسلامٌ غير مشروط نادراً ما يحدث بين اثنين من البشر.

بالنسبة إليّ كان أكثر من غريب أن يقع مثل ذلك المشهد حول طاولةٍ حيث يدور باستمرار الكثير من الحديث عن الحب. وبسبب تلك التفجّرات المتوالية حقاً صرنا نُطلق عليها اسم طاولة الأمعاء. وكثيراً ما تساءلتُ في أي مسكنٍ آخر يمكنُ أن يوجد مثل هذا الاضطراب المتواصل ,هذا الجحيم من العواطف، هذا الحديث المدمِّر عن الحب الذي دائما تُبدِّده نغمةُ نشاز؟ الآن فقط، في حضور ريكاردو، برزت حقيقةُ الحب . والغريب أنَّ الكلمة نفسها كانت نادراً ما تُذكَر. لكنه كان حباً، لا شيء

آخر، ذلك الذي شعَّ من قَسَمات وجهه كلها، وفاض من كل ما نطقَ به.

أقولُ، الحب. ويمكن أيضاً أن يكون الله.

لقد فهمتُ منهما أنَّ ريكاردو هذا نفسه ملحد حتماً. وكان يمكنُ أيضاً أن تقولا - مجرم حتماً. لعلَّ أعظم عشّاق الله والإنسان كانوا ملحدين حتماً، ومجرمين حتماً. بعبارة أخرى، مجانين في الحب.

لم يكن ريكاردو يأبه لما يظنّه الآخرون به. كان يمكن أن يعطي وَهمَ كونه ما يرغب الآخرون في أن يكونه. ومع ذلك كان دائماً نفسه.

قلتُ في نفسي، إذا لم أقابله مرة أخرى فإني لن أنساه أبداً. وعلى الرغم من أنه قد لا يُتاح لنا إلاّ مرَّة واحدة في الحياة أن يكون في حضرة كيانٍ كامل وأصيل تماماً، فهذا كاف. بل أكثر من كاف. ولم يكن صعباً أن أفهم لماذا استطاع المسيح، أو بوذا، وبكلمةٍ واحدة، أو نظرة، إيماءة، أن يؤثِّر بعمق على طبيعة ومصير أرواح مشوَّهة تتحرك في مدارهم. وفهمتُ أيضاً لماذا ينبغي على البعض أن يبقوا كتيمين.

وسط هذه التأملات تبدَّى لي أنه ربما كنتُ قد لعبتُ دوراً مُشابهاً، وإنْ كان بإتقانٍ أقلّ بكثير في تلك الأيام التي لا تنسى حين كان يتدفَّق إلى مكتبي سيلٌ متدفق من رجالٍ ونساءٍ، وشبان سيِّئي الحظ من كل صنف ولون، يستجدون مثقال ذرة من الفهم، إشارة غفران، لمسة عطف. من مكان جلوسي، كمدير استخدام، لابد أني بدوتُ لهم إما كإله رحيم أو كقاضٍ صارم، وربما حتى كجلاَّد. كانت لي سُلطة ليس فقط على حياتهم ولكن على مَنْ يحبونهم، بل وسُلطة على أرواحهم ذاتها. كانوا يسعون ورائي بعد ساعات الدوام ويعطونني انطباعاً بأنهم مُدانون

twitter @baghdad_library

يتسللون إلى كرسي للاعتراف عبر باب الكنيسة الخلفي، جاهلون أنهم باستجدائهم الرحمة إنما يجرودنني من أسلحتي، يسلبونني قوتي وسُلطتي. لم أكن أنا الذي ساعدهم في مثل تلك اللحظات، بل هم الذين ساعدوني، جعلوني متواضعاً، شفوقاً، علّموني كيف أهب.

كم من مرة شعرتُ، بعد مشهد يعصر القلوب، بأني مضطرٌ إلى أن أعبر الجسر - لألملمَ شتات نفسي. كما كان يثير أعصابي، ويحطّمها أن يعتبرونني مخلوقاً كُلّي القدرة! وكم كان يثيرُ السخرية وسخيفاً أيضاً أن أكون مضطراً، أثناء أدائي واجباتي الروتينية، إلى لعب دورِ مسيحٍ صغير! وأتوقّف عند منتصف المسافة وأتّكئ على الحاجز. أراحني مشهد المياه الزيتية، المعتمة في الأسفل. أفرغتُ أفكاري وانفعالاتي المضطربة إلى التيار المصطخب.

ما كان أكثرَ تهدئةً وفتنةً لروحي الانعكاساتُ الملوّنة التي تراقصت على سطح المياه في الأسفل. كانت تتراقص كمصابيح مهرجانيّة تترنح في وجه الريح ؛ سخرتُ من أفكاري الكئيبة وأضاءت تصدُّعات بؤسي العميقة التي تفغر أفواهها داخلي. تملّكني، وأنا مُعلّقاً فوق تدفُّق النهر، شعور بأني منفصل عن المشاكل كلها، متحرّراً من الهموم والمسؤوليات كلها. لم يتوقّف النهر لحظة واحدة لكي يتأمل ويتساءلُ، ولم يسعَ لحظة واحدة إلى تغيير مساره. دائماً يتقدّم، يتقدّم، غزيراً وثابتاً. حين أنظر خلفي باتجاه الشاطئ، كم تبدو ناطحات السحاب التي تلقي بظلالها على ضفة النهر أشبه بأبنية دمية! كم تبدو مؤقّتة وضئيلة، وتافهة، ومتغطرسة! نحو تلك القبور الفخمة يشقُّ الرجالُ والنساءُ طريقهم بجهدٍ

على مرّ الأيام، يقتلون أرواحهم لكي يكسبوا لقمة عيشهم، ويبيعون أنفسهم، ويبيع أحدهم الآخر، وبعضهم يبيعُ حتى الله، ومع حلول الليل يتدفّقون مرةً أخرى، كالنمل، يختنقون المجارير، يغوصون تحت الأرض، أو يعدون نحو المنزل مسرعين ليدفنوا أنفسهم مرةً أخرى، ليس في قبورٍ فخمةٍ هذه المرة وإنما، كما يفعل البائسون المنهزمون، المُنهكون، المهترئون أمثالهم، في أكواخٍ، ومآربٍ[٢٢] الأرانب التي يسمّونها " منازل ". في النهار يكونُ جبّانة الجهد والكدّ العبثيين ؛ وفي الليل مقبرة الحب واليأس. وتلك المخلوقات التي تعلّمت بكل إخلاص أن تركض، وتستجدي، وتبيع أنفسها وإخوانها البشر، وترقص كالدببة أو تؤدي حركات ككلاب مدرّبة، ودائماً أبداً تناقض فطرتها الخاصة، وهذه المخلوقات البائسة ذاتها تنهار بين حين وآخر، وتبكي كمنابع البؤس، وتزحف كالأفاعي، وتطلقُ أصوات لا تصدرُ إلاّ عن حيوانات جريحة. وما تقصده من تلك التصرُّفات الغريبة الفظيعة هو أن تقول إنها بلغت نهاية الدرب، وأن القوى العلوية قد تخلّت عنها، وأنه إذا لم يخاطبها شخص يفهم لغة بؤسها فسوف تضيع، تتحطّم، تُخدع إلى الأبد. على أحدهم أن يستجيب، شخص ممكن التعرُّف إليه، وغامض الملامح إلى درجة أنَّ حتى دودة لن تتردّد في لعق حذائه.

وقد كنتُ أنا من ذلك النوع من الديدان. الدودة المثالية. كنت أنا، المهزوم في الحب، المؤهّل لا لكي يخوض معركةً بل لكي يعاني المذلّة والألم، الذي اختيرَ ليقومَ بدور المُعزّي. يا للسخرية أني أنا الذي أُدنتُ ونُفيتُ، الذي كنت غير متلائم ومجرداً من أي طموح، وقعَ عليَّ الاختيار

twitter @baghdad_library

لشـغلِ منصب قـاضٍ، لأعـاقِب وأجـزي، لأقـوم بدور الأب، والكاهن، والمُحسِن - أو الجلاد! أنـا الذي خببتُ في طول الأرض وعرضـهـا ودائمـاً تحت لسـعـات السـوط، أنا الذي أسـتطيع أن أقطع دَرَج مـحل وولورث[٢٣] بقفزةٍ واحدة - إذا كان الأمر يتعلّق بـاستـجداء وجبة مجانيّة - أنا الذي تعلّمتُ أن أرقص على وقعِ أي لحن، أنا الذي يدَّعي كل القـــدرات والكفاءات، أنا الذي كنتُ أتلقّى العـديد من الركـلات على مـؤخـرتي وأعـود فـأطلب المزيد، الذي لم يفـهم من المنظومـة المجنونة أكثـر من أنهـا خطأ، آثمـة، مـجنونة، أنا الآن استُدعيت من بين كل البـشـر لكي أوزِّع الحكمة، والحب التفاهم. الله ذاته ما كان انتقى كبش فداء أفضل. فقط عضوٌ مُحتَقَر ووحيـد في المجتمع كان مؤهلاً للعب ذلك الدور الدقيق. هل ذكرتُ " الطموح " قبل قليل؟ أخيراً جاءني الطموح لأنقذَ ما يمكنُ إنقاذه من الحطام ؛ لأفعل من أجل هؤلاء البـؤسـاء ما لم يـفعله أحد من أجلي ؛ لأنفخ نفـخـةً من حـيـاةٍ في أرواحـهـم المفـرَّغـة ؛ لأحـرِّرهم من العـبـودية، وأشرِّفهم ككائنات بشرية، وأجعلهم أصدقاء لي.

بينمـا هذه الأفكار (كـأنما من حـيـاةٍ أخـرى) تتزاحمُ في رأسي، لم يسعـني إلا أنْ أقارن ذلك الوضع، الذي بدا شديد الصعوبة حينئذٍ، مع الوضع الحالي. حينئذٍ كان لكلماتي وزنٌ ؛ ونصائحي مسموعة ؛ أما الآن فلم يعُد لأي شيء أقوله أو أفعله أي وزن. أصبحت تجسيداً للأحمق. كل مـحـاولاتي، واقـتـراحـاتي، تذهب هبـاءً. حـتى وإنْ تلوّيتُ على الأرض احتجاجاً، أو خرج الزبَد من فمي كالمصروع، فلا فـائدة. لم أعُدْ أكثر من كلب ينبح في وجه القمر.

لماذا لم أتعلّم أن أستسلم استسلاماً كاملاً، مثل ريكاردو؟ لماذا فشلتُ في بلوغ حالة المذلّة التامة؟ لماذا كنتُ أصمدُ في هذه المعركة؟

بينما جلستُ أراقبُ هذه المهزلة التي كانت الاثنتان تؤديانها لصالح ريكاردو، أخذتُ أعي أكثر فأكثر حقيقةَ أنه لم يُخدَع البتة. وكنتُ أوضِّحُ وجهةَ نظري في كل مرة خاطبته. ولم يكن ذلك ضرورياً حقاً، لأني شعرتُ أنه عرفَ أنه لا رغبة لديّ في خداعه. ما أقلَّ ما شكَّ في مونا، ذلك أنَّ حبَّنا المشترك لها وحَّدنا وجعل هذه اللعبة سخيفة سخفاً يُثيرُ السخرية.

قلتُ في نفسي، إنَّ بطلَ الحبّ هذا لا يمكنُ خداعه أبداً أو تضليله على يد صديقته الحميمة. مِمَّ تخشيان هاتان الروحان المتآخيتان؟ إنَّ خوف المرأة الخاص، وشكَّها في نفسها، وحده يمكنُ أن يُعرِّض هذه العلاقة للخطر. وما تفشل المحبوبة في فهمه هو غياب أدنى أثرٍ من خيانة أو خداع عند عشاقها. إنها لا تدركُ أنَّ دافعها الأنثويّ إلى الخيانة هو الذي يوحِّدُ عشاقها بقوة، ويكبحُ أنانيتهم المتملِّكة، ويسمحُ لهم أن يتقاسموا ما لا يمكن لهم أن يتقاسموه لو لم يهزّهم شغفٌ أعظم من شغف الحب. إنَّ الرجلَ لا يعرف وهو في قبضة مثل هذا الشغف إلا الاستسلام التام. أما المرأة موضوع هذا الحب فلكي تدعم هذا الحب عليها أن تتدرَّب على ليس أقلّ من الشعوذة الروحيّة. وعلى أعماق روحها أن تستجيب. وتنمو روحها بقدر ما تُلهم.

" ولكن ماذا لو أنَّ موضوع هذا الولَه السامي لا يستحق العناء! "

نادرٌ هو الرجل المبتلي بمثل هذه الشكوك. عادة الذي يُلهم بهذا الحب النادر والطاغي هو الذي يقعُ ضحية الشك. والعيب أيضاً لا يكمنُ في

twitter @ baghdad_library

طبيعتها الأنثوية وحدها، بل هناك بعض النقص الروحيّ الذي، قبل أن يخضع للاختبار، لم يكن جليّاً. مع مثل تلك المخلوقات، خاصةً إذا كانت موهوبة بجمالٍ فائقٍ، تبقى قدراتها الحقيقية على الجذب مجهولة: إنها لا ترى إلاّ إغراء الجسد. إنَّ المأساة بالنسبة إلى بطل الحب يكمنُ في اليقظة، وغالباً ما تكون وحشية، على حقيقةِ أنَّ الجمال، على الرغم من كونه رمزاً للروح، قد يكونُ غائباً عن كل شيء ما عدا عن قسمات المحبوب وتقاطيع وجهه.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

بقيتْ مخلّفات زيارة ريكاردو تُخيِّمُ عليَّ على مدى أيامٍ عديدةٍ. ثم حلَّ عيد الميلاد ليُفاقمَ من كربي. وهو الفترة من العام التي أمقتها وأخافها. فمنذ أن بلغت طور الرجولة لم أعرفُ عيدَ ميلادٍ واحد ممتع. ومهما حاولتُ أن أحارب يوم الميلاد كنتُ دائماً أجدني في أحضان العائلة - ويُجبَرُ فارس الكآبة المتلفِّع بدرع أسود، كأي أبله آخر في العالم المسيحي، على حشو بطنه والإصغاء إلى الثرثرة الجوفاء تماماً لأقرانه.

على الرغم من أني لم أقل أي شيء عن الحَدَثْ القادم - ليته كان احتفاءً بمولد روحٍ حُرَّة! - إلاّ أني بقيتُ أتساءلُ تحت أي ظروف، وفي أي حالة ذهنية وروحيّة، سنجد نحن الاثنان نفسينا في يوم الدينونة الاحتفاليّ ذاك.

عملتْ زيارةٌ غير متوقَّعة على الإطلاق من ستانلي الذي كان قد اكتشف مكان تواجدنا بالمصادفة، عملتْ على زيادة كربي، واضطرابي الداخلي. صحيح أنه لم يمكث طويلاً. لكنها كانت فترةً كافيةً لتتركَ بضع شوكات متكسِّرة في خاصرتي.

وكأنه جاء لكي يُعزِّز صورة الفاشل التي طالما ظهرتُ بها أمام عينيه. إنه حتى لم يزعج نفسه بسؤالي عمَّا أفعله، وكيف نتدبَّر أمورنا،

أنا ومونا، أو ما إذا كنتُ أكتبُ أم لا. نظرة سريعةٌ واحدة ألقاها حول المكان كانت كافية لإخباره الحكاية كلها. " انحطاطٌ تام! "، هكذا لخَّصَ الوضعَ كله.

لم أبذل أي جهدٍ لتنشيط الحديث، فقط صلَّيتُ كي يغادر في أسرع وقتٍ ممكن، كي يغادرَ قبل أن تصلا وهما في إحدى حالات النشوة الزائفة.

كما كنتُ أقول، لم يقُم بأي محاولة للتلكُّؤ، وحالما همَّ بالمغادرة لفتَتْ انتباهَه فجأةً صفيحةٌ كبيرةٌ من ورق اللفّ كنتُ قد ثبَّتُها بمسمارٍ على الحائط بالقرب من الباب. كانت الإضاءة مُعتمة إلى درجةِ أنه كان من المستحيل قراءة ما كان مكتوباً.

قال، وهو يقترب من الجدار ويشمُّ الورقةَ كالكلب. " ما هذا ؟ "

قلتُ " هذا ؟ لا شيء. بضع أفكار عشوائية "

قَدَحَ عودَ ثقاب ليرى بنفسه. أشعل عوداً آخر ثم آخر. وأخيراً ابتعدَ.

" إذن الآن أنتَ تكتب مسرحيات. همم "

حسبتُ أنه يوشكُ أم يبصق.

قلتُ بخجل " إنني حتى لم أبدأ بعد ؛ إنني فقط أعبثُ بالفكرة. لعلّي لن أدوِّنها أبداً "

قال، متلبِّساً هيئة حفّار القبور المستعدّ دائماً. " اعتقادي بالضبط هو أنك لن تكتب أي مسرحية أو أي شيء آخر يستحق الحديث عنه. سوف تكتب وتكتب دون أن تصل إلى أي نتيجة "

كان يجب أن أثور غضباً لكني لم أفعل. لقد سُحِقت. توقّعتُ منه أن يصبَّ بعض الزيت على النار - عبارة أو اثنتين حول " رواية رومانسية " جديدة يكتبها. ولكن لا، لا شيء من هذا. بدل ذلك قال

twitter @baghdad_library

"لقد تخلّيتُ عن الكتابة. بل إني لم أعد أقرأ. ما الفائدة؟ ". هزَّ إحدى ساقيه واتَّجه نحو الباب. وضع يده على الأكرة وقال، بوقار وفخامة، "لو كنت مكانك لما استسلمت، حتى وإن كانت الظروف كلها ضدي. أنا لا أقول إنك كاتب، ولكن... ". تردَّدَ برهةً، ليضع الصياغة الأمثل، "ولكن الحظ يعمل لصالحك "

سادتْ برهةٌ من الصمت كافية لحشد كمية من النقد اللاذع. ثم أضاف " وأنت لم تفعل أي شيء لتشجيعه "

قال " إلى اللقاء الآن "، وصَفَقَ الباب.

قلت " إلى اللقاء "

وانتهى الأمر عند هذا الحد.

لو أنه صرعني أرضاً لما كنتُ شعرتُ بالهزيمة أكثر مني حينئذ. كنتُ مستعداً لأدفن نفسي في التوّ واللحظة. وما تبقَّى لدي من درع واقٍ ذاب وتلاشى. كنت بقعةَ شحمٍ، لا أكثر : لطخة على وجه الأرض.

بما أني عدتُ إلى جو الكآبة أضأتُ بحركةٍ آليّة شمعة، وكالسائر في نومه تمركزت أمام فكرتي عن كتابة مسرحية. من المفترض أنها تقعُ في ثلاثة فصول ويؤديها ثلاثة ممثلين فقط. ولا داعي للقول مَنْ هُم، أولئك الممثلين الجوّالين.

جزَّأتُ المشروع الذي وضعته إلى مشاهد، وذُرى، وخلفية وما إلى ذلك. كنت أحفظه عن ظهر قلب. لكني هذه المرة أبدو وكأني قد كتبتُ المسرحية فعلاً، وعرفت ماذا يمكن أن أفعله بالمادة الأساسية. (بل إني سمعتُ التصفيق بعد كل إنزال الستارة). أصبح كل شيء واضحاً الآن، واضحاً وضوح الشمس. ولكن ما لم أتمكن من رؤيته كان نفسي وأنا أكتبه. ما كان يمكن أن أجسِّده بالكلمات. كان يجب تدوينه بالدم.

حين أصل إلى أسوأ حال، كما هو وضعي الآن، أستخدم كلمات أحاديّة المقاطع، أو لا أقول أي شيء. وتقلّ حركتي. ويمكنني أن أبقى في بقعةٍ واحدةً، في موضع واحد، سواء أكنتُ جالساً، منحنياً أو واقفاً، فترة لا تُصدّق من الوقت.

على هذه الحالة الخاملة وجدتاني حين عادتا. كنتُ واقفاً متّكئاً على الجدار، ورأسي مستند على صفيحة ورق اللف. وشمعة صغيرة واحدة تذوب على الطاولة. حين اندفعتا إلى الداخل لم تلاحظا وجودي ملتصقاً إلى الجدار. وبقيت عدة دقائق تتحركان بنشاط في المكان بصمت. وفجأة لمحتني ستيسيا. وأطلقت زعقة.

صرختْ " انظري! ماذا به؟ "

لم تتحرك فيّ غير عينيّ. فيما عدا ذلك كنتُ كالتمثال. وأسوأ من ذلك، متصلّباً!

هزّتني من ذراعي وكانت تتدلّى رخوةً. ارتعشت وانتفضت قليلاً. ومع ذلك لم يندّ عني أي صوت.

هتفت " تعالي إلى هنا! "، هرعت مونا مقتربة.

" انظري إليه! "

حان الوقت لأتحرّك. دون أن أنتقل من مكاني أو أبدّل موضعي، حللتُ فكّي وقلت - ولكن مثل ذا القناع الحديدي -: " لا خطب هناك، يا عزيزتيّ. لا تخافا ,أنا فقط... فقط أفكر "

زعقتا " **تفكّر**؟ "

" نعم، أيها الملاكان الصغيران، أفكّر. ما الغريب في هذا؟ "

ناشدتني مونا " اجلس "، وأسرعت بتقريب كرسي. غصتُ في

twitter @baghdad_library

الكرسي كما في بركة من المياه الدافئة. ما أمتع القيام بتلك الحركة الصغيرة! ومع ذلك لم أرغب في أن أرتاح ؛ أردت أن أستمتع بكآبتي.

تُرى هل كان سكوني جميلاً بسبب وقوفي هناك ملتصقاً بالجدار؟ وعلى الرغم من أن ذهني كان ما يزال نشطاً، إلا أنه كان نشطاً نشاطاً هادئاً. لم يعد يهرب معي. كانت الأفكار تأتي وتذهب، ببطء، بتلكُّؤ، فاسحةً الوقت لي لأحتضنها، لأدلّلها عبر هذا التيار البطيء اللذيذ. وقبل وصولهما بلحظة كنت قد بلغتُ نقطة التركيزِ بصفاءٍ على الفصل الأخير من المسرحية. كانت قد بدأت تكتب نفسها بنفسها من رأسي، دون بذل أي جهود من جانبي.

ثم جلست، وظهري مُتَّجه نحوهما، كذلك أفكاري، وبدأت أتكلّم كما يتكلّم إنسان آلي. لم أكن أتحدث مع أحد، كنتُ فقط أتلو ما حفظته، إذا جاز التعبير، كممثّلٍ جالسٍ في غرفة تغيير ملابسه، يواصل التمثيل حتى بعد إسدال الستارة.

شعرتُ أنهما أصبحتا هادئتين بصورةٍ غريبةٍ. عادة كانتا تثيران جَلَبَة بالعبث بشعرهما أو أظافر أصابعهما. الآن هما ساكنتان حتى أنَّ صدى كلماتي كان يتردَّد بين الجدران. كنتُ قادراً على أن أتكلّم وأصغي إلى نفسي في وقتٍ واحد. شيءٌ لذيذ، مهلوس بشكل ممتع، إن صحَّ التعبير.

أدركتُ أني إذا توقفت عن الكلام ولو للحظة فسينكسر السحر. لكنَّ هذه الفكرة لم تسبب لي أي قلق. وقلت لنفسي، سوف أستمرّ إلى أن أنهارَ، أو إلى أن تنهارَ " الفكرة ".

وهكذا، من خلال شقٍ في القناع، تكلّمت وتكلّمت، ودائماً بنبرة الصوت المتوازنة نفسها والمحسوبة والمكتوبة. كما يفعل المرء بفمٍ مغلق إبَّان إنهاء قراءة كتاب جيد بشكلٍ لا يُصدَّق أبداً.

بعد أن سحقتني كلمات ستانلي القاسية، يمكن القول إنني أصبحت وجهاً لوجه مع النبع، مع صناعة الكتابة نفسها. وكم كان مختلفاً تماماً هذا الدفق الهادئ من النبع عن فعل الخلق الصارخ الذي هو الكتابة! "غُصّ عميقاً ولا تظهر أبداً! ". هذا يجب أن يكون شعار كل التواّقين إلى الإبداع بالكلمات. إذ أنه فقط في الأعماق الساكنة يُتاحُ لنا أن نرى ونسمع، ونتحرّك ونكون. أي نعمة أن يغوص المرءُ إلى أعمق أعماق كيانه ولا يحرِّك ساكناً بعد ذلك!

أثناء عودتي إلى وعيي درتُ ببطءٍ حول نفسي كسمكة كود ضخمة كسول وثبّتهما بعينيَّ الجامدتين. شعرت تماماً كأني وحشٌ من الأعماق لم يعرف دهره عالمَ البشر، ولا دفْء الشمس، ولا عبير الأزهار، ولا أصوات الطيور، أو الحيوانات أو الناس. حدّقتُ إليهما بعينين ضخمتين مُحجّبتين معتادتين فقط على النظر إلى الداخل. كم كان العالم عجائبياً في تلك اللحظة! رأيتهما ورأيت الغرفة التي تجلسان فيها بعيونٍ نهمة: رأيتهما في أبديتهما، مع الغرفة أيضاً، وكأنها الغرفة الوحيدة في العالم كله ؛ رأيت جدران الغرفة تتراجع والمدينة بعدها تذوب حتى التلاشي ؛ رأيتُ الحقول تُحرَث إلى ما لا نهاية، وبحيرات، وبحار، ومحيطات تذوب وتتبخّر في الفضاء، فضاء مرصّع بأجرامٍ سماوية تتلظّى بالنار، وفي الضوء اللا محدود الساطع والصافي رأيتُ مخلوقات كالآلهة، ملائكة، وملائكة رئيسة، وملائكة عرش الله، وملائكة صغار، تتحرك وتطنّ بحشودٍ مشعّة أمام عينيّ.

عدتُ إلى وعيي وكأنّ ريحاً قويةً أزاحت فجأةً الضباب عن عينيّ، مع كلتا قدميّ وتلك الفكرة البعيدة كل البُعد عن الموضوع تتبوّأ ذهني - كان عيد الميلاد في ذلك العام قد حلّ علينا.

twitter @baghdad_library

زمجرتُ " ماذا سنفعل؟ "

قالت ستيسيا " فقط نستمرّ في الحديث. لم أرك هكذا من قبل "

قلتُ " إنه عيد الميلاد! ماذا سنفعل بشأن عيد الميلاد ؟ "

زعقت " **عيد الميلاد** ؟ ". ظننتُ للوهلة الأولى أني كنتُ أتحدَّثُ بلغة رمزية. وحين أدركتْ أني لم أعد الشخص الذي فَتنها قالتْ " يا إلهي! لا أريد أن أسمع كلمة واحدة "

قلتُ، حين ولجت غرفتها، " عظيم! الآن نستطيع أن نتحدَّث "

صرخت مونا، والدموع تترقرق في عينيها، " انتظر، فال، انتظر! لا تفسد الأمر، أتوسل إليك "

أجبت " الأمر انتهى، انتهى وتمّ. لم يبق أي شيء. **أسدل الستار** "

ناشدتني " أوه، بل بقيَ شيء، لابد أنَّ هناك شيئاً! انظر، فقط الزم الهدوء... اجلس بهدوء... دعني أحضر لك مشروباً "

" عظيم، أعدّي لي مشروباً! وشيئاً من الطعام! أكاد أموتُ جوعاً. مَنْ تلك المسمّاة ستيسيا ؟ هيا، فلنشرب ونتحدث حتى ننسف رؤوسنا. أيري في عيد الميلاد! أيري في سانتا كلوز! فلتكن ستيسيا سانتا كلوز على سبيل التغيير "

أخذت الاثنتان تنشطان لتوفّر متعتي. كانتا شديدتا التوق لإرضاء أقلّ نزواتي... وكأنَّ النبي إيليا تراءى لهما من كبد السماء.

زعقت " ألم يتبقّ أي قدرٍ من نبيذ الراين؟ هاته! "

كنتُ أشعر بجوعٍ وعطش هائلين. وكدتُ لا أطيق صبراً عليهما لتُعدّا شيئاً يؤكل.

تلعثمتُ قائلاً " لعنة الله على ذلك البولوني! "

قالت ستيسيا " ماذا؟ "

" بل ما الذي كنتُ أقوله؟ الآن يبدو كل شيء كالحلم... فيمَ كنتُ أفكّر - أليس هذا ما تودّين معرفته؟ - إنه ما يلي... كم سيكون رائعاً... لو... "

" لو ماذا؟ "

" لا يهمّ... سأخبرك لاحقاً. أسرعي واجلسي! "

عندئذ كنتُ مكهرباً. كالسمكة، أليس كذلك؟ بالأحرى، كحنكليز مكهرب. أُطلقُ شرراً. وجائعاً جداً. ربما كان هذا هو السبب في تألُّقي وتلألئي. وعاد إليَّ جسدي. آه ما أجمل أن أعود إلى جسدي! ما أمتع الأكل والشرب، والتنفُّس، والصياح!

بدأتُ بالقول، بعد أن التهمتُ بنهمٍ قدْراً من الطعام، " غريبٌ قِلّة مقدار ما نكشف عنه من أنفسنا حتى ونحن في أحسن حالاتنا. إنكما تريدانني أن أستأنف من حيث توقفت، في اعتقادي؟ يبدو أنَّ كل ما استخرجته من الأعماق كان مثيراً. الآن لم يبقَ منه إلا الهالة. ولكن هناك شيئاً واحداً أنا متأكد منه - أنا أعرفُ أني لم أكن " خارج " نفسي. كنتُ في الداخل. في مكانٍ أعمق مما وصلت إليه يوماً... كنت أنطلقُ كسمكة، هل لاحظتما ذلك؟ وليس كأي سمكة عادية، بل من النوع الذي يعيشُ في قاع المحيط "

جرعتُ جرعةً كبيرةً من النبيذ. نبيذٌ رائع. نبيذ الراين.

" الغريب في الأمر أنَّ كل شيء حدثَ بسبب مخطَّط المسرحية الأولى المعلَّق على الحائط هناك. لقد شاهدتُها وسمعتُها كلها. فلمَ لا أكتبها إذن؟ كان هناك فقط سببٌ واحد لفعلِ ذلك، وهو لكي أخفِّفَ وطأةَ بؤسي. أنتما تعلمان كم أنا بائس. أليس كذلك؟ "

twitter @baghdad_library

تبادلنا النظرات. **لا حركة.**

" شيء غريب، ولكن وأنا في تلك الحالة بدا كل شيء بالضبط كما يجب أن يكون. لم أكن مضطراً إلى بذل أي مجهود لأفهم: كل شيء كان بلا معنى، مبرَّراً وحقيقياً إلى الأبد. وأنتما لم تكونا الشيطانتين اللتين كنتُ أظنكما أحياناً. لكنكما لم تكونا من الملائكة، لأني سبق أن شاهدتُ ملائكةً حقيقيين، ومرة أخرى كانوا شيئاً آخر. لا أستطيع أن أقول أني أريد أن أرى الأشياء على هذه الصورة طوال الوقت. فقط التماثيل... "

قاطعتني ستيسيا. **أي صورة**؟ أرادت أن تعرف.

قلت " كل شيء دفعةً واحدة ؛ الماضي، والحاضر، والمستقبل ؛ التراب، والهواء، والنار والماء. دولاب متوقِّف. وأرغب في أن أقول، دولابٌ من نور. والنور هو الذي يدور، وليس الدولاب "

تناولتْ قلم رصاص، كأنما لتكتبَ ملاحظة.

قلتُ " لا تفعلي! الكلمات لا تنقلُ واقعيتها. إنَّ ما أقوله لا شيء. إنني أتكلم لأنَّ لا حيلة لي في ذلك، لكنه مجرد كلام " عن ". أما ما حدث فلا يمكنني بأي حال أن أخبركما به... مرةً أخرى هو أشبه بتلك المسرحية. والمسرحية التي شاهدتها وسمعتها لا يمكنُ لأي إنسان أن يكتبها. إنَّ ما يكتبه المرءُ هو ما " يريد " أن يحدث. نحن مثلاً، نحن لم " نحدث "، أليس كذلك؟ لا أحد فكَّرَ فينا. نحن موجودون، هذا كل شيء. دائماً كنا موجودين. وهناك فرقٌ، ماذا ؟ "

استدرتُ مباشرةً نحو مونا. " إنني أنوي فعلاً أن أفتش عن عملٍ قريباً. لا أعتقد أنك تظنين أني سأكتب أي شيء ,أنا أعيشُ هذا النمط من الحياة، أم ماذا ؟ إنَّ شعاري هذه الأيام هو، فلنزنِ فيها! "

أفلتت من بين شفتيها همهمة، وكأنها كانت تنوي أن تحتج، لكنها تلاشت فوراً.

" نعم، حالما تنتهي فترة العُطَل سأضرب ضربتي. غداً سأتصل هاتفياً بالأهل لأعلمهم أننا سنزورهم في عيد الميلاد. لا تخذليني، أرجوك. لا يمكنني أن أذهب إلى هناك وحدي. لن أفعل. وحاولي أن تظهري بمظهرٍ طبيعي ولو لمرة واحدة، هلاً فعلتِ؟ لا مساحيق... لا تدخين، يا إلهي، من الصعب جداً مواجهتهم حتى في أفضل الظروف "

قالت مونا لستيسيا " تعالي أنتِ أيضاً "

قالت ستيسيا " يا إلهي، كلا! "

قالت مونا " يجب أن تأتي! لا أستطيع أن أمرّ بهذه التجربة من دونك "

قاطعتها " نعم، تعالي معنا! بوجودك لن نتعرَّض لخطر الاستغراق في النوم. فقط ارتدي ثوباً أو تنوره، هل تفعلين؟ و صفّفي شعرك على شكل كعكة، إن استطعت "

هذا جعلهما في مزاجٍ شبه هستيري. ماذا، ستيسيا تتصرَّف كسيدة محترمة؟ مستحيل!

قالت مونا " إنك تحاول أن تسخر منها "

زمجرتْ ستيسيا " أنا ببساطة لستُ سيدة محترمة "

قلت " أنا لا أريد منكِ أن تكوني أي شيء غير نفسك الحلوة. كل ما أطلبه هو إلا تنتصبي كعربة وحصان "

*

كما توقّعت، وعند نحو الساعة الثالثة من صباح يوم الميلاد كانت الاثنتان تترنّحان من فرط السكر. والألعوبة الذي كانتا تجرانه أينما

twitter @baghdad_library

ذهبتا بدا كالمضروب. كان عليَّ أن أبدِّل لهما ملابسهما وأدسّهما بين الملاءات. وحين ظننتُ أنهما استغرقتا في النوم إذا بهما تريدان أن تتبولا. أخذتا تتلمّسان طريقهما إلى المرحاض وهما تترنّحان وتتمايلان. وفي الطريق ارتطمتا بالطاولات والكراسي، وسقطتا، وتحاملتا على نفسيهما ونهضتا من جديد، وصرختا، وزمجرتا ونخرتا وصفّرتا، وهذا كله بأسلوب السكارى الحقيقي. بل حتى كان هناك قليلٌ من التقيُّؤ، زيادةً على ذلك. حين تكوّمتا على السرير من جديد حذّرتهما من أن عليهما أن تسرعا في أخذ أكبر قسطٍ ممكنٍ من النوم. فأبلغتاني أنَّ ساعة المنبّه مضبوطة على الساعة ٩,٣٠.

من ناحيتي لم يغمض لي جفن ؛ أمضيتُ الليل بطوله وأنا أتقلب في السرير وأدخّن.

عند الساعة ٩,٣٠ انطلقَ جرس المنبّه على الفور. بدا لي أنَّ علوّ صوته مضاعف. للتو وقفتُ على قدمي. كانت الاثنتان مستلقيتين كالميتتين. دفعتهما ونخستهما وشددتهما ؛ منتقلاً من واحدة إلى أخرى، أصفعهما، أشدّ غطاء السرير عنهما ,ألعنهما بفخامة، مهدداً بضربهما بالسوط إذا لم تتحركا.

استغرقَ مني إنهاضهما وإبقائهما يقظتين دون أن تنهارا بين يديّ ما يُقاربُ النصف ساعة.

زعقتُ " خُذا حمّاماً! عجّلا! أنا سأصنع القهوة "

قالت ستيسيا " كيف يمكنك أن تكون قاسياً إلى هذا الحد؟ "

قالت مونا " لماذا لا تبلغهم هاتفياً أننا سنزورهم هذا المساء على العشاء؟ "

أجبتهما زاعقاً " لا أستطيع! ولا أريدُ! إنهم ينتظروننا عند الظهيرة عند الساعة الواحدة بالضبط، وليس في المساء "

ناشدتني مونا " قُل لهم إني مريضة "

" لن أفعل. سوف تلبيان الدعوة وإلاّ قتلتكما، أتفهمان؟ "

أثناء شرب القهوة أخبرتاني ماذا أحضرتا من هدايا. الهدايا هي التي دفعتهما إلى أن تسكرا كما قالتا. كيف حدث ذلك؟ حسن، لكي تجمعا المال اللازم لشراء الهدايا كان عليهما أن تحتالا على محسن ساذج كان يقضي ثلاثة أيام من السُكر. وهكذا سكرتا بدورهما، ولم ترغبا في ذلك. كلا، لكنهما أملتا في أن تروغا منه حالما يتم شراء الهدايا، لكنه كان ابن حرام عجوز خبيث وليس من السهل خداعه. وقد كانتا محظوظتين لمجرد وصولهما إلى المنزل، كما اعترفتا.

حكاية جيدة ولعلّها ليست صحيحة تماماً. ابتلعتها مع القهوة.

قلت " والآن، ماذا سترتدي ستيسيا ؟ "

ألقت عليّ نظرة حائرة، عاجزة، حتى كدتُ أقول " ارتدي أي شيء لعين تريدين!"

قالت مونا " سوف أعتني بها. لا تقلق. دعنا بسلام بضع دقائق. هلاّ فعلت؟ "

أجبتُ " حسن. ولكن الساعة الواحدة تماماً. تذكّرا! "

قرّرتُ أنَّ أفضل ما يمكنني أن أفعله هو أنْ أتمشّى. وكنت أعلمُ أنَّ إعداد ستيسيا لتظهر بمظهرٍ لائقٍ سوف يستغرقُ ساعةً كاملة على الأقلّ. ثم إني كنتُ بحاجةٍ إلى استنشاق بعض الهواء المنعش.

قلتُ، وأنا أفتحُ الباب لأنصرف " تذكّرا، أمامكما فقط ساعة

twitter @baghdad_library

واحدة، لا أكثر. إذا لم تكونا مستعدَّتين حينئذٍ فسوف تذهبان كما أنتما"

كان الجوّ صافياً وبارداً في الخارج. كان ثلجٌ خفيفٌ قد هطل خلال الليل، بقدرٍ كافٍ لصنعِ عيدِ ميلادٍ أبيض ناصع. كانت الشوارع شبه دائمة الخُضرة، وأخذوا يفتحون عُلب هداياهم، ويتبادلون القبلات والعناق، ويكافحون آثار السكر ويتظاهرون بأنَّ كل شيء رائع (" الحمد لله، انتهى الأمر! ")

تمشّيتُ على هواي حتى أرصفة تحميل السفن لألقي نظرة على سفن المحيط المغادرة المرصوفة جنباً إلى جنب ككلابٍ مربوطة بسلاسل. كل شيء هنا هادئ هدوء القبور. كان الثلج، المتلألئ كالميكة تحت أشعة الشمس، عالقاً بحبال الصواري كطبقةٍ من القطن. كان يجلِّلُ المشهدَ شيءٌ شبحي.

اتجهتُ إلى " المرتفعات " قاصداً حي الأجانب. هنا لم يكن الجو فقط شبحاً بل شنيعاً. حتى روح عيد الميلاد فشلت في أن تُضفي على تلك الأكواخ والزرائب مظهر المساكن الإنسانية. مَنْ يهتم لهذا ؟ إنها أماكن غير متحضِّرة، يقطنها عربٌ قذرون، وصينيون بوجوهٍ ضيقة، وهندوس، وأفراد عصابات وزنوج... اقتربَ مني أحدهم، كان عربياً في الغالب، يرتدي ملابس خفيفة من قماش خشن، ويعتمر قلنسوة مهترئة وينتعل خفاً يشبه قماشه نسيج السجاد، وغمغمتُ لدى مروري به "الحمد لله! ". وعلى مبعدة أخرى صادفت اثنين من المكسيكيين يتشاجران، وفي حالةٍ من السُكر، بل السُكر الشديد، بحيث لم ينجح أي منهما في تسديد لكمةٍ إلى الآخر، تحلّقتْ مجموعة من الأولاد الرثّي الملابس

حولهما، يحثّونهما. " **اضربه! سَدِّد لكمة إلى وجهه!** ". ثم خرجتُ من باب خلفيّ لحانةٍ عتيقةِ الطراز اثنتان من أشدّ مَنْ رأت عيناي من عاهرات قذارة، وهما تترنحان تحت أشعة شمس يومِ الميلاد الأبيض الناصع. انحنتْ إحداها لترفع جوربها فانبطحتْ على وجهها ؛ نظرت الأخرى إليها، وكأنَّ هذا لا يمكن أن يحدث وتابعتْ سيرها المتعثّر، بقدمٍ تنتعلُ فردة حذاء، والأخرى من دونها. كانت تُهمهم لحنَ أغنية قصيرة بأسلوبِ السكارى، وهي تعرج.

يوم مجيد، حقاً. ما أشد صفائه، وبرودته، وبثّه النشاط! ليتَ اليومَ لم يكن يوم الميلاد! وتساءلت. تُرى هل انتهتا من ارتداء ملابسهما. إنَّ معنوياتي ترتفع. وأقول لنفسي، يمكنني أن أواجه الأمر، إذا لم تُعرِّضا نفسيهما للسخرية. في ذهني تصبح كافة أنواع الأكاذيب - عن حكايات يجب أن أنسجها لكي أطمئن أهلي القلقين دائماً عن أحوالنا. كأنْ يسألوا - " هل تكتب في هذه الأيام؟ "، فأقول " حتماً. لقد أنجزتُ عدداً كبيراً من القصص. اسألوا مونا ". " **ومونا، كيف حال عملها؟** " (لقد نسيت. هل يعلمون أين تعمل؟ ماذا قلت لهم في آخر مرة؟) أما عن ستيسيا، فلا أدري ماذا سأختلق هناك. قد أقول إنها صديقة قديمة لمونا، أو أنها تعرفها منذ أيام الطفولة. أو أنها فنانة.

دخلتُ، فوجدتُ ستيسيا والدموع في عينيها، تحاولُ أن تحشر قدميها في حذاءٍ عالي الكعب. كانت عارية حتى خصرها، ترتدي تنورة بيضاء يعلمُ الله من أين جلبتها ,ورباط قدميها يتدلّى، وشعرها أشعث.

غمغمَتْ مستنكرة " لن أنجح. لماذا يجب أن أذهب؟ "

يبدو أنَّ مونا ترى أنَّ هذا مضحكٌ إلى أقصى حد. الملابس ملقاة في كل أرجاء الأرضية، وأمشاط ودبابيس شعر.

twitter @baghdad_library

أخذت تكرِّر " لستُ مضطرةً إلى المشي، سنستقل سيارة أجرة "

" أعليَّ أن أضع قبعة أيضاً؟ "

" سنرى، يا عزيزتي "

حاولتُ أن أساعدهما لكني لم أنجح إلاّ في إفساد الأمور.

توسلت إليّ " دعنا وشأننا "

وهكذا جلستُ في إحدى الزوايا ورحتُ أراقبُ الأحداث، وإحدى عينيّ على ساعة الحائط (كانت قد بلغت الثانية عشرة)

قلتُ " اسمعي، لا تُبالغي في بذل الجهد. فقط ارفعي لها شعرها وضعي عليها تنورة "

كانتا تجرِّبان أقراطاً وأساور. زعقتُ " كفى! إنها تبدو أشبه بشجرة الميلاد "

حين خرجنا بخطى متّئدة لننادي على سيارة أجرة كانت الساعة قد أصبحت الثانية عشرة والنصف. وطبعاً كان الشارع خالياً من المارة. وانطلقنا. كانت ستيسيا تعرُج، وقد تخلّت عن القبّعة واستبدلتها ببيريه. أصبح مظهرها الآن منطقياً أكثر، ومثيراً للشفقة أيضاً. كانت محنة بالنسبة إليها.

أخيراً نجحنا في إيقاف سيارة أجرة. غمغمتُ لنفسي " الحمد لله، لن نتأخر إلا بضع دقائق "

في السيارة خلعت ستيسيا حذاءها. شرعنا في القهقهة. مونا تريد من ستيسيا أن تضع قليلاً من أحمر الشفاه، لتجعلها تبدو أكثر أنوثة.

حذّرتها " إذا بدتْ أكثر أنوثة مما هي سيعتقدون أنها زائفة "

سألت ستيسيا " كم ستطول زيارتنا؟ "

" لا أدري. سوف نغادر في أسرع وقت ممكن. آمل أن يحدث ذلك في السابعة والنصف أو الثامنة "

" هذا المساء "

" نعم، في هذا المساء. ليس في صباح الغد "

صفَّرت " يا يسوع! لن أصمد أبداً "

مع اقترابنا إلى هدفنا أمرت سائق السيارة أن يتوقف عند المنعطف وليس أمام المنزل.

قالت مونا " لماذا؟ "

" هكذا "

توقَّفَتْ سيارة الأجرة وخرجنا. ستيسيا تسير بجوربها، والحذاء في يدها.

زعقتُ " انتعليه! "

كان هناك صندوق كبير من خشب الصنوبر خارج دكان الحانوتي عند الزاوية. أمرتُها " اجلسي هنا وانتعليه ". رضختْ كطفلة. كانت قدماها مبللتين طبعاً، ولكن بدا أنَّ ذلك لا يهمها. حين ترنَّحت وهي تحاولُ انتعال حذاءها سقطت البيريه وانسدل شعرها. حاولت مونا بحركات مسعورة أن تعيده إلى شكله السابق لكنها لم تعثر على أيٍ من دبابيس الشعر.

تأوَّهت قائلاً " دعيه ينسدل! ما الفرق؟ "

هزَّت ستيسيا رأسها بقوة، وكأنها فتاة رياضية، فانسدل شعرها الطويل على كتفيها. حاولت أن تضبط وضع البيريه لكنها كيفما وَضَعَتها كانت تبدو سخيفة.

twitter @baghdad_library

" هيا، فلنتحرَّك. احمليها! "

سألتْ، هي تعرج من جديد " هل المكان بعيد؟ "

" مسافة قصيرة. اثبتي الآن "

وهكذا سرنا نحن الثلاثة جنباً إلى جنب على طول شارع الأحزان المُبكِّرة. كنا ثلاثياً عجيباً، كما يمكن لألريك أن يقول. كدتُ أشعرُ بعيون الجيران الثاقبة تُحدِّق إلينا من خلف ستائرهم المُنشَّاة القاسية. إنه ابن آل ميللر. لابد أن هذه زوجته. أي واحدة؟

كان والدي واقفاً في الخارج ليُحيّينا. قال، ولكن بصوتٍ مرح "تأخّرتم قليلاً، كالمعتاد "

" نعم، كيف حالك؟ ميلاد سعيد! "، وملتُ لأقبِّله على وجنته، كما أفعل دائماً.

قدَّمت ستيسيا على أنها صديقة قديمة لمونا، وبرَّرتُ وجودها بأنها لا تستطيع أن تتركها وحدها.

حيّا ستيسيا بحرارة ثم قادنا إلى داخل المنزل. في الردهة، كانت أختي واقفةً، والدموع تملأ عينيها.

" ميلاد سعيد، لوريت! لوريت، هذه ستيسيا "

قبَّلتُ لوريت ستيسيا بحب. ثم هتفت " مونا! كيف حالك؟ حسبنا أنك لن تأتي أبداً"

سألتها " أين أمي؟ "

" في المطبخ "

في الحال ظهرت أمي، راسمةً ابتسامتها الحزينة، الكئيبة. كان واضحاً وضوح الشمس ما يجري داخل عقلها: " أنت كعهدك دائماً. دائماً تتأخَّر. دائماً هناك شيء غير متوقَّع "

عـانقتُ كل واحـد منا بدوره. " اجلسـوا، ديك الحـبش جـاهز "، ثم قـالت، وهي ترسم إحدى ابتسـاماتـها الخبـيـثـة، السـاخرة: " أعـتـقـد أنكم تناولتم طعام الإفطار، أليس كذلك؟ "

" طبعاً، يا أمي، من زمان "

رمـتـني بنظرة مـفـادهـا - " أعرف أنـك تكذب " - ثم استـدارت حول عقبيها.

في تلك الأثناء كانت مونا توزِّع الهدايا.

قـالت لوريت " ما كـان يجب أن تتعبي نفسك "، وهي عبـارةٌ أخذتها عن أمي. وأضـافت " إنه ديك حـبش بأربعـة عـشـر جنيـه "، ثم وجَّـهت كلامها إليّ: " الكاهن يريدك أن تتذكَّره، يا هنري "

ألقيتُ نظرةً سريعةً على ستيسيا لأرى كيف تستقبل هذا الكلام. لم أر غير أثرٍ خفيف من ابتسامةِ ابتهاج على وجهها. بدتْ متأثِّرة تأثُّراً حقيقياً.

سأل والدي " مـا رأيكم في كـأسٍ من البورق، أولاً؟ ". وصبَّ ثلاثة كؤوس وقدَّمها لنا.

قالتْ ستيسيا " وأنت؟ "

أجابهـا " توقَّفتُ عن الشرب منذ زمن بعيد "، ثم رفع كأساً فـارغاً، وقال - " في صحتكم! "

هكذا بدأت وجبة عـشـاء عـيد الميلاد. عـيـد مـيـلاد سـعـيـد، سـعـيـد، على **الجـمـيـع** ؛ أحـصـنـة، وبغـال، وأتراك، ومـدمـنو خـمـر، وصُـم، وبُكم، وعُـمي، ومُعـاقـون، وملحِدون ومُـهـتـدون. **مـيـلاد سـعـيـد**! المجد في العُلى! المجـد للأعلى! وعلى الأرض المسـرَّة - ولـيـنـحـر بعـضـكم بعـضـاً أيهـا اللوطيون حتى مجيء الملكوت!

twitter @baghdad_library

(ذلك كان نخبي الأخرس)

كالمعتاد، بدأتُ أختنق بلعابي، وهي إحدى مُخلَّفات أيام الصِبا. جلستْ أمي قبالتي، كما تفعل دائماً، وفي يدها سكين تقطيع اللحم. إلى يميني جلس والدي، الذي كنتُ ألقي نظرة عليه من زاوية عيني، مخافةَ أن ينفجر في أمي وهو في حالة السُكر بسبب نكاتها الساخرة المتهكّمة. كان عندئذٍ قد امتنع عن شرب الخمر منذ سنوات، ومع ذلك اختنقتُ، حتى دون أن يكون في فمي لقمة من الطعام. وكل ما قيل كان قد قيل قبل ذلك ألف مرة، بالطريقة نفسها، وبنبرة الصوت نفسها. وردودي عليه هي نفسها، أيضاً. اختنقتُ وكأني في الثانية عشرة من عمري وقد تعلَّمتُ تلاوة التعاليم الدينية عن ظهر قلب لتوي. وحتماً لم أعُد أذكر، كما كنتُ أفعل وأنا صبي، أسماءً مريعةً مثل جاك لندن، وكارل ماركس، بلزاك أو يوجين ف. وب، كنت أحفظُ كل المُحرَّمات عن ظهر قلب، إلاّ أنَّ مونا وستيسيا كانتا ما تزالان " روحين حُرَّتين " ومَنْ يدري، قد تتصرَّفان على هذا الأساس. مَنْ يعلم في أي لحظة يمكن لستيسيا أن تخرج باسمٍ غريبٍ مثل كانديسكي، مارك شاغال، زادكين، برانكوز، أو ليبشيتس؟ الأسوأ من ذلك أنه يمكنها أيضاً أن تستشهد بأسماء مثل راماكريشنا، وسوامي فيفيكانادا أو غوتاما البوذا. صلَّيتُ من أعماق قلبي لكي لا تأتي، حتى وهي سكرانة، على ذكر أسماء مثل إيما غولدمن، أو ألكسندر بركمن أو الأمير كروبوتكن.

لحسن الحظ، كانت أختي مُنهمكة في كرّ أسماء المعلّقين على الأخبار، والمذيعين، والمغنين العاطفيين، ونجوم العروض الكوميدية الموسيقية، والجيران والأقرباء، سلسلة الأسماء كلها المتَّصلة والمتداخلة

مع انفجار مفاجئ لكوارث دائماً كانت تدفعها إلى البكاء، والريل، والقطر، والشهيق والتنشُّق.

قلتُ في نفسي، عزيزتنا ستيسيا تبلو بلاءً حسناً. وسلوكها على المائدة ممتاز أيضاً. ولكن إلى متى؟

وطبعاً بدأ تأثير الطعام الدسِم بالإضافة إلى شراب الموزيل الجيد يظهر، شيئاً فشيئاً، عليهما. لم تكونا قد نالتا قسطاً وافراً من النوم. كانت مونا قد باشرت لتوِّها تكافح لتكبت نوبات تثاؤب كانت تتوافد كالأمواج.

قال العجوز، وقد وعى واقع الحال: " أعتقد أنكم تأخرتم في الإيواء إلى السرير؟ "

قلتُ بإشراق " لم نتأخر كثيراً. إننا لا نأوي إلى السرير قبل منتصف الليل، في الواقع "

قالت أمي " أعتقد أنك تكتب أثناء الليل "

أجفلت. عادةً هي لا تشير أبداً إلى كتابتي، إلا إذا قَرَنَتْ كلامها بالتأنيب أو بإشارةِ اشمئزاز.

قلت " نعم، في ذلك الوقت أقومُ بعملي. الجو يكونُ هادئاً في الليل. أستطيع فيه أن أفكر بشكلٍ أفضل "

" وأثناء النهار؟ "

كدتُ أقول " أعملُ، طبعاً! "، لكنني أدركت على الفور أنَّ ذكر مهنةٍ ما لن يعمل إلا على تعقيد المسائل. لذا قلتُ: " في العمومَ أنا أذهب إلى المكتبة العامة... بغرض البحث "

وستيسيا. ماذا تعمل؟

ذُهلتُ حين اندفع يقول: " إنها فنانة، هذا واضحُ وضوح الشمس! "

twitter @baghdad_library

" أحقاً؟ " قالت أمي، وكأنَّ جَرسَ الكلمة بحدّ ذاته يُخيفها. " وهل تكسب جيداً؟ "

ابتسمت ستيسيا باستغراق، وشرحت بكل كياسة قائلة إنَّ الفنَّ لم يكن مرة مُجزياً... في البداية. ثم أضافت فقالت إنَّ الأوصياء عليها يُرسلون إليها، لحسن الحظ، مبالغَ صغيرة من وقتٍ إلى آخر.

فاجأها العجوز " إذن لديك مُحتَرَف؟ "

قالت " نعم، لدي غرفة علّية مثالية في منطقة فيليج "

هنا، لسوء حظي، تولّت مونا الكلام، وأخذت تغطي التفاصيل كعادتها. فأمسكتها قدر استطاعتي لأنَّ العجوز، الذي كان يبتلع الطعم، مع الخيط والثقالة، أعلن أنه سوف يقومُ بزيارة ستيسيا _في محترفها _ذات يوم. أحبَّ أن يشاهد الفنانين وهم يعملون – كما قال.

سرعان ما حولّت دفّة الحديث إلى موضوعٍ هومر وينسلو[٢٤]، وبوغيرو[٢٥]، ورايدر[٢٦] وسيسلي[٢٧] (المفضّلين لديه). رفعتْ ستيسيا حاجبيها لدى ذكر تلك الأسماء المتنافرة. بل إنها بدت أشدّ دهشة حين بدأ العجوز يكرُّ أسماء رسامين أميركيين مشاهير كانت لوحاتهم، كما شرح، تُعلَّقُ في دكان الخياطة (أي، قبل أن يبيعه سَلَفَه). وإكراماً لستيسيا ذكَّرتُه، بما أنَّ اللعبة قد دارت، برسكن... بكتابه " **حجارة البندقية** "، الكتاب الوحيد الذي لم يقرأه أبداً. ثم دفعته إلى تذكُّر ب. ت برنوم، وجيني ليند وشخصيات شهيرة أخرى من أيام شبابه.

خلال فترة سكوت قالت لوريت إنَّ المذياع سيذيع أوبريتا عن الساعة الثالثة والنصف... فهل نحبُّ أن نسمعها؟

ولكن حينئذٍ كان الوقت قد حان لتقديم بودينغ الخوخ – مع تلك الصلصة الكثيفة اللذيذة – وفي الحال نسيتْ لوريت أمر الأوبريتا.

ذكَّرتني عبارةُ " الثالثة والنصف " بأنه ما يزال أمامنا جلسة طويلة. وتساءلت كيف سننجحُ في المحافظة على سير الحديث إلى أن يحين موعد الرحيل. ومتى سنتمكن من الاستئذان دون أن يبدو أنَّ في الأمر استعجالاً؟ وكانت فروة رأسي قد بدأت تحكُّني.

بينما أنا أفكِّرُ هكذا، أخذتُ أعي أكثر فأكثر أنَّ مونا وستيسيا تكادان تسقطان من فرط النعاس. كان جلياً أنهما لا تكادان تستطيعان إبقاء عيونهما مفتوحة. أي موضوع يمكنني أن أثير بحيث أنشِّطهما وفي الوقت نفسه دون أن أجعلهما تفقدان صوابهما؟ شيءٌ تافه، ولكن ليس كثيراً (**استيقظا، أيتها البلهاوان!**). ربما شيء عن المصريين القدامى؟ لماذا **هؤلاء**؟ لينقذوا حياتي، لم أستطع أن أفكر في شيءٍ أفضل منهم. حاول! **حاول!**

فجأةً أدركتُ أنَّ الجميعَ صامتون. حتى لوريت أطبقتْ خياشيمها. منذ متى هذا الحال؟ فكِّرْ بسرعة! فكِّر في أي شيء يكسر هذا التوقُّف التام. **ماذا**، رمسيس مرةً أخرى؟ أيري في رمسيس! فكِّر بسرعة، أيها الأحمق! فكِّر! **في أي شيء**!

باشرتُ بالقول " هل سبق أن أخبرتكم...؟ "

قالت مونا، وهي تنهضُ بتثاقُلٍ وتقلب الكرسي أثناء ذلك، " بعد إذنكم، ولكن هل تمانعون إذا تمدَّدتُ بضع دقائق فقط؟ إنني أعاني من صداعٍ نصفيّ "

لم تكن الأريكة تبتعد أكثر من مسافة قدم أو اثنين. ودون مزيدٍ من الكلام غاصت فيها وأغمضت عينيها.

(إكراماً للمسيح، لا تشخري فوراً!)

twitter @baghdad_library

قال والدي " لابد أنها مرهقة ". نظر إلى ستيسيا. " لِمَ لا تأخذي غفوة قصيرة أنتِ أيضاً؟ سوف تفيدك "

لم تكن ستيسيا بحاجة إلى ملاطفة، ففي الحال تمدَّدتْ إلى جوار مونا التي لم تُبدِ أي حِراك.

قالت أمي للوريت " أحضري ملاءة، تلك الرقيقة الموجودة في الطابق العلوي في الخزانة "

كانت الأريكة أضيق كثيراً من أن تحمل كليهما بشكلٍ مريح. كانتا تتقلّبان وتتلوّيان، وتئنان، وتضحكان، وتتثاءبان بصورة مُخزية. وفجأةً، بانغو! انهار الرفاص وسقطت ستيسيا على الأرض. بالنسبة إلى مونا كان ذلك أمراً مضحكاً إلى حدٍ مُعذِّب. أخذتْ تضحك وتضحك، بصوتٍ عالٍ جداً أزعجني. ولكن، ما أدراها أنَّ تلك الأريكة العزيزة التي صمدتْ ما يقاربُ الخمسين عاماً كان يمكن أن تصمد عشرة أعوامٍ أو عشرين مع العناية المناسبة؟ في منزلنا " نحن " لم نكن نضحك بذلك الشكل الفاقع على مثل ذلك الحادث المؤسف.

في تلك الأثناء كانت أمي، الشغّيلة، قد خرَّتْ على يديها وركبتيها لترى كيف وأين انهارت الأريكة. (كانوا يسمّونها الصوفا) وستيسيا مستلقية حيث وقعتْ، وكأنها تنتظر صدور التعليمات. وأخذت أمي تدور حولها وحواليها كما يفعل حيوان القندس حول شجرةٍ ساقطة. ثم ظهرتْ لوريت حاملةً الملاءة. وراحت تراقبُ ما يجري وكأنها مصعوقةً. (ما كان يجب أن يحدث مثل هذا الأمر). من ناحية أخرى، كان العجوز، الذي لا يصلح لفعل أي شيء في أي شيء، قد ذهب إلى الفناء الخلفي بحثاً عن آجُر. كانت أمي تقول " أين المطرقة؟ ". وقد أثار

سخريتها مشهد والدي وهو يحملُ ملْ ذراعٍ من حجارة الآجُر. كانت تنوي أن تقوم بالإصلاح كما ينبغي - وفوراً.

قال العجوز " لاحقاً. الآن تريدان أن تغفوا ". قال هذا ثم خرَّ على أربع وأخذ يرمي بحجارة الآجُر تحت الرفاص المتراخي.

هنا رفعت ستيسيا نفسها عن الأرض، بقدرٍ كافٍ لتنزلق عائدةً إلى الأريكة، وتستدير لتواجه الحائط. تمدَّدتا على هيئةٍ ملعقة، بسكونٍ كسنجابين مُرهَقَين. وجلستُ عل الطاولة ورحتُ أراقب طقوس تنظيف المائدة. كنتُ قد شهدتُ ذلك ألف مرة من قبل، ولم يكن أسلوب أدائها قد اختلفَ أبداً. الأمر نفسه كان في المطبخ. الأهمّ فالمهمّ...

قلت في نفسي " يا لهما من عاهرتين ماكرتين! ". كان من المفترض أن تقوما هما بغسل الأطباق. إنه الصداع! هكذا ببساطة. الآن سوف أضطرّ إلى مواجهة الوضع وحدي. لعلّ هذا أفضل، بما أني أعرف التنقّلات كلها. الآن لم يعُد يهمّ ما يُطرَح من مواضيع - سواءٌ أكان القطط الميتة، أم صراصير العام الفائت، أم مكانس السجاد، أم ويبر وفيلدز أم موضوع آخر عرضٍ مسرحي مستزنج[٢٨]. سوف أُبقي عينيَّ مفتوحتين حتى ولو استمرت حتى منتصف الليل. (إلى متى ستظل تينك السكيرتين نائمتين؟) إذا شعرتا بعد أن تستيقظا بالراحة فلعلّهما لن تهتمّا كم يطول بقاؤنا. وأدركت أنه سيتوجَّب علينا أن نتناول الطعام قبل أن نرحل. لم يكن في إمكاننا أن نتسلّل في الخامسة أو السادسة. لا يحدث مثل هذا في يوم الميلاد. ولا نستطيع أن نهرب دون أن نتجمَّع حول الشجرة ونغنّي تلك الأغنية الشعبية الشنيعة !O Tannenbaum (آه يا شجرة التنوب!) وسيتبع ذلك حتماً استعراضُ فهرس كامل بالأشجار

twitter @baghdad_library

كلهـا التي حـصلنـا عليـهـا والمقارنة بينهـا، ونحكي كم كنتُ أتوقُ، وأنا صبي، إلى رؤية الهدايا مكوَّمة لأجلي تحت شجرة الميلاد (لم يذكر أحدٌ لوريت وهي طفلة). كم كنتَ صبياً رائعاً! وقارئاً ممتازاً، وعازف بيانو بارعاً! والدراجات والمزلجات المُعجَّلة التي كانت لدي. والبندقية الهوائية (لا ذكر لمسدَّسي) تُرى أما زالَ موجوداً في الدُرج حيث تُحفَظ السكاكين والشوك؟ لقد كانت بحقّ لحظةً شنيعة جداً بالنسبة إلينا ليلة تناولتْ أمي المسدس. لحسن الحظ أنه لم يكن مشحوناً. لعلها كانت تعلمُ ذلك. سيان...

*

كلا، لا شيء تغيَّر. الزمن توقَّف عند سن الثانية عشرة. كائناً ما كان ما يهمسه أحدهم في آذانهم أبقى دائماً الفتى الصغير المُدلَّل الذي سيكبر ذات يوم ويصبح خياطاً مُحترفاً في أحسن حالاته. أما كل ذلك الهراء عن الكتابة... سوف أتخلّى عنه عاجلاً أو آجلاً. وهذه الزوجة الجديدة الغريبة الأطوار... هي أيضاً سوف تختفي من حياتي، في الوقت المناسب. وأخيراً أعودُ إلى صوابي. الكلُّ يفعل، عاجلاً أو آجلاً. لم يكونوا يخشون، كما فعل العم بول، أنْ أنتحر ؛ لستُ من ذلك النوع. ثم إنَّه كان لدي عقل راجح. كنتُ صلباً في أعماقي، إنْ صحَّ التعبير ؛ جامحاً ومتمرداً، لا أكثر. أفرطُ في القراءة... لدي من الأصدقاء التافهين أكثر مما ينبغي. وهم حريصون على عدم ذكر أسمائهم، ولكن كنت أعلمُ أنه سرعان ما سيُطرَح السؤال، دائماً خلسة، دائماً نبرة صوت مكبوتة، وتلتفت العيون يُمنةً ويسرى - " **وكيف حال الصغيرة؟** " - أي ابنتي. فأجيب، أنا الذي ليست لدي أدنى فكرة، ولستُ حتى متأكداً من

أنها ما تزال حية، أجيب بنبرة صوت اعتيادية، هادئة: " أوه، إنها على ما يرام، نعم "، وتقول أمي" أحقاً؟ وهل تصلك أخبارهما؟ " والـ " **هما**" تتضمّن زوجتي. فأجيب، " بشكلٍ غير مباشر "، " ستانلي ينقل إليّ أخبارهما بين حينٍ وآخر ". " وكيف حاله **هو**، أي ستانلي؟ ". " جيد... "

كم أودُّ لو أحدِّثهم عن جوني بول، لكنهم سيرون كلامي غريباً، بل شديد الغرابة. ولا عَجَبْ، فأنا لم أقابل جوني بول منذ أن كنتُ في السابعة أو الثامنة من عمري. وهذا حقيقي. ولكن ما لم يشكّوا فيه، وخاصةً أنت، يا أمي العزيزة، هو أني احتفظتُ بذكراه حيّةً في وجداني طوال تلك السنين كلها. نعم، تمرُّ السنون سريعاً، ويزدادُ جوني بول إشعاعاً بريقاً. وأحياناً، وهذا ما يتخطى مقدرتك على تخيّله، أحياناً أتصوَّره إلهاً صغيراً. أحد القِلّة النادرة من أمثاله الذين عرفتهم. أعتقد أنك لا تتذكرين أنَّ جوني بول كان له أرقّ وألطف صوت يصدر عن رجل؟ لا تعلمين، على الرغم من أني كنتُ مجردَ طفل حينئذٍ، أني كنتُ أرى عبر عينيه ما لم يكشفه أي إنسان آخر لي؟ بالنسبة إليك كان مجرد ابن فحّام؛ فتى مهاجراً، إيطالياً صغيراً قذراً لا يُحسِنُ الإنكليزية كثيراً لكنه ينقرُ طرفَ قبعته بأدب كلما مررتُ به. كيف كان يمكن لكِ أن تحلمي بأنَّ ذلك الشخص سيكونُ بمثابة الإله الصغير بالنسبة إلى ابنكِ الحبيب؟ هل سبق لك أن عرفتِ لأي شيء عما يدور في خَلَدْ ابنكِ المتمرِّد؟ إنكِ لا تحبِّذين الكتب التي يقرأها، ولا الرفاق الذين ينتقيهم، ولا الفتيات اللواتي يقع في حبّهن، ولا الألعاب التي يمارسها، ولا الآمال التي يتمناها لنفسه. أنتِ دائماً التي تعرفُ بشكلٍ أفضل، أليس كذلك؟ لكنكِ لا تمارسين ضغطاً شديداً جداً. طريقتك هي أن تتظاهري

twitter @baghdad_library

بأنكِ لا تسمعين، ولا ترين، أي شيء. وفي الوقت المناسب سوف أتجاوز كل هذه الحماقة. لكني لم أفعل! إنني أزدادُ سوءاً في كل عام. لذا تظاهرتِ بأنَّ ساعة الزمن قد توقَّفَتْ عند الرقم اثنى عشر. وببساطة لم تري ابنكِ كما هو فعلاً، بل انتقيتِ صورةً لي تناسبكِ. صورة ابن الاثنا عشرة. وبعد ذلك الطوفان...

في العام التالي، في مثل هذا الفصل الشرير نفسه من العام، لعلّكِ ستسألينني إن كنتُ ما أزالُ أكتبُ وسأقولُ نعم وسوف تتجاهلين جوابي أو تعاملينه وكأنه قطرة من النبيذ سُفِحَتْ مصادفةً على أفضل مفرش مائدة عندك. إنك لا تريدين أن تعرفي لماذا أكتب، ولا تهتمين إذا ما أخبرتكِ عن السبب. أنتِ تريدين أن تُسمِّرينني إلى الكرسي، وتجبرينني على الإصغاء إلى المذياع الذي يلفظ خراءً. تريدنني أن أجلس وأصغي إلى ثرثرتك الجنونية عن الجيران والأقارب. وسوف تفعلين هذا معي حتى وإن كنت من التهوُّر، والجراءة، بحيث أبلغك بأشدّ العبارات تحديداً أنَّ كل ما تتكلّمين عنه ليس أكثر من خراء بالنسبة إليّ. وها أنا أجلسُ هنا وغائصٌ لتويّ في هذا الخراء حتى عنقي. قد أجرِّب مساراً جديداً - قد أتظاهرُ بأني شديد اللهفة، والشوق. " ما اسم تلك الأوبريت. صوتٌ جميل. فائق الجمال! اطلبي منهم أن يكرِّروا الغناء... ويكرِّروه... ويكرِّروه! "، أو قد أتسلَّل إلى الطابق العلوي وأتصيَّد تلك الأسطوانات القديمة لكاروزو. لقد كان يتمتَّع بصوتٍ جميل، ألا توافقين؟ (" نعم، شكراً لك، سآخذ سيجاراً ") ولكن لا أريدُ كأساً آخر من المشروب، من فضلك. أشعرُ كأنَّ في عيني رمل ؛ إنَّ تمرُّد الشيخوخة وحده يُبقيني يقظاً. كنت مستعداً لأهب أي شيء مقابل أن أتسلَّل إلى الطابق العلوي

إلى غرفة النوم الصغيرة القذرة تلك الخالية من أي كرسي أو بساط أو صورة، وأستغرق في نوم الموتى! كم من مرات ومرات ارتميتُ على ذلك السرير وصلَّيتُ كي لا أفتح عيني أبداً! أتذكرين يا أمي العزيزة ذات مرة حين سكبتِ عليَّ ملء دلو من الماء البارد لأني متسكّع فاشل وكسول. صحيح أني بقيتُ مستلقياً هناك على مدى ثمانٍ وأربعين ساعة، ولكن أكان كسلاً ما جعلني ألزم الفراش؟ إنَّ ما لا تعلمينه يا أمي هو أني كنتُ محطَّمَ الفؤاد. وما كنتِ ضحكتِ على هذا لو كنتُ من الحمق بحيث أثق فيك. يا لغرفة النوم الصغيرة، الفظيعة، الشنيعة تلك! لابد أني متُّ ألف ميتةٍ هناك. ولكن راودتني هناك أحلام ورؤى أيضاً. نعم، بل إني صلَّيتُ وأنا في ذلك السرير، ودموع حرَّة تنحدر على وجنتي. (**كم اشتقتُ إليها، إليها فقط!**) وحين فشلتْ هذه الطريقة، حين أصبحتُ أخيراً مستعداً وقادراً على النهوض ومواجهةِ العالم من جديد لم يبقَ لي إلا رفيقٌ واحد يمكنني أن ألجأ إليه: دراجتي، بأشعتها الطويلة وكأنما لا نهاية لها. فقط أنا وحدي، أقود أفكاري المريرة داخل ذراعيَّ وساقيَّ، اندفعُ، أنطلقُ، أنزلقُ فوق الممرات المُحصَّاة الملساء كالريح، ولكن دون طائل. فكلما ترجَّلتُ أرى صورتها ماثلةً أمامي، ومعها قوة الدفع الخلفيّة[٢٩] للألم، والشك، والخوف. ولكن كوني في مركز السيطرة، وليس منهمكاً في العمل، كان بمثابة هبة. كانت الدراجة جزءاً مني، تلبّي رغباتي. لا شيء آخر فعل ذلك أبداً. كلا، يا والديَّ القاسيين الأعميين، أنتما لم تقولا أي شيء لي، ولا فعلتما أي شيء لأجلي، لم تمنحاني الفرح والسلوى اللذَين مَنَحَتني إياهما آلة السباق تلك. ليت في استطاعتي أن أفكّكما، كما أفعلُ مع دراجتي، وأزيِّتكما وأشحِّمكما بكل حب!

twitter @baghdad_library

" هل ترغب في التمشية مع الوالد؟ "

أيقظني صوت أمي من تأمّلي. لم أتذكّر كيف انتقلتُ إلى الأريكة. لعلّني غفوتُ قليلاً دون وعي مني. مهما يكن، انتفضت على رنين صوتها.

عركتُ عينيَّ، ولاحظتُ أنها كانت تقدّم لي عصا خيزران؛ عصا جدّي؛ صلبة كالأبنوس وذات مقبض فضي على هيئة ثعلب - أو لعله كان قرداً صغيراً.

وفي الحال كنتُ واقفاً على قدميّ ،أتلفع بمعطفي. كان والدي واقفاً في هيئة استعداد، يلوّح بعصا المشي ذات المقبض العاجيّ خاصته. قال " الهواء سينعشك "

اتّجهنا غريزياً نحو المقبرة. كان يحب أن يعبر المقبرة سيراً على الأقدام، وهذا لا يعني أنه كان مولعاً بالموتى ولكن بسبب الأشجار والأزهار، والعصافير، والذكريات التي يثيرها دائماً سكون الموتى. كانت الممرات مُرصّعة بالمقاعد وكان في إمكان المرء أن يجلس ويتحاور مع الطبيعة، أو مع إله العالم السفلي، إذا شاء. لم أكن مضطراً إلى أن أجهد نفسي لأحافظ على سير الحديث مع والدي؛ كان متعوّداً على إجاباتي المقتضبة، المتملّصة، وعلى ذرائعي الضعيفة. لم يحاول قط أن ينتزع المعلومات مني. كان يكفيه وجود شخص إلى جانبه.

في طريق عودتنا مررنا بالمدرسة التي كنتُ أتردّدُ عليها وأنا فتى. قبالة المدرسة كان هناك صفٌ من الشقق رثّة المظهر، وكلها مزدوجة بواجهات محلات تجارية لا تقلّ إغراءً عن صفٍ من أسنانٍ نخِرة. وكان توني ماريلا يُقيمُ في إحدى تلك الشقق. ولسببٍ ما كان والدي دائماً

يتوقَّع مني أن أتحمَّس لدى ذِكر الاسم، بكل خطوة جديدة يرتفع بها هذا الأسباني على سلم الشهرة. كان توني حينئذ يشغل وظيفة كبيرة في أحد فروعِ الإدارة المدنية ؛ وكان أيضاً يسعى للفوز بمنصب عضو في مجلس الشيوخ أو ما شابه. ألم أقرأ عن ذلك؟ ورأى أنَّ من المفيد أنْ أقومَ بزيارته في وقتٍ ما... لا أحد يعلم إلامَ قد يؤدي هذا.

مع اقترابنا أكثر من المنزل مررنا بمنزلٍ يخصُّ آل غروس. قال إنَّ ابنا آل غروس أيضاً يبليان بلاءً حسناً. أحدهما كان برتبة رائد في الجيش، والآخر برتبة عميد في البحرية. وتابع قائلاً إنني لم أكن أحلم بأنْ أحدهما سيصبح جنرالاً. (كان من المستحيل تخيُّل أن جنرالاً يمكن أن يظهر في ذلك الحي، وذلك الشارع)

سألته " ماذا فعل الزمان بالمجنون الذي كان يقطن في هذا الشارع؟ أقصد، حيث كانت الإسطبلات "

" لقد عضَّ حصانٌ يده وقطعها ثم أُصيب بالغنغرينا "

" تقصد أنه مات؟ "

قال والدي " من زمان. في الواقع، لقد ماتوا جميعاً، الأخوة كلهم. أحدهم ضرَبته صاعقة، وآخر انزلقَ على الجليد فكَسَرَ جمجمته... آه نعم، والثالث دخل مستشفى المجاذيب... ثم سرعان ما أصيب بنزيف ومات. الوالد عاش أكثر منهم. كان ضريراً كما تعلم. وعند اقتراب نهايته أصبح خرِفاً قليلاً. لم يكد يصنع غير مصائد للفئران "

تساءلتُ، لماذا لم أفكر من قبل في الانتقال من منزلٍ إلى آخر، طول الشارع، لأدوِّن تواريخ حيوات قاطنيها؟ سيكونُ كتاباً رائعاً! " **كتاب الصور المرعبة** "، ويا لها من صور مألوفة أيضاً ؛ تلك المآسي التي لا

twitter @baghdad_library

تحتلّ أبداً صفحات الجرائد الأولى. جدير بدور موباسان أن يجد هنا مادة خصبة له...

وصلنا لنجد أنَّ الجميع يقظين يقظة تامة ويتسامرون بشكلٍ مُحبَّب. كانت مونا وستيسيا ترشفان القهوة. لعلهما طلبتاها بنفسيهما ؛ إنَّ أمي لا يمكنُ أن تحلم في تقديم القهوة بين الوجبات. القهوة تقدّم فقط على الفطور، وفي الحفلات وفي kaffeeklatches (حفلات القهوة). ولكن...

" هل استمتعتما بالتمشية؟ "

" نعم، أمي، تمشينا في المقبرة "

" هذا جميل. هل القبور في حالة جيدة؟ "

كانت تشير إلى مقبرة العائلة، وخاصةً قبر والدها.

قالت " هناك مكان لك أيضاً، وللوريت "

استرقت نظرةً سريعةً إلى ستيسيا لأرى إنْ كانت لا ترسم على وجهها تعبيراً ساخراً. ثم تكلّمت مونا. كانت ملاحظتها على جانب كبير من الأهمية أيضاً.

قالت " هو لن يموت أبداً "

رسمتْ أمي على وجهها تعبير اشمئزاز، وكأنها قضمت قطعة من تورتة الخوخ. ثم ابتسمت بتعاطف، أولاً لمونا، ثم لي. في الواقع كانت على شفا أن تضحك حين أجابت " لا تقلقي، سوف يموت مثلنا جميعاً. انظري إليه - إنه أصلع منذ الآن ولا يزال في ثلاثينات عمره. إنه لا يعتني بنفسه. ولا أنت تفعلين ". عندئذ كانت نظرتها قد تغيَّرت لتدل على التوبيخ الخيِّر.

قالت مونا، وهي تتدخَّل بشكلٍ أعمق " إنَّ فال عبقريّ "، وكادت تبدأ بتضخيم الأمور لكنَّ أمي أوقفتها.

سألتها " أيجب أن يكون المرءُ عبقرياً ليكتبَ قصصاً؟ ". كانت تشوب صوتها نبرة تحدّي.

قالت مونا " كلا، لكنَّ فال يكون عبقرياً حتى وإنْ لم يكتب قصصاً"

" تش تش! إنه حتماً ليس عبقرياً في كسب النقود "

أسرعتْ مونا بالإجابة " ينبغي ألاّ يفكِّر في النقود ؛ أو القلق على النقود ؛ هو من شأني أنا "

" في حين يجلس هو في المنزل ويخربش، أليس كذلك؟ ". كان الغلّ قد بدأ يفيض. " وأنت، امرأةٌ شابة جميلة مثلك، عليك أن تخرجي وتعملي. كم تغيَّرَ الزمن. حين كنتُ فتاةً صغيرةً كان والدي يجلس على أحد المقاعد من الصباح وحتى المساء. هو كان يكسب نقوداً. لم يكن بحاجة إلى الإلهام... ولا إلى العبقرية. لم يكن لديه أم... كانت تُقيمُ في مصحَّة عقلية. ولكنه كان لنا - وقد أحببناه حبّاً جمّاً. كان أباً وأماً بالنسبة إلينا. لم يكن ينقصنا أي شيء ". سكتت برهةً، لكي تُسدِّد إلى الهدف. " لكنَّ هذا الشخص "، وأومأت باتجاهي، " هذا العبقري، كما تسمينه، من شدَّة الكسل بحيث يتولى عملاً. إنه يتوقَّع من زوجته أن ترعى أموره - وأمور زوجته الثانية وطفلته. لا أمانع إذا ما كسب أي شيء من كتاباته. أما الاستمرار في الكتابة دون طائل، فهذا ما لا أفهمه "

باشرَتْ مونا بالقول " ولكن يا أمي... "

قلتُ " اسمعا هنا، أليس من الأفضل أن نغلق الموضوع؟ لقد تطرَّقنا إليه مرات عديدة. لا فائدة, لا أتوقع منكِ أن تفهمي. ولكن يجب أن

twitter @baghdad_library

تفهمي ما يلي... إنَّ والدك لم يصبح خيّاط معاطف من الدرجة الأولى بين ليلةٍ وضُحاها، أليس كذلك؟ أنتِ نفسك أخبرتني أنه أمضى فترةَ تمرين على المهنة طويلة وصعبة، وأنه تنقَّلَ من بلدةٍ إلى بلدة، في أرجاء ألمانيا كلها، وأخيراً، ولكي يتجنَّب التحاق بالجيش، رحل إلى لندن. الأمر نفسه مع الكتابة. إنَّ اكتساب المهارة يستغرقُ سنين طويلة. وسنوات عديدة أخرى لبلوغ الاعتراف به. حين كان والدك يصنع معطفاً كان هناك شخص ما ينتظر كي يرتديه ؛ ولم يكن مضطراً إلى أن يتجول إلى أن يجد مَنْ يُقدِّره ويشتريه... "

قالت أمي " إنكَ تكتفي بالكلام. لقد سمعت ما يكفيني "، ونهضتْ لتذهب إلى المطبخ.

ناشدتْها مونا " لا تذهبي! اسمعيني، أرجوك. أنا أعرفُ عيوب فال. لكني أعرفُ أيضاً ما في داخله. إنه ليس حالماً خاملاً، وهو يعمل حقاً ؛ يعمل باجتهاد على كتاباته أكثر مما يمكن أن يبذله على أي عمل آخر. هذا هو عمله، " الخربشة "، كما سمّيته. هذا هو العمل الذي وُلِدَ ليقوم به. كنتُ أتمنى من الله أن تكون لي مهنة أمارسها بكل حماس، شيئاً أؤمنُ به إيماناً مطلقاً. إنَّ مجرَّد مراقبته وهو يعملُ يمنحني السعادة. أثناء الكتابة يكونُ شخصاً آخر، حتى أكاد لا أتعرَّف عليه ؛ يكونُ شديد الجدّية، ومترعاً بالأفكار، ومستغرقاً في ذاته... نعم، أنا أيضاً كان لدي والد طيب، أحببته من كل قلبي. هو أيضاً أراد أن يكونَ كاتباً. لكنَّ حياته كانت صعبة جداً. كنا عائلةً كبيرةً، من المهاجرين، وفي فقر مدقع. وكانت أمي كثيرة المطالب. كنتُ أشدَّ قُرباً إلى أبي مني إلى أمي. ربما لمجرَّد أنه كان فاشلاً. يجب أن تفهمي أنه لم يكن فاشلاً

بالنسبة إليّ ؛ كنتُ أحبه. لم يكن يهمّني ما هو أو ماذا يفعل. أحياناً كان، مثل فال هنا، يجعل من نفسه مهرّجاً... "

هنا انتفضتْ أمي قليلاً مُجفلة، ونظرت إلى مونا بعينين فضوليَّتين وقالت - " أوه؟ ". كان جليّاً أنَّ أحداً لم يكن قد أسهبَ في هذا الجانب من شخصيتي من قبل.

قالت " أعرف أنَّ لديه حسّاً فكهاً، ولكن... مهرّجاً؟ "

تدخَّلَ العجوز قائلاً " إنه فقط أسلوبها في التعبير "

قالت مونا بعناد " كلا، أنا أعني ما أقول... مهرِّج "

" أنا لم أسمع أبداً عن كاتبٍ كان أيضاً مهرِّجاً ". كانت هذه ملاحظة أمي الحَميريّة المُضجِرة.

عند هذه النقطة أي شخص آخر كان سيستسلم. ولكن ليس مونا. لقد أذهلتني بإلحاحها. هذه المرة كانت غاية في الرصانة. (أم هل كانت تستغل تلك الفرصة لتُقنعني بولائها وإخلاصها؟) على أي حال، قررت أن أدعها تصل إلى آخر مداها. الجدال الجيد، مهما كان حجم المخاطرة، أفضل من النوع الآخر من اللغات الأعجميّة. كان منعشاً، على الأقلّ.

قالت مونا " حين يقومُ بدور المهرِّج فذلك عادةً لأنه متألِّم. إنه حسّاس، كما تعلمين. بل شديد الحساسية "

قالت أمي " حسبتُ أنَّ جلده سميك جداً "

" أنتِ تمزحين حتماً. إنه أشدُّ مخلوقات الله حساسية. الفنانون كلهم حسّاسون "

قال والدي " هذا صحيح ". لعلّه كان يفكر في رسكن[٣٠] - أو في ذلك المسكين رايدر[٣١] الذي تنمُّ لوحاته عن حساسية مُرضية.

twitter @baghdad_library

" انظري، يا أمي، لا يهم كم يستغرق من فال حتى يصبح معروفاً ويأخذ حقَّه. سوف يجدني دائماً إلى جانبه. ولن أدعه يجوع ويعاني ". (شعرتُ بأمي تعود إلى جمودها من جديد). " لقد رأيتُ ما حدث لأبي؛ ولن يحدث لفال. سوف يفعل ما يريد. إنني مؤمنةٌ به، وسأستمر في إيماني به حتى ولو أنكره العالم كله ". سكتت برهةً طويلة، ثم تابعت بجدّية أشد، " أنا لا أفهم لماذا ترفضين أن يكون كاتباً. لا يمكن أن يكون السبب هو أنه لا يكسب نقوداً من ذلك. إنَّ هذا شأنه هو وشأني، أليس كذلك؟ لا أقصد أن أؤلمك بما أقول، ولكن يجب أن أقول هذا - إذا لم تقبليه ككاتب لن يكون لك ابناً أبداً. كيف يمكنك أن تفهميه إذا لم تعرفي هذا الجانب منه؟ ربما كان يمكن أن يكون شخصاً آخر، شخصاً يعجبك أكثر، على الرغم من أنكِ لن تتعرّفي عليه... على الأقل، ليس كما أعرفه. ماذا يفيده أن يبرهن لك أو لي أو لأي إنسان تتساءلين إنْ كان زوجاً صالحاً، وأباً صالحاً، وما إلى ذلك. هو كذلك، أؤكد لك. لكنه أكثر من هذا بكثير! إنَّ ما لديه ليمنحه يخصُّ العالمَ كله، وليس فقط يخصّ عائلته، أو أولاده، أو أمه أو أباه. هل يبدو هذا الكلام غريباً لك، أو قاسياً؟ "

قالت أمي " شيء مذهل! "، وكان قولها لاسعاً كالسوط.

" حسن، فليكن **مذهلاً** إذن. ولكن هذا هو الواقع. قد تقرئين ذات يوم ما كتبه وتشعرين بالفخر به لأنه ابنك "

قالتْ أمي " لن أفعل! أفضِّل أن أراه يحفر خنادق "

قالت مونا " قد يُضطرّ إلى فعل ذلك أيضاً - ذات يوم. إنَّ بعض الفنانين ينتحرون قبل أن يتعرّف أحد عليهم. رامبرانت أنهى حياته في الشوارع، كشحاذ. وكان أحد أعظم الـ... "

غرَّدتْ ستيسيا " وماذا عن فان غوخ؟ "

قالت أمي " ومَنْ هذا؟ أمخربشٌ آخر؟ "

" كلا، بل رسام. رسام مجنون أيضاً ". كان حماس سيتيسيا يزداد.

قالت أمي " يبدو لي أنهم جميعاً معتوهون "

انفجرت ستيسيا بالضحك، وازداد ضحكها قوةً وعنفاً، وهتفتْ "وأنا؟ ألا تعلمين أني أنا أيضاً معتوهةٌ؟ "

قالت مونا " لكنكِ معتوهةٌ لذيذة "

قالت ستيسيا، مع مزيدٍ من الضحك، " أنا مجنونة مائة بالمائة، هذا هو الفرق! الجميع يعرفون هذا "

رأيت أن أمي كانت خائفة. لم يكن هناك ضير في المزاح بكلمة معتوه، أما الاعتراف بأنها مجنونة تماماً، فتلك مسألة أخرى.

كان أبي هو الذي أنقذ الموقف. قال " واحد مهرِّج، والآخر معتوه، وأنت؟ ". كان يوجّه كلامه إلى مونا. " ألا تعانين من أي خطب؟ "

ابتسمتْ وأجابت بمرح: "أنا طبيعية تماماً. هذا هو خطبي". ثم التفتت إلى أمي "الفنانون كلهم متشابهون. يجب أن يكونوا على قدرٍ من الجنون ليرسموا-أو ليكتبوا. ماذا عن صديقنا الحميم جون إمهوف؟"

قالت أمي، محدِّقة إليه غير فاهمة، " ماذا عنه؟ هل اضطر إلى الهروب مع امرأة أخرى، هل اضطر إلى التخلِّي عن زوجته وأولاده لكي يبرهن على أنه فنان؟ "

" ليس هذا ما أعنيه أبداً ". كان يزداد غضباً منها، وهو الذي يعلم علم اليقين إلى أي مدى يمكن أن تكون عنيدة ومتبلِّدة الذهن. " ألا تذكرين النظرة التي ترتسمُ على وجهه حين كنا نفاجئه في مركز عمله؟

twitter @baghdad_library

هناك، في تلك الغرفة الصغيرة، كنا نراه يرسم لوحات مائيّة بعد أن يأوي الجميع إلى السرير ". التفتَ إلى لوريت. " هلاّ صعدتِ إلى الطابق العلوي وأحضرتِ تلك اللوحة المعلّقة في الصالون؟ أنتِ تعرفينها، تلك التي تبيِّن رجلاً وامرأة في قارب تجديف... والرجل يحمل رزمة من القش على ظهره "

قالت أمي باستغراق متأمِّل " نعم، كان جون إمهوف رجلاً طيباً، إلى أن أدمنتْ زوجته على شرب الخمر. ومع ذلك يجب أن أعترف بأنه لم يُبد الكثير من الاهتمام بأولاده، لم يكن يفكِّر إلا في فنه "

قال والدي " كان فناناً جيداً. أعماله جميلة. أتذكر النوافذ ذات الزجاج الملوّن التي نفّذها لأجل الكنيسة الصغيرة القريبة من هنا؟ وماذا حصل مقابل جهده ذاك؟ لا شيء تقريباً. كلا، سأبقى دائماً أذكر جون إمهوف، كائناً ما كان ما فعله. كنت فقط أتمنى لو أنه ترك أعمالاً أكثر"

هنا ظهرت لوريت مع اللوحة. تناولتها ستيسيا منها وأخذت تتفحّصها، باهتمام شديد بارز. وخشيتُ أن تُعلِّق عليها برأي مُغرق في الأكاديمية ولكن لا، كانت شديدة اللباقة والتعقُّل. قالت إنها مُنفَّذة بجمال... وبمهارةٍ عالية.

قالت " إنها ليست مادة سهلة. هل استخدم مرة الألوان الزيتية؟ لستُ بالحَكَم الجيد جداً على الألوان المائية. ولكني أدركُ أنه كان يعلم ماذا يفعل ". وسكتت. ثم، وكأنها تلمَّسَتْ السبيل الصحيح، قالت: "هناك رسام بالألوان المائية أكن له إعجاباً شديداً. وهو... "

هتف والدي " جون سينغر سارجنت[٣٢]! "

قالت ستيسيا " صح! كيف عَرِفْتَ هذا؟ أعني، كيف عَرِفْتَ ما يجول في خاطري؟ "

قال والدي " ليس هناك إلا سارجنت واحد ". كان هذا إعلاناً سمعه مرات عدةً من بين شفتيّ سَلَفه أيزاك ووكر. " ليس هناك إلا سارجنت واحد، تماماً كما أنه لا يوجد إلا بيتهوفن واحد، وموتسارت واحد، ودافنتشي واحد... صح؟ "

أشرقتْ ستيسيا. شعرت بالشجاعة على أن تبوح بما يجول في ذهنها. رمتني بنظرة، وهي تفغر فاها، مفادها - " لماذا لم تقُل لي هذه الأشياء عن والدك؟ "

قالت " لقد درستُها كلها، وأنا الآن أحاولُ أن أعثر على نفسي. إنني مجنونة كما ادَّعيت قبل لحظات. أنا أعرفُ أكثر مما يمكنني أن أهضمه، هذا كل شيء. وأنا موهوبة لكني لستُ عبقرية. من دون عبقرية، لا شيء يهمّ. وأنا أريد أن أكونَ بيكاسو آخر... بيكاسو **أنثى**. ليس ماري لورنسان. أتفهم ما أعني؟ "

قال والدي " لقد نسخ هذه عن لوحة شهيرة "، مُشيراً بذلك إلى لوحة جون إمهوف المائية.

قالت ستيسيا " لا يهمّ ؛ كثير من الفنانين نسخوا أعمالَ رجالٍ أحبوهم... ولكن ماذا قلت حدث له... لهذا الجون إنـ...؟ "

" لقد فرَّ مع امرأةٍ أخرى. أخذها إلى ألمانيا، حيث كان قد تعرَّف إليها وهو فتى. ثم قامت الحرب وانقطعت أخباره عنا. لعلّه قُتِل "

" ورافائيل[٣٣]، أتحب أعماله؟ "

قال والدي بسرعة " لا أحد يُضاهيه كواضع تصاميم. وكوريجيو[٣٤] - هذا كان رساماً عظيماً آخر. وكورو[٣٥]! لا لأظنُّ أنَّ في استطاعة أحد أن يبزَّ لوحات كورو الجيدة. أليس كذلك؟ أما غينسبورو[٣٦] فلم أكن أبداً أهتمُّ به. لكنَّ سيسلي... "

twitter @baghdad_library

قالت ستيسيا، حينئذٍ مستعدة للمشاركة في اللعبة طوال النهار، "يبدو أنك تعرفهم جميعاً. وماذا عن المحدثين... هل تحبّهم أيضاً؟ "

" تعنين جون سلون[٣٧]، وجورج لكس[٣٨]... وأمثالهما؟ "

قالت ستيسيا " كلا، أقصد رجالاً مثل بيكاسو، وميرو، وماتيس، وموديليلني... "

قال والدي " لم أتابع إنجازاتهم، لكني أحبّ الانطباعيين، من خلال ما شاهدتُ من أعمالهم. ورينوار، طبعاً. لكنه ليس من المحدثين، أليس كذلك؟ "

قالت ستيسيا " بصورةٍ ما، نعم. هو عَمِلَ على تمهيد السبيل "

قال والدي " كان حتماً يحب الرسم، هذا واضح. وقد وضع تصاميم بارعة. لوحاته التي تصوِّرُ نساءً وأطفالاً كلها مذهلة في جمالها ؛ تبقى في البال. ثم هناك الأزهار والأزياء... وكل شيء. إنه يضجُّ بالبهجة، والرقة، والحياة. لقد رسم زمنه، يجب الاعتراف بهذا. وقد كانت حقبةً جميلة - باريس المرحة، ونزهات على طول نهر السين، والمولان روج، والحدائق الغنَّاء... "

قالت ستيسيا " كلامك يذكّرني بتولوز-لوتريك "

" ومونيه، وبيسارو... "

تدخَّلتُ " وبوانكاريه! "

وقالت مونا " وستريندبرغ! "

قالت ستيسيا " نعم، هذا كان رجلاً مجنوناً يستحق العبادة "

هنا أبرزت أمي رأسها. " أما تزالون تتحدثون عن المجانين؟ حسبتُ أنكم انتهيتم من هذا الموضوع "، وأخذت تُنقِّلُ نظرها بيننا، فلما وجدت

أننا نستمتع بوقتنا، عادت من حيث أتت. كان ذلك يفوقُ طاقتها على الاحتمال. لا يحقُّ للناس أن يتحدثوا عن الفن بمرح. ثم إنَّ مجردِ ذِكر تلك الأسماء الأجنبية، الغريبة كان يُشعِرها بالمهانة. إنها سِمةٌ لا- أميركية.

على ذلك المسار انقضت فترة العصر ؛ بصورةٍ أفضل مما كنتُ أتوقَّع، والفضل يعودُ إلى ستيسيا. لا شك في أنها حقَّقَت نجاحاً باهراً مع العجوز. حتى حين علَّقَ بكل ودّ قائلاً إنه كان يجب أن تكونَ رجلاً، لم يتأثَّر أحدٌ بكلامه.

حين أحضرَ ألبوم العائلة فجأةً أكاد أقول إنها انتشت. أي كوكبة من الحمقى! العم ثيودور من هامبورغ ؛ أشبه بأير الغندور. وجورج شيندلر من بريمن: وهو أشبه بمتأنِّق هسّي[٣٩]، تشبَّثَ بموضة فترة ثمانينات القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وهاينريش مولر، جدّي من أبي، من بافاريا: يحملُ شبهاً عظيماً بالإمبراطور فرانتز جوزيف. وجورج إنسل، أحمق العائلة، الذي كان يحدِّقُ كتيسٍ مجنون من خلف شاربٍ مبروم، على طريقة القيصر فيلهلم.النساء كنَّ أكثر إبهاماً. جدّتي لأمي، التي أمضتْ نصف حياتها في المصحَّة العقلية: كان يمكن أن تكون إحدى بطلات رواية لوالتر سكوت. والعمة ليزي، الهولة التي ضاجعتْ أخاها: امرأةٌ شكسة مرحة المنظر في شعرها جرذان منتفخة وترسمُ ابتسامةً تقطعُ كحد السكين. والعمة آني، بثوب السباحة من طراز ما قبل الحرب، تبدو أشبه بماك سينت أحمق مستعد لولوج الوجار. والعمة أميليا: الملاك ذات العينين العسليتين الناعستين... المترعتين بالغبطة. والسيدة كمينغز، مدبِّرة المنزل العجوز، معتوهة بشكلٍ كامل، قبيحة كالإثم، ووجهها مشوَّه بثآليل ودمل...

twitter @baghdad_library

هذا جرّنا إلى موضوع علم الأنساب... أمطرتُهم بالأسئلة دون طائل. كان كل شيء مبهماً وغامضاً بعد آبائهم وأمهاتهم.

ولكن ألم يحدّثهم آباؤهم عن أقربائهم؟

نعم، ولكن كل شيء أصبح مبهماً الآن.

سألتْ ستيسيا " ألم يكن أي منهم رساماً؟ "

لا الأم ولا الأب يظن ذلك.

قالت أمي " ولكن كان هناك شعراء وموسيقيون "

قال والدي " وقباطنة بحريين وفلاحون "

سألتُ " أأنتَ متأكد من هذا ؟ "

قالت أمي " ما سبب اهتمامك الشديد بكل هذا الشيء ؛ لقد ماتوا جميعاً منذ زمن بعيد "

أجبت " أريد أن أعرف. ذات يوم سأرحل إلى أوروبا لكي أقوم بالبحث بنفسي "

ردّت " مشروع أحمق "

" لا يهمني. أريد أن أعرف المزيد عن أسلافي. لعلهم لم يكونوا جميعاً من الألمان "

قالت مونا " نعم، قد يكون في عائلتك عرقٌ سلافي "

قالت ستيسيا ببراءة " أحياناً يبدو شديد الشبه بالمنغول "

صُعِقتْ أمي ووجدتْ هذا الكلام سخيفاً تماماً. فبالنسبة إليها المنغولي يعني أبله.

قالت " إنه أميركي. كلنا أميركيون الآن "

قالت لوريت " نعم "

قال والدي " نعم، ماذا ؟ "

قـالت لوريت " هو أيضـاً أمـيركي "، ثم أضافت " لكنه يفـرط في القراءة "

انفجرنا جميعاً بالضحك.

" ولم يعُد يرتاد الكنيسة "

قـال والدي " يكفي، نحـن أيضاً لا نذهب إلى الكنيـسـة، ولكن مع ذلك نحن مسيحيون "

" ولديه أصدقاء من اليهود أكثر مما ينبغي "

مرة أخرى ضحك الجميع.

قال والدي " دعـونا نأكل شيئاً. أنا متأكد من أنهم يرغبون بالعودة إلى منزلهم سريعاً. غداً يوم آخر "

مـرة أخـرى مُـدَّتْ المائدة. هذه المرة، وجـبة خـفـيـفـة باردة، مع شـاي ومزيدٍ من بودينغ الخوخ. كانت لوريت تشهق طوال الوقت.

بعد ذلك بساعة استأذنا بالمغادرة.

قـالت أمي " لا تُصَبْ بـالزكـام. ومـحطة L ليست بعـيـدة من هنا ". كـانت تعلم أننا سنسـتقـلُ سيـارة أجرة، لكـنَّ هذه الكلمة، مـثل كلمـة فن، كانت تكره أن تذكرها.

عند الباب سألتْ لوريت " هل سنراكم قريباً ؟ "

قلت " أعتقد ذلك "

" على رأس السنة ؟ "

" ربما "

قال والدي برقّة " لا تغب طويلاً. وأتمنى لك التوفيق في الكتابة! "

twitter @baghdad_library

عند منعطف الطريق نادينا على سيارة أجرة.

قالت ستيسيا، بعد أن تكوَّمنا داخلها، " يا لطيف! "

قلت " لم تكن الجلسة سيئة، أليس كذلك؟ "

" كلا.. ا.. ا . أشكرُ الله على أنه لا أقاربَ لدي لأزورهم "

استقرينا في مقاعدنا، ورفست ستيسيا حذاءها.

قالت " يا لذاك الألبوم! لم أر في حياتي كلها مثل تلك المجموعة من المعتوهين. إنَّ بقاءكَ عاقلاً هو من قبيل المعجزة، ألا تدرك هذا؟ "

أجبتها " هذا حال معظم العائلات. ما شجرة الإنسان إلا شجرة تنوب ضخمة تتلألأ بمهووسين مصقولين، يانعين. آدم نفسه لابد أنه كان هولة ذا عين واحدة، ومائلاً إلى جنبه... إنَّ ما نحتاج إليه هو مشروب. تُرى هل تبقَّى لدينا بعض الكومل؟ "

قالت مونا " يعجبني والدك. فيك الكثير منه، يا فال "

قالت ستيسيا " أما أمه! "

قالت " ما بالها؟ "

قالت ستيسيا " لو كانت أمي لخنقتُها منذ زمن بعيد "

رأتْ مونا أنَّ هذا مضحك. قالت " امرأة غريبة ؛ تُذكّرني قليلاً بأمي ؛ منافقة، وعنيدة كبغل، ومستبدّة، وضيِّقة الأفق ؛ لا تنطوي على أي قدر من الحب "

قالت ستيسيا " لن أكون أمّاً أبداً ". وضحكنا جميعاً. " ولا حتى زوجة. يا إلهي، إنَّ كون الإنسان امرأة أمر صعب جداً. أنا أكره النساء! إنّهنَّ جميعاً عاهرات قذرات، حتى أفضلهن. سأكون كما أنا – متقمِّصةً صِفة الأنثى. ولا تدعيني ألبس هكذا مرة أخرى، أرجوك. أشعر أني محض حمقاء – ومحتالة "

في الطابق التحتيّ أخرجنا الزجاجات. كان هناك زجاجة من الكومل فعلاً، والبراندي، والرم، والبندكتين، والكوانترو. حضّرنا بعض القهوة المرّة الكثيفة، وجلسنا على طاولة الأمعاء واندمجنا في التسامر كأصدقاء قدامى. كانت ستيسيا قد خلعت مشدّ ردفيها، وعلّقته من مسند كرسيها، كأثرٍ قديم من المتحف.

قالت " بعد أذنكما، سأخرج ثديي "، وأخذت تلاطفهما بحبّ. " لا بأس بهما، ألا تعتقدان؟ ربما يمكن أن يكونا أكثر امتلاءاً قليلاً... أنا لا أزال عذراء "

قالت " أليس غريباً ذكره لاسم كوريجيو؟ ألا تعتقد أنه حقاً يعرف أي شيء عن كوريجيو؟ "

قلت " مستحيل. كان متعوّداً على حضور المزادات مع ذاك المدعو أيزاك ووكر، سلفه. بل لعله تعرّفَ إلى تشيمابيو[٤٠]، وكارباتشيو[٤١]. يجب أن تسمعيه وهو يتحدث عن تيتيان[٤٢] ذات يوم! سوف تعتقدين أنه كان يقوم بدراساته معه "

قالت ستيسيا، وهي تنهي شرب كأس آخر من البراندي، " لقد تشوّشَ ذهني. أبوك يتحدث عن الرسامين، وأختك تتحدث عن الموسيقى، وأمك تتحدث عن أحوال الطقس. ولا أحد يعرف أي شيء عن أي شيء، في الواقع. إنهم أشبه بنباتات فطرية تتحدث كلها معاً... لابد أنّ الحديث الذي دار بينكما وأنتما من المقبرة كان غريباً. لو كنت مكانك لفقدتُ صوابي "

قالت مونا " فال لا يأبه بالأمر، في وسعه أن يتحمّله "

قالت ستيسيا " لماذا؟ ألأنه كاتب؟ أم لأنه يزوّده بمادةٍ أوّليّة؟ "

twitter @baghdad_library

قلت " ربما ، ربما ينبغي الخوض في أنهارٍ من الخراء لكي نعثر على درةٍ من الواقع "

قالت ستيسيا " أنا لا أفعل هذا ، أنا أفضِّلُ منطقة فيليج، على الرغم من زيفها. على الأقل هناك تستطيع أن تبوح بآرائك "

هنا تكلّمت مونا ، فقد خطرت لها فكرةٌ لامعة: " لِمَ لا نذهب جميعاً إلى أوروبا "

قالت ستيسيا بابتهاج " نعم، لِمَ لا نفعل؟ "

قالت مونا " يمكننا تدبُّر الأمر "

قالت ستيسيا " حتماً، أستطيع دائماً أنْ أقترض نقود العبور "

أردت أن أقول " وكيف سنعيش، ونحن هناك؟ "

قالت مونا " كما نعيش هنا. الأمر بسيط "

" وأي لغة سنتكلّم؟ "

" الكل يُحسِن الإنكليزية يا فال. ثم إنَّ هناك عدداً كبيراً من الأميركيين في أوروبا. خاصة في فرنسا "

" تعنين أنْ نتطفَّل عليهم؟ "

" أنا لم أقُل هذا. أنا أقول إنه إذا كنت تريد حقاً أن ترحل فهناك دائماً سبيل للعيش "

قالت ستيسيا " نستطيع أن نعمل كموديلات، أو مونا تستطيع. أنا شعري غزير "

" وأنا، ماذا سأعمل؟ "

قالت مونا " تكتب! هذا كل ما تقدر على فعله "

قلت " أتمنى لو أنَّ هذا يتحقَّق "

سألتا " ما الذي يُقلقك؟ "

" أوروبا! إنكما تدليانها أمامي كقطعةٍ من طُعم نيء. أنتما الحالمتان، وليس أنا! حتماً، أريد أنْ أرحل. أنتما لا تعرفان مدى تأثير الكلمة حين أسمعها. إنها أشبه بوعد بحياة جديدة. ولكن كيف تكسب قوتنا هناك؟ إننا لا تعرفُ كلمة فرنسية واحدة، ولسنا مَهَرَة... كل ما نعرفه هو أنْ نسلب الناس. بل إننا لسنا حاذقين حتى في هذا المجال "

قالت مونا " إنك تبالغ في الجدّية. استخدم مخيّلتك! "

قالت ستيسيا " نعم، يجب أن تنتهز الفرصة. فكِّر في غوغان! "

قالت مونا " أو في لافكادو هيرن! "

قالت ستيسيا " أو في جاك لندن! لا يمكن للمرء أن ينتظر إلى أن تزدهر الأوضاع "

" أعرفُ، أعرف ". اتخذت لي مجلساً ودفنت رأسي بين يدي "

فجأة هتفت ستيسيا " وجدتها... سنذهب أولاً، مونا وأنا، ومن ثم نرسل في طلبك حين تستقيم الأمور. ما رأيك في هذا؟ "

اكتفيتُ بالنخر جواباً على ذلك. لم أكن مُصغياً إصغاءً كاملاً. لم أكن أتابعهما ؛ كنتُ أتقدِّمهما. كنتُ أطأ لتوي شوارع أوروبا ؛ أتحدثُ مع المارة، أرشفُ من مشروبٍ على مسطبة مزدحمة. كنت وحدي لكني لا أشعر بأي قدرٍ من الوحشة. هذا الجو كان مختلفاً، الناس بدوا مختلفين. حتى الأشجار والأزهار كانت مختلفة. كم كنتُ أتوقُ إلى ذلك - الشيء المختلف ؓ لكي أتمكّن من التكلُّم بحرّية، لأكونَ مفهوماً، ومقبولاً. أرضُ الأقارب الحقيقيين، هكذا كانت أوروبا تعني لي. إنها بيت الفنان، والمتشرِّد، والحالم. نعم، أمضى غوغان وقتاً عصيباً فيها، وفان غوخ

twitter @baghdad_library

عاش فيها حياة أسوأ من ذلك. لاشك في أنه كان هناك آلاف لم نعرفهم أبداً، ولم نسمع بهم، سقطوا، تلاشوا دون أن يُحققوا أي شيء...

نهضتُ شاعراً بالإرهاق، أشدُّ استنزافاً بتوقُّع الرحيل إلى أوروبا، وإن كان ذلك ذهنياً، مني بمرور الساعات الرتيبة التي قضيتها في حضن العائلة.

قلتُ لنفسي وأنا أستعدُّ للجوء إلى السرير " مع ذلك سأذهب إلى هناك. فإذا استطاعوا هم أن يعيشوا، فأنا أيضاً أستطيع " (وعنيتُ بضمير " هم " الناجحين والفاشلين) " حتى الطيور تنجح "

تخيّلت نفسي، مدفوعاً بتفكيري، موسى آخر، أقودُ شعبي خارج البرية. ليتني أصدُّ المدّ، وأعكس العملية، وأبدأ مسيرةٍ كبرى إلى الوراء، إلى المنبع! أن أفرغ هذه البرية الشاسعة المسمَّاة أميركا، أفرغها من وجوهها الشاحبة كلها، وأوقف الجَلَبة العبثية... أن أعيد القارة إلى الهنود... كم سيكون ذلك انتصاراً مجيداً! سوف تتفرَّج أوروبا على المشهد وهي مشدوهة. هل جُنّوا حتى يتخلّوا عن أرض الحليب والعسل؟ أكانت أميركا، إذن، حُلماً؟ فأصرخُ، نعم! بل هي كابوس. فلنبدأ من جديد ؛ فلنبنِ كاتدرائيات جديدة، فلنغنِ من جديد بتناغم ؛ فلنكتب قصائد ليس عن الموت بل عن الحياة! نتقدم كموجةٍ واحدةٍ، كتفاً إلى كتف، لا نؤدي إلا ما هو ضروري وحيويّ، لا نبني إلا ما سيدوم، لا نبدع إلا للمتعة. فلنصلِّ من جديد، للإله المجهول، ولكن برصانة، من أعماق قلوبنا وأرواحنا. دعونا لا نتركُ التفكير في المستقبل يحوِّلنا إلى عبيد. فليكن اليوم كافياً بحد ذاته. فلنفتح قلوبنا ومنازلنا. كفانا قدور تذويب! نريد فقط معادن نقية، من أشدّها نبلاً، وعراقة. أعطنا قادة من

جديد، ومراتب هَرَميّة، ونقابات مهنيّة، وحرفيين، وشعراء، وصاغة، ورجال دولة، وفقهاء، ومشرّدين، ودجّالين. وأبّهة فارغة، لا استعراضات عسكرية، أو مهرجانات، أو مواكب، أو حملات عسكرية. فلنتحدث حباً في التحدث ؛ ولنعمل حباً في العمل ؛ ولنشرِّف حباً في التشريف...

كلمة تشريف أعادت إليّ انتباهي. كانت كساعة المُنبّه ترنّ في أذني. تخيّل القملة في شقّها تتحدث عن التشريف! غصتُ عميقاً في السرير. وبينما كنتُ أغفو تخيّلتُني أحمل نموذجاً مُصغّراً لعَلَم أميركا وألوّح به: راية النجوم والخطوط العزيزة القديمة. كنتُ أحمله بيدي اليمنى، بكل فخر، وأنطلق قُدُماً بحثاً عن عمل. أليس امتيازاً لي أن أطالب بعمل، أنا، المواطن الأميركي الكامل، ابن أبوين محترمين، وعاشق مخلص للمذياع، وسفاح ديموقراطي ملتزم بالتقدّم، وبالتحامل العرقي وبالنجاح؟ وأتابعُ مسيرتي نحو الوظيفة مع وعدٍ على شفتيّ بأنْ أجعل أولادي أميركيين أكثر من أبويهم، بأن أحوّلهم إلى خنازير أصيلة، إذا لزم الأمر، لصالح جمهوريتنا المجيدة. أعطني بندقية لأتنكّبها وأسدّدها استعداداً للرمي! سأثبتْ إن كنتُ مواطناً متحمّساً أم لا. أميركا للأميركيين. **إلى الأمام سرّ!** الحرية أو الموت! (ما الفرق؟) أمّةٌ واحدةٌ، خفيّةٌ، **الخ، الخ**، الرؤية ٢٠/٢٠، الطموح لا حدود له، والماضي ناصع والطاقة لا تنفد، والمستقبل معجز. لا أمراض، لا عالة، لا عقد، لا آثام. ولدت كي أعمل كطرواديّ، لأوافق على ما يُملى عليّ، لأحيّي العَلَم - **العَلَم الأميركي** - ولأكونَ على أهبة لاستعداد لخداع عدوّي. كل ما أطلبه، يا سيد، هو فرصة.

أتى صوتٌ من قلب الظلال " فات الأوان! "

twitter @baghdad_library

" فات الأوان؟ كيف ذلك؟ "

" هكذا! لأنَّ هناك ٢٦٥٩٥٤٩٤ شخصاً آخر يتقدَّمونك، وكلهم في حالةِ إغماء تخشّبي كامل ومن فولاذٍ نقيّ لا غبار عليه، وكلّهم تمام التمام، وكل واحد منهم يحظى باستحسان مجلس الصحة، وجمعية المساعي المسيحية، وجمعية بنات الثورة ومنظمة كلو كلاكس كلان "

توسَّلتُ إليه " أعطني مسدَّساً! أعطني بندقية لكي أنسف بها رأسي! إنَّ هذا شيءٌ مُخز "

وقد كان فعلاً شيئاً مُخزياً. والأسوأ من ذلك، أنه كان خراءَ خيول بشكلٍ لا يرقى إليه الشك.

صررتُ " أيري فيك! أنا أعرفُ حقوقي "

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

إنَّ مجرَّد فكرة أنَّ في إمكانهما أن تتركاني ككلبٍ لتقوما وحدهما باكتشاف أوروبا نهشتني، ووتَّرَتْ أعصابي، جعلتني شارد الذهن، وأحياناً شيطانياً صِرفاً في سلوكي. ذات يوم سوف أخرجُ بحثاً عن عمل، مُصمِّماً على أن أقف على قدمي، بعد ذلك سوف ألازمُ المنزل وأتصارع مع المسرحية. ومن الليل، حين نجتمع حول طاولة الأحشاء، سأدوِّنُ ملاحظات عن محادثتهما.

وتسألاني " لماذا تدوِّنها ؟ "

فأجيب " لأتقصَّى أكاذيبكما " أو - " قد أستخدم بعضها في المسرحية "

هذه الملاحظات عملتُ عمل البهار في الحوار. لقد فَعَلَتا كل ما في وسعهما لإبعادي عن الموضوع. فتارةً تتحدثان مثل ستريندبرغ وتارة مثل ماكسويل بودنهايم. وما زاد الطين بلّة أني كنتُ أقرأ لهما مقاطع مزعجة من مفكرته التي كنت حينئذٍ أحملها معي أثناء تنقّلاتي في الفيليج. وأحياناً تكون محادثة (vertabim) سمعتها خارج إحدى المقاهي أو النوادي الليلية ؛ وأحياناً أخرى سرداً وصفيّاً لمجريات أحداثٍ وقعت في تلك المرابع أوشّيها بحذق بملاحظاتٍ متفرِّقة كنتُ قد سمعتها، أو

تظاهرت بأني سمعتها، عن الاثنتين. كانتا في المعتاد وهميتين، لكنهما كانتا أيضاً حقيقيتين بما يكفي لدفعهما إلى الاهتمام أو إلى تعتيم الحقيقة وهو بالضبط ما كنتُ أسعى إليه.

كانتا كلما فقدتا سيطرتهما على نفسيهما تُناقضُ إحداهما الأخرى وتكشفان عن أشياء ليس من المفترض أن أسمع بها. وأخيراً تظاهرت بأني حقاً مستغرق في كتابة المسرحية وناشدتهما أن تكتبا ما سأمليه عليهما: قلتُ، إني قرَّرتُ أن أكتب الفصل الأخير أولاً - فذلك أسهل. وطبعاً دافعي الحقيقي هو أن أبيِّن لهما كيف سينتهي هذا الـ ménage a trios (الحب بين ثلاثة أشخاص). كان ذلك يعني فصلاً تمثيلياً أقومُ به، وسرعة بديهة.

كانت ستيسيا قد قرَّرت أن تدوِّن ملاحظات بينما مونا تصغي وتقدِّم اقتراحات. ولكي أتقن الأداء المسرحي، رحتُ أذرع أرض الغرفة، وأدخن سجائر لا نهاية لها، وأتناولُ جرعةً كبيرةً من الزجاجة بين حينٍ وآخر، وأومئ كمخرجٍ سينمائي، وأؤدي الأدوار. أقلِّدهما كلاً بدورها. وطبعاً أسبِّب لهما نوبات الهستريا، خاصة حين أقاربُ مشاهد غرامية زائفة صورتهما فيها بوصفهما فقط تتظاهران بأنه تربطهما علاقة حب. ثم أتوقف أحياناً فجأةً لأسألُ إنْ كانتا تعتقدان أنَّ تلك المشاهد مفرطة في تصنُّعها، وتكلُّفها، وما إلى ذلك. أحياناً كانتا تسكتاني لكي تُعلِّقا على دقَّة رسمي للشخصية أو حواري، وعليه تتنافسان على تزويدي بالتلميحات، والحلول، والاقتراحات، وكنا كلنا نتكلَّم دفعةً واحدة ونمثِّل أدوارنا، كلٌ على طريقته، ولا أحد يدوِّن ملاحظات، وحين سكتنا لم يكن أيٌ منا قادراً على تذكُّر ما قاله الآخران وفعلاه، وما حدث أولاً وما

twitter @baghdad_library

حدث أخيراً. وبينما نحن نتابعُ كنتُ أقدِّمُ المزيد فالمزيد من الحقيقة، ومن الواقع، مبدعاً من جديد وببراعة مشاهد لم أكن حاضراً فيها أبداً، وأذهلهما باعترافاتهما، وسلوكهما المختلس. بعضٌ من تلك التخمينات العشوائيّة سبَّبت لهما ارتباكاً وحيرة شديدتين، كما لاحظت، بحيث لم يبق أمامهما إلا أن تتبادلا التُهم بالخيانة. أحياناً كانتا تتّهمانني، دون أن تعيا مضمونَ كلماتهما، بأني أتجسَّسُ عليهما، بأني أتنصَّتُ عليهما من ثقب المفتاح، وما إلى ذلك. وفي أحيانٍ أخرى كانتا تتبادلان النظرات الفارغة، غير قادرتين على تقرير ما إذا كانتا حقاً قد قالتا وفعلتا ما نسبته إليهما أم لا. ولكن، بغضّ النظر عن مدى مقتهما لتأويلي لأفعالهما، كانتا فرحتين، وطلبتا المزيد فالمزيد. وكأنهما رأتا نفسيهما على خشبة المسرح وهما تؤديان دوريهما الحقيقيين. كان شيئاً لا يُقاوَم.

في عز الذروة كنت أعمدُ إلى خذلهما، مدَّعياً الإصابة بالصداع أو بأنَّ وفاضي قد نَفَدَتْ منها الأفكارُ أو أنَّ ذلك الشيء اللعين ليس جيداً، وأنَّ من العبث هدرُ المزيد من الوقت عليه. وهذا يجعلهما في حالةِ هياجٍ شديد. ولكي تجعلاني ألين تعودان إلى المنزل مُحمَّلتان بالأطايب مما يؤكل ويُشرَب. بل إنهما تجلبان لي سيجار هافانا.

لكي أغيِّر أسلوب التعذيب أتظاهرُ، فور بدء عملنا، بأني مررتُ بتجربةٍ غريبةٍ في وقتٍ مبكّرٍ من النهار وأستطردُ، وكأنما بذهنٍ شارد، أن نرجئ العمل على المسرحية بعض الوقت لأني قبلتُ وظيفةَ مُرشد المشاهدين إلى مقاعدهم في مسرح المنوعات. فاستشاطتا غضباً. وبعد ذلك ببضعة أيام أبلغتهما بأني تركتُ الوظيفة لأصبحَ عاملَ مصعد، فأبديتا امتعاضهما.

*

ذات صباح استيقظتُ مع نيّةٍ مُبيَّتةٍ بأنْ أسعى للحصول على عمل، عملٍ مهم. لم تكن لديّ فكرة واضحة عن نوعية العمل، فكَّرتُ فقط في أنه يجب أن يكونَ شيئاً يستحق العناء. وبينما كنت أحلقُ ذقني خطرَ لي أنْ أقومَ بزيارة رئيس منظمة سلسلة مخازن، وأطلب منه أن يجد لي عملاً. ولن أذكر أي شيءٍ عن وظائفي السابقة ؛ سأركِّزُ على نقطةِ أني كاتب، كاتب مستقلّ يرغبُ في أن يضع مواهبه تحت تصرُّفه ؛ شابٌ يُكثِرُ من الترحال، ضجرٌ من التنقُّل في أرجاء المعمورةِ كلها، ويتوقُ إلى الاستقرار في مكانٍ واحد، دائم. وينتمي إلى منظومةٍ يتوقَّعُ لها الازدهار كمجموعتهم. (كانت سلسلة المتاجر ما تزال في أول عهدها). لو تتاحُ لي الفرصة فقد أبرهنُ... هنا أطلقتُ لمخيلتي العنان.

بينما كنتُ أرتدي ملابسي رحتُ أزخرف الخطاب الذي نويتُ أن ألقيه أمام السيد د. هـ هيغنبوتام، رئيس سلسلة مخازن هوبسن وهولبراين. (وتمنيتُ من الله ألا يتَّضح أنه أطرش!)

انطلقت في وقتٍ متأخر، لكنني كنتُ ممتلئاً بالتفاؤل وفي أقصى حالات التأنق والنشاط. تسلَّحتُ بحقيبةٍ تخصّ ستيسيا، ولم أزعج نفسي بتفحُّص محتوياتها. أردتُ أي شيءٍ يجعلني أبدو "رجلاً عملياً".

كان يوماً قارس البرد وكان المكتب الرئيسي موجوداً في ورشةٍ لا تبعدُ كثيراً عن قنال غوانوس. استغرقَ مني الوصول إلى هناك وقتاً طويلاً، وبعد ترجُّلي من الحافلة، قطعتُ المسافة سيراً على قدميّ، وصلتُ إلى مدخل المبنى بخدَّين متورِّدين وأنفاسٍ مُصقعة. وبينما كنتُ أقطعُ المدخل المقيت لاحظتُ وجودَ لافتة كبيرة فوق اللوحة التوجيهية تقول: " مكتب الاستخدام يبدأ في الساعة ٩,٣٠ صباحاً ". كانت

twitter @baghdad_library

الساعة قد تجاوزتُ الحادية عشرة. وبينما كنتُ أتفحَّصُ اللوحة لاحظتُ أنَّ عامل المصعد ينظر إليّ نظرةً غريبةً. ولدى ولوجي المصعد أومأ برأسه نحو اللافتة، وقال " ألم تقرأ هذه ؟ "

قلتُ " أنا لا أفتشُ عن عمل ؛ لديّ موعد مع سكرتير السيد هيغنبوتام "

تفحَّصني بناظريه، لكنه لم يقُل أي شيء. صَفَقَ الباب وبدأ المصعد يرتفع ببطء.

" الطابق الثامن، من فضلك! "

" لست مضطراً لأن تخبرني! ما هي طبيعة مهمّتك؟ "

زمجرَ المصعد وهو يرتفع ببطءٍ وزعق كخنزيرة في حالة مخاض. وتكوَّنَ لديّ انطباع بأنه أبطأ عن عمد.

عندئذ كان يحدِّقَ بغضب إليّ، في انتظار جوابي. وتساءلت " ما الذي يزعجه؟ ". أيكون السبب ببساطة أنَّ مظهري لا يعجبه؟

باشرتُ قائلاً " من الصعب شرح طبيعة مهمتي بكلماتٍ قليلة ". أفزعتني نظرته العابسة في وجهي، فسكتُّ. بذلت أقصى جهدي أن أبادله النظر دون إجفال، فاستأنفت قائلاً " نعم، من الصعـ... "

زعقَ، بعد أن أوقفَ حركة المصعد - بين طابقين " كفى! إذا نطقت كلمة واحدة أخرى... " ورفع يده وكأنما ليقول - " فسوف أخنقك! "

لما اقتنعتُ بأني أتعاملُ مع مهووس، لزمت الصمت.

قال " أنت ثرثار ". ثم نخع الرافعة وبدأ المصعد بالارتفاع من جديد، وهو يرتعش.

لزمتُ الهدوء ونظرتُ أمامي مباشرةً. عند الطابق الثامن فتح الباب وخرجت، وبحيويةٍ أيضاً، وكأني أتوقع أن يرفسني على مؤخرتي.

لحسن الحظ كان الباب المواجه لي هو الذي كنتُ أسعى إليه حين وضعت يدي على الأكرة أدركت أنه كان يراقبني. وانتابني إحساس مُسبق مزعج بأنه سيكونُ حاضراً لكي يتلقاني حين يرمونني إلى الخارج كدلوٍ فارغ. فتحتُ الباب ودخلت. وجدتُ نفسي وجهاً لوجه مع فتاة تقف داخل قفص استقبلتني بابتسامة.

قلت " جئت لأقابل السيد هيغنبوتام ". حينئذٍ كان خطابي قد تبخَّر وأفكاري تتلاطم كقناني لعبة البولنغ.

كم ذُهلتُ حين لم تطرح عليَّ أي سؤال، بل رفعتْ سماعة الهاتف ببساطة وتكلَّمت بضع كلمات غير مسموعة في السماعة. ومن ثم أعادتها إلى مكانها وقالت، بصوتٍ عذب " سوف يقابلك سكرتير السيد هيغنبوتام في الحال "

سرعان ما ظهر السكرتير. كان رجلاً في منتصف العمر ذا مظهرٍ مريح، يدلُّ على الدماثة، والكياسة. قدَّمتُ له اسمي وتبعته إلى طاولة مكتبه التي كانت موجودة في آخر غرفةٍ طويلةٍ مدجَّجةٍ بالطاولات وبآلاتٍ من كل صنفٍ ونوع. جلس خلف طاولةٍ كبيرة مصقولةٍ كادت تكونُ عاريةً وأشار إلى كرسيٍ مريحٍ يقع قبالته ارتميتُ عليه بشعورٍ فوريٍّ بالارتياح.

باشرَ قائلاً " إنَّ السيد هيغنبوتام موجودٌ في أفريقيا، ولن يعودَ قبل عدة أشهر "

قلتُ " فهمت "، وقلت في نفسي حان وقت الرحيل، لا يمكنني أن أثق في أي شخصٍ آخر غير السيد هيغنبوتام شخصياً. وحتى حين فعلت أدركتُ أنه من غير الحكمة أن أُسرِع بالمغادرة - سوف يكونُ عاماً المصعد متوقِّعاً هذا الاحتمال بالضبط.

twitter @baghdad_library

أضافَ السكرتير، وهو يُقيِّمني طوال الوقت ويتساءلُ، ولا شك، هل يسرع في التخلُّص مني أم يختبرني أكثر. غير أنه كان ما يزال دمثاً، ومن الواضح أنه ينتظرُ مني أن أنطق.

أجبتُ " فهمت. شيء مؤسف. ربما يجب أن أنتظر إلى أن يعود... "

" لا، أبداً – إلاّ إذا كان ما تريد أن تقوله له غايةً في السرِّية. وحتى لو كان موجوداً عنا كان سيتوجب عليك أن تتعاملَ معي أولاً. إنَّ للسيد هوغنبوتام اهتماماتٌ كثيرة، وليس هذا إلا واحداً منها. وأؤكد لك أمَّ كل ما تودُّ أن تنقله إليه سوف يلقى مني درساً واهتماماً جدّيين "

سكتَ فجأةً. وجاء دوري.

بدأتُ بتردُّد " في الواقع يا سيدي "، ثم تنفَّستُ بارتياحٍ أكبر بقليل، " ليس من السهل عموماً أن أشرحَ لك الهدفَ من زيارتي "

قاطعني " عذراً، ولكن هل لي أن أسأل أي شركة تمثِّل؟ "

مالَ إلى الأمام وكأنه يتوقَّع مني أن أضعَ بطاقةً في يده.

" أنا أمثِّلُ نفسي يا... **سيد لارابي**، أليس كذلك؟ أنا كاتب... كاتب مستقلّ. آمل ألاّ يُنفِّرك هذا؟ "

أجاب " أبداً، أبداً! "

(فكِّرْ بسرعة الآن! هات شيئاً مُبتَكَراً!)

" آمل أنك لا تنوي القيام بحملةٍ دعائيّة، فنحن في الواقع... "

أجبت " أوه، كلا! ليس هذا! أعلمُ أنَّ لديكم الكثير من المؤهَّلين للقيام بذلك "، ورسمتُ ابتسامةً واهية، " كلا، بل ما عنيته هو أكثر عموميّة... أم هل أقول، أكثر تجريبيّة؟ "

تلكَّأتُ برهةً، كطائرٍ يطيرُ محوِّماً فوق مجثمٍ مريب. مال السيد لارابي إلى الأمام، وأذناه بارزتان لتلقِّي ذلك " الشيء " الهام.

قلتُ " إنه كما يلي "، متسائلاً ماذا سأقولُ بعد ذلك، " في سياق مسيرتي المهنية اتَّصلتُ بكافة أنماط الرجال، وكافة أنواع الأفكار. وبين حينٍ وآخر، أثناء تنقُّلي، تستحوذ عليَّ فكرةٌ... لستُ بحاجةٍ إلى أنْ أقول لك أنَّ الكتَّاب يحصلون أحياناً على أفكارٍ يعتبرها أصحاب التفكير العملي تجارية. أي، أنها تبدو تجارية، إلى أن تخضع للتجريب.

قال السيد لارابي " هذا صحيحٌ تماماً "، وتفتَّحت أساريره الكليلة لتتلقَّى تأثير فكرتي، سواء أكانت تجارية أم قابلةً للتطبيق.

كان من المستحيل استمرار تأخير التحرُكات التكتيكيّة أكثر من ذلك. فأمرتُ نفسي " باشرْ! ". ولكن أباشرُ ماذا؟

هنا، ولحسن الحظ، ظهر رجلٌ من غرفةِ مكتبٍ مجاورة، حاملاً دفعةً من الرسائل بيده. قال " عذراً، ولكن أخشى أنَّ عليك أن تتوقف قليلاً لتوقِّعَ على هذه. إنها غاية في الأهمية "

تناولَ السيد لارابي الرسائل، ثم قدَّمني إلى الرجل. " السيد ميللر كاتب. لديه خطةٌ يريدُ أن يُقدِّمها إلى السيد هيغنبوتام "

تصافحنا بينما تابع السيد لارابي دسْ أنفه في ملفِ المراسلات.

قال الرجل - أعتقدُ أنَّ اسمه كان ماكوليف - " مرحى، مرحى، يا سيدي. يجب أن أعترفَ بأننا لا نشاهدُ الكثير من الكُتَّاب في هذه الأنحاء "، وأخرجَ علبة سجائر وقدَّمَ لي واحدة من ماركة بنسون أند هدجز. قلت، سامحاً له أن يُشعِلَ سيجارة لأجلي، " شكراً لك ". قال " اجلس من فضلك. آمل ألاّ تمانعَ في أن نتبادل بعض الحديث؟ إذ لا يُتاحُ للمرء أن يقابل كاتباً في كل يوم "

ثم حركاتٌ دفاعيّة مهذَّبةٌ أخرى وبعد ذلك سألني: " أتؤلف كتباً أم أنكَ أصبحتَ مراسلاً صحفياً بالمصادفة؟ "

twitter @baghdad_library

ادَّعيتُ أني قمتُ بأعمالٍ كثيرةٍ لفتراتٍ قصيرة. قلتُ هذا كأنما بدافعٍ من التواضع.

قال " فهمتُ، فهمت. وماذا عن الروايات؟ "

فترة صمت. فهمتُ أنه يريدُ المزيد.

هززتُ رأسي إيجاباً. " كتبتُ حتى قصصاً بوليسية أحياناً "

ثم أضفتُ " إنَّ اختصاصي هو السفر والبحث "

فجأةً استقامت قامته. " **السفر**! آه، إنني مستعدُّ أن أهبَ ذراعي مقابل أن أحصلَ على عامٍ إجازة، لكي أزورَ بعضَ الأماكن. **تاهيتي**! هذا هو المكان الذي أريدُ أن أشاهده! هل سبق لك أنْ زرته؟ "

أجبتُ " في الواقع، نعم، ولكن فقط لفترةٍ قصيرة. بضعة أسابيع، لا أكثر. كنتُ في طريق عودتي من جزر كارولاين[٤٣] "

" **جزر كارولاين**؟ ". هذه المرة بدا مكهرباً. " هل لي أنْ أعرفَ ماذا كنتَ تفعلُ هناك؟ "

" أخشى أنها كانت مهمةً عقيمة ". وشرحتُ له كيف تمَّ إغوائي للانضمام إلى حملةٍ أنثروبولوجيّة لم أكن مؤهَّلاً لها، لكنَّ صديقاً قديماً لي - من أيام المدرسة - كان مسؤولاً عن الحملة أقنعني بالانضمام، بحيث أفعل ما أشاء. فإذا نتجَ عن ذلك تأليفُ كتابٍ كان به، وإذا لم ينتج... إلى آخره.

" نعم، نعم! وماذا حدث؟ "

" في غضون بضعة أسابيع مرضنا جميعاً مَرَضاً شديداً، وأمضيتُ ما تبقّى من وقتٍ في المستشفى "

رنَّ جرسُ الهاتف على طاولة السيد لارابي بإلحاح. قال السيد

لارابي، وهو يرفعُ السماعة، " عذراً ". انتظرتُ في صمت ريثما يُجري مكالمته الهاتفية المطوّلة عن طلبيات شاي مستورد. انتهت المحادثة، وقفز واقفاً على قدميه، وسلَّمَ السيد ماكوليف المراسلات الموقَّعة، ثم قال، وكأنما تلقَّى حقنةً مُنشِّطة:

" والآن يا سيد ميللر، بشأن خطتك... "

نهضتُ وصافحتُ يدَ السيد ماكوليف المغادر، ثم عدتُ فجلستُ، ودون مزيدٍ من الغط باشرتُ إحدى تحليقاتي الاستثنائيّة. في هذه المرة عقدتُ العزمَ على قول الحقيقة. سوف أقولُ الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، ثم وداعاً.

على الرغم من سردي السريع والمكثَّف لحكاية مغامراتي ومِحَني الأرضية، أدركت أني كنتُ في الحقيقة أستغلُ وقتَ السيد لارابي، بالإضافةِ إلى صبرهِ. وطريقته في الإصغاء، بكل لهفة، كضفدع يُنعِمُ النظرَ إليك من حافة بركةٍ تنمو عليها الطحالب، هي التي حثَّتني على المتابعة. كان الموظفون من الكَتَبة قد اختفوا من حولنا، فقد حانت ساعة تناول طعام الغداء منذ بعض الوقت. وسكتُّ برهةً لأسأل إنْ كنتُ أعيق تناوله طعام الغداء. لوَّحَ بيده مُبعِداً السؤال، وناشدني " تابع، أنا تحت أمرك "

وهكذا، بعد أن جلبته إلى الوقت الحاضر، تابعتُ الإدلاء باعترافي. حيئنذ لم يعد في استطاعتي أن أتوقَّف حتى وإنْ عاد السيد هيغنبوتام فجأة من أفريقيا.

بدأت بالقول " لا مبرِّر على الإطلاق لهدرك وقتك. في الواقع، لا خطةَ لدي، ولا مشروع لأقدِّمه. ولكن لم آتِ إلى هنا لكي أعرِّضَ نفسي للسخرية. هناك أوقاتٌ ينبغي على المرء فيها أن يرضخ ببساطة لدوافعه.

twitter @baghdad_library

حتى إن بدا لك كلامي غريباً... فقبل كل شيء لقد أخبرتكَ عن حياتي... مع ذلك أعتقدُ أنه لابد من وجود مكان لشخصٍ مثلي في هذا العالم الصناعي. والإجراء المعتاد، حين يحاول المرء أن يحطِّم الحواجز، هو أن يطلب مكاناً في القاع. ولكني أفكِّرُ في أن أبدأ من القمة. لقد استكشفتُ القاع - فوجدته لا يؤدي إلى أي شيء. إنني أخاطبكَ أيها السيد لارابي وكأني أخاطب السيد هيغنبوتام نفسه. أنا واثق من أنَّ في وسعي أن أقدِّمَ خدمةً حقيقية إلى هذه المنظمة، ولكن لا أستطيع أن أقول بأي طاقة. أعتقد أنَّ كل ما لدي لأقدِّمه هو مخيلتي - وطاقتي، التي لا تنضب. المسألة ليست مسألة وظيفة عموماً، بل فرصة لحلّ مشكلتي العاجلة، وأوافقك على أنها مشكلة شخصية صرف، لكنها على جانبٍ من الأهمية القصوى بالنسبة إليّ. كان في إمكاني أن أرمي نفسي في أي عمل، خاصة إذا كان يتطلَّبُ طاقةً إبداعي. هذه المسيرة المهنية المتباينة، التي لخَّصتها بإيجاز، أشعرُ أنه كان يجب أن تُسخَّر لهدفٍ معيَّن. أنا لست شخصاً بلا هدف، ولا مُزعزع. لعلّي دونكيخوتي، ومتهور أحياناً، لكني عاملٌ بالفطرة، وأعملُ بشكلٍ أفضل حين أكونُ مُسخَّراً. إنَّ ما أحاول أن أقوله لك، يا سيد لارابي، هو أنَّ مَنْ يوجِدَ مكاناً لي لن يندم على ذلك. هذه منظمة هائلة، ومعقَّدة. سأكونُ بلا فائدة إذا قمتُ بعملِ سنٍ في آلة. ولكن لماذا تجعلُ مني جزءاً من آلة؟ حتى وإنْ لم يكن لدي خطة عمل أقدِّمها إليك، كما اعترفت بشكلٍ كامل، فإنَّ هذا لا يعني أني غداً قد لا أخرج بواحدة. صدِّقني، إنَّ من المهم إلى أقصى درجة في مثل هذا الظرف أن يُبدي أحدهم ثقته فيَّ.

إنني لم أخُن مرةً الثقة، أؤكد لك. أنا لا أطلبُ منك أن تستخدمني الآن، بل فقط أقترحُ أن تمدَّني بشيءٍ من الأمل، أن تعِدني بأن تمنحني، إذا أمكن، فرصةً لكي أثبتَ لك أنَّ كل ما أقوله ليس مجرد كلام "

كنتُ قد أفضيتُ بكل ما أردتُ قوله، فنهضتُ واقفاً ومددتُ يدي. قلت " كان ذلك لطفاً غامراً منك "

قال السيد لارابي " انتظر، دعني ألحقُ بك "

حدَّقَ من النافذة برهةً كاملة، ثم عاد إليّ.

قال " في الواقع، ما كان لرجلٍ واحد من عشرة آلاف أنْ يتَّصِفَ بالشجاعة الكافية، أو الوقاحة، ليُغريني بقبول مثل هذا العرض. لا أدري هل أُبدي إعجابي بك أم – اسمع، أعدكَ بأن أفكِّرَ في طلبك، على الرغم من غموضه. طبعاً، لا يمكنني أن أفعل أي شيءٍ حتى يعود السيد هيغنبوتام. فهو وحده قادر على إيجاد مكانٍ لك... "

تردَّدَ قبل أن يتابع " ولكن أريدُ أن أُبلِغكَ ما يلي، من ناحيتي. إنني أكادُ لا أعرفُ أي شيءٍ عن الكتَّاب والكتابة، ولكن يذهلني أنَّ كاتباً فقط يمكن أن يتكلَّمَ كما فعلت. بل أضيفُ، وحده شخص استثنائيّ يمكنُ أن يتَّصِفَ بمثل هذه الجراءة على دفع رجلٍ في مركزي إلى وضع ثقته فيه. إنني أَشعرُ بأني أدينُ لك: أنت تجعلني أشعرُ بأني أكبر وأفضل مما أظن نفسي. قد تكون بائساً، كما تقول، لكنك حتماً لا تفتقر إلى سِعة الحيلة. إنَّ شخصاً مثلك لا يمكنُ أن يهلك. لن أنساك بسهولة. مهما يَحدث، آمل أن تعتبرني صديقاً لك. بعد أسبوع من الآن أعتقدُ أنَّ هذا اللقاء سوف يصبحُ جزءاً من تاريخٍ غابر "

twitter @baghdad_library

كنتُ أحمرُ خجلاً حتى جذور شعري. وحصولي على ذلك الرد ناسبني أكثر مما لو أني حظيتُ بمركزٍ مرموقٍ في مؤسسات هويس وهولبراين التجارية "

سألته " هلاً قدّمتَ لي معروفاً أخيراً ورافقتني حتى المصعد؟ "

" هل سبّب لك جيم إزعاجاً؟ "

" إذن كنتَ تعلم؟ "

أمسك بي من ذراعي وقال: "لا يحقُّ له أن يدير المصعد. ولا يمكنُ التكهُّن مطلقاً بأفعاله. لكنَّ الرئيس يُصرُّ على الاحتفاظ به. إنه محاربٌ قديم، وأعتقد أنه يمتُّ بصلةِ قرابةٍ بعيدةٍ بالعائلة. لكنه يشكِّلُ تهديداً حقيقياً"

ضغطَ على الزر فأخذ المصعدُ يرتفعُ ببطء. بدا جيم، كما أطلق على المهووس، مندهشاً لرؤيتنا واقفين هناك. وحين خطوتُ إلى داخل المصعد، مدَّ السيد لارابي يده مرةً أخرى وقال، لصالح جيم كما بدا واضحاً - " لا تنسَ، إذا زرتَ هذه النواحي مرة أخرى " - وشدَّد على كلمة " مرة " - "توقَّفْ وزرني. ربما في المرة القادمة نتناول طعام الغداء معاً. أوه نعم، سوف أراسل السيد هيغنبوتام هذا المساء. أنا واثقٌ من أنه سوف يُبدي اهتماماً عميقاً. الوداع الآن! "

قلت " وداعاً، ولك شكري كله! "

بينما المصعد يهبط ثبَّتُّ عينيّ أمامي. كانت ترتسم على وجهي نظرةُ استغراق في التفكير. ولكن لم تكن تشغلُ تفكيري غير فكرةٍ واحدة، وهي - **ترى متى سينفجر**؟ كان لدي إحساسٌ بأنه حينئذٍ أصبحَ أشدّ غِلاً نحوي - لأني كنتُ شديد المكر. كنت حذراً ويقظاً كقط.

وتساءلت، ماذا يمكنُ أن أفعل... ماذا يمكنُ أن أفعل... إذا ما عمد، فجأة، بين طابقين، على قطع الكهرباء ثم انقضَّ عليَّ؟ لا صوت، لا حركة، صدرت عنه. وصلنا إلى القاع، وانزلق البابُ منفتحاً، وخطوتُ إلى الخارج... كأني بينوكيو وقدماه الخشبيتان تحترقان.

لاحظتُ أنَّ الرواق مقفر. اتجهتُ نحو الباب الذي يبعد بضع ياردات. بقيَ جيم في موقعه، وكأنَّ شيئاً لم يحدث. على الأقلّ شعرتُ أنَّ ذلك هو موقفه. في منتصف طريقي إلى الباب التفتُّ وقفلتُ عائداً، مدفوعاً بدافعٍ غامض. فهمتُ من التعبير الغامض المرتسم على وجه جيم أنه كان يتوقَّع مني أن أفعلَ ذلك بالضبط. اقتربتُ منه ورأيتُ أنَّ وجهه كان في الحقيقة خالياً من أي تعبير. فهل ارتدَّ إلى ذاته المتحجّرة - أم أنه يلبثُ في كمين؟

قلتُ " لماذا تكرهني؟ "، ونظرتُ مباشرةً في عينيه.

كان جوابه غير المتوقع " أنا لا أكره أحداً "، ولم يتحرك فيه غير عضلات فمه ؛ حتى محجريّ عينيه كانا ثابتين.

قلتُ " أنا آسف "، واستدرتُ نصف استدارة وكأنما لأسير مبتعداً.

قال، وقد عادَ فجأةً إلى الحياة، " أنا لا أكرهك، أنا **أشفق** عليك! أنت لا تخدعني. لا أحد يخدعني "

اعتصرني رعب داخلي. تلعثمتُ وأنا أقول " ماذا تعني؟ "

قال " كفاكَ كلاماً ؛ أنت تعرفُ ما أعني "

هنا أخذت تسري في جسمي نوبات من البرودة، وكأنه قال لي: "إنني أتمتعُ ببصيرة ثاقبة، وأستطيع أن أقرأ ما يدور في ذهنك كأني أقرأ في كتاب "

twitter @baghdad_library

قلت " وماذا في هذا ؟ "، وذهلت لوقاحتي.

" عُد إلى المنزل ورتِّبْ أفكارك، هذا ما أقصده! "

صُعقت. ولكن ما تلا، على رأي السيد لارابي، كان شيئاً غير متوقَّع في المطلق.

راقبته كالمنوَّم يرفعُ كُمَّ قميصه ليكشف عن ندبٍ مرعب، ثم رفع كُم بنطاله ليُريني مزيداً من الندوب المرعبة ؛ ثم فكَّ أزرار قميصه. لدى مرأى صدره كدتُ أُصاب بالإغماء.

قال " هذا كله دفعته ثمن وعيي. اذهبْ إلى البيت ورتِّب أفكارك. اذهبْ، قبل أن أضربك حتى الموت! "

استدرتُ على الفور واندفعتُ نحو الباب. وتطلَّبَ مني الإحجام عن الركض شجاعتي كلها. كان هناك شخصٌ آتٍ من الشارع. لن يرتطم بي الآن - أم ماذا ؟ تحركتُ بسرعةِ الخطو نفسها، وأخذتُ أُسرِّعها مع اقترابي من الباب.

أخيراً! في الخارج أسقطتُ حقيبة اليد وأشعلتُ لنفسي سيجارة. كان العَرَق ينزُّ من مسَّامي كلها. وتساءلتُ ماذا أفعل. كان من الجبن أن أركض جارّاً أذيال الخيبة، ومن قبيل الانتحار أن أعود. سواء أكان محارباً قديماً أم لا، مجنوناً أم لا، إلا أنه كان يعني ما قال. وفوق ذلك، **كان معه رقم هاتفي** . هذا ما أثارَ حنقي.

ابتعدت، وأنا أغمغم مع نفسي وأسيرُ بخطى مُجهدة. نعم، لقد قُبضَ عليَّ بالجرم المشهود: أنا المستهتر، المزيِّف، الثرثار، ابن الحرام الفاشل. لا أحد من قبل أوصلني إلى مثل ذلك الدرك. شعرتُ برغبة في

أنْ أكتب رسالةً للسيد لارابي أقول له فيها أنه مهما كان تأثير كلماتي قوياً عليه فإنَّ كل شيء من حولي زائف وخائن، وتافه. أصبحتُ شديد السخط على نفسي حتى أنَّ جسمي كلَّه انبجسَ مندفعاً. ولو أنَّ دودة ظهرت أمامي وكرَّرت كلمات جيم، لنكَّست رأسي من فرط الإحساس بالخزي وقلتُ: " أنتِ مُحقَّة تماماً، أيتها الدودة. دعيني أزحف إلى جانبك وأعفِّرُ وجهي بالتراب "

*

في بورو هول التهمتُ شطيرةً مع القهوة، ثم توجَّهتُ غريزياً إلى "النجم "، وهو مسرحُ منوعات عتيق شهد أياماً أفضل. كان العرضُ قد بدأ للتو ولكن لا يهمّ: لم يكن هناك أي شيء جديد سواء في طريقة إلقاء النكات أو في شكل النساء. ولدى ولوجي المسرح عادت إليّ ذكرى ارتياده للمرة الأولى. كان صديقي القديم آل برغر وصديقه الحميم فرانك شوفيلد قد دعياني إلى مرافقتهما. أعتقد أنَّ عددنا كان عندئذٍ تسعة عشر أو عشرين. وما أتذكّره بصورةٍ خاصة دفء الصداقة الذي كان هذا الفرانك شوفيلد ينشره في كل مكان. وكنتُ قد قابلته فقط مرتين أو ثلاث قبل ذلك. وكنتُ أمثِّل بالنسبة إلى فرانك شيئاً خاصاً جداً جداً. كان يحبّ سماع حديثي، ويتشبَّث بكل كلمة أنطقها. في الواقع، كان كل ما أقوله يفتنه لسبب ما. أما فرانك فكان أشدّ مَنْ عرفتُ في العالم كله عاديَّةً، لكنه كان مُترعاً بالحب. كانت له جثة ماموث - بلغ وزنه حينئذٍ نحو ثلاثمائة رطل - ويشرب كالسمكة ودائماً تراه وسيجارٌ في فمه. كان يضحك بسهولة، وحين يفعل يرجُّ بطنه

twitter @baghdad_library

كالهلام. كان يقول " لِمَ لا تأتِ وتعيش معنا؟ سوف نعتني بكَ. يسعدني مجرد النظر إليك ". كلمات بسيطة، لكنها نزيهة وصادقة. لا أحد من رفاقي المرحين حينئذٍ كان يمتلك مثل خِصاله الأليفة. لم يكن الدود قد نهشَ في روحه بعد. كان بريئاً، رقيقاً، وكريماً إلى أبعد مدى.

ولكن لماذا كان مولعاً بي؟ . وهكذا تساءلت وأنا أتلمّسُ طريقي إلى أحد المقاعد في الجزء الخلفي. ورحتُ أستعرضُ بسرعة قائمة أصدقائي الحميمين، متسائلاً ماذا كان حقاً رأيُ كلُ واحدٍ منهم فيَّ. ثم تذكّرتُ أحد رفاق المدرسة، لستر فيبر، الذي كانت شفتاه تتلويان في تعبير ازدراء كلما تقابلنا، أي في كل يوم. لم يكن يحبه أحداً في الصف، ولا حتى الأساتذة. كان بغيضاً بالفطرة. قلتُ في نفسي، أيري فيه! تُرى ماذا يفعل الآن ليكسبَ قوته؟ ولستر برينك. ماذا فعل به الزمان؟ فجأةً شاهدتُ أفراد الصف كلهم، ونحن نتفرّجُ على تلك الصورة الفوتوغرافية التي أُخِذَتْ في يوم التخرُّج. واستطعتُ أن أتذكر كل واحد منهم ؛ أسماءهم، أطوال قاماتهم، أوزانهم، مراتبهم، وأماكن سكناهم، وطريقة كلامهم، وكل شيء عنهم. غريبٌ أنه لم يحدث أبداً أنْ قابلتُ أحدهم مصادفة...

كان العَرضُ فظيعاً ؛ كدتُ أستغرقُ في النوم في منتصفه. لكنه كان حميماً وأليفاً. ثم أني لم أكن في عجلةٍ من أمري لأصلَ إلى إي مكان. كان أمامي سبع، أو ثماني أو تسع ساعات لأبدِّدها قبل أن تعودا هما الاثنتان.

حين خطوتُ خارج دار المسرح كان البرد معتدلاً. كان ثلجٌ خفيفٌ

يهطل. وجَّهَ إلحاحُ مبهمُ خطواتي نحو محلٍ لبيعِ الأسلحةِ يقعُ في آخر الشارع وكان هناك مسدسٌ في واجهتهِ كنتُ على الدوام أتوقف عندها لأتفرَّج عليه أثناء مروري. كان قطعة سلاح ذات شكل إجرامي.

كالمعتاد توقَّفتُ وضغطتُ أنفي على زجاج الواجهة، فإذا بي أتلقَّى صفعةً قويةً على ظهري جعلتني أقفز. وحسبتُ أنه طلقٌ من مسدس. حين التفتُّ هتفَ صوتُ قوي: " ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ هنري، يا صاحبي، كيف حالك؟ "

إنه توني ماريلا. كان يضعُ سيجاراً مطفئاً في فمه، وقبعته اللينة تميل بزاوية توحي بالمرح، وكانت عيناه الصغيرتان الخرزيّتان تتلألآن كما في السابق.

يا سلام، يا سلام، وما إلى ذلك. والعبارات المتبادلة المعتادة، وبضع ذكريات رقيقة، ومن ثم السؤال: " وماذا تفعل الآن؟ "

أفضيتُ ما في جعبتي من كربٍ ببضع كلمات.

" هذا شيء مؤسف جداً، يا هنري. يا إلهي، إنني لم يخطر في بالي قط أنك ستواجه صعوبات. لماذا لم تبلغني؟ إنني دائماً طيب عندما يتعلَّق الأمر بإقراض مبلغ صغير، كما تعلم ". أحاطني بذراعه. " ما رأيك في أن نتناول مشروباً؟ قد أتمكن من مساعدتك "

حاولت أن أخبره أنه لا يمكنُ مساعدتي. قلتُ " كل ما ستفعله هو أن تهدر وقتك "

قال " هيا، هيا، لا تقُل هذا. إنني أعرفك منذ زمن بعيد. ألا تعلم أنك طالما كنتَ موضعَ إعجابي - وحَسَدي؟ كلنا نمرّ بأوقاتٍ سعيدةٍ

twitter @baghdad_library

وأخرى عصيبة. ها هنا يوجد مربّعٌ صغير أليف. هيا ندخل ونحصل على شيءٍ من الطعام والشراب "

كان المكانُ حانةً (مستترة عن الأنظار) حيثُ هو معروف جيداً ويحظى بمكانة مرموقة. وكان لابد أن يقدمني إلى كل مَنْ في المكان، حتى لماسح الأحذية. قال، وهو يقدّمني من شخصٍ إلى آخر. " هذا زميلٌ قديم لي في المدرسة. إنه كاتب، وحق الله! ما أروع ذلك! ما رأيك يا جو بشطيرة من لحم الخنزير المشوي اللذيذ مع الكثير من صلصة مرق اللحم... وبعض البصل النيئ. ما رأيك في هذا، يا هنري؟ يا إلهي، لا تتصورً مدى سعادتي لمرآك من جديد. لطالما تساءلت حولك، وعمّا تفعله. حسبتُ أنك ربما طرتَ إلى أوروبا. شيء غريب، أليس كذلك؟ وإذا بكَ مختبئٌ تحت أنفي مباشرة "

أخذ يتابعُ هكذا، سعيد كقبَّرة، ويوزِّع مزيداً من المشروبات ويشتري السيجار، ويستفسر عن نتائج السباق، ويحيّي قادمين جُدُد ويقدِّمني من جديد، ويقترض بعض النقود من الساقي، ويجري اتصالات هاتفية، وما إلى ذلك. إنه دينامو صغير. وأي شخص يستطيع أن يرى أنه رجل طيب، وصديق لكل إنسان، ويضجُّ بالفرح والكياسة.

سرعان ما قال، وهو يضعُ مِرفقاً على البار ويطوِّقُ كتفي بذراعه، وبصوتٍ منخفض: " اسمع يا هنري، دعنا نتكلَّمُ كلاماً واقعياً. والآن أنا لدي عملٌ سهل ؛ إذا أحببتَ أستطيع أن أجد لك مكاناً فيه. إنه ليس مزعجاً أفضل. ما رأيك؟ "

قلت " طبعاً، ما هو؟ "

شرحَ قائلاً إنه عملُ في هيئة الحراج حيث يعملُ سكرتيراً للمندوب، وهذا يعني أنه، أي توني، يحافظُ على الروتين بينما الشخص المهم يقوم بالجولات. إنها السياسة. لعبة قذرة، كما أسرَّ إليّ. هناك دائماً مَنْ يكمن لك لكي يطعنك في الظهر.

ثم أردفَ " لن يحدث هذا غداً أو بعد غد. يجب أن أشارك في اللعبة، في الواقع. ولكن سأضعُ اسمك على اللائحة فوراً. قد يمر شهر قبل أن أرسل في طلبك. هل تستطيع أن تصبر حتى ذلك الحين؟ "

قلت " أعتقد ذلك "

قال " لا تقلق بشأن النقود. أستطيع أن أقرضك قدر ما تشاء حتى ذلك الحين "

قلتُ " لا تفعل! أستطيع أن أتدبّر أمري... "

قال، وهو يضغط على ذراعي، " أنتَ إنسان غريب ؛ يجب ألاّ تكون حييّاً معي. الأمور معي تتحسَّن وتسوء على التوالي... هكذا هو الحال! في هذه المهنة يجب أن تكون ثرياً. ليس هناك سياسيون فقراء، كما تعلم. أما كيف نحصل عليه، فمسألة أخرى. حتى الآن، كنت متوازناً. وهذا ليس سهلاً، أيضاً... حسن، إذن. إذا كنت لا تريد أن تأخذ شيئاً الآن فأنت تعلم أين أكون حين تحتاجني. في أي وقت، تذكَّر هذا! "

شددتُ على يده.

" ما رأيك بكأسٍ أخرى قبل أن تذهب؟ "

هززتُ رأسي موافقاً.

" أوه، هناك شيء أغفلته. قد أضطر إلى أن أكتب أنك حفّار

twitter @baghdad_library

قبور... كبداية. ألديك مانع؟ فقط لأسبوع أو نحوه. لستُ مضطراً إلى أن تكسر ظهرك، سوف أحرص على هذا. بعد ذلك أنقلكَ إلى المكتب. سوف تزيل عبئاً ثقيلاً عن كاهلي. وكم سأستفيد منك! أنت كاتبُ رسائل بالفطرة - وهذا يشكِّلُ نصف طبيعة عملي.

في طريق خروجنا... " التزم بالكتابة يا هنري. أنت ولدتَ لتمارسها. ولو كنتُ أتمتع بموهبتك لَما كنت في هذه المهنة. كان عليّ أن أقاتل لأحصل على ما لدي. كما تعلم، مثل " **الأسباني الصغير** ".

وبينما كنا نتصافح... " لا أظنك ستخذلني الآن؟ هذا وعد! بلِّغ تحيَّتي لوالدك. الوداع الآن! "

راقبته وهو ينادي على سيارةِ أجرة ويقفز إلى داخلها. مرةً أخرى لوَّحتُ له بيدي.

يا لَحُسن الحظ! توني ماريلا، ولا أقلّ. وفي اللحظة التي حسبتُ فيها أنَّ بطن الأرض يستعدُّ لاستقبالي!

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

غريبٌ كيف تقعُ الأحداثُ أحياناً. قد تلعن وتصلّي، تبربرُ وتهمسُ ولا يحدثُ شيء. ثم، وفي اللحظة التي تتصالحُ فيها مع المحتوم، ينفتحُ بابٌ سرّي ويتسلل شيطانٌ إلى قوةٍ موجَّهة أخرى، فتتلاشى المشكلة. أو هكذا يبدو.

بهذه الطريقة البسيطة، وغير المتوقعة أبلغتني ستيسيا ذات يوم، أثناء غياب مونا، أنها سترحلُ عنا. ولو لم أسمع ذلك من فمها لما صدَّقته.

كنتُ من فرط الذهول، والبهجة في وقتٍ واحد، بحيث أني لم أسألها عن سبب رحيلها. وكان جليا أنها ليست مستعجلة للتطوع بإعطاء معلومات عن ذلك. وكونها سئمت أساليب مونا المتكلّفة، كما ألمحت، ليس سبباً كافياً لذلك الرحيل المفاجئ.

سألتْ " أتمانع في أن نقوم بنزهةٍ معاً؟ أودُّ أن أقول لك بعض الأشياء على انفراد قبل أن أرحل. إنَّ حقيبتي مُعدَّة "

لدى مغادرتنا المنزل سألتني إنْ كان لديّ أي اعتراضٍ على التمشية عبر الجسر. أجبتُ " لا أبداً ". كنتُ سأوافقُ على التمشية حتى " السهول البيضاء "، لو أنها اقترحت ذلك.

أيقظَ رحيلها تعاطفي. لقد كان حقاً مخلوقاً غريباً، ولكن ليس سيئاً. حين توقفت لأشعل سيجارة، أخذت لأقيِّمها، دون تحيّز. كان فيها شيء يذكِّر بجندي فدرالي عائد من الحرب. كانت في عينها نظرة بائسة، لكنها لا تخلو من شجاعة. لم تكن تنتمي إلى أي مكان ؛ كان ذلك جليّاً.

مشينا صامتين مسافةً قصيرة. ثم لدى اقترابنا من الجسر، بدأ الكلام ينزُّ منها. بدأت بنعومة تتكلّم بانفعالٍ عاطفيّ. حديث بسيط، على سبيل التغيير. وكأنها تأتمن كلباً على سرّها. كانت نظرتها مثبَّتة أمامها مباشرة، وكأنها تتقصّى أثراً.

كانت، باختصار، تقول إنني لم أكن قاسياً كما كان يمكن أن أكون. الموقف هو القاسي، وليس أنا. لم يكن الأمر لينجح، ولا حتى لو كنا أفضل مما نحن عليه ألف مرة. كان يجب أن تعرف ذلك. اعترفت بأنه كان هناك، أيضاً، الكثير من التمثيل. إنها تحب مونا، نعم، ولكن ليس حباً يائساً. ولا كان كذلك يوماً. مونا هي التي كانت يائسة. ثم إنَّ ما كان يربط بينهما ليس حباً بقدر ما كان حاجة إلى الرفقة. كانتا، هما الاثنتان روحين مستوحشتين. لو كانتا في أوروبا لاختلفَ الأمر. لكنَّ الوقت فات الآن. وأبدَتْ أملها في أن تذهب إلى هناك وحدها ذات يوم.

سألتها " ولكن إلى أين ستذهبين الآن؟ "

" ربما إلى كاليفورنيا. إلى أين غير هناك؟ "

" لِمَ لا تذهبين إلى مكسيكو؟ "

وافقتني على أنَّ ذلك ممكن، ولكن لاحقاً. أولاً عليها أن تلملم شتات نفسها. إنَّ عيش مثل هذه الحياة البوهيمية لم يكن بالأمر الهيِّن عليها. في أعماقها هي إنسان بسيط. مشكلتها الوحيدة هي التعامل

twitter @baghdad_library

مع الآخرين. أرادتْ أن تُعلِمَني أنَّ أشدّ ما يزعجها في أسلوب حياتنا أنه لا يفسَحُ لها أي فرصة للعمل. وانفجرت قائلة " يجب أن أؤدي الأعمال بيدي، حتى وإنْ كان حفر الخنادق. أريدُ أن أكونَ مَثَّالةً، وليس رسامةً أو كاتبة "، ثم أسرعَتْ فأضافت أنَّ عليَّ ألاَّ أُقيِّمها من خلال الدُمى التي نفَّذَتها - لقد أنجزتها فقط إرضاءً لمونا.

ثم قالت شيئاً بدا لأذني أشبه بالخيانة العظمى. قالت إنَّ مونا لا تعرف أي شيء على الإطلاق عن الفن، وأنها غير قادرة على التمييز بين عملٍ جيد وآخر رديء. " وهذا شيء غير هام حقاً. أو بالأحرى لم يكن يهمّ، لو أنها كانت تتمتَّع بالشجاعة للاعتراف بذلك. لكنها لا تتمتَّع بها. يجب أن تتظاهر بأنها تعرف كل شيء، وتفهم كل شيء. أنا أكره الادِّعاء. وهذا أحد الأسباب التي تمنعني من التفاهم مع الناس.

سكتَتْ لكي تدعني أستغرق. " لا أدري كيف تتحمل أنت هذا! إنَّ في جعبتك الكثير من الخِدع القذرة، وتقوم بأعمال شريرة بين حين وآخر، وأحياناً تكون متحاملاً بشكلٍ فظيع وغير مُنصِف، ولكن على الأقل أنت صادق. أنت لا تدَّعي أبداً أنَك خِلاف ما أنت عليه. في حين أنَّ مونا... يعني، لا أحد يعلم مَنْ هي أو ما هي. إنها مسرح يمشي على قدمين. أينما تذهب، وكل ما تفعل، وكائناً مَنْ كان الذي تتحدث إليه، فإنها تؤذيه كأنما على خشبة المسرح. إنه شيء يثير التقزُّز في النفس... كما سبق وقلت لك من قبل. وأنت تعرف هذا بقدر معرفتي به "

انزلقت ابتسامة ساخرة على وجهها " أحياناً... " ثم تردَّدت برهة. " أحياناً أتساءلُ كيف هو سلوكها في السرير. أعني، هل تزيف ذلك أيضاً؟ "

استفسار غريب، تجاهلته.

استأنفت " إنني طبيعية أكثر مما تعتقد بكثير. عيوبي كلها على السطح. أما في الأعماق فأنا فتاة صغيرة حييّة لا تنضج أبداً. لعلَّ الأمر يتعلق باضطراب الغدد. ألن يكون شيئاً غريباً إذا حوّلني تزييف بضع هرمونات يومياً إلى أنثى نموذجية؟ ما الذي يجعلني أكره النساء إلى هذا الحد؟ لطالما كنتُ كذلك. لا تضحك الآن، ولكن صدقاً، إنَّ نفسي تشمئز حين أرى امرأةً تجلس القرفصاء وتتبول. شيء شديد السخف... آسفة لأني أوردت لك هذا المثال التافه. كنت أنوي أن أحكي لك عن الأمور الكبرى، الأمور التي تزعجني حقاً. ولكن لا أدري من أين أبدأ. ثم ربما أني راحلة، ما الفائدة؟ "

كنا قد بلغنا حينئذٍ منتصف الجسر، وفي غضون بضع دقائق سوف نكون وسط بائعين على عربات يد، تمرّ بمحالٍ تجارية واجهاتها دائماً مكدَّسة بالسمك المدخَّن، والخضروات، ولفائف البصل، وأرغفة خبزٍ ضخمة، وعربات جرّ كبيرة مُحمَّلة بالجبن، وبسكويت مملَّح وأطعمة شهية أخرى. وبينها تكون هناك أثواب عرس، وبذلات كاملة، وقبعات حريرية عالية، ومشدَّات للأرداف، وملابس داخلية نسائية، وعكازات، وأحواض اغتسال، والكثير من الطُرَف.

تساءلتُ ماذا أرادت أن تخبرني - أعني، ما هو الشيء الأساسي.

قلتُ " حين سنعود، سينشب شجار دون شك. ولو كنت في مكانك لتظاهرتُ بأني قد غيَّرت رأيي، ثم في أول فرصة تسنح لكِ ارحلي خلسة. وإلا فسوف تصرّ على أن ترحل معك، ولو فقط لتوصلك إلى المنزل سالمة "

twitter @baghdad_library

رأتْ أنها فكرة ممتازة. جعلتها تبتسم. واعترفتْ قائلة: " ما كان يمكن لمثل هذه الفكرة أن ترِد على خـــاطري ؛ إنني لا أتمتع بأي حسٍّ استراتيجي "

قلت " هذا أفضل لك "

" بمناسبة الحديث عن الاستراتيجية، أتساءلُ إنْ كان في وسعك أن تساعدني في جمع المال؟ إنني مفلسة تماماً، ولا أستطيع أن أعبُرَ البلاد حاملةً صندوقاً وحقيبةَ سفر ثقيلة سيراً على قدمي، أليس كذلك؟ "

(قلت في نفسي، كلا، ولكن في وسعنا أن نرسله إليك لاحقاً)

قلتُ " سأفعل ما في وسعي. تعلمين أني لا أجيد جمع المال ؛ هذا اختصاص مونا. لكني سأحاول "

قالت " عظيم، بضعة أيامٍ أكثر أو أقلّ لا تهمّ "

كنا قد وصلنا إلى نهاية المسافة. لمحت مقعداً شاغراً فحثثتُها لنجلس عليه.

قلتُ " دعينا نرتاح قليلاً "

" ألا نستطيع أن نحصل على شيءٍ من القهوة؟ "

" لا أحتكمُ إلاّ على سبعة سنتات ؛ وسيجارتين أخريين "

سألت " كيف تتدبَّر أمرك عندما تكون وحدك؟ "

" الأمر يختلف. حين أكونُ وحدي تطرأ أمور "

" تعني أنَّ الله يتولاّك؟ "

أشعلتُ سيجارةً لأجلها.

قالت، وقد تدلّى جناحاها، " إنني أشعرُ بجوعٍ فظيع "

" إذا كان بهذا السوء، فلنعد "

" لا أستطيع، المكان بعيد جداً. فلننتظر أكثر "

أخرجتُ قطعة نكلة وأعطيتها إياها. " استقلّي أنتِ القطار النفقي وأنا سأقطع المسافة سيراً على قدميّ. لا أجد في ذلك مشقّة "

قالت " كلا، سوف نعود معاً... أخافُ أنْ أواجِهها وحدي "

" **تخافين!** "

" نعم، قال، **أخاف**. سوف تملأ المكان بكاءً ومن ثم سأضعف "

" ولكن **يجب** أن تضعفي، ألا تذكرين؟ دعيها تبكي... ثم قولي إنك غيَّرتِ رأيك. كما أخبرتكِ "

قالتْ " نسيت "

أرَحْنا أعضاءنا المرهقة قليلاً. انحدرتْ حمامَةٌ بحركةٍ انسيابيةٍ وحطَّت على كتفها.

قالت " ألا تستطيع أن تشتري بعض الفول السوداني؟ يمكننا أن نطعم العصافير ونأكل نحن منه أيضاً "

أجبت " انسي هذا! تظاهري بأنكِ لستِ جائعة. سوف يزول. إنني لم أعبُر الجسرَ مرةً بمعدةٍ ملآنة. أنتِ متوترةِ الأعصاب لا أكثر "

قالت " أحياناً تذكِّرني برامبو[44] ؛ كان دائماً جائعاً... ودائماً كان يسير على قدميه حتى يرهقهما "

أجبت " لا شيء فريداً في هذا. هو فعل ذلك وملايين آخرين غيره "

انحنيت إلى الأسفل لأثبِّتَ رِباطَ حذائي فوجدتُ هناك، تحت المقعد مباشرة، حبتين كاملتين من الفول السوداني. فاستوليتُ عليهما.

قلت " واحدة لك وواحدة لي. انظري كيف تتولى العناية الإلهية أمرَ الإنسان! "

twitter @baghdad_library

أمدَّتها حبّة الفول السوداني بالشجاعةِ لمدّ ساقيها. ثم نهضنا بحركة متيبِّسة وانطلقنا عائدين عبر الجسر.

قالت، ونحن نتقدم بخطى متثاقلة " إنَّ معدنكَ ليس رديئاً. في وقتٍ من الأوقات كرهتك كرهاً تاماً، ليس بسبب مونا، ولا بدافع الغيرة، بل لأنك لا تهتم بأي مخلوق آخر غير ذاتك الحلوة. إنك تفاجئني بكونكَ عديمَ الرحمة. ولكني أرى أنَّ لك قلباً كبيراً، أليس كذلك؟ "

" ما الذي جعلك تَصِلين إلى هذا الرأي؟ "

" أوه، لا أدري. لا شيء معيَّن. ربما لأنني الآن بدأت أرى الأمور بعينٍ جديدة. مهما يكن، أنت لم تعد تنظر إليّ كما كنت تفعل في السابق. أصبحت تراني الآن. من قبل كنت تنظر إليَّ وكأني غير موجودة. وكان يمكن أن تطأني بقدمك... أو تعبُر من فوقي، وتتابع سيرك "

ثم أردفَتْ، متأملة " أتساءلُ، كيف ستصبح علاقتكما، بعد رحيلي. بصورة ما أنا التي كنتُ أحافظُ على الرابط بينكما. ولو كنتُ أكثرَ دهاءً، لو أني أردتُها لنفسي حصراً، لرحلتُ، وانتظرتُ إلى أن تفترقا، ومن ثم أعودُ وأطالبُ بها "

قلت " حسبتُ أنك أنهيتِ صلتك بها ". كان عليّ أن أعترف لنفسي، مع ذلك، بأنَّ ملاحظتَها تتَّسم بالمنطق.

قالت " نعم، هذا كله أصبح من الماضي. إنَّ ما أريد أن أفعله الآن هو أن أصنعَ حياة لنفسي. يجب أن أفعل الأشياء التي أرغبُ في فعلها، حتى وإنْ فشلتُ فشلاً ذريعاً... ولكن السؤال الذي أطرحه على نفسي هو – ما الذي ستفعله هي؟ إنني بصورةٍ ما لا أتخيّلها تفعل أي شيء ذات أهمية. إنني أشفق عليها. وصدقني، أنا صادقة فيما أقول. بعد

رحيلي ستتحول حياتكما إلى جحيم. لعلّك لا تدرك هذا الآن، لكنك ستفعل "

أجبتُ " ومع ذلك، هكذا أفضل "

" أراكَ متأكداً من أني سأرحل، هه؟ مهما يحدث؟ "

قلتُ "نعم، أنا متأكد. إذا لم ترحلي بإرادتك، سوف أُجبِرك على ذلك"

ابتسمت ابتسامةً واهنة. " هل ستقتلني إذا ما اضطررتَ إلى ذلك؟"

" أنا لا أقول هذا. كلا ؛ ما أقصده هو أنّ الوقتَ قد حان... "

" قال حيوان الفظّ للـ... "

" صحيح! أما ما سيحدث بعد أن ترحلي فهذا شأني أنا. المهم هو أن ترحلي. لا رجعة عن هذا! "

ابتلعَتْ هذا الكلام كما يبتلعُ المرءُ كتلةً عالقةً في حنجرته. كنا قد وصلنا إلى ذروة تقوُّس الجسر، وهناك توقفنا لكي نراقب خط الأفق المتراجع.

قالت " كم أكره هذا المكان! كرهته منذ لحظة وصولي. انظر إلى خلايا النحل تلك "، وأشارت إلى ناطحات السحاب، " مجردة من الإنسانية، لا تقُل لي! "، وأومأتْ بذراعها الممدودة وكأنها تمسحها عن الوجود. " إذا وجدت هناك شاعراً واحداً وسط تلك الكتل من الحجارة والفولاذ فقُل عني أني مجنونة. تلك الأقفاص لا يسكنها إلا الوحوش"، واقتربَتْ أكثر من الحافةِ وبصقَتْ عَبر الحاجزِ إلى النهر، " حتى المياه قذرة. ملوثة "

استدرنا وتابعنا المسير.

قالتْ " اعلَمْ أني نشأتُ على حُب الشِعر. ويتمن، ووردسوورث، ايمي لويل، باوند، إليوت. بل في وقتٍ من الأوقات كان في استطاعتي

twitter @baghdad_library

أن أتلو قصائد بأكملها. خاصة قصائد ويتمن. أما الآن كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أصرّ بأسناني. يجب أن أتّجه غرباً مرة أخرى، وبأسرع ما يمكن. يواكين ميللر[٤٥]... هل سبق أن قرأت له؟ إنه شاعر من سييراس. نعم، أريد أن أتعرّى مرة أخرى وأحك نفسي على الأشجار. لا يهمني ما يظنه الآخرون... يمكنني أن أضاجع شجرة، ولكن ليس إحدى تلك المخلوقات القذرة التي ترتدي سراويل داخلية وتزحف خارجةً من تلك الأبنية القبيحة. الرجال يكونون على ما يرام - هناك في العراء. أما هنا - يا إلهي! أفضّل أن أستمني على أن أدع أحدهم يزحف إلى الفراش معي. إنهم هوام، جميعهم. **نتنون**! "

بدا أنها توشك أن تدخل في نوبة هياج عصبي. لكنها فجأةً هدأتْ. وتبدّل تعبير وجهها كله. في الواقع كادت تبدو ملائكية.

كانت تقول " سوف أمتطي حصاناً وأختبئ بين الجبال. لعلّي أتعلّم أن أصلّي من جديد. حين كنتُ فتاة صغيرة كنتُ أنفرد بنفسي، على مدى أيام طويلة. بين الأشجار الحمراء الباسقة. كنتُ أكلّم الله. هذا لا يعني أنه كان لدي تصوُّر معيَّن له ؛ كان مجرَّد حضور هائل. كنت أرى الله في كل مكان، في كل شيء. كم بدا العالمُ جميلاً في عيني حينئذٍ! كنتُ أفيضُ حباً وشغفاً. وكنتُ شديدة الوعي. كثيراً ما كنتُ أركع - لكي أقبِّل زهرةً، وأقول " كم أنتِ كاملةُ الأوصاف، ومُكتفية بذاتك! كل ما تحتاجين إليه هو الشمس والمطر وتحصلين على ما تريدين دون أن تطلبي. وأنتِ لا تبكين متوسِّلة للقمر. أليس كذلك، يا زهرة البنفسج الصغيرة؟ إنكِ لا تتمنين أبداً أن تكوني غير ما أنتِ عليه ". هكذا كنتُ أتحدثُ مع الأزهار. نعم، كنت أعرف كيف أتواصل مع الطبيعة. وكان كل شيء طبيعياً إلى أقصى مدى ؛ واقعياً، واقعياً بصورةٍ رهيبة "

توقَّفَت لترميني بنظرةٍ متفحِّصة. الآن بدت حتى أكثر ملائكية من ذي قبل. وحتى لو اعتمرتْ قبعةً جنونية كانت ستبدو ملائكيّة. وبينما بدأتْ تتخفَّفُ من العبء الرازح عليها برصانة تبدَّلتْ قسمات وجهها من جديد. لكنَّ الهالة ظلَّتْ تحيط بها.

كانت تحاولُ أن تخبرني أنَّ الفنَّ هو الذي كان يدفعها خارج الخط. لقد أدخلَ أحدهم في خَلَدها أنها فنانة. هتفت " أوه، هذا ليس صحيحاً تماماً ؛ لقد كنت دائماً موهوبة، وقد ظهرتْ موهبتي باكراً. ولكن لم يكن في أعمالي ما هو استثنائي. إنَّ كل إنسان صادق ينطوي على قدر ضئيل من الموهبة "

كانت تحاولُ أن توضِّح لي مدى التغيير الذي طرأ. وكيف أصبحتْ تعي الفن وتعي نفسها كفنانة. أكان ذلك لأنها مختلفة عمَّن يحيطون بها؟ ألأنها كانت تنظر بعينين أُخريين؟ ليست متأكدة. كل ما كانت تعرفه أنَّ الأمرَ حدثَ ذات يوم. وبين ليلةٍ وضحاها، إن صحَّ التعبير، فقدتْ براءتها. وقالتْ، ومنذ ذلك الوقت أصبح كل شيء يتخذُ هيئةً أخرى. لم تعُد الأزهار تحدِّثها، أو هي تتحدَّثُ إليها. وحين تتأمل في الطبيعة تراها أشبه بقصيدة أو مشهد طبيعي. لم تعد تتَّحد مع الطبيعة الأم. بدأت تُحلِّلُ، وتُعيدُ التركيب، لكي تؤكِّد إرادتها.

" كم كنتُ حمقاء! وقد كبرتُ بسرعةٍ كبيرةٍ إلى درجة أنَّ حذائي لم يعُد يصلح لي. ولم تعُد الطبيعة تكفيني، صرتُ أتوقُ إلى حياة المدينة. اعتبرتُ نفسي روحاً عالمية. ولكي أحتكَّ بزملائي من الفنانين، لكي أوسِّع مداركي عبر النقاش مع المفكرين، أصبحتُ إيجابيةً. كنتُ توّاقةً إلى مشاهدة الأعمال الفنية العظيمة التي طالما سمعتُ عنها، أو بالأحرى

twitter @baghdad_library

قرأتُ عنها، ذلك أنَّ لا أحد مِمَّن أعرفهم كان يتحدث عن الفن، ما عدا شخص واحد، تلك المرأة المتزوجة التي أخبرتُكَ عنها مرة. كانت امرأةً في ثلاثينات عمرها وتتَّصفُ بحكمةٍ دنيوية. ولم تكن تتمتَّع بذرَّة من الموهبة، لكنّها كانت مُحبَّة كبيرة للفن وذوقها ممتاز. وهي التي فتحتْ عيني، ليس فقط على عالمِ الفن بل على أشياءٍ أخرى أيضاً. وطبعاً وقعتُ في حبها. كيف لا وهي تجمعُ في شخصيتها الأمَّ والمعلِّمة، والعشيقة؟ في الواقع كانت عالمي كله "

قاطعتْ نفسها لتسألني إنْ كانت تسبِّب لي الملل.

ثم استأنفتْ " الغريب في الأمر أنها هي التي دفَعَتْ بي إلى الأمام، وليس زوجها، كما يمكن أن أكونَ قد جعلتك تعتقد. كلا، لقد سارت علاقتنا نحن الثلاثة على أحسن ما يرام. وما كنتُ لأضاجعه لو لم تحثَّني هي إلى فعل ذلك. كانت بارعة في وضع الخطط، مثلك. وطبعاً هو لم يتوصَّل إلى أي شيء معي ؛ كل ما استطاعَ أن يفعله هو أنْ يضمّني بين ذراعيه، ويضغط جَسَده إلى جسدي. وحين حاولَ أن يأخذني عنوةً ابتعدتُ عنه. وطبعاً لم يزعجه ذلك كثيراً، أو بالأحرى هكذا تظاهر. أعتقد أنه كُتبَ عليَّ أن أبقى عذراء. أو فلأقُل عذراء في القلب.

" أووف! أي قصة هذه التي أحكيها! على أي حال، المختصر المفيد من الأمر كله أنهما هما اللذان أعطياني النقود لآتي إلى الشرق. كان من المقرَّر أن ألتحقَ بمعهد للفنون، وأن أعمل بجدّ، وأضع لنفسي اسماً لامعاً "

ثم سَكَتتْ فجأة.

" والآن أنظر إليّ! ماذا أنا؟ ماذا أصبحتُ؟ ما أنا إلا متشرِّدة ؛ أشدّ زيفاً من زوجتك مونا "

قلتُ " أنتِ لستِ زائفة ؛ كل ما في الأمر أنكِ غير متكيِّفة "

" لست بحاجةٍ إلى أن تكون لطيفاً معي "

حسبتُ للحظة أنها ستنفجر في نوبةٍ من البكاء.

" ألن تكتب لي بين حينٍ وآخر؟ "

" ولِمِ لا ؟ إنْ كان هذا يسعدكِ، طبعاً سأفعل "

ثم قالتْ، وكأنها بنتٌ صغيرة، " سوف أشتاقُ إليكما. سوف أشتاقُ إليكما كثيراً "

قلتُ " حسنٌ، لقد انتهى كل شيء الآن. انظري إلى الأمام، لا إلى الوراء "

" سهلٌ عليك أن تقول هذا. سوف تحصل عليها، وأنا... "

" صدِّقيني، ستكونين أفضل حالاً وأنتِ وحدك. من الأفضل أن تكوني وحدك على أن تصاحبي شخصاً لا يفهمك "

قالتْ " أنت على حق "، وضحكتْ ضحكةً صغيرة حييّة، " أتعلمْ، لقد حاولتُ مرةً أن أدفع بكلبٍ إلى مضاجعتي. كان شيئاً مُثيراً للسخرية. وفي آخر الأمر عضَّني في فخذي "

" كان يجب أن تحاولي مع حمار - فهو أسهل قياداً "

كنا قد بلغنا آخرَ الجسر. قالت " سوف تحاولُ أن تجمعَ لي بعضَ المال، أليس كذلك؟ "

" طبعاً سأفعل. ولا تنسي أن تتظاهري بأنكِ بدَّلتِ رأيكِ وستبقين. وإلا نشبَ شجارٌ مخيف "

*

كما توقَّعت، نشبَ شجارٌ، ولكن حالما لانَتْ ستيسيا انتهى كزخةِ

twitter @baghdad_library

مطرٍ في الربيع. ولكن بالنسبة إليّ كان من المُقبض، ومن المُذلّ، أن ألاحظَ حزنَ مونا. ولدى وصولنا وجدنا أنها في المرحاض، تبكي كخنزيرة. وجدتُ حقيبتَها مُعدَّة، والصندوق مقفلاً، وغرفة ستيسيا في حالةِ فوضى عارمة. أدركتُ أنه الرحيل هذه المرة.

كان من الطبيعي جداً بالنسبة إليها أن تتَّهمني بأني ألهمها القيام بتلك الحركة. ولحسن الحظ أنكرتْ ستيسيا هذا بشدَّة. إذن لماذا أصرَّت على الرحيل؟ على هذا السؤال أعطتْ ستيسيا جواباً واهياً مفاده أنها سئِمَتْ الوضعَ كلَّه. ثم انهالتْ استفسارات مونا المؤنِّبة كطلقات الرصاص " كيف تقولين هذا؟ إلى أين ستذهبين؟ ماذا فعلتُ جَعَلَكِ تنقلبين ضدي؟". كان في استطاعتها أن تُطلِقَ مئة طلقة أخرى من ذلك النوع. مهما يكن، كان هياجها يتفاقمُ مع كل تقريعٍ؛ وتحولَتْ دموعها إلى نشيج ونشيجها إلى أنين.

لم يكن هاماً كونها ستستأثر بي لنفسها. كان واضحاً أنَّ لا وجودَ لي بالنسبة إليها، اللهمَ إلا كشوكة في جنبها.

كما كنتُ أقول، أخيراً لانتْ ستيسيا، ولكن ليس قبل أن تهوجَ مونا وتموج وتتوسَّل وتناشد. وتعجَّبتُ كيف سمحتْ للشجار أن يطول كل تلك المدة. أكانت تستمتع به؟ أم كانت من شدَّة الشعور بالتقزُّز حتى أنها فُتِنَتْ؟ وتساءلتُ ماذا كان سيحدث لو لم أَقفُ في صفّها.

كنتُ أنا الذي لم يعد يطيقُ احتمالاً، أنا الذي التفتُّ إلى ستيسيا وناشدتها أن تُعيد التفكير في الأمر.

توسَّلتُ إليها " لا تذهبي الآن؛ إنها حقاً بحاجة إليك. ألا ترين كم تحبك؟ "

أجابتْ ستيسيا: " ولكن لهذا السبب يجب أن أرحل "

قلتُ " كلا، إنْ كان لابد لأحدنا أن يغادر فهو أنا "

(في تلك اللحظة كنتُ أعني حقاً ما قلت)

قالتْ مونا "أرجوك لا تذهب أنت أيضاً! لماذا يجب على أحدكما أن يرحل؟ لماذا؟ أنا أريدكما أنتما الاثنتين. أنا بحاجة إليكما، وأحبكما"

قالتْ ستيسيا، وكأنها ما تزال عنيدة، " لقد سمعنا هذا من قبل "

قالت مونا " لكني جادة فيما أقول ؛ أنا لا أساوي شيئاً من دونك. والآن بعد أن أصبحتما صديقين أخيراً. لمِ لا نستطيع أن نعيش كلنا معاً بسلامٍ ووئام؟ سأفعلُ كل ما تريدان. ولكن لا تتركاني، أرجوكما! "

مرةً أخرى التفتُّ إلى ستيسيا، وقلت " إنها على حق. هذه المرة قد ينجح الأمر. أنتِ لا تغارين مني... فلماذا أغارُ أنا منك؟ فكِّري في الأمر، هلاّ فعلت؟ إنْ كنتِ تقلقين عليَّ، اطمئنّي. أنا أريد أن أراها سعيدة، لا أكثر. فإذا كان بقاؤك معنا سيسعدها، أقول ابقي! لعلّي أتعلّم أن أكونَ سعيداً بدوري. على الأقلّ أصبحتُ أكثر تسامحاً، ألا تعتقدين ذلك؟ "، ورسمتُ لها ابتسامة شاذة. " هيا الآن، ما قولك؟ لا أظنكِ تنوين أن تدمِّري حياة ثلاثة أشخاص، أليس كذلك؟ "

انهارتْ على أحد الكراسي. ركعتْ مونا عند قدميها ووضعت رأسها على حجرها، ثم رفعتْ عينيها ببطء ونظرت إلى ستيسيا متوسلة، وناشدتها " ستبقين، أليس كذلك؟ "

دفعتها ستيسيا بعيداً عنها بلطف. قالتْ " نعم، سأبقى. ولكن بشرطٍ واحد. يجب ألاّ تنشب أي مشاجرات بعد الآن "

كانت عيونهما الآن مُركَّزة عليَّ. فقبل كل شيء، كنتُ أنا المجرم.

twitter @baghdad_library

أنا الذي كنتُ أثير الشجار. وكان سؤالهما غير المُعلَن " هل سأحسِّن سلوكي؟ "

قلتُ " أعرفُ بماذا تفكران. كل ما أستطيع أن أقوله هو أني سأبذلُ قُصَارى جهدي "

قالت ستيسيا " زدنا! أخبرنا الآن عن حقيقة مشاعرك "

كلماتها أدهشتني. وانتابني شعورٌ مزعجٌ بأنها خُدِعَتْ بتمثيلها. أكانَ ضرورياً أن أخضعَ للاستجواب - في هذه اللحظة؟ وإذا جرؤت على البوحِ بما يجولُ في خاطري لقلتُ إني شعرتُ أني نذل. نذلٌ صِرف. وفي الحقيقة، لم يخطر في بالي أبداً، حين قدَّمتُ اقتراحي، أننا سوف نضطر إلى مواصلة المهزلة إلى هذا الحد. فبالنسبة إلى ستيسيا أن تضعفَ هو أمر، وتفتيشُ أعماق قلبي أمرٌ آخر. لعلّنا لم نكن قط إلا ممثلين، حتى حين ظنّنّا أننا صادقون. أو بالعكس. وبدأ ذهني يتشوَّش. وقد صُدِمتُ بقوة فجأةً حين اكتشفتُ أنه ربما كانت مونا، الممثلة، هي أصدقُنا جميعاً. على الأقلّ كانت تعرف ماذا تريد.

هذا كله مرَّ في ذهني كومض البرق.

كان جوابي، وهو الحقيقة، - " صدقاً، لا أدري كيف أشعر. أعتقد أنه لم يتبقَّ لدي أي مشاعر. على أي حال لا أريد أن أسمع أي كلام عن الحب، أبداً... "

هكذا انتهى الأمر، بإخفاق. لكنَّ مونا كانت راضية تماماً. وستيسيا أيضاً، كما بدا.

لم يتعرَّض أي منا لأذى بليغ. كنا متمرِّسين.

*

ها أنا الآن أقفز من مكانٍ إلى مكان ككلبٍ دموم[٤٦] لأجمع نقوداً، على أساسِ افتراضِ أنَّ ستيسيا سترحل. كنتُ قد زرتُ لتوّي ثلاث مستشفيات، في محاولةٍ لأبيعَ دمي. في هذه الأيام يبلغ سعر باينت[٤٧] من الدم الإنساني خمسة وعشرين دولاراً. وقبل عهدٍ قريب كان بخمسة دولارات، ولكن الآن أصبح هناك عددٌ هائلٌ من المتبرعين الجياع.

لا فائدة من هدر مزيدٍ من الوقت في هذا الاتجاه. الأفضل اقتراضُ المال. ولكن ممَّن؟ لم أتذكر شخصاً واحداً يمكن أن يقرضني أكثر من دولارٍ أو اثنين. كانت بحاجة على الأقل إلى مائة دولار. والأفضل أن يكون مائتي دولار.

ليتني فقط عرفتُ كيف أصلُ إلى ذلك المليونير المنحرف! فكَّرت في لودفيغ، قاطع التذاكر المجنون - منحرف آخر! - لكنه ذو قلب من ذهب، كما كانت مونا تقول دائماً. ولكن ماذا أقول له؟

كنتُ أمرُّ من أمام المحطة المركزي العظمى، لكي أهبط إلى الطابق حيث يجتمع السُعاة، لأرى إنْ كان هناك مَنْ يتذكَّرني. (كان كوستيغان قد توفي) تسلَّلت إلى أسفل وألقيت نظرة شاملة على الطاقم. لم أتعرف إلى أي منهم.

تذكَّرتُ، وأنا أرتقي السلَّم إلى الشارع، أنَّ عيادة الدكتور زابريسكي موجودٌ في مكانٍ ما في الجوار. وعلى الفور رحتُ أقلبُ صفحات دليل الهاتف. فعلاً، كان هناك - في الشارع الخامس والأربعين الغربي. وارتفعت معنوياتي. ها هنا رجل يمكنني حتماً أن أعتمد عليه. إلا إذا كان مفلساً. أصبحَ هذا بعيد الاحتمال الآن، بعد أن فتحَ مكتباً في مانهاتن. وحثثتُ خطاي. بل إني لم أزعج نفسي بالتفكير في القصة

twitter @baghdad_library

الملفَّقة التي سأفبركها... في الماضي، حين كنتُ أقوم بزيارته ليحشو لي سني، كان هو الذي يسألني إن كنتُ بحاجة إلى نقود. أحياناً كنتُ أقول لا، بسبب خجلي من فرض نفسي على ذلك الإنسان الطيب. لكنَّ ذلك حدث في القرن الثامن عشر.

أثناء انطلاقي السريع تذكَّرتُ فجأةً موقع مكتبه القديم. إنه ذلك البناء الآجري الأحمر ذو الطوابق الثلاثة حيث كنتُ أقيمُ ذات يوم مع الأرملة، **كارلوتا**. كنتُ في صباح كل يوم أنقل علب الرماد ودلاء القمامة من القبو وأضعها على حافة الرصيف. كان ذلك أحد أسباب ولعه بي، أعني الدكتور زابريسكي - لأني لم أكن أشعر بالخجل من تعفير يديَّ. رأى أنها صِفةٌ روسيّة جداً. تشبه صفحة مقتطعة من رواية لغوركي... كم كان يحبّ أن يتسامر معي عن الكتّاب الروس المفضّلين لديه! كم كان يبتهج حين أعرض عليه تلك القصيدة النثرية التي كتبتها عن جيم لوندوس[٤٨]، لندوس الهرقل الصغير، كما كان يسمّيه. كان يعرفهم كلهم - سترانغلر لويس، زبيسكو، أيرل كادوك، وفارمر ما اسمه... كلهم. وهنا كنتُ أكتب كشاعر - لم يتمكّن من التغلُّب على أسلوبي! - عن بطله المفضَّل، جيم لوندوس. وأذكر أنه في عصر ذلك اليوم حشر ورقة نقدية بخمسة دولارات في يدي لدى مغادرتي. أما بالنسبة إلى المخطوط، أصرّ على أن يحتفظ به - لكي يعرضه على كاتب في مجال الرياضة كان يعرفه. وتوسَّلَ إليّ كي أريه المزيد من أعمالي. هل كتبت شيئاً عن سكريابين[٤٩]؟ أو عن أليخائين بطل لعبة الشطرنج؟ وحثَّني قائلاً " عُدّ من جديد قريباً، عُدْ في أي وقت، حتى وإن لم تكن أسنانك بحاجة إلى عناية ". وكنت أعود إليه بين وقتٍ وآخر،

ليس فقط لكي أثرثر حول لعبة الشطرنج، والمصارعين وآلة البيانو، بل على أمل أن يدسّ في يدي ورقة بخمسةِ دولارات أو دولار، عند مغادرتي.

عندما دخلتُ المقر الجديد، كنت أحاول أن أتذكّر عدد السنين التي مرّتْ منذ أن تحدّثتُ معه آخر مرة. لم يكن في غرفة الانتظار غير زبونين - أو ثلاثة. ليس كما كان الحال في الأيام الخوالي حين كانت هناك غرفة للوقوف فقط، أما النساء المتلفعات بالشالات فكنّ يجلسن حمراوات العيون ويمسكن بأحناكهن المتورمة، بعضهن يحمل أطفاله على أذرعه، وكلهم فقراء، وخنوعون، ومسحوقون، قادرون على الجلوس على مدى ساعات طوال. أما المقرّ الجدي فكان مختلفاً. بدا الأثاث جديداً ومُريحاً حتى الترف، وكانت هناك لوحات مُعلّقة على الجدار - لوحات جيدة - وكان كل شيء مكتوم الصوت حتى مثقاب الأسنان. ولكن لم يكن هناك سماور.

ما كدتُ أجلس حتى فتح باب غرفة التعذيب لتلفظ زبوناً. وعلى الفور تقدّم مني، وصافحني بحرارة، وناشدني أن أنتظر بضع دقائق. عبَّرَ عن أمله في ألاّ يكون الأمر خطيراً. قلت له أن يأخذ وقته. إنها مسألة بضعة تجاويف، لا أكثر. جلست من جديد وانتقيت مجلة. قرّرتُ، وأنا مستغرق في مشاهدة الصور، أنّ أفضل ما يمكن أن أقوله هو أنّ على مونا أن تخضع لعملية جراحية. تعاني من ورمٍ في المهبل، أو ما شابه.

بضع دقائق بالنسبة إلى الدكتور زابريسكي كانت تعني ساعة أو اثنتين. ولكن ليس هذه المرة. الآن كل شيء يسيرُ بسلاسة وفعالية.

جلستُ على الكرسي الكبير وفتحتُ فمي واسعاً. كان هناك فقط تجويف واحد صغير؛ سوف يحشوه فوراً. وبينما كان يقوم بالثقب أخذ

twitter @baghdad_library

يُمطرني بسيلٍ من الأسئلة: كيف سير الأمور؟ أما أزال أكتبُ؟ هل أنجبت أطفالاً؟ لماذا لم أقم بزيارته من قبل؟ كيف حال فلان الفلاني؟ أما أزال أمتطي الدراجة؟ وأجيب عنها جميعاً بنخرٍ وتدويرِ محجريّ عينيّ.

أخيراً انتهينا. قال " لا تهرب! تناول أولاً مشروباً معي! ". فتح خزانةً وأخرجَ منها قنينةً من الويسكي الفاخر، ثم جرَّ مقعداً بلا ظهر إلى جانبي. **والآن احكِ لي كل شيء عن نفسك؟** "

كان يجب أن أبدأ بتمهيد طويل قبل أن أصل إلى لب الموضوع. أي، وضعنا الحالي، المالي ،أشياء أخرى. وأخيراً فجَّرتُ النبأ - **الورم**. وفي الحال أبلغني بأن لديه صديقاً ؛ طبيب جرّاح ممتاز، مستعد لإجراء العملية الجراحية دون مقابل. شعرتُ بالارتباك. كل ما استطعت أن أقوله هو أنَّ الترتيبات قد أُعِدَّتْ، وأني قد دفعت فعلاً مائة دولار من تكاليف العملية الجراحية.

قال " فهمت، شيء مؤسف. وتفكَّر برهة، ثم سألني " متى يجب دفع الحساب؟ "

" يوم بعد غد "

قال " اسمع، سأعطيك شيكاً بتاريخٍ مؤخَّر. إنَّ رصيدي في المصرف منخفض، منخفض جداً. كم تحتاج بالضبط؟ "

قلت مائتين وخمسين دولاراً.

قال " شيء مؤسف. كان يمكن أن أوفِّر عليك هذه التكاليف كلها "

فجأةً أُصبتُ بنوبة من الندم. قلت " اسمع، انسَ الأمر! لا أريد أن أستولي على آخر بنس معك "

لم يُصغِ إليَّ. قال إنَّ الناس يستغرقون وقتاً طويلاً في تسديد

فواتيرهم، هذا كل ما في الأمر. وأخرج دفتر حسابات كبير وبدأ يفتش فيه. " مع نهاية الشهر يجب أن يتلقى أكثر من ثلاثة آلاف دولار ". وابتسم ابتسامة عريضة، " كما ترى، لا يمكن القول إني فقير "

بعد أن استقرَّ الشيك بسلام في جيبي، تلكَّأتُ قليلاً لأنقذ ماء وجهي. وحين واكبني أخيراً حتى المصعد - وكنتُ قد ولجته بإحدى قدميَّ - قال " الأفضل أن تتصل بي هاتفياً قبل أن تودعْ الشيك المصرف... لأتأكد من أنه مغطى. هلاَّ فعلت؟ "

قلت " سأفعل "، ولوَّحتْ له بيدي مودِّعاً.

قلتُ في نفسي أثناء هبوط المصعد، رجل طيب القلب كما عرفته. من المؤسف أني لم أفكر بدوري أن أحصل على بعض النقود. في تلك اللحظة كنت بحاجة إلى كوب من القهوة وفطيرة. وتحسَّستُ داخل جيبي. كالمعتاد: ينقصني بضع بنسات.

لدى اقترابي من المكتبة العامة في الجادة الخامسة والشارع الثاني والأربعين وجدتني أزِنُ حَسَنات عمل ماسح الأحذية وسيئاته. وتساءلت عما وضع تلك الفكرة في رأسي. ها أنا أقترب من سن الأربعين وأفكر في تلميع أحذية الناس. ما أغرب جولات الذهن!

أثناء سيري على طول درب المشاة الذي تحرسه أسُود حجرية هادئة، انتابني دافع قوي لزيارة المكتبة العامة. قاعة القراءة هناك دائماً يسودها جو مريح وأليف. ثم إنَّ فضولي كان قد انتعش فجأةً لأعرف كيف كان باقي الأدباء يتصرَّفون، وهم في مثل سنّي. (ومن الممكن أيضاً أنْ ألتقي مصادفةً بأحد المعارف وتظل فرصة الحصول على الفطيرة والقهوة قائمة). شيء واحد كان مؤكَّداً هو أنه لا حاجة إلى التنقيب

twitter @baghdad_library

عن الحياة الخاصة لأمثال غوركي، ودوستويفسكي، وأندرييف . ولا حتى في حياة ديكنز. **جول فيرن!** هذا كاتب لا أعرفُ أي شيءٍ عن حياته ؛ كل شيء يبدو أنَّ بعض المؤلفين ليست لهم أي حياة خاصة ؛ كل شيء مذكور في كتبهم. وهناك آخرون. مثل ستريندبرغ، ونيتشه، وجاك لندن... كنت أعرف حيواتهم بقدر معرفتي لحياتي.

لا شك في أنَّ ما كنتُ آمل فيه هو أن ألتقي بإحدى تلك الحيوات التي تبدأ من المجهول وتقودنا خلال مستنقعات وسهول مالحة، وتبدو أنها تسيل بلا مسار مُحدَّد، أو غاية أو هدف، ومن ثم تبرزُ فجأة، تنبجس كنبع من المياه الحارة، ولا تتوقف عن التدفق، حتى في الموت. وما أردت أن أقبض عليه - وكأنَّ في الإمكان القبض على اللا محسوس - هو النقطة الحاسمة في نشوء العبقرية حين تفرز الصخرة الجافة فجأة ماء. وكما تتجمَّع الأبخرة السماوية أخيراً على شكل مستجمعات من مياه المطر ومن ثم تتحول إلى غدرانٍ وأنهار، كذلك في العقل وفي الروح، كما شعرتُ، لابد أنه يوجد مثل ذلك الخزان ينتظر أن يتحول إلى كلمات، وجُمل، وكتب، أن يغرق ثانية في محيط الفكر.

فقط عبر التجربة والمعاناة، كما يُقال، ننفتح. أهذا كل ما سوف أعثر عليه - لا أكثر؟ - بعد تفحُّص صفحات السيرة؟ هل الخلاقون المعذَّبون هم الذين لا يجدون الخلاص إلا عبر التصارع بواسطة الفن؟ في عالمِ الإنسانِ يرتبطُ الجمالُ بالمعاناةِ وترتبطُ المعاناةُ بالخلاصِ، ولا يمكنُ الحصولُ على مثل هذا في الطبيعة.

جلستُ في غرفة القراءة مع قاموسٍ ضخم للسِيَرْ. وبعد أن قرأت مقاطع هنا وهناك استغرق في التأمل. لقد اتَّضح أنَّ تقصِّي أفكاري

الخاصة أشدّ إثارة من التمحيص في حيوات أشخاص فاشلين أحرزوا نجاحاً. فإذا ما استطعت أن أقتفي التواءات حياتي تحت الجذور، فقد أتعثّر بجدول يقودني إلى الهواء الطلق. وتذكّرتُ كلمات ستيسيا - الحاجة إلى لقاء روحٍ لطيفةٍ، لكي أنمو، لأعطي ثماراً. إنّ إقامة حديث (حول الكتابة) مع عشاق الأدب كانت عقيمة. كنت قد قابلت حتى ذلك الحين مَنْ في قدرته أن يتكلم حول الموضوع ببراعة تفوق براعة أي كاتب (دون أن يكتبوا سطراً واحداً). أحقاً كان هناك مَنْ في استطاعته أن يتكلم بفطنةٍ عن العمليات السرّية؟

كان السؤال الأكبر هو ذلك السؤال الأبدي، الذي يبدو أنه بلا جواب: ما هو الشيء ذو الأهمية القصوى الذي لديّ لأنقله إلى العالم؟ ماذا لديّ أقوله ولم يقُله من قبل، آلاف المرات، أناسٌ أكثر موهبة مني بما لا يُقارَن؟ أكانت هذه الحاجة القسرية إلى أن يسمَعَني أحد أنانيّة صِرفاً؟ أين تكمن فرادتي؟ فإذا لم أكُنْ فريداً سيكون الأمر أشبه بإضافة صفر إلى رقم فَلَكي لا يُحصى.

تنقّلتُ من شيءٍ إلى آخر - Traumerei! (حلم!) لذيذ - إلى أنْ وجدتني أتأمّل في هذا الجانب الأشدّ استحواذاً من مشكلة الكاتب: الافتتاحيات. الطريقة التي يفتتح بها كتاب - هناك يكمنُ عالمٌ قائمٌ بذاته. كم كانت شديدة الاختلاف، والفرادة. الصفحات الافتتاحية للكتب العظيمة! بعض المؤلفين كان أشبه بطيورٍ ضخمةٍ كاسرة ؛ تحلّقُ فوق إبداعها، ترمي ظلالاً هائلة، متفرّقة فوق كلماتها. بعضهم، كالرسامين، يبدؤون بلمسات رقيقةٍ، غير متعمّدة، تقودهم غريزةٌ واثقة يتجلّى هدفها لاحقاً بعد إضافة الكتلة واللون. والبعض يمسك بك من

twitter @baghdad_library

يدك كالحالمين، يرضيهم أن يتلكؤوا عند حواف حلمٍ ما ولا يسمحون لأنفسهم بكشف ما هو عصيّ على التعبير بشكلٍ واضح ببطء معذّب. وهناك آخرون كانوا يستمدون متعةً هائلة، وكأنهم يجثمون فوق أبراجِ بثّ الإشارات، من إدارة المفاتيح، وومض الأضواء ؛ معهم كل شيء يرسم بدقّةٍ حادّة، وجرأة، وكأنَّ أفكارهم سلسلة طويلة من القطارات تلجُ فناء المحطة. ثم هناك أولئك المخبولين أو المهلوسين الذين، يبدءون عشوائياً بصرخات أجشة، وسخريات ولعنات، يطبعون أفكارهم ليس على الصفحة بل خلالها، كآلة أصابها الجنون. وعلى الرغم من اختلافهم إلا أنَّ أنماط كسر الجليد هذه كلها كانت تدلّ على الشخصية، وليست شروحاً لتقنيات مدروسة. إنَّ أسلوب افتتاح كتابٍ ما هو أسلوب المؤلف في المشي والتكلُّم ؛ أسلوبه في النظر إلى الحياة، واستجماع شجاعته أو إخفاء مخاوفه. والبعض بدء برؤيةٍ واضحة وبقي كذلك حتى النهاية ؛ وآخرون بدءوا على العمياني، وكل سطر عندهم هو صلاة خرساء تؤدي إلى أخرى. أي محنة هي هذا الرفع للخمار! أي مخاطرة تبعث القشعريرة في الجسم هي هذه التعرية للمومياء! لا أحد، ولا حتى أعظمهم، كان يمكن أن يتأكد ماذا سيقدم للعين المدنّسة إذا ما طُلِبَ منه. فما أن يندمج يمكن أن يحدث أي شيء، وكأنه حين يُمسِك بالقلم يستدعي "أراخين[٥٠]". نعم، أراخين! تلك الكيانات الغامضة، تلك الأنزيمات الكونية التي تنشط في كل بذرة. التي تهندس الخلق، البنيوي والجمالي، لكل زهرة، ونبتة، وشجرة، وكون. إنها الطاقات الداخلية ؛ تخمُّر أبديٌّ ينتجُ عنه القانون والنظام.

وبينما هؤلاء اللا مرئيون يؤدون مهمتهم يعيشُ المؤلف - يا لها من

تسمية مغلوطة! - ويتنفَّس، يقوم بدور مدبِّرة المنزل، والسجَّان، والمتشرِّد، أو كائناً ما كان الدور، ومع مرور الأيام، أو السنين، تُفتَح اللفيفة وتنجلي المأساة (مأساته ومآسي شخصياته)، وتتقلَّبُ أمزجته كتقلُّب أحوال الطقس من يوم إلى يوم، وتبرز طاقاته وتغوص، وتضطرب أفكاره أيما اضطراب، وتقترب النهاية باطّراد، ويتوجب عليه أن يوجد بالقوة سماءً، إذا لم يستطع أن يكسبها، ذلك لأنَّ ما بدأ به يجب أن يكتمل، ويُنجَز، حتى ولو على الصليب.

قُل لي، ما الحاجة إلى قراءة صفحات سيرة حياة؟ ما الحاجة إلى دراسة الدودة أو النملة؟ فكِّرْ، ولو للحظة، في ضحايا بإرادتهم أمثال بليك، وبوهمه، ونيتشه، وهولدرلن، وساد، ونرفال، وفيّون، ورامبو، وستريندبرغ، وثرفانتث، ودانتي، أو حتى في هاينه أو أوسكار وايلد! وأنا، هل أضيف اسمي إلى هذا الحشد من الشهداء اللامعين؟ إلى أي دركٍ من الانحطاط كان عليَّ أن أنحدر قبل أن أكتسب الحقّ في الانضمام إلى مراتب أكباش الفداء أولئك؟

أثناء قيامي بالمشاوير المطوَّلة إلى دكان الخياطة ومنها كانت تتملَّكُني فورةٌ مفاجئةٌ من الكتابة. وأؤكد لك أنَّ كل شيء كان في رأسي. ولكن كم كانت صفحات رائعة، وصياغة جمل ممتازة! كنتُ أسترخي عميقاً في المقعد، وعيناي نصف مغمضتين، وأصغي إلى الموسيقا صاعداً من الأعماق. كم كان كتاباً رائعاً! إذا لم يكن كتابي فكتابُ مَنْ إذن؟ كنتُ أنتشي ؛ أنتشي، ولكن وأنا حزينٌ، مهزومٌ، ومُطهَّر. ما فائدة استدعاء هؤلاء العمال اللا مرئيين؟ أمِنْ أجل متعة الغرق في محيط الخلق؟ لن أتمكن أبداً، عبر بذلِ الجهدِ الواعي، أبداً،

twitter @baghdad_library

وأنا أمسكُ بالقلم، من استحضارِ مثل هذه الأفكار! كل ما كنتُ أوقِّعُ باسمي عليه في نهاية المطاف كان هامشياً، سطحياً ؛ هذيان شخصٍ أبله يكافحُ ليسجل الطيران الشارد لفراشة... ولكن كان من المُريح أن أعرف أنه يمكن للمرء أن يكون فراشة.

لا أصدِّق أنَّ هذه الثروة كلها، هذه الثروة من العماء البدائي، يجب أن يُصبّ، أن يكون مستساغاً وصالحاً للشرب، مع التفاصيل الهومريّة للدورة اليومية، مع الدراما المكرّرة المملة للبشر الحقيرين الذين تشبه معاناتهم وطموحاتهم، حتى للآذان الفانية، همهمة طواحين الهواء الرتيبة يتردَّد طنينها في الفضاء القاسي. الحقير والعظيم: لا تفصل بينهما إلا إنشات قليلة. ها هو الإسكندر يحتضر متأثراً بذات الرئة في فيافي آسيا الموحشة ؛ والقيصر المُسربلُ باللون القرمزي اتَّضحَ أنه فانٍ على أيدي حفنةٍ من الخونة ؛ وبليك يغني وهو يموت ؛ وداميين[٥١] تمزَّقَ على دولاب التعذيب وهو يصرخ كألف صقر مشوَّه... ما أهمية هذا ولِمَنْ؟ سقراط مشدود إلى زوجة نَّاقة، وقديس مُبتلٍ بألف بليّة، ونبي مدهونٌ بالقطران ومكسو بالريش... لماذا؟ كله مفيد، معلومات للمؤرخين ومدوّني الأحداث التاريخية،وسُمّ للطفل، وكافيار لمدير المدرسة. وبهذا وعبرَه يحكي الكاتب حكايته، وهو يشقُّ طريقه الملتوية كسكّيرٍ مُلهَم، يعيشُ ويتنفَّس، يُشرَّفُ أو يُهان. يا له من دور! فليحمنا يسوع!

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

لا قهوة، لا فطيرة تفاح. الدنيا ظلامٌ والجادَّةُ مقفِرةٌ حين لفحني الهواء. كنتُ أشعر بجوعٍ شديد. بالسنتات القليلة التي معي اشتريتُ قضيب حلوى واتجهتُ صوب المنزل. مسيرة رهيبة خاصة على بطنٍ خاوية. لكنَّ رأسي طنَّ كخلية نحل. كان الشهداءُ هم رفاقي ؛ تلك الطيور العنيدة المرحة التي التهمتها الديدان منذ أمد بعيد.

غصتُ مباشرةً في السرير. لماذا أنتظرهما، على الرغم من وجود وعدٍ بالطعام؟ إنَّ أي شيء يخرجُ من بين شفاههما سيكون أقرب إلى البربرة بعد استمتاعي بفترةٍ من متعة السير.

انتظرتُ بضعة أيام قبل أن أزفّ النبأ إلى ستيسيا. وحين سلّمتها الشيك عُقِد لسانها. لم تكن تصدِّق أني أستطيع أن أفعل ذلك. ولكن ألم أكن أستعجلها قليلاً؟ والشيك، كيف يمكنها أن تتيقَّن من أنه غير قابل للصرف؟

يا لها من أسئلة! لم أذكر لها أي شيء عن طلب الدكتور زابريسكي مني أن أتَّصِل به قبل أن أصرف الشيك. إذ لا فائدة من المخاطرة بسماع شيءٍ بغيض. اصرفه أولاً، ثم اقلق – تلك كانت فكرتي.

لم يخطر في بالي أبداً أنْ أستفهم عمَّا إذا كانت غيَّرتْ رأيها بشأن

الرحيل. لقد أدّيتُ دوري، وحان الوقت لأداء دورها. لا تطلب أي شيء من أي شخص، فذلك ينطوي على مخاطرةٍ كبرى. إلى الأمام، مهما كلّفَ الثمن!

ولكن، بعد مرور بضعة أيام، جاء النبأ السيئ. كان أشبه بطلقٍ من بندقيةٍ مزدوجة السبطانة. أولاً، كما كان يمكن أن أعرف، رفض المصرف صرف الشيك. ثانياً، قرّرت ستيسيا ألاّ ترحل - في الوقت الراهن على أي حال. وفوق ذلك كله صبَّتْ مونا جام غضبها عليّ! لمحاولتي التخلُّص من ستيسيا. مرةً أخرى حنثتُ بوعدي، فكيف لهما أن تثقا بي بعد الآن؟ وما إلى ذلك. كانت يداي موثقتين، أو بالأحرى لساني. كان من المستحيل أن أخبرها بما اتفقنا عليه أنا وستيسيا سراً. فذلك لن يعمل إلاّ على وصمي أكثر بالخيانة.

حين سألتُ مَنْ الذي صَرَفَ الشيك قيل لي إنَّ ذلك ليس من شأني. تكهَّنتُ بأنه شخص يستطيعُ أن يتحمَّل الخسارة (غالباً هو ذلك المليونير القذر).

ماذا سأقول للدكتور زابريسكي؟ لا شيء. لم تكن لديَّ الشجاعة لمواجهته مرة أخرى. في الحقيقة لم أره أبداً بعد ذلك. وهذا اسمٌ آخر أمحوه من قائمتي.

بينما كانت الأمورُ تضطرب وقعَ حادثٌ غريب. فذات مساء سمعتُ قرعاً على زجاج النافذة، وإذا بأوزيكي يقفُ هناك ؛ زريّ، مراوغ، موسْوَس، كما أعرفه. إنه عيد ميلاده، كما أخبرني. الكؤوس القليلة التي كان قد شربها خفيّةً لم يكن لها تأثيرٌ مؤذٍ كثيراً. لا شك في أنه كان ثملاً قليلاً، ولا يزال يتلعثم من بين شعر شاربه، لا يزال يهرشُ نفسه، ولكن، إذا جاز لنا أن نُعبِّر هكذا، بأسلوبٍ أكثر مرحاً من المعتاد.

twitter @baghdad_library

كنتُ قد رفضتُ تلبية دعوته لمشاركته احتفال صغير هادئ. قدَّمتُ له بعض الأعذار الواهية فشلَتْ في اختراق الضباب الذي كان يُغلِّفه. كان يحمل نظرة مثيرةً للشفقة بحيث أني بدل أن أفتح النارَ عليه سمحتْ له أن يحطِّم مقاومتي. لماذا لا أذهب، بعد هذا كله؟ أي خير في ألاّ يكون قميصي مكويّاً وأنه بالٍ، وبنطالي مجعّد ومعطفي مغطى بالبقع؟ كما قال هو " كلام فارغ! " كانت فكرته هو أن نذهب إلى منطقة فيليج، ونشرب بضع كؤوس عربون الودّ، ونعود باكراً. نخب الأيام الخوالي. لم يكن من العدل أن أطلب من رجلٍ أن يحتفل بعيد ميلاده وحده. قرقعَ بالقطع النقدية في جيبه وكأنه يخبرني أنه ثري. أكّد لي أننا لن نرتاد أي مرابع فاخرة. قال " لعلك ترغبُ في أن تتناول لقمةً أولاً؟ "، ورسمَ ابتسامةً واسعةً كاشفاً عن أسنانه المحلولة.

وهكذا استسلمتُ. وفي بورو هول أكلت شطيرة وشربتُ كوباً، كوبين، ثلاثة أكواب من القهوة. ثم عدنا بالسيارة إلى نفق القطار. كان يتمتم ويغمغم بينه وبين نفسه، كما في أيام زمان. وكنتُ بين حينٍ وآخر أميِّز عبارة ما. كان ما خرجَ منه شيئاً أشبه بـ " آه نعم، نعم، الانغماس مرةً كل حين... شرب وتبوُّل... التفرُّج على الفتيات والتشاجر... ليس لعيناً جداً... خاتم حول الوردي... كما تعلم... انفضْ البقّ عن البساط"

عند ساحة شيريدان ترجَّلنا. لم نجد مشقَّة في العثور على مربعٍ ليليّ. بدتْ الساحة كلها كأنها تتجشَّأ دخان التبغ ؛ ومن كل نافذة كان يصدر دويّ ألحان الجاز، وصراخ أناث مهسترات يخضن في بولهن ؛ وشاذون جنسياً، بعضهم ببزات رسمية، يسيرون متشابكي الأذرع، وكأنما على طول promenade des Anglais (منتزه الإنكليز)، تاركين في إثرهم

ذيلاً من العطر نفّاذ الرائحة إلى درجةِ خنق قطة. وهنا وهناك، كما في إنكلترا العتيقة، ترى سكيراً منبطحاً على طوله على الرصيف، يفوّقُ، ويتقيّأ، ويسب، ويهذي بكلامِ الثملين المعتاد مثل أيري فيكم جميعاً وما شابه من قذارة. لقد كان قانون تحريم الخمر شيئاً رائعاً ؛ جعلَ الجميعَ عِطاشاً، ومتمردين ومشاكسين. خاصةً جنس النساء. الخمر أظهرَ شخصية العاهرة على المسرح. وكم كانت لغتهنّ بذيئةً! بل أشدَ بذاءةً من لغة عاهرةٍ إنكليزية.

شققنا طريقنا إلى داخل مربعٍ أشبه بجحيمٍ من الرقص قائمٍ على دواليب حتى وصلنا إلى البار، واقتربنا أخيراً من طلب ما نريد. كان المكانُ مزدحماً بغوريلات يقبضون على أباريق بمخالبهم ويجرعون الخمر بكمياتٍ كبيرة. كان بعضهم يحاول أن يرقص، والبعض كانوا يجلس القرفصاء وكأنهم يَخْرون، والبعض الآخر يدير عينيه داخل محجريهما ثم ينهار، وبعضهم كان يركع على أربع تحت الطاولات، ويشمُّ ككلابٍ هائجة جنسياً، والبعض كان يُثبِّت أو يفك أزرار فتحة بنطاله. وفي أحد أركان البار وقفَ رجلُ شرطة يرتدي قميصاً دون سترة وبنطالاً بحمّلة، عيناه نصف مُغمَضَتَين، وقميصه بارزٌ من فوق بنطاله، وقِراب مسدسه موضوع على نضد البار، ومغطى بقبعته. (ربما لكي يبيِّن أنه في حالةِ قيامه بعمله) ولما كان أوزيكي يلاحظُ وضعَه العاجز، أراد أن يضحك عليه. فسحبُته بعيداً فسقطَ بقوة فوق أعلى إحدى الطاولات ملوّثة ببقايا مشروب. أحاطته فتاة بذراعيها وبدأت تراقصه، وهو ثابتٌ في مكانه طبعاً، كانت في عينيه نظرة شاردة بعيداً، وكأنه يعُدُّ الخراف.

قرَّرنا أن نغادر المربع ؛ كان شديد الصخب. انحدرنا إلى شارعٍ

twitter @baghdad_library

جانبيّ مُزيَّنٍ بأوعية الرماد، وأقفاص فارغة وقمامة العام الفائت. ارتدنا مربعاً آخر. الوضع نفسه، وربما أسوأ. هنا، والعياذ بالله، لم يكن يوجد غير مصَّاصي الأير، غالبيتهم من البحَّارة. بعضهم كان يرتدي تنانير. شققنا طريقنا بصعوبة وسط الملاحظات الساخرة وصيحات الاستهجان.

قال أوزيكي " غريبٌ كم تغيَّرتْ منطقة فيليج ؛ أصبحتْ أشبه بثقب طيز هائل الحجم، أليس كذلك؟ "

" ما رأيك أن نذهب إلى داخل البلدة؟ "

وقفَ برهةً وهرَشَ رأسه. كان جليّاً أنه يفكِّر.

غمغم، ناقلاً يده من رأسه إلى ملتقى فخذيه، " نعم، الآن تذكَّرت. هناك مكان هادئ ممتع ارتدْتُه ذات مرة... صالة للرقص، وأضواء خافتة... وليس مُكلفاً كثيراً أيضاً "

في تلك اللحظة بالذات اقتربتْ سيارة أجرة، وتوقَّفَتْ بجوارنا مباشرة.

" أتبحثان عن مكانٍ معيَّن؟ "

قال أوزيكي، ولا يزال يهرشُ، ويفكِّر، " نعم "

" ادخلا! "

دخلنا. انطلقت سيارة الأجرة، كالصاروخ. لم نعطِه أي عنوان. ولم تعجبني تلك الطريقة في الانطلاق - إلى جهةٍ مجهولة.

لَكَزتُ أوزيكي. " إلى أين نحن ذاهبون؟ "

لكنَّ السائق هو الذي أجاب " على مهلك، سوف تعرف. ويمكنك أن تثقَ بي ؛ إنه ليس مَرْبعاً مغشوشاً "

قال أوزيكي " ربما لديه شيء خاص ". كان يتصرَّفُ وكأنه مفتون.

توقّفنا عند بناء شاهق في الويست ثيرتيز. ومضَ في ذهني أنه لا يبعد كثيراً عن الماخور الفرنسي الذي أصبت فيه للمرة الأولى بالسيلان. كان الحيّ موحشاً – يعجُّ بالمخدرات ومجمِّد، فاقد الذاكرة. كانت القطط تجوسُ المكان شبه ميّتة لا تكادُ تحملها قوائمها. تفحّصتُ المبنى بنظري. لم أسمع أي موسيقى ناعمة صادرة من النوافذ المغلقة.

قال السائق " اقرعا الجرس وقولا للواقف عند الباب إني أرسلتكما. ثم قدَّمَ لنا بطاقته لكي نُبرِزها له.

طلبَ دولاراً زيادة مقابل المعلومة التي أمدَّنا بها. أراد أوزيكي أن يناقش هذه النقطة. لماذا؟ تساءلتُ. ماذا يهمّ دولار زيادة؟ " قلت " هيا، إننا نضيِّعُ الوقت. هذه المرة يبدو المكان أصيلاً "

قال أوزيكي، محدِّقاً إلى سيارة الأجرة المبتعدة وإلى ذلك الدولار الزائد، " ليس هذا هو المكان الذي كنتُ أتصوَّره "

" ما الفرق؟ إنه عيد ميلادك، أتذكر؟ "

قرعنا الجرس. ظهر الواقف عند الباب، فأبرزنا البطاقة (كائنين من القذرين من سهوب نبراسكا). قادنا إلى المصعد وصعدنا – ما يُقاربُ الثمانية طوابق أو العشرة (أصبحَ الهروبُ من النوافذ أمراً غيرَ واردٍ الآن!). انزلقَ البابُ منفتحاً دون إصدار ضجة، وكأنه مُشحَّم بالسمن. ذُهلتُ للحظة. أين نحن – أفي سماء الله؟ النجومُ في كل مكان – جدرانٌ، سقف، أبواب، نوافذ. إنها جنّات النعيم، أعانني الله؟ وهذه المخلوقات المحوِّمة، المنزلقة، التي ترفلُ بالحرير والأثواب الناعمة، نهمة وشفافة، وكلها أذرع ممدودة لتُرحِّبَ بنا. أي شيء أشد فتنةً من ذلك؟ كانت الحوريات، ومن خلفهن نجوم منتصف الليل. أكانت تلك الموسيقا

twitter @baghdad_library

هي التي جذبتْ أذني أم الرفرفة المنتظمة لأجنحة الملائكة؟ كأنها تتناهى من بعيد - حذرة، مكتومة، سماوية. قلتُ في نفسي هذا ما يستطيعُ المال أن يشتريه، وما أروع الحصول على المال، المال كما أفهمه، مالُ أي شخص. أيها المال، أيها المال... يا سمائيَ الزرقاء!

قادتنا اثنتان من أشد الحوريات إسلاميّةً - كان خليقاً بمحمَّد نفسه أن ينتقيهما لنفسه - اقتحمنا طريقنا بخطى خرقاء إلى موقعِ المرح، حيث كل شيء يسبحُ في زُرقةٍ مُعتمة، كضياء آسيا آتٍ من خلال وعاءٍ لحفظ السمك مُهشَّم. كانت هناك مائدة في انتظارنا ؛ عليها مُدَّ مفرشُ طاولة من الدمسق الأبيض وَضِعَتْ في منتصفها مزهريةٌ تحتوي وروداً بلونٍ زهريّ باهتْ، وروداً حقيقية. وقد أُضيفَ إلى بريق المفرش الانعكاس المتلألئ للنجوم في الأعالي. وكانت هناك نجومٌ في عيون الحوريات أيضاً، وفي أثدائهنّ، غير أنها محجوبة قليلاً، وكأنها أكياسُ صغيرةٌ ذهبيّةٌ تتفجّر بعصير النجوم. حتى حديثهنَّ كان نجميّاً - غامضاً لكنه حميم، يداعب ولكنه ناء. كعصيدةٍ متلألئة، مُطعَّمةٍ بمذاقِ الخروب والألوة[52] أصول الأتيكيت. وسط ذلك كله سمعتُ كلمة شمبانيا. أحدهم كان يطلب شمبانيا. شمبانيا! ماذا كنا إذن، دوقَين؟ ومرَّرتُ إصبعي بخفّة على ياقة قميصي المهترئة.

كان أوزيكي يقول " طبعاً! فلتكن شمبانيا، ولِمَ لا؟ "

غمغمَ الواقف إلى يسبره " وربما مع قليلٍ من الكافيار؟ "

" طبعاً! وكافيار أيضاً! "

هنا ظهرت الفتاة التي تبيع السجائر، وكأنما من بابٍ سرّي. وعلى الرغم من أنه كان ما يزال في جيبي بضع سجائر رخوة، وعلى الرغم من

أنَّ أوزيكي كان لا يُدخِّن إلا السيجار، إلا أننا اشترينا ثلاث علب من سجائر ذات العقب الذهبي لأنَّ اللون الذهبي يتماشى مع النجوم، والأضواء الخافتة، والقيثارات السماوية التي كانت تعزف في مكانٍ ما خلفنا أو حولنا، الله وحده كان يعلم من أين، موسيقا شديدة الكآبة والضخامة، والحذر وما فوق أثيرية.

كنتُ بالكاد تذوَّقت الشمبانيا حين سمعت الاثنتين تسألان في وقت واحد، وكأنما عبر حنجرة وسيط روحاني - " هل ترقص؟ "

نهضنا لنقف على أقدامنا وكأننا حيوانا فقمة مُدرَّبَين، أنا وأوزيكي. طبعاً نرقص، ولم لا؟ لا أحد منا كان يعرف كيف يحرِّك قدميه. كانت الأرضية مصقولة صقلاً عالياً حتى حسبتُ أني أتنقَّل على زيت معدني. كانتا ترقصان ببطء، ببطءٍ شديد، وجسداهما الدافئان، المُنديّان - مغطيان كليهما بغبار الطلع وغبار النجوم - مضغوطَين على جسدينا، وعضواهما يتماوجان كنباتات مطاطيّة. كم كان مُسكراً العطر المنبعث من عضويهما الأملسين، الناعمين! لم تكونا ترقصان بل تتلاشيان بين أذرعنا.

عدنا إلى الطاولة وتناولنا المزيد من الشمبانيا اللذيذة الفوّارة. وطَرَحَتا علينا بضعة أسئلة مؤدبة. هل نحن في المدينة منذ وقت طويل. ماذا كنا نبيع؟ ثم - " ألا ترغبان في أن تأكلا شيئاً؟ "

على الفور بدت أنَّ نادلاً بملابسه الكاملة كان إلى جانبنا. (إلا فرقعة أصابع هنا، ولا إيماءة بالرأس أو بالأصابع: كل شيء يعمل بالرادار). الآن هناك لائحة طعام ضخمة تحدِّق إلى وجوهنا. كان قد وضعَ واحدة بين يدي كل واحد منا، ثم عاد إلى وضعية الانتباه.

twitter @baghdad_library

واستعرضت الآنستان أيضاً اللائحة. كان واضحاً أنهما جائعتان. ولكي تريحاننا أكثر قامتا بطلب الطعام لنادلهما أيضاً.

كانت لديهما حاسّة شم حسّاسة للطعام، تينك المخلوقتين الرقيقتين يجب أن أعترف بأنَّ الأطعمة بدت لذيذةِ الشكل: أصداف، وكركند، ومزيدٍ من الكافيار - سُفرة شهية جداً.

لاحظتُ أنَّ أوزيكي يرسمُ تعبيراً غريباً على وجهه. بل إنه أصبح أشدّ غرابة حين عاد النادل مع دلوٍ جديد من الشمبانيا (تمَّ طَلَبَه بالرادار) لكنه كان أكثر إنعاشاً، وتلألؤاً، من الزجاجة الأولى الضخمة.

هل نرغب في أي شيء آخر؟ قال هذا صوتٌ من المؤخرة، صوتٌ مثقّف دمث، مُدرَّب من المهد.

لم يُجِبْ أحد. كانت أفواهنا محشوّةً. وتراجع الصوت داخل الظلال الفيثاغورثية.

وسط تناولنا لتلك الوجبة اللذيذة استأذنَتْ إحدى الفتيات بالمغادرة لأنَّ لديهاً فقرة يجب أن تقدمها. وعادت إلى الظهور وسطَ الحَلَبة تحتَ بقعةٍ من الضوء البرتقالي. أشبه بمطواة جيب: لم أفهم كيف نجحتُ في أداء تلك الالتواءات ؛ مع الكركند والكافيار والشمبانيا. التي تدور في كرشها. كانت أفعى أصْلَة عاصِرة تلتهمُ نفسها.

بينما هذا العرض يجري كانت الفتاة الجالسة على المائدة تُمطرنا بالأسئلة. دائماً بذلك الصوت الناعم، المُلطَّف، العذب، ولكن لاحظتُ أنَّ كل سؤال كان أشدَّ صراحة، وإيجازاً من سابقه. ومن الواضح أنَّ ما كانت ترمي إليه هو المفتاح المؤدي إلى ثروتنا. ماذا نعمل بالضبط لنكسبَ عيشنا؟ وجالت عيناها مستكشفةً على مظهرنا الخارجي ؛ كان فيه

تناقضٌ حيَّرها، إذا صحَّ القول. أم أننا كنا في حالةٍ قصوى من الرضا السعيد، ومن إغفال العوامل الأرضية التي دخلت على الوضع؟ ابتسامةَ أوزيكي الواسعة (الغامضة)، وأجوبته المرتجاة، العَرَضيّة، أثارتْ غضبها.

صببتُ انتباهي على المتلوّية. دَعْ أوزيكي يُديرُ هيئة السؤال والجواب!

هنا وصلَ العرض إلى تلك النقطة الحرجة حين توجَّبَ مُحاكاة الرعشة الجنسية. بطريقةٍ مهذَّبة، طبعاً. كنتُ أحملُ قَدَحَ الشمبانيا بيد وشطيرة الكافيار بالأخرى. وكل شيء كان يسير سيراً رخيّاً، حتى الرعشة الجنسية التي تجري على الحلبة. النجوم نفسها، الزُرقة المُعتمة نفسها. والجنس المكبوت نفسه الذي يصدر عن الغرفة الموسيقية، النادل نفسه، مفرش الطاولة نفسه. وفجأةً انتهى. صوت تصفيق ضعيف، وانحناءة أخرى، وهل هي عائدة إلى مائدة الاحتفال، والمزيد من الشمبانيا، دون شك، ومزيد من الكافيار، ومزيد من عصي النقر على الطبل. آه، ليت في الإمكان عيش الحياة بهذه الطريقة على مدار الأربع والعشرين ساعة! عندئذٍ كنتُ أتعرّق بغزارة، وشعرتُ برغبةٍ مُلحَّة في نزع ربطة عنقي (قال صوتٌ خافت رفيع من داخلي " لا تفعل هذا! ")

كانت واقفة عندئذٍ عند الطاولة. قالت " بإذنكما، سأعود بعد قليل"

وطبعاً أذنّا لها. فبعد أداء نمرة كتلك عليها دون شك أن تتبول، وتتبودر، وتنتعش قليلاً. سوف يتبقّى طعام (نحن لسنا ذئاب)، وهناك الشمبانيا، ونحن.

twitter @baghdad_library

من جديد عَزَفَتْ الموسيقا، في مكانٍ ما في زُرقة منتصف الليل، خافتة، حميمة، آسرة، تهمسُ مستغيثة، موسيقا طيفيّة هبّتْ من مركز الغدة التناسلية. قمت بنصف حركة نهوض على قدميّ وحركتُ شفتيّ. وكم دُهشت لأنها لم تتزحزح من مكانها، ملاكنا الوحيد. قالت إنَّ مزاجها ليس على ما يرام. جرَّبَ أوزيكي سِحْرَه. الإجابة نفسها. بل أشدُّ اقتضاباً. وتراجعت نحو صمتٍ مُطبق.

تابعتُ وأوزيكي الأكل والشرب. كان النُدُل قد كفّوا عن إزعاجنا. ولم تعُد تأتينا دلاء الشمبانيا دون سابق طلب. وأخذت الموائد من حولنا تخلو من الرواد. وسكتتْ الموسيقا تماماً.

ثم نهضتْ الصامتة على عَجَلْ واندفعَتْ مبتعدةً حتى دون استئذان.

علّقَ أوزيكي، وكأنما مخاطباً نفسه، " قريباً ستأتي الفاتورة "

قلتُ " ثم ماذا عندئذ؟ أليس معك ما يكفي من النقود لتدفع؟ "

قال، مبتسماً وكاشفاً عن أسنانه، " حَسَبْ "

بالفعل، كما قال، ظهرَ النادلُ بزيِّه الكامل، والفاتورة في يده. أخذها أوزيكي، ونظر إليها مُطوّلاً متلكّئاً، وقام بجمع أرقامها مرات عدة، ثم قال للنادل: " أين أجد المدير؟ "

قال النادل، وقد تبدّلتْ تعبيرات وجهه، " اتبعني "

قال أوزيكي، ملوِّحاً بالفاتورة وكأنها برقيةٌ قادمةٌ من الجبهة، "سأعود حالاً "

سواءُ أعادَ حالاً أم بعد ساعة، ما الفرق؟ لقد كنتُ شريكاً في الجريمة. لا مفرّ. انكشفَتْ اللعبة.

حاولت أن أتكهّن كم ابتزّوا منا. ومهما كان المبلغ كنتُ أعرفُ أنه

ليس في حوزة أوزيكي. لزمتُ مكاني كسنجابٍ كامنٍ في جحره، في انتظار أن ينطلق الفخ. شعرتُ بالظمأ، فمددتُ يدي لأتناولَ الشمبانيا وإذا بنادلٍ آخر، يرتدي قميصاً دون سترة، يقترب ويبدأ بتنظيف المائدة. أولاً أخذ الزجاجة. ثم أزال البقايا. ولم يغفل عن فُتاتةٍ واحدة. وأخيراً انتزع مفرش الطاولة أيضاً.

تساءلتُ للوهلة الأولى إنْ كان أحدهم سينتزع الكرسي من تحتي - أو سيضع مكنسةً في يدي ويأمرني بمباشرة الكنس.

حين ترتبك تبوَّل. فكرةٌ جيدة، قلت هذا لنفسي. بهذه الطريقة قد ألمح أوزيكي.

وجدتُ المرحاض في آخر الرواق. بعد المصعد مباشرة. كانت النجوم قد خَبَتْ. لم تعُد هناك سماءٌ زرقاء؛ مجرَّد واقع يومي، مبتذل - مع لحية نامية. في طريق العودة لمحتُ أربعة رجال أو خمسة متكتِّلين في إحدى الزوايا. بدوا مرعوبين. كان رجلٌ ضخمُ الجثة أقرب إلى البهيمة ويرتدي زياً رسمياً يهيمن عليهم من فوق. كان في مظهره كل مواصفات الملاكم المحترف.

ولكن لا أثرَ لأوزيكي.

عدتُ إلى الطاولة وجلست. حينئذٍ كنتُ أشدَّ ظمئاً من ذي قبل. كان يمكن لكأسٍ من مياه الصنبور العاديةِ أن يرويني، لكني لم أجرؤ على طلبه. كانت الزرقة قد استحالتْ إلى جمر. بات في وسعي عندئذٍ أن أميِّز الأشياء بوضوحٍ أشدّ. كان شيئاً أشبه بالحلم، حيث الحواف مهترئة.

رحتُ أتساءلُ " ماذا يفعل؟ هل يحاولُ أن ينفد بجلده؟ "

ارتعشتُ لدى تفكيري فيما يمكن أن يحدث لنا إذا ما تولّى ذلك الوحش بالزيّ الرسمي أمرنا.

twitter @baghdad_library

مرَّتْ نصف ساعة كاملة قبل أن يعود أوزيكي إلى الظهور. لم يبدُ عليه أنه تلقَّى العقاب الذي خمَّنتُ أنه سيناله. في الواقع، كان تعبير وجهه يتراوح ما بين الابتسام والقهقهة.

قال " هيا بنا، كل شيءٍ تمَّتْ تسويته "

قفزتُ واقفاً على قدميّ. سألني، ونحن نعدو صوب غرفة حفظ المعاطف ",كم دفعت؟ "

" خمِّنْ! "

" لا أستطيع "

قال " حوالي المئة "

" لا! "

قال " انتظرْ، انتظرْ حتى نخرج "

بدا المكانُ عندئذٍ أشبه بمعملٍ للأكفان، لا تحوم فيه إلا الأشباح. ربما في وَضَحِ النهار يبدو أسوأ. وتذكَّرتُ الأشخاص الذين شاهدتهم متكوِّمين في الزاوية. تساءلتُ كيف سيبدون - بعد أن تتمّ معالجتهم.

حين خرجنا إلى العراء كان الفجر يبزغ. لم يبدُ في الأفق غير حاويات قمامة تفيضُ بما فيها. حتى القطط اختفتْ. توجَّهنا بسرعة إلى أقرب محطة قطار نفقي.

قلتُ " والآن قُل لي، كيف نجحتَ في معالجة الأمر؟ "

قهقه. ثم قال " لم يُكلِّفنا بنساً واحداً "

وطفقَ يشرح لي ما حدث في مكتب المدير. قلتُ في نفسي " بما أنك رجلٌ مجنون أنت بارع كسوط! "

إليك ما حدث... بعد أن أخرج ما معه من نقود - لم تتجاوز

الاثني عشر أو ثلاث عشر دولاراً - عرَضَ أن يُحرِّر شيكاً قابلاً للصرف. وطبعاً ضحك المدير في وجهه. وسأل أوزيكي إنْ كان قد لاحظَ أي شيءٍ وهو في طريقه إلى غرفة المكتب. كان أوزيكي يعلم جيداً قصده." تقصد أولئك الرجال الرابضين في الركن؟ ". نعم، هم أيضاً عرضوا أن يدفعوا بشيكاتٍ لا رصيد لها. وأشار إلى الساعات والخواتم الموضوعة على طاولة مكتبه. هذه أيضاً فهمها أوزيكي. ثم اقترحَ، ببراءة الحَمَل، أن يحتجزونا نحن الاثنين حتى تفتح المصارف أبوابها. تكفي مكالمةٌ هاتفيةٌ للتأكُّد مما إذا كان الشيك قابلاً للصرف أم لا. تبِعَ ذلك استجوابُ قاسٍ. أين يعمل؟ ما هو عمله؟ منذ متى يُقيمُ في نيويورك؟ أهو متزوج؟ هل لديه حساب توفير أيضاً؟ وما إلى ذلك.

في رأي أوزيكي أنَّ ما بدَّلَ الأمر لصالحه كان بطاقة الدعوة التي قدَّمها للمدير. هذه ودفتر الشيكات كانا يحملان اسمَ مهندسٍ معماريٍّ بارز، وأحد أصدقاء أوزيكي. ومنذ تلك اللحظة تراخى الضغط. أعادوا إليه دفتر شيكاته فأسرع أوزيكي بتحرير شيكٍ - يتضمَّنُ إكراميّةً سخيّةً للنادل! قال " أمر غريب، ولكن تلك اللمسة الصغيرة - أقصد البقشيش - أثَّرَت فيه. لو كنتُ في مكانه لانتابني الشك ". ورسم ابتسامته الواسعة المعتادة، بالإضافةِ إلى بعض اللعاب هذه المرة. " وهذا كل ما حدث "

" ولكن ماذا سيقول صديقك حين يكتشف أنك وقَّعتَ باسمه على الشيك؟ "

كان جوابه الهادئ " لا شيء. لقد مات. قبل يومين "

طبعاً، أوشكتُ أن أسأله كيف تصادفَ وكان دفتر شيكات صديقه في حوزته، لكني قلتُ لنفسي - " خراء! إنَّ مَنْ يكون مجنوناً وماكراً في وقتٍ واحد يمكنه أن يُعلِّل كل شيء. انسَ الأمر! "

twitter @baghdad_library

وهكذا قلتُ بدل ذلك " إذن فأنت تعرفُ المسألة كلها ؟ "

أجاب " يجب أن أفعل. في هذه المدينة، على أي حال "

بينما كنا ننطلق في النفق مالَ عليَّ وصرخَ في أذني الصمَّاء - "كانت حفلةَ عيد ميلاد لذيذة، أليس كذلك؟ هل أعجبتكَ الشمبانيا ؟ أولئك الناس بسطاء... أي إنسان يمكن أن يتقبّلهم "

في بورو هول، حيث خرجنا إلى الهواء الطلق مرةً أخرى، وقف ينظر إلى السماء، وأضحى وجهه شعاعاً عريضاً واحداً من السرور والرضا. وصاح " **كوكادوودلدووا** "، ثم خشخشَ بالقطع النقدية التي في جيبه. " ما رأيك في تناول طعام الإفطار في مطعم جو؟ "

قلت " رائع، لحم مقدَّد وبيض ستكون وجبةً تناسبني "

حين كنا نخطو داخل المطعم قال - " إذن فأنتَ تعتقد أنه كان تصرفاً ماهراً مني؟ إنه لا شيء. كان يجب أن تعرفني وأنا في مونتريال. أقصد، حين كنتُ أدير ماخوراً "

فجأةً أصابني الرعب. النقود... مَنْ لديه نقود ؟ لن أمرَّ **بذلك** كله مرةً ثانية.

قال " ما الذي يُقلقُكَ؟ طبعاً معي نقود "

" أقصد نقوداً سائلة. ألم تقُل أنك وزَّعت الأوراق المالية التي كانت في جيبك؟ "

قال " كلام فارغ، لقد أعادوها إليّ حين وقَّعتُ على الشيك "

استرددتُ أنفاسي. قلتُ " يا إلهي، هذا يُغيِّرُ كل شيء، أنت لستُ ماهراً، أنت ساحر "

*

ثم لم نعُد نتحدث إلا عن باريس. باريس ستحلُّ مشاكلنا كلها. حتى ذلك الحين على الجميع أن ينهمكوا في العمل. ستيسيا سوف تصنعُ دُمى وأقنعةَ الموت ؛ ومونا ستبيعُ دَمَها، حين وجدتْ أنَّ دمي لا قيمةَ له.

في تلك الأثناء، بما أننا كنا عَلَقات منهمكة في العمل، أبدى بلهاءُ جُدُد استعدادهم لكي يُبتَزّوا. أحدهم كان هندياً، من الشيروكي. هنديٌ تافه - دائماً سكران وقذر. لكنه حين يكون سكران يُبدِّدُ نقوده... وقد وَعَدَ شخصٌ آخر بأن يدفع قيمة الإيجار في كل شهر، وترك قيمة القسط الأول داخل مغلّف، تحت البوابة قبل بضعة أيام، بينما كنا مستغرقين في النوم. ثم هناك جرّاحٌ يهودي، وأيضاً يرغبُ في أن يمدَّ يد المساعدة، وخبير في رياضة الجودو. وهذا شيء غريب بالنسبة إلى شخصٍ في منزلته، أذهلني. وهو يصلح عند وضع اللمسة الأخيرة. ثم هناك قاطع تذاكر بعثناه من بين الموتى. كل ما كان يطلبه في مقابل عطاياه شطيرةً بين حينٍ وآخر على أن تعمل إحداهما بش-بش عليها.

خلال فترة انفجار الهياج الجديدة هذه أعدنا تزيين الجدران، وأصبح المكان بعد ذلك أشبه بمتحف مدام توسو، حيث لا شيء غير هياكل عظميّة، وأقنعة موت، ومهرِّجين منحلّين، وشواهد قبور وآلهة مكسيكية - وكلها ملوَّنة بألوان شنيعة.

وبين حين وآخر كانتا تصابان بنوبات قيء، بفعل الإثارة أو بسبب ما بذلتاه من جهودٍ مسعورة. أو بسبب الهرولة. وتوالت الأحداث، كما في **الرامايانا**[٥٣].

وذات يوم، وَمَضَتْ في ذهني فكرةٌ لامعة، بعد أن سئمتُ كل ذلك

twitter @baghdad_library

النشاط العقيم، وقررتُ دون سببٍ معيّنٍ أنْ أقابلَ شقيقَ مونا - ليس المقيم في ويست بوينت، بل الآخر، الأصغر سناً. كانت دائماً تصفه بأنه شديد الصدق، والاستقامة. ولا يعرفُ الكذب، كما قالت ذات يوم.

نعم، لماذا لا نُجري حواراً حميماً؟ وبضع وقائع واضحة، وبضعة حقائق باردة سوف تشكِّلُ فترةً فاصلةً ممتعة وسط سيلِ الوهم والخيال المتدفق.

وهكذا قمتُ بزيارته. دُهشتُ إذ وجدته شديد اللهفة إلى رؤيتي. وقال إنه طالما تاقَ إلى زيارتي لكنَّ مونا لم تكن توافقُ على ذلك. بدا من صوته عبر الهاتف أنه مشرقٌ، وصريح، وبصورةٍ عامة " **سَمْباتيك** " sympathique، وصبيانيّ، حين قال إنه يأملُ في أن يصبح محامياً قريباً.

منذ النظرة الأولى على متحف العجائب الذي كنا تسكنه، أُصيبَ بالذعر ؛ وأخذ يتجول فيه كالمأخوذ، يُحدِّق على هذا الشيء وذاك، وهو يهزُّ رأسه استنكاراً، وأخذ يردِّد ويُكرِّر " إذن هكذا تعيشون؟ هذه فكرتُها هي، دون شك. يا إلهي، لكنها شخصية غريبة الأطوار "

قدَّمتُ له كأساً من النبيذ لكنه أبلغني أنه لا يَقرَب الخمر. إذن قهوة؟ كلا، يكفي كأس من الماء.

سألته إنْ كانت هكذا دائماً. كجواب قال لي إنَّ لا أحد في العائلة يعلم الكثير عنها. لطالما كانت منفردة بنفسها، ودائماً متكتِّمة، ودائماً تتظاهر بأنَّ الأشياء هي خِلاف ما هي عليه. لا شيء غير أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب.

" ولكن قبل أن تلتحق بالجامعة - كيف كانت؟ "

" **الجامعة**؟ إنها لم تُكمِل المرحلة الثانوية أبداً. لكنها تركت المنزل حين بلغت سن السادسة عشرة "

ألمحتُ بأشدّ ما استطعتُ من لباقة إلى أنَّ الظروف في المنزل كانت ربما تبعثُ على اليأس، ثم أضفتُ " لعلَّها لم تتمكن من التعايش مع زوجة أب "

" **زوجة أب**؟ أقالت إنَّ لديها زوجة أب؟ بنت الحرام! "

قلت " نعم، إنها دائماً تُصرُّ على أنها لم تستطع أن تتواءم مع زوجة أبيها. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت تحبُّ والدها حباً جماً. هكذا تقول. كانا متقاربين جداً "

" وماذا أيضاً؟ "، وضغطَ على شفتيه بشدَّة من فرط الغضب.

"أوه، أشياء كثيرة. أولاً، أختها كانت تكرهها. أما لماذا فلا أعلم"

قال " لا تزد. كفى! الأمر هو بالعكس. بالعكس تماماً. لقد كانت أمي رقيقة بأشد ما يمكن للأم أن تكون رقيقة. كانت أمها الحقيقية، وليس زوجة أبيها. أما والدي فكان يستشيط غضباً منها إلى درجةِ ضربها دون رحمة. لسببٍ رئيسيّ هو كذبها... أما عن أختها: نعم. إنها شخص طبيعي، تقليدي، وشديدة الوسامة أيضاً. ولم تكن تنطوي على أي قدرٍ من الكراهية. على العكس، كانت تبذل كل طاقتها لتجعل الحياة أسهل علينا جميعاً. في حين لم يكن في استطاعة أحد أن يتعاملَ مع بنت حرام كهذه ؛ كانت تريد أن تسير الأمور على مزاجها. وحين لا يحصل هذا تُهدِّد بالهرب "

قال " أنا لا أفهم. أنا أعلم أنها كاذبة بالفطرة، ولكن... لماذا تشوِّه الأشياء تشويهاً كاملاً، وتقلبها رأساً على عقب؟ ماذا يمكن أن يكون ما تحاول أن تبرهن عليه؟ "

أجاب " إنها دائماً تعتبر نفسها أرقى منا جميعاً. نحن شديدو

twitter @baghdad_library

الابتذال، والتقليديّة، بالنسبة إلى ذوقها. فهي شخصيةٌ بارزة - ممثلة، كما أعتقد. لكنها لا تتمتَّع بأي موهبة، ولا بأقلّ قدر. أسلوبها مُغرَق في المسرحيّة، إذا فهمتَ ما أعني. ولكن يجب أن أعترف بأنها كانت دائماً تعرف كيف تترك أثراً طيباً على الآخرين. كانت تتمتَّع بموهبة طبيعية في استيعاب الناس. وكما قلت لك، نحنُ نكاد لا نعرف شيئاً عن حياتها منذ أن هربت من السجن. وقد لا نراها في العام إلا مرة واحدة، هذا إذا رأيناها. وهي دائماً تأتينا مُحمَّلةً بالهدايا، كالأميرة. ودائماً تصطحبُ معها حزمةً من الأكاذيب عن المنجزات العظيمة التي حقَّقتها. ولكن لا يمكن أن تضع إصبعك على ما تفعله "

قلتُ " هناك شيءٌ أودُّ أن أسألك عنه. قُل لي، أليس قومك من اليهود؟ "

أجاب " طبعاً، لماذا تسأل؟ هل حاولت أن تدفعك إلى الاعتقاد أنها ليست يهودية؟ كانت الوحيدة التي تمقت كونها يهودية. وكان ذلك يثير جنون أمي. أظن أنها لم تخبرك أبداً عن اسمها الحقيقي؟ لقد غيَّره والدي لدى وصوله إلى أميركا. وهو يعني الموت في اللغة البولونية "

هنا ألحَّ عليه سؤال، وكان محتاراً كيف يصيغه. وأخيراً نطقه، ولكن وهو متورِّد الوجه خَجَلاً.

" هل تُسبِّبُ لك مشاكل؟ أعني، هل تعاني من مشاكل مادّية؟ "

أجبتُ " أوه، لدينا مشاكلنا الخاصة.. ككل المتزوجين. نعم، الكثير من المشاكل. ولكن ليس من شأنك أن تقلق حولها "

" هل هي تُصاحبُ... رجالاً آخرين؟ "

" كلا.. ا.. ا، ليس بالضبط ". يا إلهي، لو كان يعلم!

" هي تحبني وأنا أحبها. مهما كانت أخطاؤها، ليس هناك غيرها - في حياتي "

" ما الأمر، إذن؟ "

احترتُ كيف أصيغُ كلامي دون أن أصدمه بشدة. قلت له إنَّ من الصعب شرح الأمر.

قال " لستُ مضطراً إلى كبح نفسك ؛ أستطيعُ تحمُّل الأمر "

" حسن... في الواقع، نحن ثلاثة نعيشُ معاً. ذاك الشيء الذي تراه معلّقاً على الحائط - ذاك من أعمال الشخص الثالث. إنه فتاة في مثل سن أختك تقريباً. هي شخصية غريبة الأطوار يبدو أن أختك تؤلّهها "(بدا غريباً قولي " أختك ") " أحياناً أشعرُ أنها تفكّر في هذه الصديقة أكثر مما تفكّر فيّ. أصبح الأمر لا يُحتَمَل، إذا فهمتَ ما أقصد"

قال " فهمت. ولكن لماذا لا تطردها؟ "

" هنا مربط الفرس. أنا لا أستطيع. هذا لا يعني أني لم أحاول لكني لم أنجح. إذا غادرت، ستذهب أختك أيضاً "

قال " لستُ مندهشاً. هذا جديرٌ بأن يصدر عنها. هذا لا يعني أني أعتقد أنها سحاقيّة، أنت تفهم. إنها تحب التورُّط في إقامة علاقات، في أي شيء مثير "

" ما الذي يجعلك متأكداً من أنها ليست على علاقة حب مع الشخص الآخر؟ أنت نفسك تقول إنك لم ترها خلال الخمس سنوات الأخيرة... "

قال " إنَّ ما أعرفه هو أنها مرغوبةٌ من الرجال "

" تبدو متأكداً كثيراً "

twitter @baghdad_library

" فعلاً. ولا تسألني عن السبب. أنا فقط كذلك. لا تنسَ، سواء اعترفتْ بذلك أم لا فإنَّ دماءً يهودية تجري في عروقها. واليهوديات مخلصات، حتى حين يكنَّ غريبات الأطوار وشكسات، كهذه. إنه في دمهن... "

قلت " يسعدني أن أسمع هذا. آمل فقط أنْ يكونَ صحيحاً "

" أتعلم فيمَ أفكِّر؟ يجب أن تأتي لزيارتنا، وتتحدث مع أمي. سوف تسعد كثيراً بلقياك. إنها لا تعرف الرجل الذي تزوجته ابنتها. على أي حال، ستقيِّمُكَ بصراحة. وهذا سيريحها "

قلت " قد أفعل ذلك. الحقيقة لا تؤذي. ثم إني تواَّقٌ إلى معرفةِ شكلِ أمها الحقيقية "

قال " عظيم، فلنحدِّد تاريخاً "

ذكرتُ له واحداً، يقعُ بعد ذلك ببضعة أيام. وتصافحنا.

قال، وهو يغلق البوابة خلفه. " إنَّ ما هي بحاجة إليه هو ضربٌ مبرِّح. ولكن لا أظنك النوع المناسب لفعل ذلك، أليس كذلك؟ "

*

بعد ذلك ببضعة أيام قرعت على بابهم. كان الوقت مساءً وقد مضتْ ساعة تناول العشاء. فتح أخوها الباب. (لم يتذكَّر كيف أنه قبل ذلك ببضع سنوات، حين جئتهم لأرى إنْ كانت مونا تقطن هناك أم أنَّ العنوان زائف، صفقَ البابَ في وجهي) هذه المرة انتقلتُ إلى الداخل. شعرتُ برعشة. كم حاولت أن أتخيَّل شكل الداخل، داخل منزلها هذا، أن أتصوَّرها وسط عائلتها، كطفلة، كفتاة يافعة، وكامرأة ناضجة!

تقدَّمَتْ أمها لترحِّبَ بي. إنها المرأة نفسها التي لمحتُها قبل سنوات

مضت - تنشر الغسيل. إنها الشخص الذي وَصَفْتُهُ لمونا فإذا بها تضحك في وجهي (" تلك كانت خالتي! ").

كانت الأم تحمل تقاسيم وجه حزينة، مُثقلة بالهموم، وكأنها لم تضحك أو تبتسم منذ سنوات. كان في صوتها لَكْنة لكنَّه كان صوتاً رخيماً. ومع ذلك، فهو لا يشبه في شيء صوت ابنتها. ولم أرَ أي تشابه أيضاً في قسماتهما.

كان خليقاً بها - لا أفهم لماذا - أن تدخلَ في صلب الموضوع مباشرة. هل كانت الأم الحقيقية أم زوجة الأب؟ (كان ذلك هو مصدر الهمّ الأكبر) ذهبت إلى الخوان وأخرجت منه بضع وثائق. إحداها كانت وثيقة زواجها. وواحدة أخرى وثيقة ميلاد مونا. ثم صورة فوتوغرافية - لأفراد العائلة كلها.

اتخذتُ لي مجلساً على الطاولة ورحتُ أتفحَّصُها عن قُرب. ليس لأني اعتقدتُ أنها زائفة. لقد اهتزَّتْ مشاعري ؛ كانت تلك هي المرة الأولى التي أقبضُ فيها بيديّ على الحقائق.

دوَّنتُ اسمَ القرية التي تقعُ ضمن سلسلة الجبال الكارباثية مسقط رأس أمها وأبيها ؛ دقَّقتُ النظر في صورة المنزل الذي كانوا يعيشون فيه في فيينا ؛ حدَّقتُ طويلاً وبحبٍّ إلى صور مونا كلها، بدءاً بها وهي طفلة ذات القماط، ثم إلى الطفلة الأجنبية الغريبة ذات عقصات الشعر الأسود الطويل، وانتهاءً بريجين أو مودجسكا ذات الخمسة عشر ربيعاً التي تبدو ملابسها غريبةً شاذة، ومع ذلك نجحتْ في أن تُبرِزَ شخصيتها. وها هو والدها - الذي يحبها حباً فائقاً! إنه رجلٌ وسيم، ذو طلعةٍ متميِّزة. لعله طبيبٌ، أو وزير ماليّة، أو موسيقياً أو علاّمة

twitter @baghdad_library

متجوِّل. أما أختها، فنعم، إنها حتى أجمل من مونا، لا ريب في ذلك. لكنه جمالٌ ضائع في ضبط النفس. كانوا من عائلةٍ واحدة، ولكن واحدة تنتمي إلى عرقها، في حين أنَّ الأخرى هي ثمرةٌ بريّة أنجبتها الريح.

حين رفعتُ بصري أخيراً وجدتُ الأمَ تبكي.

" إذن قالت لك إني زوجة أبيها؟ ما الذي دفعها إلى قول هذا؟ وأني كنتُ قاسيةً معها... أني رفضت أن أفهمها. أنا لا أفهم... لا أفهم "

بكتْ بمرارة. فتقدَّمَ الأخ وأحاطها بذراعيه.

" لا تقسي على نفسك يا أمي؛ إنها دائماً غريبة الأطوار "

" غريبة الأطوار، نعم، لكن هذا... هذا يشبه الخيانة. أهي تخجل مني؟ قُل لي، ما الذي فعَلتُه لها يستدعي منها هذا السلوك؟ "

أردتُ أن أقول شيئاً يواسيها لكني لم أعثر على الكلمات المناسبة.

قالت أمها " إنني أُشفِقُ عليها. لابد أنك تقاسي الأمرَّين منها. لو لم أكن التي أنجبتُها لاعتقدتُ أنها ابنةُ امرأةٍ أخرى، وليست ابنتي. صدّقني، لم تكن كذلك وهي طفلة. كلا، كانت طفلةً طيبةً، محترمةً، ومطيعة، ومتلهِّفة لإرضاء غيرها. لم يعُد يعجبها أي شيء نقوله أو نفعله. أصبحتْ كالغريبة بيننا. حاولنا معها كل السُبُل، ولكن عبثاً "

مرةً أخرى انهارت، وضمَّتْ رأسها بين يديها وبكتْ. أخذ جسمها كله ينتفض بنوباتٍ لا يمكنُ ضبطها.

كنتُ مع فكرة الفرار بأسرع وقت ممكن. كنت قد اكتفيتُ بما سمعت، لكنَّهم أصروا على تقديم الشاي. فبقيتُ وأصغيتُ إلى قصة حياة مونا، منذ طفولتها. لم يكن فيها أي شيء غير عادي، أو مميَّز، وهذا أمر

غريب. (هناك فقط تفصيلٌ واحد صغير فاجأني. " إنها دائماً تشمخ برأسها عالياً ") بصورةٍ ما، كان من المُريح أن أعرف تلك الحقائق الحميمة. الآن أستطيع أن أضمّ وجهَيّ العُملة معاً... أما بالنسبة إلى التغيّر المفاجئ، فلم يحيّرني كثيراً. فقبل أي شيء، كان قد حدث لي أيضاً. ماذا تعرف الأمهات عن ذرّيتهن؟ هل يدعين الشخص المتمرد ليتقاسمن معه أو معها أشواقهن السرّية؟ هل يخترقن قلب الطفل؟ هل يعترفن مرةً بأنهنّ هنّ أيضاً وحوش؟ وإذا كانت الطفلةُ تخجل من سلالتها، فكيف تعلم أمها بذلك؟

بعد النظر إلى تلك المرأة، والإصغاء إليها، لم أجد فيها ما يجذبني إليها، فيما لو كنتُ أحد ذرّيتها. سِمةُ الحِداد فيها وحدها كانت كفيلةً بتنفيري منها. ناهيك عن حسّ الكِبرياء عندها. كان جلياً أنّ أبناءها كانوا طيبين معها ؛ هكذا هم الأبناء اليهود عادةً. والابنة الوحيدة هي التي تزوجت من خارج العرق وكان زواجاً ناجحاً، حمداً ليهوه. ولكن كان هناك الفرد الشاذ ؛ الشوكة في جنبها. إنّ مجرّد التفكير في ذلك يملأني بالشعور بالذنب. لقد فشلتْ ؛ أنجبَتْ ثمرةً فاسدة. وهذه الجامحة تبرّأت منها. فأي مهانة يمكنُ لأمٍ أن تعانيها أسوأ من أن تُنعَتْ بزوجة أب؟

كلا، كنتُ كلما أصغيتُ إليها اشتدّ بكاؤها ونحيبها، وازداد إحساسي بأنها لم تُكِنّ حباً حقيقياً لابنتها. فإذا كانت قد أحبّتها فإنّ ذلك قد حدث في طفولتها. إنها لم تبذل أي مجهود لتفهم ابنتها. كان في احتجاجاتها شيءٌ زائف، ما كانت تريده لابنتها هو أنْ تعود وتركع على ركبتيها وتطلب الصفح.

قالت متضرِّعةً وأنا أودِّعهم، " أحضرها إلى هنا ؛ دعها تقف هنا

twitter @baghdad_library

في حضورك وتكرِّر تلك الأشياء الشريرة، إذا جرؤتْ على فعل ذلك. بما أنها زوجتك عليها على الأقلّ أن تقدِّمَ لك هذا المعروف "

اشتبهتُ من طريقة كلامها أنها لم تقتنع البتّة بأننا متزوجان. وددتُ لو أقول " نعم، حين نأتي سوف أجلب معي وثيقة الزواج أيضاً "، لكني أمسكتُ لساني.

ثم شدَّتْ على يدي وعدَّلتْ من كلامها مُغمغمةً، " قُل لها إني نسيتُ كل شيء "

قلتُ في نفسي، إنها تتكلّم بنبرة الأم ؛ لكنها كلماتٌ جوفاء.

جلتُ في الجوار في طريقي إلى محطة L. لقد تغيَّرتْ الأشياء عمّا كانت عليه آخر مرة تمشينا فيها هنا، مونا وأنا. ووجدتُ صعوبةً في تحديدِ موقع المنزل حيثُ أسندتُها إلى الجدار ؛ والأرض البور، حيث مارسنا الجنس في الطين حتى كاد رأسانا ينفجران، لم يعُد لها وجود. ومع ذلك واصلتُ تجوالي. هذه المرة كنتُ بصُحبة مونا أخرى - الـ tragedienne (الممثلة) ذات الخمسة عشر ربيعاً التي كنتُ قد شاهدتُ صورتَها الفوتوغرافية للمرة الأولى قبل بضعِ دقائق. كم كانتْ مدهشة، حتى وهي في تلك السن الحرجة! أيُ صفاءٍ في تحديقها! شديدة الوضوح، والجِدَّة، والقوة.

فكَّرت في مونا التي انتظرتُها خارجَ صالة الرقص. حاولتُ أن أجمع الاثنين معاً. لم أنجح. تجولتُ في الشوارع الموحشة تتعلّق كل منهما بأحد ذراعيَّ. لم يعُد لأيٍ منهما وجود. وربما لا وجودَ لي أنا أيضاً.

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

كان واضحاً، حتى لأحمقٍ مخدوعٍ مثلي، أننا نحن الثلاثة لن نصل إلى باريس معاً. لذا، حين تلقَّيتُ رسالة من توني ماريلا يقول لي فيها إني يجب أن أحضَرَ لتسلُّم عملي في غضون بضعة أيام انتهزتُ الفرصة لأكشف لهما عن غايتي من ذلك. وعبرَ حديثٍ صريح لم نكن قد تبادلنا مثله منذ زمن بعيد اقترحتُ أنه ربما من الحكمة بالنسبة إليهما القيام بالقفزة حالما تسمح الموارد المالية اللازمة وتدعياني ألحق بهما لاحقاً. الآن بعد أن أصبحَ العملُ حقيقةً واقعةً أستطيعُ أن أذهبَ لأعيشَ مع أهلي وبالتالي لأوفِّر المال لنفقات سفري. أو أستطيع، إذا دَعَتْ الضرورة، أن أرسل إليهم بعض المال. في سريرتي لم أتصور أياً منا يغادر إلى أوروبا خلال الأشهر القليلة القادمة. وقد لا نغادر أبداً.

لم يكن الأمرُ يحتاج إلى قارئ للأفكار ليرى مدى ارتياحهما لأني لن أصحبهما. طبعاً حاولتْ مونا أن تحثني على ألاّ أذهب لأقطن مع أهلي. فإذا كان لابد لي من أن أذهب إلى أي مكان فرأتْ أنَّ عليَّ أن أستقر مع ألريك. فتظاهرتُ بأني سأفكِّر في الأمر.

على أي حال، بدا أنَّ حديثنا الصريح قد أمدّهما بدفعةٍ جديدةٍ من الحياة. كانتا في كل ليلة تجلبان معهما أخباراً طيبة. كل أصدقائهما،

حتى الحمقى منهم، وعدوا بجمع أجرة سفرهما. وكانت ستيسيا قد ابتاعتْ كتاباً صغيراً لتعليم المحادثة بالفرنسية:

"Madame, avez-vous une chamber a Louer ? A quell prix, s'il vous plait ? Y a-t-il de l'eau courante ? Et du chauffage central ? Oui ? C'est chic. Merci bien, madame!"

وما إلى ذلك. أو قد تسألني، هل أعرف الفرق بين une facture و l'addition؟ وأنَّ L'oeil هي مفرد كلمة عين، وأنَّ جمعها هو les yeux، أمرٌ غريب، لا تقُلْ لي! وإذا جاءتْ الصِفة sacre قبل الاسم يصبح لها معنى مختلف تماماً عمَّا إذا جاءتْ بعد الاسم. ما رأيك في هذا؟ أليس شيئاً شائقاً جداً؟ لكني لم أكن أولي أدنى اهتمام بتلك الدقائق. سوف أعرفها عندما يحين الوقت، وبطريقتي الخاصة.

على خلفيةِ دليل الشوارع الذي كانت قد اشترته توجد خريطة لخطوط المترو. هذه سحرتني. أرتني موقع مونمارتر ومونبارناس. قد تذهبان إلى مونبارناس أولاً، لأنَّ أغلب الأميركيين يجتمعون هناك. وبيَّنَتْ أيضاً موقع برج إيفل، وحديقة لوكسمبور، وسوق البرغوث، والـ abattoirs (المسالخ) ومتحف اللوفر.

سألتْ " أين المولان روج؟ "

كان عليها أن تفتش عنه في الفهرس.

" والمقصلة – أين يحفظونها؟ "

لم يسعني إلا أن ألاحظ عدد الشوارع الكبير المسمَّى بأسماء كُتَّاب. كنت أجلس وحدي وأنشر الخريطة وأتقصَّى مسار الشوارع المسمَّاة بأسماء المشاهير: رابليه، دانتي، بالزاك. ثرفانتث، فيكتور

twitter @baghdad_library

هوغو، فيّون، فرلين، هاينه... ثم أسماء الفلاسفة، والمؤرِّخين، والعلماء، والرسامين، والموسيقيين - وأخيراً المحاربين العظام. ولا نهاية للأسماء التاريخية. قلت في نفسي، إنَّ مجرد التمشية في مثل تلك المدينة ثقافة بحدّ ذاتها! تصوَّر أنك تصادفُ شارعاً أو **ساحة** أو حتى **طريقاً مسدوداً**، يحمل اسم فرسينغيتوريكس[٥٤]! (في أميركا لم أصادف أبداً شارعاً يحملُ اسم دانييل بون[٥٥]، على الرغم من أنه موجود في مكانٍ مثل داكوتا الجنوبية.

هناك شارع واحد علَّمَتْ عليه ستيسيا وعَلِقَ في ذهني ؛ الشارع الذي يقع فيه مركز الفنون الجميلة (كانت تأمل في أن تدرس هناك ذات يوم، كما قالت). اسم الشارع هو بونابارت (لم أدرك حينئذٍ أنه سيكون أول شارع جانبي سأقيمُ فيه لدى وصولي إلى باريس) وفي شارعٍ جانبي قريبٍ منه - شارع فيسكونتي - كان لبلزاك دارٌ للنشر، وهي مغامرةٌ أدَّتْ إلى تدميرهِ بعد ذلك بسنوات تلَتْ. وفي شارعٍ جانبي آخر، أيضاً يؤدي إلى شارع بونابارت، قطنَ ذات مرة أوسكار وايلد.

*

وحلَّ يوم الالتحاق بالعمل. كانت المسافة طويلة جداً إلى مكتب هيئة الحدائق العامة. كان توني في انتظاري مفتوح الذراعين.

قال " لستَ مضطراً إلى أنْ ترهق نفسك "، أي في عملي كحفَّار للقبور. " فقط حاول. لا أحد سيفرض عليك رقابة "، وصفعني بمودَّة على ظهري. " أنت قوي بما يكفي لتتعامل مع الرفش، أليس كذلك؟ أو مع عربة يد مملوءة بالقذارة؟ "

قلت " طبعاً، طبعاً أستطيع "

قدَّمني إلى كبير العمال، وأمره ألاّ يُثقِل عليّ بالعمل، ثم سار مزهواً إلى غرفة المكتب. قال لي إنني في غضون أسبوع سوف أعملُ إلى جانبه، في مكتب المندوب.

كان الرجل دمثاً معي، ربما بسبب يديَّ الناعمتين. وأوكلوا إليّ أخفَّ نوعٍ من الأعمال لأؤديه ؛ يمكن لصبيّ أن يقوم به أيضاً.

في ذلك اليوم الأول استمتعتُ أيما استمتاع. كم كان العملُ اليدويّ رائعاً! والهواء المنعش، ورائحة القذارة، والعصافير تغرِّد طوال الوقت. كان مدخلاً جديداً إلى الموت. كيف يكون إحساسُ المرءِ حين يحفر قبره بيديه؟ قلت في نفسي، من المؤسف أننا لسنا جميعاً مُلزمين بفعلِ هذا الأمر في وقتٍ من الأوقات في حياتنا. قد يشعر الإنسانُ براحةٍ أكبر وهو داخل قبرٍ حَفَرَه بيديه.

حين عدتُ إلى المنزل من العمل في مساء ذلك اليوم كانت شهيتي هائلة. وهذا لا يعني أنه كان لديَّ نقصٌ في هذا المجال. أمرٌ غريب أن أعودَ إلى المنزل من العمل، كأي رجل آخر، وأجدُ وجبةً دسمةً في انتظارِ أن ألتهمها. كانت هناك أزهارٌ على المائدة بالإضافة إلى زجاجةٍ من أجودِ الخمورِ الفرنسية. قليلون هم حفّارو القبور الذين يعودون إلى المنزل ليجدوا مثل تلك الوليمة. لقد كنتُ حفَّار قبور **فخرياً**. حفَّار قبور شكسبيريّ. **في صحتك**!

طبعاً كانت تلك هي أول وآخر وجبة من نوعها. ومع ذلك، كانت لفتةً طيِّبة. فقبل أي شيء، لم أكن أستحقُّ أي إيماءة احترام أو انتباه من أجل العمل المشرِّف الذي كنتُ أؤديه.

كان العملُ يزداد مشقَّةً كل يوم. وقد حانت اللحظة الكبرى عندما

twitter @baghdad_library

وقفتُ في قعرِ الحفرة أطيحُ بالقذارة عبر كتفي. عملٌ جميل. **حفرة في الأرض**؟ هناك العديد من الحُفَر. أما هذه فكانت حفرةً مُكرَّسَةً. حفرة خاصة، من عهد آدم قدمُس إلى عهد آدم أوميغا.

يومَ وصلتُ إلى القاع كنت بكُلِّيتي هناك. كنتُ الحفَّار والمحفور. نعم، لقد أدركتُ، وأنا هناك في قاع القبر، والمجرفة في يدي، أنَّ هناك شيئاً رمزياً يحيطُ بجهودي. وعلى الرغم من أنَّ جسد رجلٍ آخر ستحتلُّ تلك الحفرة، إلا أني شعرتُ أنها جنازتي أنا. (J'aurai un bel enterrement) كان كتاباً مضحكاً، هذا الـ " سأحصل على جنازة جيدة ". ولكن لم يكن مضحكاً وقوفي في الحفرة التي لا قرار لها يتملّكني حسٌ بالتشاؤم. لعلّي كنتُ بالفعل أحفر قبري بيدي، بالمعنى الرمزي. حسن، بعد يوم أو يومين سوف تنتهي فترتي التمهيدية. أستطيع أن أتحمَّلها. ثم أني قريباً سوف أتلقّى أول أجرٍ لي. يا له من حدث! على الرغم من أنه ليس مبلغاً كبيراً. كلا، لكني كسبته " بعرق جبيني ".

كان ذلك في يوم الخميس، ثم يأتي يوم الجمعة. ثم يوم الدفع.

في يوم الخميس، هذا اليوم المشؤوم، بدا أنَّ عنصراً جديداً يتغلغلُ في جو المنزل. لم أستطع أن أميِّز ما الذي يزعجني إلى ذلك الحد. حتماً لم يكن السبب هو أنهما كانتا مرحتين بصورةٍ شاذة. فقد كانتا كذلك في معظم الوقت. كان من الممكن التكهُّن بتصرفاتهما أكثر مما ينبغي، هذا أفضل تعبير يمكنني أن أضعه. ولكن لماذا ؟ والطريقة التي ابتسمتا بسخرية مني - ابتسامةٌ من النوع الذي يرسمه طفل يتوقُ إلى المعرفة. ابتسامة تقول - " انتظر وستعرف حالاً! ". وأشدّ ما كان يزعجني أنه لم يكن هناك ما يثيرُ حفيظتهما. كانتا راضيتين عن ذاتهما رضا لا يهتز.

في أمسية اليوم التالي، الجمعة، عادتا إلى المنزل تعتمران بيريه. قلت في نفسي " ماذا ألمَّ بهما ؟ أتظنان أنهما في باريس منذ الآن؟ ". تلكّأتا بشكلٍ مبالغٍ فيه في الاغتسال. ومن جديد أخذتا تغنيان كالمجانين - واحدة وهي في المغطس، والأخرى، وهي تحت الدش، "دعني أناديك بحبيب قلبي، أنا عاشقة... أووو-وو-وو "، وتبِعَ ذلك " Tipperary"[٥٦] وكانت جميلة. كم ضحكتا وقهقهتا! وكانتا تفيضان بالسعادة، بورك قلباهما الصغيران.

لم أقوَ على مقاومة التلصُّص عليهما. كانت ستيسيا واقفةً في المغطس وهي تفرك عشَّها. لم تصرخ ولا حتى صدرتْ عنها أوه! أما مونا، فخرجت من تحت الدش، ودثَّرت وَسَطَها بمنشفة.

قلت، وأنا أقبض على المنشفة " سأفركك "

بينما أنا أفركها وأداعبها وألاطفها كانت تخرخر كقطة. وأخيراً بلَّلتُ جسدها كله بماء العطر. واستمتعت بذلك أيضاً.

قالت " أنتَ رائع جداً. أنا أحبك فعلاً يا فال. أحبك حقاً "، وعانقتني بحرارة.

قالت " غداً ستقبض، أليس كذلك؟ ليتكَ تشتري لي صدرية للثديين وجورباً. إنني بحاجة ماسّة إليهما "

أجبتُها " طبعاً. ألا تريدين أي شيءٍ آخر؟ "

" كلا، هذا كل شيء يا عزيزي فال "

" أمتأكدة؟ أستطيعُ أن أحضر لكِ كل ما تحتاجين إليه - **غداً** "

نفحتني بنظرة حياء.

" حسن إذن، هناك شيءٌ واحدٌ آخر فقط "

twitter @baghdad_library

" وما هو؟ "

" باقة من أزهار البنفسج "

ختمنا ذلك المشهد من النعيم الزيجي بنكاحٍ فخم قَطَعَته ستيسيا مرتين بتظاهُرها بأنها تفتِّشُ عن شيءٍ ما وأخذتْ تذرع أرض الرواق جيئةً وذهاباً حتى بعد أن هدأنا.

ثم حدث أمرٌ غريبٌ حقاً. ففي الوقت الذي بدأتُ أغفو مَنْ الذي سيأتي إلى السرير ويميلُ فوقي ويُقبّلني على جبيني غير ستيسيا. قالت " تصبح على خير. أحلاماً ممتعة! "

كنتُ من فرط الإرهاق بحيث أزعجُ رأسي بتفسير تلك اللفتة الغريبة. كل ما استطعتُ أن أقوله في تلك اللحظة هو " أشعر بالوحشة، هذا كل ما في الأمر! "

في الصباح استيقظتا وأخذتا تتجولان في المكان قبل أن أزيل الرمل عن عينيّ!. ولا تزالان مرحتين، ولا تزالان تواّقتين إلى توفير المتعةَ لي. أيمكنُ أن يكون الراتب الذي سأجلبه إلى المنزل هو ما جال في ذهنيهما؟ ولماذا قدَّمتا الفريز على مائدة الإفطار؟ فريز مُغطَّس بكريما كثيفة. يا سلام!

ثم حدث أمرٌ آخر خارق. فحين هممتُ بالمغادرة، أصرَّتْ مونا على مرافقتي حتى الشارع.

قلتُ " ما الأمر؟ لِمَ تفعلين هذا؟ "

" أريد أن أراكَ وأنت تغادر، لا أكثر "، ورمتني بإحدى تلك الابتسامات - التي تصدر عن أمٍ متسامحة.

ظلَّتْ واقفة عند الدرابزين، برداء الكيمونو الخفيف، وأنا أخبُّ

مبتعداً. بعد مسافةٍ قصيرة التفتُّ لأرى إنْ كانت ما تزال هناك. كانت هناك. تلوِّح مودِّعةً. وبادلتها التلويح.

في القطار استقرّيتُ لآخذ غفوة قصيرة. ما أجملها من طريقة لبدء يوم! (ولا مزيدٍ من القبور لحفرها) بل فريز على مائدة الإفطار. ومونا تلوِّح لي مودِّعةً. وكل شيء رائع، كما يجب أن يكون. وبإفراطٍ شديد. وأخيراً وصلت إلى ما يلائمني.

في أيام السبت كنا نعمل فقط نصف دوام. استلمتُ أجري، ثم تناولتُ طعام الغداء مع توني، شرح لي أثناء ذلك طبيعة واجباتي الجديدة، ثم قمنا بجولة في الحديقة العامة، وأخيراً قفلتُ عائداً إلى المنزل. في الطريق اشتريتُ زوجاً من الجوارب، وصدرية للثديين، وباقة من أزهار البنفسج - وكعكة الجبن الألماني (كعكة الجبن كانت لمتعتي الخاصة).

حين وصلتُ إلى المنزل كان الظلامُ قد حلّ. لم تكن هناك أضواءٌ في الداخل. قلتُ في نفسي، أمرٌ غريب. أهما تمارسان معي لعبة الاستغماية؟ دخلت، وأضأتُ شمعتين، وألقيتُ نظرةً سريعة حولي. شيءٌ ما مفقود. خيِّلَ للوهلة الأولى أنَّ لصوصاً أغاروا علينا. والنظرة التي ألقيتُها على غرفة ستيسيا فاقَمَتْ من مخاوفي. صندوق ملابسها وحقيبة سَفَرِها لم يكونا موجودين. في الواقع، كانت الغرفة مجرَّدة من **كل متعلقاتها**. أتكون قد هربت من الخن؟ ألهذا السبب نَفَحَتْني قُبلة قبل النوم؟ تفحَّصَتْ الغرف الأخرى. كانت بعض أدراج طاولة الكتابة مفتوحة، وملابس مبعثرة في كل مكان. ودلَّتْ حالة الفوضى العامة أنَّ عملية الإخلاء كانت عنيفة ومفاجئة. وذلك الإحساس بأني أغرقُ الذي تملّكني عرفته حين كنت أقف في قاع القبر.

twitter @baghdad_library

على طاولة المكتب بالقرب من النافذة خُيِّلَ إليّ أني رأيتُ رسالةً مدسوسةً تحت ثقالة الورق عليها خربشة بالقلم الرصاص. كان خط مونا.

تقول فيها " عزيزي فال، أبحرنا هذا الصباح على متن سفينة "**روشامبو**". لم يطاوعني قلبي على إخبارك. راسلني على مقهى أميركان اكسبريس، باريس، مع حبي "

أعدتُ قراءتها. هذا ما يفعله المرءُ حين تكون الرسالة مشؤومة. ثم غصتُ في كرسي الطاولة. في أول الأمر تجمَّعَتْ الدموع ببطء، دمعةً فدمعة، إن صح التعبير. ثم انبجست بقوة. وسرعان ما أخذتُ أنشج، بشهقاتٍ فظيعة مزَّقَتني من رأسي إلى قدميّ. كيف أمكنها أن تفعل ذلك؟ كنتُ أعلمُ أنهما سترحلان من دوني - ولكن ليس بهذه الطريقة ؛ هاربتين كطفلتين شقيَّتين. ثم فصلُ الدقيقة الأخيرة ذاك - " أحضِر لي باقة من أزهار البنفسج! ". لماذا ؟ الطفل وحده يُعَامَلُ هكذا.

تفاقمَ غضبي على الرغم النشيج. رفعتُ قبضة يدي وشتمتُها قائلاً أنهما شرموطتين مُخادعتين ؛ وتوسَّلتُ إلى الله كي يُغرِقَ السفينة، وأقسمتُ على أني لن أرسِلَ لهما بنساً واحداً، أبداً، حتى ولو ماتتا جوعاً. ثم، لكي أخفِّفَ من كربي، نهضتُ واقفاً على قدميّ وأطحتُ بثقالة الورق إلى الصورة الفوتوغرافية الموضوعة على طاولة المكتب. وقبضتُ على أحد الكتب وحطَّمتُ به صورةً أخرى. أخذتُ أتنقَّلُ من غرفةٍ إلى أخرى، أحطِّمُ كل ما يقعُ عليه بصري. وفجأةً لاحظتُ وجودَ كومةٍ من الملابس المنبوذة في إحدى الزوايا. إنها لمونا. رحتُ ألتقطُ كل قطعة - سواءٌ أكانت سروالاً نسائياً، أم صدريةً للثديين، أم بلوزةً - وأشمها بحركةٍ آليّة ؛ ما تزالُ تفوحُ بعبق العطر الذي تستخدمه. جمعتها

وحشوتها تحت مخدتي. ثم أخذتُ أزعقُ. زعقتُ وزعقتُ وزعقتُ. وبعد أن انتهيتُ من الزعيق بدأتُ أغني - " دعيني أناديكِ بحبيبتي... أنا أحبكِ-ي-ي... ". كانت كعكة الجبن تُحدِّقُ إلى وجهي مباشرة. هتفتُ "أيري فيكِ! "، ثم رفعتُها فوق رأسي وطرطشتها على الحائط.

في تلك اللحظة فُتِحَ الباب برفقٍ وظهرتْ منه إحدى الأختين الألمانيتين الساكنتين في الطابق العُلوي وقد عَقَدَتْ يديها فوق صدرها.

قالتْ وهي تقتربُ مني وتقومُ بحركةٍ كأنها تنوي أن تُحيطني بذراعيها، " يا مسكين، يا عزيزي المسكين. أرجوك، أرجوك لا تقسو على نفسك كثيراً! أنا أعرفُ كيف تشعر... نعم، شيءُ مُريع: لكنهما ستعودان "

هذا الكلام القليل الرقيق استدرَّ الدموع من عينيَّ بغزارة من جديد. أحاطتني بذراعيها، وقبَّلتني على كلا الوجنتين. ولم أعترض. ثم قادتني إلى السرير وأجلستني، وقرَّبتني منها.

على الرغم من حزني لم يسعني إلا أن ألاحظ مظهرها المُهمَل. كانت ترتدي فوق بيجامتها الرثة - التي لا تخلعها طوال النهار كما بدا - رداء كيمونو مبقَّع. وكان جوربها مرخياً عند كاحليها ؛ ودبابيس الشعر تتدلى من كتلة شعرها الأشعث. كانت امرأةً رثَّة الملابس ما في ذلك شك. ولكن، سواء أكانت رثّة أم غير رثّة إلا أنها كانت مكروبة بصدق، وقلقةً بشأني بصدق.

قالتْ لي برقَّة ولكن بلباقة، وهي تُحيطُ كتفي بذراعها، إنها منذ بعض الوقت وهي تعي كل ما يجري. وقالت " ولكن كان يجب أن أُمسكَ لساني ". كانت بين حينٍ وآخر تسكتُ لتفسحَ لي المجال لأنفِّسَ

twitter @baghdad_library

عن كربي. وأخيراً طمأنتني بقولها إنَّ مونا تحبني. قالت " نعم، إنها تحبك من كل قلبها "

همـمتُ بالاحتجاج على هذا التصريح حين فُتح الباب ثانية برفق وظهرتْ الأختُ الأخرى. كانت هذه أفضل في ملبسها وفي مظهرها الجذّاب. اقتربتْ وبعد أن قالت بضع كلمات رقيقة جلست على جانبي الآخر. وحملتْ كلٌ منهما يداً من يديَّ. كن جديرين بأن تؤخذ لنا صورة جماعيّة!

يا له من إفراط في العناية! هل تخيَّلتا أني أوشكُ أن أنسف دماغي؟ وأخذتا تطمئنانني مراراً وتكراراً بأنَّ كل شيء يسيرُ نحو الأفضل. الصبر، الصبر! في النهاية كل شيء سيكون على ما يرام. إنَّ هذا لا مفرَّ منه، كما قالتا. لماذا؟ لأنك إنسان طيب جداً. والله يختبرني، هذا كل ما في الأمر.

قالت إحداها " كثيراً ما وددنا لو أننا ننزل ونواسيك، لكننا لم نجرؤ على التدخُّل. كنا نعرفُ كيف تشعر. كنا نعرف ذلك حين تذرع المكان جيئةً وذهاباً. كان شيئاً يمزِّق أوتار القلب، ولكن ماذا كان في وسعنا أن نفعل؟ "

بدأ الأمرُ يصبحُ فوق طاقتي على الاحتمال، مع كل ذلك التعاطف. نهضتُ وأشعلتُ سيجارة. هنا استأذنتْ الشعثة الشعر وهرعت ترتقي الدرج إلى الطابق العلوي.

قالتْ الأخرى " سوف تعود فوراً "، وبدأت تحكي لي عن حياتها في هولندا. ودفعني شيءٌ قالته، أو طريقتها في قوله، إلى الضحك. فصفَّقَت بيديها ابتهاجاً " أترى، إنَّ الوضع ليس سيئاً منذ البداية ؛ ما يزال في استطاعتك أن تضحك "

عندئذٍ أخذتُ أضحك بصوتٍ أعلى، ثم أعلى. كان من المستحيل معرفة ما إذا كنتُ أضحك أم أبكي. لم أستطع أن أتوقف.

قالت، وهي تضغطني عليها وتهدل " اهدأ، اهدأ؟ ضعْ رأسك على كتفي. هكذا. يا الله، إنَّ قلبك رقيقٌ حقاً! "

على الرغم من سخافة هذا، إلا أني شعرتُ بالارتياح لانهياري على كتفها. وشعرتُ بإثارةٍ جنسية قليلة وأنا مُحاطٌ بعناقها الأمومي.

عادت أختها إلى الظهور من جديد حاملةً صينية عليها إبريق وثلاثة كؤوس وبعض البسكويت.

قرعنا الأكواب، وكأننا نحتفل بحدثٍ سعيد، وجرعنا. كان شراباً نارياً صِرفاً.

قالتْ الأخت الأخرى " خذ جرعةً أخرى "، وأعادت ملء الكؤوس، "هاكَ، أليس هذا جيداً؟ إنه يحرق، هه؟ لكنه يمدّكَ بالحيوية "

شربنا ملء كأسين أو ثلاثة أخرى بتتابعٍ سريعٍ كالنار. وفي كل مرة تقولان – " هاك، ألا تشعر بتحسُّنٍ الآن؟ "

لم أعرف إنْ كنتُ أحسَنَ حالاً أم أسوأ ؛ كل ما عرفته هو أنَّ أحشائي كانت تتلظي ناراً. ثم أخذتْ الغرفةُ تدور.

قالت تحتّاني " استلقِ "، وأمسكتا بي من ذراعيّ، وأنزلتاني على السرير. تمدَّدتُ على طولي، عاجزاً كطفلٍ وليد. نزعتا عني المعطف، ثم القميص، بنطالي وحذائي. لم أبدِ أي بادرة احتجاج. وقلبتاني ودثَّرتاني.

قالتا "نم قليلاً. سوف نعودكَ لاحقاً. سنُعِدُّ لك عشاءً عندما تفيق" أغمضتُ عينيَّ. أصبحت الغرفة تدور بسرعةٍ أكبر.

twitter @baghdad_library

قالت إحداهما " سوف نعتني بكَ جيداً "
وغادرتا الغرفة على رؤوس أصابع أقدامهما.

*

استيقظتُ في وقتٍ مبكّرٍ من الصباح. حسبتُ أني سمعتُ نواقيس الكنيسة تقرع (تماماً كما كانت أمي تقول عندما تحاولُ أن تتذكَّر ساعة مولدي). نهضتُ وأعدتُ قراءة الرسالة القصيرة. لقد أصبحتا الآن في أعالي البحار. كنتُ جائعاً. عثرتُ على قطعةٍ من كعكة الجبن على الأرض فازدرتُها. وكنتُ ظمآن أكثر مني جائعاً. شربتُ ملء عددٍ من كؤوس المياه واحداً بعد آخر. شعرتُ بقليلٍ من ألم الصداع. ثم زحفتُ عائداً إلى السرير. لكنَّ النومَ كان قد فارقني. قُرابة الفجر نهضتُ. ارتديتُ ملابسي، ثم انطلقتُ إلى الخارج. المشي أفضل من الاستلقاء هناك والتفكير. سوف أمشي وأمشي، قلتُ لنفسي، إلى أن أسقط من الإعياء.

لم ينجح الأمر كما تخيَّلت. سواءً أكنتُ نشطاً أم مُرهقاً لا يتوقفُ التفكيرُ أبداً. ودار الرأس ودار، ودائماً على الأرضية نفسها، وكان دائماً يعود إلى المركز الميت: الحاضر المرفوض.

لا أدري كيف أمضيتُ باقي النهار. كل ما أتذكره هو أنَّ وجع القلب يزداد باطِّراد. لا شيء كان قادراً على تخفيفه. لم يكن السبب شيئاً موجوداً داخلي، بل كنتُ أنا نفسي. كنتُ أنا الوجع ؛ وجعاً يتكلَّم ويسير على قدمين. ليتني أستطيع أن أجرَّ نفسي إلى المسلخ وأدعهم يقتلونني كثور - سيكون ذلك قتلاً رحيماً. تكفي طلقةً واحدةً سريعة - بين العينين. ذلك، وفقط ذلك، كان جديراً بأن يضع حداً للألم.

*

في صباح يوم السبت التحقتُ بالعمل كالمعتاد. كان عليَّ أن أنتظر ساعةً كاملة قبل أن يظهر توني. وحين ظهرَ ألقى عليّ نظرةً واحدة وقال
- " ماذا حدث؟ "

أخبرته بإيجاز. فقال بكل لطف: " هيا بنا نتناول مشروباً. لا شيء ملحاحاً. لن يظهر اليوم، لذا لا شيء يستدعي القلق "

شربنا ملء كأسين ومن ثم تناولنا طعام الغداء ؛ غداءً دسماً تبِعَه تدخين سيجارٍ جيد. لم تُذكر كلمة لوم واحدة لمونا.

ولكن، أثناء سيرنا عائدَين إلى المكتب، سمحَ لنفسه بقول ملاحظة غير مؤذية. " لا أفهم يا هنري. إنني أعاني من مشاكل جمّة ولكن ليس من هذا النوع "

في المكتب حدَّد لي واجباتي مرةً أخرى، قال " سأعرِّفكَ غداً إلى الشباب " (يعني، حين تسيطر على نفسك)، ثم أضاف أني سأجد أنَّ التعاملَ معهم سهل.

هكذا مرَّ ذلك اليوم واليوم الذي تلاه.

تعرَّفتُ إلى باقي أعضاء المكتب، وكلهم انتهازيون، كلهم ينتظر الحصول على ذلك المعاش التقاعد عند نهاية قوس القزح، وكلهم تقريباً جاءوا من بروكلن، وكلهم أناس عاديون، كلهم يتكلمون بتلك اللكنة البروكلينية الحزينة المتعبة. ولكنهم جميعاً توّاقون إلى مدّ يد المساعدة.

كان بينهم شابٌ واحد، كاتب حسابات، حاز على إعجابي على الفور. اسمه بادي ماهوني، أيرلندي كاثوليكي، ضيّق الأفق كما جلوا منه. كان مولعاً بالجدل وبالمشاكسة، وبكل ما لا أحبه، ولكن لأني قادم من الحي الرابع عشر - كان هو قد ولد ونشأ في غرينبوينت - سارت

twitter @baghdad_library

علاقتنا بشكلٍ ممتاز. وحالما غادر توني والمفوّض أتى إلى طاولتي وهو على أتمّ الاستعداد للشكوى حتى آخر النهار.

في صباح يوم الأربعاء وجدتُ برقيةً لا سلكية على طاولة مكتبي: " يجب أن أحصل على خمسين دولاراً قبل أن تحطّ الطائرة. أرجو أن ترسلها برقياً فوراً "

عرضتُ الرسالة على توني حين ظهرَ. قال " ماذا ستفعل؟ "

قلت " هذا ما أريد أن أعرفه "

" لا أظنك سترسل إليهما النقود... بعد كل ما فعلتاه معك؟ "

نظرتُ إليه بعجزٍ، وأجبت " أخشى أنه لا مفرّ لي من ذلك "

قال "لا تكُن أبله. هما اللتان أعدّتا سريرهما؛ دعهما تنامان عليه"

كنتُ آمل أن يخبرني أنَّ في استطاعتي أن أحصل على سُلفة بضمان راتبي. عدتُ إلى عملي خائب الرجاء. ورحتُ أتساءلُ أثناء عملي، كيف سأتدبَّر أمر ذلك المبلغ ومن أين. كان توني هو أملي الوحيد. ولكن لم يطاوعني قلبي على الضغط عليه. لم أستطع - كان قد فعلَ لأجلي للتو أكثر مما أستحق.

بعد الغداء، الذي كان عادةً يتناوله مع أصحابه السياسيين في حانةٍ في منطقة الفيليج القريبة، كان يدخل وهو يضعُ سيجاراً كبيراً في فمه وتفوحُ منه رائحة الخمر القوية، وعلى وجهه ابتسامة واسعة، من النوع الذي كان يرسمه ونحنُ في المدرسة حين يُبيِّتُ لعملٍ شيطانيّ ما.

قال " كيف الحال؟ أعتقد أنك تتعلّم أسلوب العمل، أليس كذلك؟ أعتقد أنَّ العملَ في هذا المكان ليس سيئاً، ألا توافقني؟ "

دفعَ قبعته إلى أعلى رأسه، وغاصَ عميقاً في كرسيه الدوّار ووضعَ

قدميه فوق طاولة المكتب. ثم أخذَ نَفَساً طويلاً جداً من السيجار والتفت قليلاً باتجاهي، وقال " أعتقد أني لا أفهم النساء كثيراً يا هنري. أنا عازب مزمن. أما أنت فمختلف. أعتقد أنك لا تأبه بالتعقيدات. على أي حال، حين أخبرتني عن البرقية هذا الصباح حسبتُ أنك أحمق. أما الآن فلم أعد أر ذلك. أنت بحاجة إلى مساعدة، وأعتقد أني الشخص الوحيد القادر على مساعدتك. اسمع، دعني أقرضكَ من جيبي ما تحتاجُ إليه. لا أستطيع أن أعطيك سلفة بضمان راتبك... لا يزال الوقتُ مبكراً جداً بالنسبة إليك لتطلبَ شيئاً كهذا. ثم إنَّ ذلك سيُثيرُ تساؤلات كثيرة لا داعي لها "، ومدَّ يده إلى جيبه وأخرجَ لُفافة من الأوراق المالية. "يمكنك أن تُسدِّد المبلغ لي بواقع خمسة دولارات في الأسبوع، إذا أحببت، ولكن لا تدعهما تبتزانك أكثر من ذلك! كن صلباً! "

قال بضعة كلمات أخرى ثم همَّ بالمغادرة. " أعتقدُ أني سأرحل الآن. انتهى عملي اليوم. إذا صادَفَتْكَ عَقَبَة في العمل اتَّصِل بي "

قلت " أين؟ "

" اسأل بادي، هو سيخبرك "

مع مرور الأيام أخذ الألم يسكن. كان توني يُبقيني منهمكاً في العمل، عن عمد، دون شك. وحرِصَ أيضاً على أن يُعرِّفني على كبير البستانيين. قال إنني سوف اضطر ذات يوم إلى أن أؤلف كراساً حول النباتات، والشجيرات والأشجار التي في الحديقة العامة، وأنَّ البستاني سوف يمدُّني بالمعلومات.

كنت في كل يوم أتوقَّعُ أن أتلقَّى برقية لا سلكية أخرى. كنتُ متأكداً من أني لن أتلقَّى رسالةً قبل مرور وقت طويل. بما أني كنتُ أُقيمُ

twitter @baghdad_library

في قبرٍ قبل الأوان، وأكره أن أعود إلى مسرح أحزاني كل يوم، قرَّرتُ أن أطلب من أهلي أن يقبلوني عندهم ضيفاً. فأسرعوا بالقبول دون تلكّؤ، على الرغم من أنهم لم يفهموا مغزى سلوك مونا. وطبعاً شرحتُ الأمر قائلاً إننا خطَّطنا ليكونَ الأمر هكذا، أي أنْ ألحقَ بهما بعدئذٍ، وما إلى ذلك. كانتا أعلم مني، لكني أحجمت عن إذلال نفسي أكثر من ذلك.

وهكذا انتقلتُ إليهم ؛ إلى شارع الأحزان المبكرة ؛ إلى طاولة الكتابة نفسها التي كانت تخصّني وأنا فتى (ولم أستخدمها أبداً). كانت ممتلكاتي كلها موجودة في حقيبتي. لم أحضِر أي كتاب معي.

كلّفني بضعة دولارات أخرى الإبراق إلى مونا بخصوص تغيير العنوان ولكي أحذِّرها من الكتابة أو الإبراق إليَّ في المكتب.

كما حَدَسَ توني، مرَّ وقتٌ طويل قبل أن تصل برقيةٌ أخرى. وهذه المرة كانت بحاجة إلى النقود من أجل الطعام والإقامة. لا يبدو لها عمل في الأفق. ثم وصلتْ رسالة في أعقاب البرقية، موجزة، تقول فيها إنهما سعيدتان، وأنَّ باريس رائعة، وأنه يجب أن أجد طريقةً للانضمام إليهما بسرعة. أما كيف تتدبران أمورهما فلا كلمة واحدة بهذا الشأن.

وذات يوم سألني توني " هل تقضيان وقتاً ممتعاً هناك؟ لا أظنهما تطلبان المزيد من النقود ، أليس كذلك؟ "

لم أكن قد أخبرته عن أمر البرقية الثانية. كان عمي، المُضارب، هو الذي دفع المبلغ.

قال توني " أحياناً أشعرُ كأني أريد أن أشاهدَ باريس بنفسي. قد نقضي معاً وقتاً ممتعاً هناك "

كان العمل المكتبي يمتزجُ بأنواع الأعمال الصغيرة كافة. هناك،

مثلاً، إلقاء الخُطَب، التي على المفوَّض أن يُعِدَّها لكي يلقيها في هذه المناسبة أو تلك، وليس لديه الوقت ليفعل ذلك بنفسه. وكانت مهمة توني أن يكتب تلك الخطب نيابة عنه. وبعد أن يبذل توني أقصى جهده أضيف أنا بضع لمسات.

كانت كتابة تلك الخُطَب عملاً مملاً، وكنتُ أفضِّلُ عليها كثيراً الأحاديث التي أجريها مع البستاني. وكنتُ قد باشرتُ في تدوين ملاحظات من أجل كُرَّاس " الشِجارة[٥٧] "، كما سمَّيته.

بعد مرور فترة من الوقت تَراختْ وتيرة العمل. أحياناً لم يكن توني يظهر في المكتب أبداً. وحالما يغيب المفوَّض يتوقف العمل كله. وحين ننفرد بالمكان - لم يكن هناك إلا نحو سبعة منا - نُمضي الوقت في لعب الورق، أو في رمي النرد، أو الغناء، أو سرد القصص القذرة، وأحياناً كنا نلعب الاستغماية. كان من المستحيل أن نُجري حديثاً عقلانياً مع أيٍ منهم ما عدا بادي ماهوني. كان الوحيد الذي استمتعتُ بالحديث معه. وهذا لا يعني أننا كنا نخوض في أي موضوع ثقافي. كنا في الغالب نتكلم عن الحياة في الحي الرابع عشر حيث كان يذهب ليلعب البولة مع الأولاد، وليشرب الخمر ويقامر. وشوارع ماوجر، وتينيك، وكوسيليا، وديفو، وهمبولت... نحن الذين أطلقنا عليها أسماءها كلها، وعشنا فيها، ولعبنا فيها من جديد الألعاب التي كنا قد مارسناها ونحن أطفالاً تحت أشعة الشمس اللاسعة، وفي الأقبية الباردة، تحت الوهج الخافت لأضواء الغاز، وعلى أرصفة التحميل على ضفة النهر المتدفق...

إنَّ ما أكسبني صداقة بادي وإخلاصه لي أكثر من أي شيءٍ آخر هي موهبتي ككاتب. فحين أجلس على الآلة الكاتبة، حتى وإنْ كنتُ أطبعُ مجرد رسالة، كان يقفُ عند ممر الباب ويراقبني وكأني ظاهرةٌ فريدة.

twitter @baghdad_library

ويقول " ماذا تفعل؟ أتطبعها ؟ ". يقصد - قصة أخرى.

أحياناً يقفُ هناك، وينتظر بعض الوقت، ثم يقول " هل أنت مشغولٌ جداً ؟ "

إذا قلتُ " كلا، لماذا ؟ "، يُجيب " كنت فقط أفكِّرُ... أتذكُر الحانة الكائنة عند منعطف جادّة ويث والغراند ؟ "

" طبعاً أعرفها. ما بها ؟ "

" هناك شابٌ اعتاد أن يتردَّد عليها... كاتبٌ، مثلك. كان يكتبُ قصصاً مُسلسلة. ولكن كان عليه أولاً أن يسكر "

ملاحظة كهذه تكون فقط افتتاحية. إنه يريد أن يتكلَّم.

" ذلك الرجل العجوز الذي يسكن في البناء الذي تسكن فيه... ما اسمه؟ مارتن. نعم، هذا هو اسمه. كان دائماً يحملُ في جيبيّ معطفه حيوانيّ ابن مقرض. أتذكُر ؟ كان ذلك اللوطي يكسب الكثير من النقود من وراء تينك الحيوانين اللعينين. كان يعملُ في أفخم الفنادق في نيويورك ذات يوم، ومعه تينك الجرذين. يا له من عمل! إنني أخاف تلك الحيوانات... إنها تدفعُ إلى الجنون... أتفهم ما أعني؟ لقد كان شخصاً غريب الأطوار حقاً. وأي فنان سكّير! أكادُ أراه وهو يترنَّحُ وهو يسيرُ في الشارع... وتينك الحيوانين اللعينين يتلصَّصان من جيبيه. أتقولُ إنه لم يعد يشرب الآن؟ لا أستطيع أن أصدق هذا. كان يُبدِّد نقوده كالأحمق - في تلك الحانة التي كنتُ أخبرك عنها "

قد ينتقلُ من هذا الموضوع إلى الأب فلاناغان أو كالاغان، لم أعد أذكر أيّهما الآن. إنه الكاهن الذي كان يُسرف في الشرب في ليلة كل يوم سبت. وحين يسكر يصبحُ خطيراً. كان يحب أن يلوط أولاد

الكورس. كان في استطاعته أن ينال أي امرأة يقع بصره عليها، وهو الوسيم ويفعل ما يشاء.

قال بادي " كنت أكاد أخري في سروالي حين أذهبُ لأعترف. نعم، كان يعرف الآثام كلها، ابن الحرام ذاك "، ورسم إشارة الصليب على نفسه وهو يقول هذا. " وكان يجب أن تخبره كل شيء... حتى كم مرة في الأسبوع تستمني. والأسوأ من ذلك كله، كانت له طريقة في إطلاق الضراط في وجهك. ولكن إذا كنت واقعاً في ورطة فليس لديك إياه معيناً. لم يكن يعرف كلمة لا. نعم، كان في حيِّنا بعض الشبان الطيبين. بعضهم يقضي وقته في السجن، المساكين...

مرَّ شهر وكل ما وصلني من مونا رسالتان مقتضبتان، تقول فيهما إنهما تعيشانِ في شارع برينسس في فندق صغير فاتن، شديد النظافة، ورخيص جداً. فندق برينسس. ليتني أشاهده، كم أحبُّ هذا! في تلك الأثناء تعرَّفتا على عددٍ من الأميركيين، أغلبهم من الفنانين وشديدي الفقر. وسرعان ما أملوا في أن يخرجوا من باريس ليشاهدوا الأقاليم. كادت ستيسيا تجنّ لزيارة جنوب فرنسا، حيث كروم العنب والزيتون ومصارعة الثيران وما إلى ذلك. آه، نعم، هناك كاتبٌ، نمساويّ مجنون، مفتونٌ بستيسيا ؛ يعتقد أنها عبقرية.

كان أهلي يسألونني بين حين وآخر "كيف أحوالها ؟"، فأقول " جيدة "

ذات يوم أعلنتُ أنَّ ستيسيا قُبِلَتْ في معهد الفنون الجميلة بمنحة دراسية. وقد أبقاهما هذا النبأ هادئين بعض الوقت.

في تلك الأثناء كنتُ أثقِّفُ البستاني. كم كانت صحبته منعشة! كان عالمه متحرِّراً من الكفاح والصراع الإنسانيين ؛ كان يتعاملُ فقط مع

twitter @baghdad_library

أحوال الطقس، والتربة، والحشرات والجراثيم ؛ وكل ما يضعُ يده عليه ينمو ويزدهر. كان يتنقَّلُ في عالمٍ من الجمال والتناغم حيث يسود السلام وطاقته للنباتات والأشجار! لا غيرة، لا تنافس، لا تزاحُم أو تدافُع، لا خداع، لا كذب. يتلقَّى البنفسج من العناية بقدر ما تتلقَّاه الورديّة ؛ والليلك ليس أفضلَ من الورد. بعض النباتات ضعيف منذ إنباته، وبعضها الآخر يزدهر في الظروف كلها. كان الأمر كله فاتناً بالنسبة إليَّ؛ ملاحظاته حول طبيعة التربة، ومختلف أنواع الأسمدة، وفن التطعيم. في الحقيقة، لم يكن للموضوع نهاية. فمثلاً، دور الحشرة، أو معجزة عملية التلقيح، والنشاط الدائم للدودة، واستخدام وسوء استخدام المياه، والأطوال المختلفة للنباتات، والإنبات الشاذ، وطبيعة الأعشاب والحشرات الضارة، والصراع من أجل البقاء، واجتياح الجراد والجنادب، والخدمة الرائعة التي يقدِّمها النحل...

ما أشد اختلاف عالم هذا الرجل عن عالم توني! الأزهار مقابل السياسيين ؛ الجمال مقابل المكر والخديعة. مسكين توني، لقد كان يحاولُ بكل قواه أن يُبقي يديه نظيفتين ؛ دائماً يخدع نفسه، أو يبيع نفسه، على أساسِ فكرةِ أنَّ الموظف الحكومي مفيدٌ لبلده. وبما أنه مخلص، وعادل، وصادق، ومتسامح بالفطرة، كان يشمئزُ من الوسائل التي يتَّبعها أصدقاؤه. كان يحلم بأنه إذا ما أصبح سيناتوراً، أو حاكماً أو كائناً ما كان، فسوف يُغيِّرُ الأشياء. كان يؤمن بهذا بكل صدق بحيث لم يعُد في وسعي أن أضحك منه. لكنَّ الأمور لم تكن مواتية. فعلى الرغم من أنه هو نفسه لم يفعل شيئاً يؤنِّبه عليه ضميره، إلا أنه كان عليه أن يغضّ بصره عن أعمال وممارسات كانت تملؤه بالاشمئزاز. كان عليه أيضاً

أن ينفق النقود كما ينفق الماء. ولكن، على الرغم من أنه كان مدينا بمبلغ كبير إلا أنه نجح في أن يهدي والديه المنزلَ الذي يعيشان فيه. بالإضافة إلى ذلك كان يُنفق على أخويه الأصغر سناً مصاريف الحامية. وكما قال ذات يوم - " هنري، حتى لو أردتُ أن أتزوج لن أستطيع. لا قدرةَ لي على تحمُّل نفقات زوجة "

وذات يوم، بينما كان يخبرني عن مصائبه، قال " إنَّ أفضل أيامي هي حين كنتُ أرأسُ نادياً رياضياً. أتذكُر؟ حينئذٍ لم تكن هناك سياسة. أتذكُر حين اشتركتُ في سباق الماراثون واضطروا إلى نقلي إلى المستشفى؟ في ذلك كنتُ في أحسن حالاتي ". ونظر نحو الأسفل إلى سُرَّته وفركَ كرشه." هذا نتيجة الجلوس الطويل في الليالي مع الشباب. ألا تتساءل أحياناً لماذا أتأخر كل يوم في الحضور؟ إنني لا آوي إلى السرير قبل الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً. وطوال الوقت أكافحُ مُخلّفات الليلة السابقة. يا إلهي، لو علِمَ أهلي بما كنتُ أفعله لأبني مستقبلي لتبرَّءوا مني. هذا ما نالني من كوني ابن مهاجر. ولما كنتُ إيطالياً قذراً كان عليَّ أن أثبت نفسي. أنت محظوظ لأنك لا تعاني من الطموح. كل ما تريده من الحياة هو أن تكون كاتباً، أليس كذلك؟ لستَ مضطراً للخوض في الكثير من الخراء لتصبح كاتباً، أليس كذلك؟ "

" هنري، يا ولدي، أحياناً يبدو لي أنَّ لا أملَ يلوحُ في أي شيء. لقد أصبحتُ ذات يوم رئيساً... وماذا في هذا؟ أتظن أنَّ في إمكاني حقاً أن أغيِّر الأوضاع؟ بصراحة، أنا نفسي لا أعتقد ذلك. أنت لا تعرف كم هذه المهنة مُعقَّدة. أنت مَدينٌ للجميع، شئتَ أم أبيت. حتى للينكولن. كلا، إنني مجرد فتى صقلّي قد يصل ذات يوم إلى الكونغرس، بعونِ

twitter @baghdad_library

الآلهة. ومع ذلك، لديَّ أحلامي. هذا كل ما تحصل عليه في هذه المهنة - **الأحلام**.

" نعم، ذلك النادي الرياضي... حينئذٍ كان الناسُ يُقدِّرونني أعلى تقدير. كنتُ الضوءَ الساطع في الحيّ ؛ ابن الحذّاء الذي ارتفع من الحضيض. حين نهضتُ لألقي خطاباً سُحِروا حتى قبل أن أفتح فمي "

سكت ليُعيدَ إشعال سيجاره. نفَخَ نفخة، ورسم على وجهه تعبيرَ اشمئزازٍ، ورماه بعيداً.

" الوضع كله اختلفَ الآن. الآن أنا جزءٌ من الآلة. في أغلب الأحيان أنا إمَّعَة ؛ أنتظرُ فرصتي الملائمة لأغوصَ أعمق داخل الحفرة كل يوم. لو أنَّ لديك ما لدي من مشاكل يا رجل لشابَ شعرُك. أنت لا تعرف معنى أن تحتفظ بالقليل من النزاهة التي لديك وسط كل الغواية التي تُحيطُ بك. تكفي خطوة خاطئة واحدة حتى تصبح مركزَ مراقبة. الكلّ يحاولُ أن يأخذ مأخذاً على جاره. أعتقدُ أنَّ هذا ما يُبقيهم معاً. يا لهم من أولاد حرام! أنا سعيد لأني لم أصبح قاضياً أبداً - لأني لو اضطررتُ إلى إصدار حكمٍ على أولئك الأيور لما كنتُ بهم رحيماً. إنني لا أفهم كيف يمكن لبلد أن يزدهر على المكيدة والفساد. لابد أنَّ هناك قِوى أعلى تنظر بعينِ الرعاية إلى جمهوريتنا هذه... "

سَكَت فجأةً، ثم قال " انسَ ما قلتُ! إنني فقط أُنفِّسُ عمّا في صدري. ولكن لعلَّكَ تدرك الآن أني لستُ في أفضل حال "

نهضَ وتناول قبعته. " بالمناسبة، كيف أحوالك؟ ألا تحتاج إلى مزيدٍ من النقود؟ لا تخشَ أن تطلب، إذا احتجتَ. حتى وإنْ كانت من أجل زوجتك تلك. كيف حالها، بالمناسبة؟ أما تزال في باريس المرحة؟ "

رسمتُ له ابتسامةً عريضة.

" أنتَ محظوظ، هنري يا بُنيّ. محظوظٌ لأنها موجودة هناك، وليس هنا. ذلك يمنحك فرصةً للتنفُّس. لا تخف، ستعود. وربما أسرع مما تظن... أوه، بالمناسبة، كنتُ أنوي أن أخبرك من قبل.. يعتقدُ المفوّضُ أنك جيد جداً. وكذا أعتقد أنا. تا، تا لا تقُل شيئاً الآن! "

*

في الأمسيات وبعد تناول وجبة العشاء كنت عادةً أتمشى - إما باتجاه المقبرة الصينية أو بالاتجاه المقابل، الاتجاه الذي كان يقودني لأمرٍّ من أمام منزل أونا غيفورد. عند المنعطف كان العجوز مارتن يقفُ في كل ليلة، متمركزاً كخفيرٍ، صيفاً وشتاءً. وكان من الصعب المرور به دون أن أتبادل معه كلمة أو اثنتين، تكون عادةً عن مساوئ الخمر، والتبغ وما إلى ذلك.

أحياناً كنتُ أكتفي بالتمشية في الحي، وأنا من فرط الاكتئاب بحيث أزعجُ نفسي بمدّ ساقيَّ. وقبل أن أتقاعد قد أقرأ فقرة من الكتاب المقدَّس. إنه الكتاب الوحيد الموجود في المنزل. وكان أيضاً كتابَ قصص تُحكَى قبل النوم أيضاً. لا يمكن إلا لليهود أن يكونوا ألَّفوه. وغير اليهودي يتوه فيه، بوجود كل تلك المرارات النَسَبيّة، وسِفاح القُربى، والأذى المتعمَّد، والعدادة[٥٨]، وقتل الأخوة والأقرباء، والأوبئة، ووفرة الطعام، والزوجات، والحرب، والاغتيالات، والأحلام والتنبؤات... لا ترابطَ منطقياً. وحده طالبُ لاهوت يستطيع أن يتقبَّله دون نقاش. وهذا لا يُضيفُ أي شيء. إنَّ الكتابَ المقدَّسَ هو العهد القديم مُضافٌ إليه الأبوكريفا[٥٩]. أما العهد الجديد فهو سِفر مُلغَّز - " للمسيحيين فقط ".

twitter @baghdad_library

على أي حال، ما أعنيه بقولي هو أني كنتُ مولعاً بسفر أيوب "**أين كنت حين أسَّستُ الأرض. أخبر إنْ كان عندك فهم**"[٦٠] . أحبَّ هذه الجملة؛ تناسبُ ما أشعرُ به من مرارة وأسى. أحبُ خاصةً الجملة المُرفقة "أخبِر إنْ كان عندك فهم ". لا أحد يتمتع بمثل ذلك النوع من الفهم. ولم يكتف يهوه بإرهاق أيوب فوق طاقته بالبثور وبلايا أخرى، بل طرح عليه ألغازاً أيضاً. ومرّةً بعد أخرى، بعد التشاحن والتصارع مع سفر الملوك وسفر القضاة، وسفر العدد ومقاطع مُخدِّرة أخرى تناقشُ نشأة الكون، وتطهير الروح وآلام الملعونين، كنتُ أعودُ إلى سفر أيوب وأشعرُ بالارتياح لأني لستُ أحد المُختارين. في النهاية، كما تذكر، اتَّخذَ أيوب وضعَ المقاتل. كانت همومي تافهة بالمقارنة ؛ بالكاد تكون أكبر من وعاء التبوُّل.

بعد ذلك ببضعة أيام، كما يُقال، أعتقدُ أنَّ ذلك يحدث في ساعات بعد الظهر، جاء النبأ القائل إنَّ ليندبرغ قد عبرَ بأمان المحيط الأطلسي طيراناً. وتدفَّقَ الجيش برمَّته إلى المرج ليهتفَ ويحيِّي ويصفِّر ويتبادل التهاني. ويسود هذا الابتهاج الهستيري أرجاء البلاد كلها. كان عملاً بطولياً هوميرياً وقد استغرقَ من إنسانٍ عادي ملايين السنين لإنجازه.

حماسي أنا كان أكثر انضباطاً، وقد كَبَحَه قليلاً تلقِّي رسالةٍ في صباح ذلك اليوم بالذات، رسالة تنذرني فيها، إنْ صحَّ التعبير، بأنها في طريقها إلى فيينا مع بعض الأصدقاء. وعلمتُ أنَّ العزيزة ستيسيا موجودة في مكانٍ ما في شمال أفريقيا ؛ لقد رحلت مع ذلك النمساوي المجنون الذي يظن أنها رائعة جداً. ومن نبرة كلامها يعتقد المرء أنها هربت إلى فيينا نكاية بأحدهم. وطبعاً، لم تشرح كيف حقَّقت هذه المعجزة. كان أسهل عليَّ أن أفهم غزو ليندبرغ للفضاء من أن أفهم رحلتها إلى فيينا.

قرأتُ الرسالة مرتين في محاولةِ اكتشاف مَنْ هُم رفاقها. وكان حل اللغز بسيطاً: انزع صيغة الجمع عن كلمة رفاقها لتصبح رفيق. لم يكن لدي أدنى شك في أنه ذلك الشاب الأميركي الوسيم، الكسول والثري، الذي كان يقومُ بدور مُرافقها. وما أثارَ حفيظتي أكثر أنها فشلتْ في أن تمدَّني بعنوانٍ لها في فيينا لأوجِّه رسائلي إليه. كان عليَّ ببساطة أن أنتظر ؛ أنتظر وأعضّ على الشكيمة.

لم يعمل انتصار ليندبرغ الرائع على العناصر الأوّلية إلا على التخفيف من إحباطي البائس. هنا كنتُ سجينَ غرفةِ مكتبٍ، أؤدي أعمالاً شاقةً تافهةً، محروم حتى من مصروف الجيب، ولا أتلقى إلاّ إجابات سقيمة على رسائلي الطويلة، التي تقطّع أوتار القلب، أما هي فتستمتع بالتنقُّل والسياحة، تطيرُ من مدينةٍ إلى أخرى كطائرٍ في الجنة. ما معنى محاولة الانتقال إلى أوروبا ؟ كيف سأعثرُ على عملٍ هناك في وقتٍ أجدُ صعوبات في بلدي؟ ولماذا أدَّعي بأنها سوف تطيرُ فرحاً لدى وصولي؟

كنتُ كلما أمعنتُ التفكير في الوضع أزدادُ نَكَداً. وفي نحو الساعة الخامسة من بعد الظهر جلستُ، وأنا في مزاجٍ من اليأس التام، أمام الآلة الكاتبة لأضعَ الخطوط الأولى للكتاب الذي أمرتُ نفسي بوجوب تأليفه ذات يوم. كتاب يوم دينونتي. وكأني أكتبُ تأبيني بنفسي.

كتبتُ بسرعة، بأسلوبٍ برقيّ، مبتدئاً بالأمسية التي قابلتُها فيها للمرة الأولى. ولسببٍ مُبهمٍ وجدتُني أسجِّل تأريخياً، **ودون بذل أي جهد**، السلسلة الطويلة من الأحداث التي تملأ تلك الفترة الزمنية الفاصلة بين تلك الأمسية المُقدَّرة والوقت الحاضر. وأخذتُ أملأ الصفحات، وكنتُ دائماً أجدُ مادةً أدوِّنها.

twitter @baghdad_library

شعرتُ بالجوع، فتوقَّفتُ عن العمل ومشيتُ حتى منطقة فيليج لكي أتناول لُقمة. وعندما عدتُ إلى المكتب جلستُ من جديد أمام الآلة. أثناء الكتابة كنتُ أضحكُ وأبكي. ومع أني كنتُ فقط أدوِّنُ ملاحظات إلا أنه بدا وكأني أؤلِّفُ الكتاب في التو واللحظة ؛ وعشتُ المأساة كلها من جديد وخطوة فخطوة، ويوماً بيوم.

لم أنتهِ إلا بعد منتصف الليل بوقت طويل. استلقيتُ على الأرض وأنا في حالةِ استنزافٍ تام واستغرقتُ في النوم. استيقظتُ مبكراً، وسرتُ حتى الفيليج من جديد لأنالَ بعض الغذاء، ثم تمشَّيتُ متمهِّلاً في طريق عودتي لكي أستأنف عمل اليوم.

في وقتٍ لاحق من ذلك النهار قرأتُ ما كنتُ قد دوَّنتُه خلال الليل. لم أضف إليه إلا أشياء قليلة. لم أفهم كيف تمكَّنتُ من تذكُّر آلاف التفاصيل بدقَّة. وإذا كانت تلك التفاصيل البرقيّة سوف تُمدَّد لتغدو كتاباً، ألن يتطلَّبُ الأمرُ مجلَّدات عِدّة لإعطاء الموضوع حقّه، هه؟ إنَّ مجرد التفكير في ضخامة ذلك العمل دوَّخني. متى سأتحلَّى بالشجاعة لأنفِّذَ عملاً بتلك الأبعاد الهائلة؟

بينما كنتُ أتأمَّلُ هكذا، طرأتْ لي فجأةً فكرة مرعبة. وهي ما يلي - إنَّ حبّنا ينتهي. كان ذلك هو التعليل الوحيد لتخطيطي لذلك العمل. لكني رفضتُ أن أقبلَ تلك النتيجة. قلتُ في نفسي إنَّ هدفي الحقيقي هو فقط أنْ أحكي - " فقط "! - قصةَ عَثَرات حظي. ولكن من المستحيل أن يكتب المرءُ معاناته وهو ما يزالُ يعاني؟ أبيلار[٦١] فعلَ ذلك، دون شك. هنا تدخَّلتْ فكرةُ عاطفية. سوف أؤلِّفُ الكتابَ من أجلها - وإليها

– وحين تقرأه سوف تفهمُ، سوف تفتح عينيها ؛ ستساعدني على دفن الماضي، وسوف نبدأ حياةً جديدةً، حياةً معاً... في اتّحادٍ حقيقي.

يا للسذاجة! وكأنَّ قلبَ المرأة يمكنُ فتحه من جديد بعد أن يُغلَق!

أسكَتُّ تلك الأصوات الداخلية، تلك التحريضات التي لا يمكنُ إلا للشيطان أن يُثيرها. كنتُ أشدَّ جوعاً من أي وقت مضى إلى حبها، أشدَّ يأساً مما كنتُ في أي وقت آخر. ثم وردتْ إليّ ذكرى ذات ليلة قبل سنواتٍ حين كنتُ جالساً على طاولة المطبخ (وكانت زوجتي في السرير في الطابق العلوي)، وكنت قد أفضيتُ لها بمكنونات قلبي على صورةِ مناشدةٍ يائسة، انتحاريّة. وتَركَتْ الرسالةُ تأثيرها ؛ وَصَلَتها فعلاً. فلمَ لا يكونُ للكتاب تأثيرٌ أكبر؟ خاصةً كتاب يكون القلبُ فيه عارياً؟ وفكَّرتُ في تلك الرسالة التي كَتَبَتها إحدى شخصيات رواية هامسن إلى فيكتوريا، تلك المُدبَّجة بـ " الله ينظر عبر كتفيه ". فكَّرتُ في الرسائل المتبادلة بين أبيلار وإلويز وكيف أنَّ الزمنَ لم يُعتِّم رونقها. يا لهول قوة الكلمة المكتوبة!

في مساء ذلك اليوم، وبينما أهلي جالسون يقرؤون الصُحُف، كتبتُ لها رسالةً كفيلةً بتحريك قلب صقر (كتبتُها على تلك الطاولة الصغيرة التي أُهدِيَتْ إليّ وأنا صبي)، أخبرتُها فيها عن خطة الكتاب وكيف أني وضعتُ نقاطها الرئيسية في جلسةٍ واحدةٍ متواصلة. أخبرتها أنَّ الكتابَ هو لأجلها، أنَّه هي نفسها. أخبرتُها أني سأنتظر عودتها ولو دامَ غيابها ألف عام.

كانت رسالةً ضخمةً، وبعد أن انتهيتُ منها أدركتُ أني لا أستطيع

twitter @baghdad_library

أن أرسلها - لأنها كانت قد نسيتْ أن تذكُرَ لي عنوانها. وتولاني الغضب الشديد، وكأنها قَطَعَتْ لساني. كيف أمكنها أن تمارسَ مثل هذه الخدعة الوضيعة عليّ؟ وأينما كانت، وبين أحضان أيٍ كان، أما كان في استطاعتها أن تشعر أني كنتُ أصارعُ لأصلَ إليها؟ وعلى الرغم من اللعنات التي صببتُها عليها إلا أنَّ قلبي كان يقولُ " أحبكِ، أحبكِ، أحبكِ... "

رحتُ أُردِّدُ هذه العبارة الحمقاء، وأنا أزحفُ إلى السرير، وأتأوَّه. تأوَّهتُ كسمكةٍ جريحة.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

في اليوم التالي، وبينما كنتُ أُنقِّبُ في سلة المهملات بحثاً عن رسالةٍ مفقودة، عثرتُ على رسالة مجعّدة من الواضح أنّ المفوّض كان قد رماها هناك باحتقار. كان خط الكتابة رفيعاً ومهزوزاً، كأنما خُطَّ بيدِ رجلٍ عجوز، لكنه مقروء على الرغم من الالتفافات المتعمّدة التي كان يُفرِحه أن يستخدمها. ألقيتُ نظرةً واحدةً عليها، ثم زلقتُها داخل جيبي لكي أقرأها في وقت الفراغ.

هذه الرسالة، السخيفة والمثيرة للشفقة على طريقتها، هي التي انتشلتني من القلق. فإذا كان المفوّض قد رماها هناك فقد فعلَ ذلك بأمرٍ من ملاكي الحارس.

كانت تبدأ هكذا " سيدي المُبجَّل... " ومع الكلمات التالية مباشرةً انزاحَ ثقلٌ عن صدري. فقد اكتشفتُ ليس فقط أنَّ في إمكاني أن أضحك كما في الماضي، بل أني أستطيع أنْ أضحك على نفسي، وهذا أكثر أهمية بكثير.

" سيدي المُبجَّل: آمل أن تكونَ في أحسن حال وأتمّ صحة في هذا الطقس الشديد التقلُّب الذي نمرُّ به حالياً. من ناحيتي أنا في أحسن حال في الوقت الحالي ويسعدني أن أقول هذا "

ثم، ودون أن يزيد على هذا، باشرَ مؤلِّف هذه الوثيقة الغريبة محاضرته الرنَّانة التشجيرية- الأنانية. وها هي كلماته...

" أودُّ أن تقدِّمَ لي معروفاً خاصاً جداً نابعاً من قلبٍ شفوقٍ عطوفٍ وتتلطَّف وتطلب من رجالِ هيئة الحدائق أن يقوموا بالجولة الآن وليبدءوا بخطوطِ بورو لمنطقة كوينز وكوينز كينغ ومن ثم ينطلقوا نحو الخارج شرقاً وخلفاً جهة الشرق وأيضاً شمالاً وجنوباً ويزيلوا الأعداد الكبيرة من الأشجار الميتة والمحتضرة المنحنية والمائلة وتوشكُ أن تسقط وتسبِّب الضرر للحياة الإنسانية، والحيوانية والممتلكات، وأن يقوموا بتشذيب، وتقليم، وكشط الأشجار الصالحة كلها الكبير منها والصغير بشكلٍ جيد، وشامل، ومنهجي، ومتساوق، من القاعدة إلى آخر الأجزاء العليا كلها.

" أودُّ أن تُقدِّمَ لي معروفاً خاصاً جداً ونابعاً من قلبٍ شفوق عطوف وتتلطَّف وتطلب من رجال هيئة الحدائق العامة أن يُخفِضوا أطوال الأشجار المفرطة النمو والكثَّة القمم حتى علوّ خمسة وعشرين قدماً ويُقصِّروا كل الأغصان والغصينات الطويلة كلها كثيراً وأن يُخفِّفوا العبء عن أجزاء الأشجار إلى أقصى حدٍ من القاعدة وحتى أعلى الأطراف بحيث يُفسحوا المجال لأكبرِ قدرٍ من الضوء ؛ الضوء الطبيعي، والهواء، والجمال، والكثير الكثير من الأمان للمارة، وللطرقات العامة وللمناطق المجاورة على طول الشوارع، والجادات، والساحات، ودروب السيارات، والدروب الضيقة، والواسعة، والشوارع المُشجَّرة، والمساطب، والشوارع المشجَّرة (شوارع تُسمَّى أفنية، وأزقَّة، الخ) وداخل الحدائق العامة وخارجها.

twitter @baghdad_library

" أودُّ أن أطلب من كل قلبي، وبكل لطف وبإلحاحٍ شديد أن تشذَّب الأغصان والغصينات وتُقلَّم وتُقشط على مسافة اثني عشر أو خمسة عشر قدماً من الجدران الأمامية، والجانبية والخلفية للمنازل والأبنية الأخرى من كل نوعٍ وتمنعها من الاتصال بها بنا أنَّ عدداً كبيراً منها تمَّ تشويهه من قِبَل التي تتصل بها، وبالتالي تمنحُ قدراً كبيراً من الضوء، والضوء الطبيعي، والهواء، والجمال والكثير الكثير من الأمان.

" أودّ منك أن تطلب من رجال هيئة الحدائق أن يُشذِّبوا، ويُقلِّموا ويكشطوا الغصينات والأغصان على مسافة اثني عشر حتى ستة عشر قدماً فوق مستوى الأرصفة، والممرات المبلَّطة والأرضيات، والحواجز الحجرية للأرصفة، الخ ؛ وألاّ تسمح لهم بأن يتركوها تتدلى كثيراً كما هو حال غالبيتها الآن وبالتالي يوفِّروا مسافةَ ارتفاع كبيرة للسير تحتها كما... "

وتتواصلُ على هذا المنوال، دائماً مُفصَّلة ومُحدَّدة، بأسلوبٍ لا يتغيَّر أبداً. وإليك فقرة أخرى -

"أودُّ أن تطلبَ بكل لطفٍ تشذيب، وتقليم، وكشط الأغصان والغصينات مسافةً طويلةً وتحت مستوى أسقُف المنازل والأبنية الأخرى بكثير وأن تتم المباعدة ما بين الأغصان والغصينات بشكلٍ واسع في كل شجرة وألاّ يُسمح للأغصان والغصينات أن تفيضَ، أو تتدلّى، أو تتعارض، أو تنضفر، أو تتعانق، وتتكتَّل أو تحتكّ مع الأشجار المجاورة وبالتالي تُسحِ المجال للمزيد من الضوء الوافر، المزيد من الضوء الطبيعي، والهواء، والجمال، وليتوفَّر الكثير الكثير من الأمان للمارة، وللشوارع العامة وللمناطق المجاورة لأرجاء كوينز كاونتي، ونيويورك..."

*

كما قلت، بعد الانتهاء من قراءة الرسالة شعرتُ بارتياحٍ تام، وبتصالحٍ مع العالم، وبانغماسٍ أقصى في ذاتي الثمينة الخاصة. وكأنَّ قسطاً من ذلك الضوء - " الضوء الطبيعي الوافر " - أغارَ على كياني. لم أعُد مُغلَّفاً بضبابة اليأس. كان هناك مزيدٌ من الهواء، والضياء، والجمال، يغمرُ المناطق المجاورة كلها: مناطقي الداخلية.

لذا، وعصر ذات يوم سبت توجَّهتُ مباشرةً إلى جزيرة مانهاتن. وفي ساحة تايمز ظهرتُ على السطح، وتناولتُ لقمةً سريعة في " الأوتومات "، ثم ملتُ بسفينتي ناحية أقرب صالة رقص حصراً. ولم يخطر في بالي أني إنما أُكرِّرُ نَمَطاً أعادني إلى وضعي الحاضر المُحبَط. ولم أتذكَّر أني كنتُ قد ارتقيتُ الدرجَ الشديد الانحدار والمزعزِع لقاعة رقصٍ أخرى في برودواي لأعثرَ هناك على حبيبتي إلاَّ وأنا أشقُّ طريقي خلال البوابات الضخمة لقاعة إتشيغومي للرقص الكائنة في الطابق الأرضي لبناءٍ ذي مظهرٍ مجنون من مقهى موزمبيق. ومنذ تلك الأيام تحرَّرَ عقلي تماماً من تلك المرابع الليلية التي تدفعُ فيها رسم دخول، ومن ملائكة الرحمة اللواتي يسلبنَ بكل وقار زبائنهنَّ النهمين إلى الجنس. كل ما كنتُ أفكِّرُ فيه حينئذٍ هو سويعاتٍ من الهروب من الضجر، سويعات من النسيان - وفي أنْ أحصل عليها بأرخص ثمن ممكن. لم أكن أخشى أن أقعَ في شِباك الحب مرة أخرى أو حتى في أن أحصل على مضاجعة، على الرغم من حاجتي الماسّة إليها. كنتُ أتوقُ فقط إلى أن أُصبح كأي إنسانٍ عاديّ، أو قنديل بحر، إذا شئت، في المحيط المتلاطم. لم أكن أطلب أكثر من أن أتلاطمَ في بركةٍ مُدوِّمةٍ من اللحم العَطِر تحت قوس قُزحٍ تحت-مائيّ من أضواءٍ مُلطِّفة ومُسكِرة.

twitter @baghdad_library

لدى ولوجي المكان شعرتُ كأني مُزارع آتٍ إلى المدينة. انبهرتُ على الفور، انبهرتُ ببحر الوجوه، بالدفء الكريه الرائحة الذي يشعّ من مئات الأجساد الملتهبة بالإثارة، بدويّ الفرقة الموسيقية، بدوّامة الأنوار المتنوعة الألوان. الجميع كانوا متناغمين مع إيقاع الحمّى، كما بدا. الجميع بدوا منتبهين ومتيقّظين، منتبهين بشدّة، متيقّظين بشدة. وكان الهواء يفرقعُ بتلك الرغبة الكهربائية، بذاك التركيز المستنزف. وتصادم ألف نوع من العطور معاً، ومع حرارة الصالة، ومع العَرَق والتعرُّق، والحمّى، وشبق النزلاء، ذلك أنهم كانوا حتماً، وكما بدا لي، نزلاءً بشكلٍ أو بآخر. ربما نزلاء ردهة الحب المهبليّة. نزلاء جليديون، يتقدّمون متتابعين بشفاهٍ متباعدة، شفاهٍ حارّة، جافة، شفاهٌ نهمة، ترتعش، تتوسل، تنشج، تتضرَّع، تمضغ شفاهاً أخرى وتُطرِّيها. وهم صاحون أيضاً كلهم. صاحون بكل ما في الكلمة من معنى. بل مفرطو الصحو، في الواقع. صاحون كمجرمين يوشكون أن يُنجِزوا عملاً ما. ويتكوّمون كلهم فوق بعض على هيئة قالبِ كعكة ضخمة الحجم، مدوِّمة، والأضواء الملوَّنة تلهو على وجوههم، وصدورهم، وأوراكهم، تقطعهم إلى شرائط تتعقَّد وتتشابك، لكنهم دائماً يتحرَّرون بمهارة وهم يدوِّمون، جسداً إلى جسد، وخداً إلى خد، وشفة إلى شفة.

كنتُ قد نسيتُ كيف تكون حمَّى الرقص تلك. أصبحتُ وحيداً أكثر مما ينبغي ؛ شديد الالتصاق بحزني، ومُخرَّباً بالتفكير. وها هو الحماس يطلُّ بوجهه المجهول والأحلام المشذَّبة، والأرض ذات أصابع الأقدام المتلألئة، والأرداف الملساء، والشعور المُرسلة، والآنسة فيكتوريا نيانزا، لأنَّ مصر لم تعُد موجودة، ولا بابل، ولا وادي بني هنّوم[٦٢]. ها هم

المهرِّجون في ذروة دورتهم النزويّة يسبحون مُعتلين موج النهر بحثاً عن نهاية الأشياء كلها ؛ وها هي الميناداتُ[63] العجائز، يولدن من جديد على أنين آلة الساكس وصوت البوق المكتوم ؛ ها هي مومياءات ناطحات السحاب تُخرجُ مبايضها الملتهبة لتهويّها، بينما العزفُ المتواصل للموسيقا يُسمِّمُ المسام ويُخدِّرُ العقل، ويفتحُ البوابات الموصدة. بالعرق والتعرُّق، بالعبق الكريه المُقزِّز للنفس، المسيطر للعطور ومزيلات الروائح الكريهة تمتصُّ مراوح التهوية كل شيء بتكتُّم ,وتبقى الرائحة الكهربائية للشبق مُعلّقةً كهالةٍ مُدلاّة في الفضاء.

أتمشّى جيئةً وذهاباً بجانب قوالب شوكولاة هيرشي ألموند المرصوص بعضها فوق بعض كقوالب الذهب النفيس، وأحتكُّ بالحشد. آلافُ الابتسامات تنهالُ عليّ من كل اتجاه ؛ وأرفعُ وجهي وكأنما لألتقط قطرات الندى الوامضة التي يُبعثرها النسيم الرقيق. ابتسامات، ابتسامات. وكأنَّ الأمرَ لا صِلة له بالحياة والموت، بسباقٍ إلى الرحم وعودةٍ منه. رفرفة، وحفيف، كافور وكرات لحم السمك، وزيت أوميغا... أجنحة منشورة حتى آخرها، أعضاءٌ عاريةٌ ومُعرَّضة للّمس، وراحات أكُف رطبة، وجبهات تلمعُ، وشفاه جافة، وألسنة متدلية. أسنان تومض كالإعلانات التجارية، عيون براّقة، تطوف، تعرّي المرء... عيونٌ خارقة، ثاقبة، بعضها يفتِّشُ عن الذهب، والبعض عن نكاح، والبعض عن القتل، ولكن كلها براّقة، براّقة بلا حياء، ببراءة، ككفَّيّ الأسد الأحمرين. وتتظاهر، نعم، تتظاهر، بأنه عصر يوم سبت، أرضيّة كأي أرضية أخرى، والعاهرة هي عاهرة، لا بطاقة لا نكاح، اشتريني، خذني،

twitter @baghdad_library

شُدَّني، كل شيء حَسَنْ في إتشيغومي، لا تتركني وترحل. أليس دافئاً، نعم، أحبّ ذلك، أحبه فعلاً، عضّني مرة أخرى، أقوى، أقوى...

*

أدخُلُ وأخرجُ، مُقدِّراً أبعادهنّ - الطول، الوزن، البنية - أُدلِّك الخصور معاً، أُقدِّر حجم الصدور، والمؤخرات، والخصور، أُدقِّقُ في تسريحات الشعر، والأنوف، والوقفة، والأفواه المفترسة نصف المفتوحة، وأخرى مغلقة... أتمايلُ، أنزلقُ، أندفعُ، أحفُّ، وأجدُ كيفما اتَّجهتُ بحراً من الوجوه، بحراً من اللحم المنحوت بضرباتٍ منحنية من النور، والحشد كله ملتصق معاً في خليطٍ راقصٍ ضخم. وفوق ذلك الخليط الحار من اللحم المدوِّم داخل وعاء الكعك كانت ثرثرة الآلات النحاسية، وأنين آلات الترومبون، والساكسفون المتخثِّرة، والترومبونات بصوتها الثاقب، كل شيء كان أشبه بنارٍ سائلة تتجه مباشرة إلى الغدد. وعلى الجوانب وقفتْ كحرَّاسٍ عطاشى برطماناتٌ ضخمةٌ مقلوبٌ رأساً على عقب مملوءة بعصير البرتقال، والليمونادة، والفشّاغ[٦٤]، والكوكا كولا، وجعة الجذور، وحليب الحمير وعجينة شقائق النعمان الذابلة. وفوق ذلك كله همهمة مراوح التهوية التي لا يكاد يُسمع لها صوت وتمتصّ الرائحة النتنة، الزنخة لمزيجِ اللحم والعطر، لتُخرِجها من فوق رؤوس الحشود المارة في الشارع.

جِدْ أحداً! هذا كل ما كنتُ أفكِّرُ فيه. ولكن مَنْ؟ رحتُ أدور وأدور متجولاً، ولكن لم أجد مَنْ يناسبني. بعضهنّ كنَّ رائعات، فاتنات - كالطيز، إنْ صحّ التعبير. أردتُ أكثر من ذلك. لقد كان بازاراً، بازاراً للَّحم - فلم لا أنتقي منه؟ معظمهن كن ذات مظهر فارغ لأرواح فارغة كما كنَّ فعلاً. كيف لا وهُنَّ لا يتعاملن إلا مع البضائع، والنقود،

والرقع، والأزرار، والأطباق، وبوالص الشحن، يوماً بعد يوم؟ هل يجب أن يتَّصِفنَ بالشخصية القوية؟ بعضهُنَّ، كالطيور الكاسرة في الجو، كنَّ يحملن ذلك المظهر العصبيّ على الوصف لخرابٍ تذروه العاصفة - لسن عاهرات، أو مومسات، أو بائعات في محال تجارية، ولا غريزيلدات[٦٥]. بعضهنَّ كنَّ يقفنَ كأزهارٍ ذابلة أو كعصيٍّ ملفوفة بمناشف مُبلَّلة، والبعض الآخر، شبيهات بأعشاب الطيور[٦٦]، بَدَونَ وكأنهنّ يأملن في أن يتمَّ اغتصابهن، دون أن ينالهنّ ضررٌ جدّي. الطعم الحيوي الجيد كان في ساحة الرقص، يتلوّين، ويتمايلنَ، وأوراكهنَّ الفصيحة تلمع كتموُّجات.

في زاويةٍ كائنة بجانب كشكٍ لبيع البطاقات كانت المضيفات يتجمَّعن ؛ مشرقات ونضرات، وكأنهنَّ خرجنَ للتو من المغطس. كلهنَّ صفَّفنَ شعورهنَّ، وارتدين ملابس بشكلٍ غاية في الجمال. كنَّ يقفنَ في انتظار مَنْ يشتريهن، إذا شاء الحظ، ويقدِّم لهن نبيذاً وطعاماً ؛ في انتظار مجيء الرجل المناسب، المليونير المُتخَم الذي قد يعرضُ عليهنَّ الزواج في لحظةٍ من الغفلة.

وقفتُ عند السياج أتفحّصهنَّ بهدوءٍ ببصري. لو أننا في حي يوشيوارا[٦٧] الآن... لو أنهنَّ، حين تنظر إليهن، يتعرَّينَ، يقمن ببعض الإيماءات الفاحشة، ينادين عليك بصوت أجش. لكنَّ صالة إتشيغومي كانت تتبع برنامجاً مختلفاً. وهو يقترح عليك أن تقوم بكل لطف وصدق باختيار زهرة تنتقيها، وتقودها إلى وسط الحلبة، تتودَّد وتغازل، تأخذ قضمة رقيقة ثم التهاماً، وتتلوّى، وتتمايلُ، وتشتري مزيدا من البطاقات، وتقدِّم للفتاة مشروباً، وتتكلّم بكياسة، وتأتي في الأسبوع التالي، وتنتقي زهرةً جميلةً أخرى، وشكراً جزيلاً لك، وتصبح على خير.

twitter @baghdad_library

تتوقف الموسيقى قليلاً ويذوب الراقصون كرقائق الثلج. تنزلق فتاة ترتدي ثوباً أصفر اللون فاتحاً عائدةً إلى كشك العبيد. تبدو كوبيّة، تميل إلى القصر ،متينة البنية، وذات فم لا يُقاوَم. أنتظرُ برهةً لكي أتيح لها فرصة لتجفِّف عرقها، إن صحَّ التعبير، ثم أتقدَّم. تبدو في الثامنة عشرة وقادمة طازجة من الغابة. أبنوس وعاج. تحيَّتها ودود وطبيعية - ليست ابتسامةً مُعدَّة مُسبقاً، ليست كعدَّاد النقود. إنها جديدة على المهنة، كما اكتشفتُ، وهي كوبيّة فعلاً (ما أروعَ هذا!) باختصار، هي لا تُمانع كثيراً في أن تُفتَرَس، في أن تُمضَغ حتى التفتُّت، **الخ** : إنها ما تزال تمزجُ المتعة بالعمل.

دُفِعنا إلى وسط الحلبة، وحُشِرنا بين الناس، وبقينا هناك نتحرَّك كيرقتين، وسرعان ما أغفى الرقيب، وأُخفِتَتْ الأضواء، وأصبحت الموسيقا تزحف كعاهرة مدفوعة الأجر من كروموسوم إلى كروموسوم. وتصل الرعشة الجنسية فتتراجع خشية أن يتلوَّث ثوبها.

أعودُ إلى الحاجز وأنا أرتعشُ كورقةِ نبات. كل ما أشمّه الآن هو رائحة كس، كس، كس. لم يعُد للرقص أي فائدة عصر هذا اليوم. يجب أن آتي مرة أخرى من يوم السبت القادم. ولِمَ لا ؟

وهذا بالضبط ما أفعله. ففي يوم السبت الثالث أصادفُ قادمةً جديدةً في كشك العبيد. جسدها رائع، ووجهها، المُشظَّى هنا وهناك كتمثال قديم، يُثيرني. إنها أكثر ذكاءً بقدرٍ ضئيل من الأخريات، ولا ضيرَ في ذلك، وهي ليست جشعة إلى المال. وهذا الأمر ببساطة خارق.

حين لا يكون لديها عمل أرافقها لمشاهدة فيلمٍ سينمائيّ أو إلى صالة رقصٍ رخيصة في حيٍ آخر. ولا يهمُّها إلى أين نذهب. كل ما

يهمُّها هو أن أُحضِرَ معي ما يُشرَب. وهذا لا يعني أنها تريد أن تسكر، كلا... إنه يجعل الأمور أسهل، كما تعتقد. إنها فتاة ريفية من ولاية شمالية.

الجلوس معها يخلو من أي توتّر. فهي تضحكُ بيسر، وتستمتع بكل شيء. حين أصحبها إلى منزلها - وهي تُقيمُ في مثوى عام - ونضطر إلى الوقوف في الرواق ونقومُ بأفضل ما في إمكاننا ؛ وهو عملٌ يحطِّمُ الأعصاب، بوجود النزلاء رائحين غادين طوال الليل.

أحياناً، عند مغادرتي لها، أتساءلُ كيف أنني لم أنخع هذا النوع من قبل، النوع الطيّع، بدل أولئك الصعبات المراس؟ هذه الفتاة ليس لديها ذرَّة من طموح ؛ لا شيء يزعجها، لا شيء يُقلقها. بل إنها لا تقلق من أنْ "يُقبّضَ عليها "، حسب قولها. (لعلها ماهرة في عمل إبرة الرفو)

لا يتطلَّب الأمر الكثير من التفكير لإدراك أنَّ سبب مناعتي يعود إلى أني أُصابُ بالملل الشديد فوراً. على أي حال، لا يكادُ يوجد خطر من ارتباطي بها برباطٍ متين. أنا نفسي ثاوي[٦٨]، ولستُ فوق سرقة الفكَّة من كيس نقود صاحبة المنزل.

قلتُ إنَّ تقاطيع جسمها رائعة، هذه المخلوقة الليلية. وهذا صحيح. كانت ممتلئة وريَّانة، ولدنة، وملساء الملمس كحيوانِ الفقمة. حين كنتُ أُمرِّرُ يديَّ على ردفيها أنسى همومي كلها، ونيتشه، وسترنر[٦٩] وباكونين[٧٠] أيضاً. وإذا كنتُ لا أستطيعُ أن أقول بالضبط إنَّ فمها جميل، فقد كان جذاباً ومُثيراً للاهتمام. لعلّ أنفها كان طويلاً قليلاً، وثخيناً قليلاً، لكنه كان يلائمُ شخصيتها، يُلائمُ كسّها الضاحك ذاك. ولكن حالما بدأتُ أُجري مقارنةً بين جسمها وجسم مونا عرفت أنَّ لا فائدة

twitter @baghdad_library

من الاستمرار في ذلك. إذ مهما كانت مزايا الدم واللحم التي تحملها، هذه الفتاة، تبقى دماً ولحماً. ليس لديها أكثر مما تراه وتلمسه، وتسمعه وتشمّه. أما مونا فحكايةٌ أخرى تماماً. إنَّ كل جزءٍ من جسمها يُلهبني. تكمنُ شخصيتها في حَلَمَة ثديها الأيسر، إن صح التعبير، بقدر ما تكمن في إصبعِ قدمها اليمنى الصغير. واللحم يتكلم من كل جزءٍ، وزاوية. والغريب في الأمر أنَّ جسمها أيضاً لم يكن مثالياً، لكنه كان متناغماً واستفزازياً ؛ ويعكس تقلُّبات مزاجها. لم تكن بحاجة إلى أن تتمايلُ وتبرزه بحركاتها ؛ كان عليها فقط أن تسكنه، أن تكونَ هو.

وكان جسد مونا يتَّصِفُ أيضاً بما يلي - كان يتغيَّر باستمرار. أذكرُ جيداً الأيام التي سكنّا خلالها مع الطبيب وعائلته في برونكس، حين كنا نأخذ دشّاً معاً، يُصوبنُ أحدنا الآخر، نتعانقُ، نتناكحُ كأفضل ما يكونُ النكاح - تحت الدش - بينما الصراصير تتدفق صاعدةً هابطة الجدران كجيوشٍ كاملة العتاد. كان جسدها حينئذٍ غير متناسق ؛ كان اللحم يتدلى عند الخصر على شكل طيّات، وثدياها رخوين، والردفان شديديّ التسطُّح، كأنهما لصبي. لكنَّ ذلك الصبي نفسه، الذي يرتدي ثوباً من البوكر السويسري القاسي المُنقَّط، كان يتَّصِفُ بكلِّ فتنةِ وإغواءِ جسدِ فتاةٍ لعوب ؛ فالعنقُ ممتلئ، كنتُ دائماً أسمّيه عنقاً رخامياً، وكان يتلائَمُ مع الصوت المرتعش، المكفهرّ النبرة والعميق، الذي يصدر عنه. ومع مرور الشهور والسنين أخذ هذا الجسد يمرُّ بأنواع التغيرات كلها. أحياناً يصبحُ مشدوداً، ونحيلاً، أشبه بالطبل، بل يكادُ يكون مفرط الشدّ والنحول ؛ ومن ثم يتغيَّرُ مرة أخرى، وكل تغيير يطرأ يسجِّل تحوُّلاً داخلياً فيها، وتقلُّبها، وتنوُّع أمزجتها، واشتياقها وإحباطها. لكنه يبقى

دائماً استفزازياً - مفعماً بالحيوية، ومتجاوباً، يخزُ، ينبضُ بالحب، والحنان، والشغف. في كل يوم يبدو كأنه يتكلَّمُ بلغةٍ جديدة.

إذن أي سلطة يمكنُ لجسدِ شخصٍ آخر أن يمارسها ؟ في الغالب هي مجرد سلطة عابرة، واهنة. لقد وجدتُ الجسدَ المطلوبَ، ولا ضرورةَ لجسد آخر. لن يشبعني تماماً أي جسدٍ آخر. كلا، النوع الضاحك ليس لي. إنَّ اختراقَ ذلك النوع من الأجساد أشبه بسكين تخترقُ ورقة كرتون. وما كنتُ أتوقُ إليه هو النوع المتملّص (صورَّتُهُ على هيئة عظاءة متملّصة)؛ المتملّص والنَهِم في وقتٍ واحد ؛ جسد كجسد مونا، كلما امتلكه المرءُ امتلكه الجسدُ أكثر. جسدٌ يجلب معه بلايا مصر كلها - بعجائبها، وروائعها.

جربّتُ صالةَ رقصٍ أخرى. كل شيء كان ممتازاً - الموسيقا، الأضواء، الفتيات، وحتى مراوح التهوية. لكني لم أشعر أبداً بمثل ما شعرتُ به هناك من وَحشةٍ، وأسى. رحتُ أراقصُ، يملؤني اليأس، فتاةً بعد أخرى، وكلُّهنَّ متجاوبات، مستسلمات، طيِّعات، سهلات القياد، كلهن حسناوات، جميلات، ناعمات وسمراوات، لكنَّ اليأسَ تملَّكَني، سحقني ثقلُه. ومع انقضاء فترة العصر اعْتصَرَني شعورٌ بالغثيان. الموسيقا بشكلٍ خاص أثارت اشمئزازي. كم ألف مرة ومرة سمعتُ تلك الأنغام الشاحبة، السقيمة، البلهاء تماماً لكلماتها المُقزِّزة للنفس عن الحب! إنهم ذرِّيةٌ من القوَّادين والجواسيس الذين لم يعرفوا أبداً غصَّة الحب. رحتُ أردِّد لنفسي " شيءُ جنينيّ ". إن موسيقا الأجنَّة هي للأجنة، هي الكسلانُ[٧١] ينادي على أليفته في خمسة أقدام من مياه المجرور ؛ وابن عرس يبكي رفيقته التائهة ويغرقُ في بوله. إنها **رومانسيةٌ** جماع زهرة البنفسج مع نبتةٍ عفنة ؛ و كلمة **أحبك** مكتوبة على ورقة

twitter @baghdad_library

مرحاض حريرية، فاخرة، مسدٌّ عليها ألف مشطٍ سوبر فاخر ؛ قوافي ابتدعها لوطيون جُرب ؛ وكلمات وَضَعَها زلال البيض ورفاقه. يا لطيف!

هربتُ من المكان وأنا أفكِّرُ في الاسطوانات الأفريقية التي اشتريتُها ذات مرة ؛ فكَّرتُ في حرارة الدم، الثابتة والمستمرة، التي أشاعتْ الحياة في موسيقاهم. لا يوجدُ غير إيقاع الجنس، الثابت، المتكرِّر، العنيف - ولكن كم كان منعشاً، ونقياً، وبريئاً!

كنتُ في حالةٍ فظيعةٍ حتى أني شعرتُ برغبةٍ في إخراج أيري، وسط شارع برودواي، واستمنائه. تصوَّر مهووساً جنسياً يُخرِجُ أيره - في عصر يوم سبت! - وعلى مرأى من رواد مقهى **أوتومات**!

أخذتُ أتمشّى، وأنا أرغي وأزبد، حتى وصلتُ إلى سنترال بارك وهناك ارتميتُ على العشب. لقد نفدتْ النقود، فما العمل؟ هوسُ الرقص... كنتُ ما أزالُ أفكر فيه ؛ ما أزال أرتقي ذلك الدرج الشديد الانحدار لأصل إلى كشك بيع التذاكر حيث يجلس اليوناني الكثيف الشعر ويقبض النقود (" نعم، ستصل قريباً ؛ لماذا لا ترقص مع إحدى الفتيات الأخريات؟ ") في الغالب هي لا تظهر أبداً. وفي إحدى الزوايا جلس الموسيقيون الملونون، على منصة، وهم مُنهمكون في عملهم كأنهم في حالةِ غضبٍ شديد، يتعرَّقون، يلهثون، يئزّون ؛ يكدحون ساعةً بعد ساعة ودون انقطاع. لا يجدون فيه أي متعة، وكذلك الأمر مع الفتيات، وإنْ كنَّ يبلّلنَ سراويلهنَّ أحياناً. كان على المرء أن يكونَ معتوهاً حتى يتعاملَ مع مربْعٍ وضيعٍ كهذا.

أفسحتُ المجالَ لإحساسٍ لذيذٍ بالنعاس، حتى كدتُ أُغمض عينيّ، وإذا بصبيَّةٍ فاتنةٍ تظهرُ فجأةً وتجلسُ على مكان مرتفع قليلاً عن مكاني.

لعلّها لم تكن تعي، وهي في موقعها الذي اتّخذته، أنَّ أجزاءِ جسمها الخاصة مكشوفةٌ كليّاً للعيان. لعلّها لا تأبه. لعلّه أسلوبها في الابتسام لي، أو الغمز. لم يكن فيها ما ينمُّ عن وقاحة أو سوقيّة ؛ كانت أشبه بطائرٍ ضخمٍ رقيقٍ حطَّ ليأخذَ قسطاً من الراحة.

كانت غافلةً تماماً عن وجودي، وشديدة السكون، ويغلفها حلمُ يقظة، حتى أني أغمضتُ عينيّ وأغفيتُ، على الرغم من أنَّ هذا قد يبدو أمراً لا يُصدَّق. الشيء الثاني الذي عرفته هو أني لم أعد موجوداً على هذه الأرض. وكما أنَّ التعوُّد على الحياة الآخرة يستغرقُ وقتاً، كذلك الأمرُ في حلمي. وأغربُ شيءٍ يمكنُ التعوُّد عليه هو أنَّ لا شيءَ مما أردته كان يتطلَّبُ بذل أي جهد. فإذا رغبتُ في أن أركض، سواء ببطءٍ أم بسرعةٍ، كنتُ أفعلُ ذلك دون أن تنقطع أنفاسي. وإذا أردت أن أقفز إلى بحيرةٍ أو أن أنزلق فوق تلٍ، كنتُ أفعلُ ذلك ببساطة. وإذا أردتُ أن أطيرَ، أطير. لم يكن هناك ما هو أسهلُ من ذلك، مهما حاولت.

بعد مرورِ بعض الوقت أدركتُ أني لستُ وحدي ؛ كان هناك شخصٌ إلى جانبي، كشبح، يتحرَّكُ بالسهولةِ والثقةِ نفسيهما اللتين شعرتُ بهما. إنه ملاكي الحارس، في الغالب. وعلى الرغم من أني لم أقابل شيئاً يشبه المخلوقات الأرضية، إلا أني وجدتني أتحدثُ، مرةً أخرى دون عناء، مع كل ما أصادفه في طريقي. فإذا كان حيواناً، أخاطبه بلسانه؛ وإذا كانت شجرةً أتحدثُ إليها بلغة الأشجار ؛ وإذا كانت صخرةً، أتحدثُ إليها كأني صخرة. وقد عزوتُ تلك المقدرة على التخاطب بلغاتٍ متعدِّدة إلى حضورِ كائنٍ كان بصحبتي.

ولكن إلى أي عالم كان يقودني؟ ولماذا ؟

twitter @baghdad_library

أخذتُ أعي تدريجياً أني كنتُ أنزفُ، أني في الواقع كنتُ كتلةً من الجِراح، من رأسي وحتى أخمصي. عندئذٍ مَسَّني الفزع، وأُغميَ عليَّ. وحين فتحتُ عينيّ أخيراً دُهِشتُ إذ رأيتُ الكائنَ الذي في صحبتي يغسلُ بكل رقّة جراحي، ويدهنُ جسمي بالزيت. فهل أشرفتُ على الموت؟ أهو ملاكُ الرحمة مَنْ يميلُ عليَّ بجزَع؟ أم أني اجتزتُ الخط الفاصلَ العظيم؟

حدَّقتُ في عينيّ صاحبي المُعزّي متوسلاً. ونظرةُ الشَفَقَة المُبهمة التي أضاءتْ قَسَمات وجهه بثّتْ فيَّ الطمأنينة. لم أعد أهتمُّ بمعرفةِ ما إذا كنتُ ما أزالُ من هذا العالم أم لا. وغمرَ كياني إحساسٌ بالسلام، ومرةً أخرى أغمضتُ عيني. وببطء وثبات امتلأتْ أعضائي بنشاطٍ جديد؛ ما عدا أني شعرتُ بأنَّ إحساساً غريباً بالفراغ في منطقةِ القلب قد عاد بشكلٍ كامل.

بعد أن فتحتُ عينيّ ووجدتُ أني وحدي، وإنْ لم أكن مهجوراً وليس مخذولاً، رفعتُ يدي غريزياً ووضعتُها على قلبي. أصابني الرعب حين وجدتُ أنَّ هناك حفرةً عميقةً حيث يجب أن يكونَ القلب. حفرةٌ لا ينبعُ منها الدم. غمغمت " إذن فأنا ميِّتْ ". لكني كنتُ مؤمناً بخلاف ذلك.

في تلك اللحظة الغريبة، وأنا ميِّتْ وليسَ ميتاً، فتحتُ بوابات الذاكرة واسعاً ورأيتُ في أروقة الزمن ما يجب ألا يُسمحَ لأي إنسانٍ أن يراه إلا إذا كان مستعداً للموت: رأيتُ في كل مرحلةٍ ولحظةٍ من ضعفهِ المُثير للشفقة الشخصَ البائسَ بكل معنى الكلمة الذي كنتُه، الوغد، ولا أقلّ، الذي كافحَ عبثاً وبشكلٍ مُذلّ لحماية قلبه الصغير البائس. رأيتُ أنه لم ينكسر أبداً، كما تخيَّلت، لكنه انكمشَ، وقد شُلَّ من فرط الخوف، حتى درجة العدم. رأيتُ أنَّ الجِراحَ المُثخنة التي أضعفتني

تَلَقَّيتُها كلها خلال محاولةٍ لا معنى لها لمنعِ هذا القلب الواهن من التحطُّم. القلبُ نفسه لم يُمسّ أبداً ؛ لقد تضاءلَ من قِلَّة الاستعمال.

هذا القلب اختفى، أُخِذَ مني، على يدِ ملاكِ الرحمة دون شك. وقد شُفيتُ وبرأتُ بحيث أني قد أستمرُّ في العيش في الموت كما لم أعِشْ في الحياة. بما أني لم أعُد سريع التأثُّر، فما حاجتي إلى قلب؟

أستلقي هناك منبطحاً على وجهي، وقد عادت إليَّ قِوايَ وحيويتي، وطَرَحَتني شناعةُ قَدَري أرضاً كأني صخرة، وإحساسي بخواءِ وجودي يغمرني. كنتُ قد حقَّقتُ المناعة ؛ أصبحتْ مِلكي إلى الأبد. أما الحياة - إنْ كانت تلك حياة - ففقَدَتْ كل معنى لها. أصبحتْ شفتايَ تتحركان كأنهما تصليان لكنَّ التعبير عن كربي خَذَلَني. ولما كنتُ بلا قلبٍ فقدتُ قُدرتي على التواصُل، حتى مع خالقي.

مرةً أخرى تمثَّلَ الملاكُ أمامي. كان يحملُ بيديه المُكوَّبتين كعربةٍ صغيرة ما يشبه القلب المنكمش المسكين الذي كان قلبي. أخذ ينفخ تلك الجمرة التي تبدو مُطفَأةً، وهو يمنحني نظرةً ملؤها الحنوّ، إلى أن انتفختْ وامتلأتْ بالدم، وأخذتْ تخفِقُ بين أصابعه كقلبٍ إنسانيّ حيّ.

بعد أن أعاده إلى مكانه تحرَّكتْ شفتاه وكأنه يمنحني البركة، لكنه لم يُصدِرَ أي صوت. لقد غُفِرَ لي ذنبي ؛ وأصبحتُ حراً في أن أرتكبَ الإثمَ مرة أخرى ؛ حراً في أن أحترقَ بلهبِ الروح. لكني في تلك اللحظة عَلِمتُ، ولن أنسى أبداً أبداً أبداً، أنَّ القلبَ هو الآمرُ الناهي ؛ القلب هو الذي يعقدُ الروابطَ ويحمي. وهو لن يموت، لأنه مُصان في أيدٍ عظيمة.

ما أشدَّ الفرحَ الذي تملَّكَني عندئذ! وأي ثقةٍ مُطلَقَةٍ وكاملةٍ سَكَنَتني! نهضتُ واقفاً على قدميّ، وقد أصبحتُ كياناً جديداً كليّاً، ومددتُ

twitter @baghdad_library

ذراعيَّ لأعانقَ العالم. لا شيءَ تغيَّرَ ؛ إنه العالم الذي عرفْتُهُ دائماً. لكنني الآن أراه بعينين أخريين. لم أعد أسعى إلى الهرب منه، أو تجنُّب همومه، أو أن أعملَ على تغييره بأي قدْرٍ كان ؛ إنني بكُلِّيَتي منه ومُتَّحدٌ معه. لقد خرجتُ سالماً من وادي ظل الموت ؛ لم أعُد أخجلُ من أن أكونَ إنساناً، بل مفرط الإنسانيّة، بعد ذلك.

لقد عثرتُ على مكاني. إنني أنتمي. مكاني هو العالم، وسطَ الموت والخراب. اتَّخذتُ من الشمسِ، والقمرِ، والنجومِ رفاقاً لي. كان قلبي، الذي تنظَّفَ من الآثام، قد خلا من كلِّ خوف ؛ أصبحَ الآن يتوجَّعُ ليهِبَ نفسَه لأوَّلِ قادم. في الحقيقة، تكوَّنَ لديَّ انطباعٌ بأني أصبحتُ كُلِّي قلباً، قلباً لا يمكنُ أن يتحطَّمَ أبداً، ولا أنْ يُجرَح، لأنه لم يعُد ينفصل أبداً عن خالقه.

وهكذا، بينما كنتُ أتابعُ سيري قُدُماً إلى داخل قلب العالم، كان هناك دمارٌ كاملٌ ولم يعُد يسودُ غير الخوف. هتفتُ بكل ما في روحي من قوة – " خذوا قلبي، يا إخوتي ويا أخواتي! خذوا قلبي! "

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

لدى وصولي إلى المكتب في صباح يوم الاثنين وجدتُ برقيةً مُلقاةً على طاولة مكتبي. تقول بكل وضوح إنَّ السفينة التي تقلّها ستصل في يوم الخميس، وأنَّ عليَّ أن أقابلها على رصيف الميناء.

لم أخبر توني بأي شيء، سوف يرى في الأمر كله كارثة. وأخذتُ أُعيدُ قراءة الرسالة مرةً بعد أخرى؛ بدا شيئاً لا يُصدَّق.

استغرقَ مني استجماع شتات نفسي ساعات طويلة. وحين هممتُ بمغادرة المكتب في مساء ذلك اليوم نظرتُ إلى الرسالة مرةً أخرى لأتأكَّد من أني لم أخطئ في قراءتها. كلا، سوف تصل في يوم الخميس، لا خطأ في ذلك. نعم، في يوم الخميس القادم، وليس الخميس الذي يليه ولا الخميس السابق. إنه هذا الخميس. شيءٌ لا يُصدَّق.

أوَّل ما يجب عمله هو إيجاد مكان نُقيمُ فيه؛ غرفة صغيرة أليفة في مكانٍ ما، على ألا تكون مُكلفة. وهذا يعني أني يجب أن أقترض من جديد. ممَّن؟ حتماً ليس من توني.

لن يفرح أهلي كثيراً بسماع النبأ. تعليقُ أمي الوحيد كان - " آمل ألاّ تتخلى عن عملك الآن وقد قرَّرَتْ أن تعود "

حلَّ يوم الخميس وذهبتُ إلى رصيف الميناء، قبل الموعد المُحدَّد

بساعة. كانت تستقلُّ أسرع السفن الألمانية. وصلتْ السفينة متأخرةً قليلاً، ونزل الركاب، وغابت الأمتعة عن الأنظار، ولكن لم يظهر أي أثر لمونا أو ستيسيا. اندفعتُ، وقد ركبني الرعب، إلى المكتب حيث توجد نسخة من لائحة المسافرين. لا وجود لاسمها على اللائحة، ولا لاسم ستيسيا.

عدتُ إلى الغرفة الصغيرة التي كنتُ أستأجرها، وقلبي ثقيلٌ كالرصاص. كان في استطاعتها حتماً أن تبعث لي برسالة. كان ذلك تصرُّفاً قاسياً قسوةً قصوى، منها.

في صباح اليوم التالي، وبُعَيد وصولي إلى المكتب، تلقَّيتُ مكالمةً هاتفية من مديرية البرق ؛ لديهم برقية لأجلي. زعقتُ " اقرأها! " (يا للمغفَّلتين، ماذا كانتا تنتظران؟)

تقول الرسالة: " سنصلُ في يوم السبت على متن السفينة **بيرينغاريا**. مع حبي "

هذه المرة كان الأمرُ جدِّياً. راقبتُها وهي تتقدَّم هابطةً المعبَر. إنها **هي، هي**. وأشدُّ فتنةً من أي وقت سابق. وبالإضافة إلى صندوقٍ صغير من القصدير كان معها حقيبة سَفَر وحقيبة قبعات مزدحمة بما فيها. ولكن أين ستيسيا؟

ستيسيا ما تزال في باريس. لا تعلم متى ستعود.

رائع! قلت في نفسي. لا داعي لمزيد من الأسئلة.

في سيارة الأجرة، حين أخبرتُها عن أمر الغرفة التي استأجرتُها أبدتْ ابتهاجها، وعلَّقَتْ قائلة " سوف نجد مكاناً أفضل لاحقاً "

(قلتُ في نفسي " يا يسوع، كلا! ولماذا مكاناً أفضل؟ ")

twitter @baghdad_library

كان هناك ألف سؤال كدتُ أموتُ توقاً لأطرحه عليها لكني كبحتُ جماح فضولي. بل إني لم أسأل حتى لماذا بدَّلَتْ السفينة. ماذا يهمّ ما حدث بالأمس، أو قبل شهر، أو قبل خمس سنوات؟ لقد عادت - وهذا يكفي.

لم يكن هناك من حاجةٍ إلى طرح الأسئلة - كادت تجنّ لتخبرني بما لديها. كان عليَّ أن أتوسَّلَ إليها لكي تتكلّم ببطء، لا أن تُفرِغ كل ما لديها دُفعةً واحدةً. قلت " وَفِّري بعضها إلى وقتٍ لاحق "

بينما كانت تُنقِّب في الصندوق - وقد أحضَرَتْ معها أصناف الهدايا كلها، بما فيها الرسومات، والمنحوتات وألبومات الفن - لم أستطع مقاومة مُضاجعتها. وباشرنا في ذلك على الأرض وسط الأوراق، والكتب، والرسومات، والثياب، والأحذية وما إلى ذلك. ولكن حتى فترة المقاطعة هذه لم تكبح سيل كلامها. كان هناك الكثير ليُقال، والكثير من الأسماء لسردها. بدا لأذنيّ أشبه بلخبطة مجنونة.

قلتُ، بعد أن أسكَتُّها بسرعة " قولي لي شيئاً واحداً، هل أنتِ واثقةٌ من أني سأحبُّ الإقامةَ هناك؟ "

اتَّخَذَ وجهها تعبيراً غايةً في الانتشاء. " **تحبّها**؟ فال، إنها الحياة التي طالما حلُمتُ بها. أنت تنتمي إلى هناك. حتى أكثر مني. إنها تتَّصِفُ بكل ما تفتِّش عنه ولن تجده هنا أبداً. **كل شيء** "

ومن جديد انطلقَتْ في الكلام - الشوارع، وشكلها، والملتوية منها والمنحنية، والأزقة، والطُرُق المسدودة، والساحات الصغيرة الفاتنة، والجادات الواسعة، كتلك المتفرّعة عن " الإتوال "، ثم الأسواق، ومحلات اللحامين، وأكشاك بيع الكتب، والجسور، والنوافير، وحتى المبولات. وتُتابعُ وتُتابعُ، كإحدى جولات كوك[٧٢]. وكل ما استطعتُ أن أفعله هو أن

أُدير عينيّ في محجريهما وأهزُّ رأسي، وأصفِّقُ بيديّ. قلت في نفسي "إذا كانت جيدة بمقدار نصف ما تقولين فستكون رائعة "

كانت هناك ملاحظة بغيضة واحدة: النساء الفرنسيات. إنهنَّ حتماً لسن جميلات، أرادتني أن أعلم هذا. جذّابات، نعم. ولكن لسن جميلات، كنسائنا الأميركيات. من ناحيةٍ أخرى، الرجال مُثيرون للاهتمام وحيويّون، وإنْ كان من الصعب التخلُّص منهم. ورأتْ أني سأحبُّ الرجال، ولكن أمِلَتْ في ألاّ أكتسب عاداتهم، فيما يخصّ النساء؛ فهم يحملون مفهوماً " قرن-أوسطياً " حول النساء، في رأيها. إذ يحقُّ للرجل أن يضربَ المرأةَ أمام الملأ. وهتفتْ " مشهدٌ فظيع. لا أحد يجرؤ على التدخُّل، حتى رجال الشرطة يتغاضون "

استقبلتُ هذه العادة التقليدية بعين الريبة. إنها وِجهة نظر نسويّة. أما فيما يخصّ الجمال الأميركي، فإنَّ أميركا يمكنها أن تحتفظ بجميلاتها ؛ فلم يحدث مرةً أن جذبنني.

قالتْ، ناسيةً أننا لم نذهب إلى هناك معاً، " يجب أن نعود إلى هناك ؛ إنها الحياة الوحيدة التي تناسبك يا فال. هناك سوفَ تكتب، أعدك. حتى لو متنا من الجوع. هناك بدا أنَّ لا أحدَ معه نقود. ومع ذلك يعيشون - كيف، لا أعلمْ. على أي حال، كون الإنسان مفلساً هناك ليس ككونه مفلساً هنا. هنا الوضع فظيع. أما هناك فهو... يعني، يمكنك أن تقول إنه رومانسي. لكننا لن نكونَ مفلسين حين نعود إلى هناك. يجب أن نعمل بجدٍ الآن، وأن نوفِّر نقوداً، لكي يتجمَّعَ معنا على الأقلّ ما يكفينا لسنتين أو ثلاث حين نذهب "

كان ممتعاً الإصغاء إليها تتحدث بجدّية عن " العمل ". واليوم

twitter @baghdad_library

التالي، يوم الأحد، أمضيناه في التمشية، والتحدث. لا شيء غير وضع الخطط للمستقبل. ولكي نقتصد قرّرتْ أن نبحث عن مكانٍ يمكننا فيه أن نطبخ ؛ مكان أكثر شبهاً بالمنزل منه إلى الرواق الذي استأجرته وننام فيه. " مكانٌ يمكنك أن تعمل فيه " حسب تعبيرها.

كان المخطط مألوفاً أكثر مما ينبغي. قلت في نفسي، دعها تفعل ما تشاء. هذا ما ستفعله، في كل الأحوال.

قالت " لابد أنَّ تلك الوظيفة مملة جداً "

" ليس مملاً أكثر مما ينبغي "، وكنت أعرف ما هي جملتها التالية.

" آمل أنك لا تفكِّر في الاحتفاظ بها إلى الأبد؟ "

" كلا، يا عزيزتي ؛ قريباً سوف أعود إلى الكتابة من جديد "

قالت " هناك يبدو أنَّ الناسَ يتدبَّرون أمورهم أفضل مما يحدث هنا. وبقدرٍ أقلّ من المال. فإذا كان الرجل رسَّاماً فهو يرسم، وإذا كان كاتباً يكتب. لا أحد يؤجِّلُ الأعمال إلى أن تزدهر الأحوال ". وسكتت، مُعتقدةً دون شك أني سأُبدي ريبةً. ثم استأنفتْ قائلة، مع تغيير في نبرة صوتها " أعلم، فال، أعلمُ أنك تكره أن تراني أفعل ما أفعله لكي أضع الأمور في نصابها. أنا نفسي لا أحب ذلك. ولكن لا يمكنك أن تعمل وتكتب معاً، هذا واضح. وإذا كان على أحدنا أن يُضحّي، فلأكُن أنا. بصراحة، ليس فيما أفعله تضحية. إنَّ ما أعيشُ لأجله هو أنْ أراكَ تفعل ما تريد فعله. يجب أن تثقَ فيَّ، أن تثقَ في أني أفعلُ ما هو أفضل لك. وحالما نصل إلى أوروبا سوف تسير الأمورُ بشكلٍ مختلف. سوف تزدهر هناك، أنا متأكدة. إنَّ الحياة التي نعيشها هنا ما هي إلا حياة سقيمة، حقيرة. أتدرك يا فال أنه لم يعُد لديك أي صديق يهمُّكَ أن تراه؟ ألا يدلّكَ هذا

على أي شيء؟ هناك، كل ما عليك أن تفعله هو أن تجلس في مقهى، وعلى الفور سوف تعقد صداقات. ثم إنهم يتحدثون في المواضيع التي تحب أن تخوض فيها. أليك هو الصديق الوحيد الذي تتحدث معه فيها. أما مع الباقين فأنتَ مجرد مهرِّج. وهذه حقيقة، أليس كذلك؟ "

كان لابد لي أنْ أعترف بأنه صحيح تماماً. هذا الحديث الصريح جعلني أشعرُ بأنها ربما تعرفُ أكثر مني ما يصلُحُ لي وما لا يصلح. ولم أكن مرة قبل ذلك أشد توقاً لإيجاد حل سعيد لمشاكلنا. خاصة مشكلة العمل الروتيني. مشكلة الاتِفاق في وجهات النظر.

*

كانت قد عادتْ وكيس نقودها لا يحتوي إلا على بضع سنتات، قالت إنَّ الافتقار إلى النقود هو الذي دفعها إلى تغيير السفينة، وطبعاً كان في الأمر أكثر من ذلك، وقد قدَّمَتْ مزيداً من التفسيرات، الدقيقة، ولكن بكلامٍ مُتسرِّع ومختلط حتى أني لم أتمكن من متابعته. ما فاجأني هو أنها عثرتْ على الفور على مسكن جديد لكي ننتقل إليه - ويقع في أجمل شوارع بروكلن. وقد عثرتْ بالضبط على المكان المناسب تماماً، ودفعَتْ إيجارَ شهرٍ مقدّماً، واستأجرت لأجلي آلة كاتبة، وملأتْ الثلاجة باللحم، ويعلم الله ماذا أيضاً. وكنتُ شديد الفضول لأعرف كيف حصلت على النقود.

قالت " لا تسألني. سوف نحصل على المزيد حين نحتاجه "

تذكَّرتُ جهودي السقيمة لاستجداء بضع دولارات حقيرة، والدَين الذي ما أزال أدينُ به لتوني.

قالت " في الواقع، الجميع سعيدٌ بعودتي إلى درجةِ أنهم لا يرفضون لي أي طلب "

twitter @baghdad_library

ترجمتُ قولها " الجميع " بأنه يعني " أحدهم ".

كنتُ أعرفُ أنَّ الشيء التالي سيكون - " أرجوك اترك تلك الوظيفة المريعة! "

توني أيضاً كان يعلمُ هذا. فقد قال لي ذات يوم " أعرفُ أنكَ لن تبقى معنا كثيراً. إنني أحسدكَ بصورةٍ ما. حين ترحل أحرص على ألاّ تنقطع الصلة بيننا. سأشتاقُ إليك، يا ابن الحرام "

حاولتُ أن أخبره كم أني ممتنّ لكل ما فعله لأجلي، لكنه منعني وقال " لو كنتَ في مكاني لفعَلتَ الشيء نفسه. ولكن، فلنكُن جدّيين. قُل لي، هل ستستقرّ وتكتب الآن؟ آمل ذلك. نستطيع أن نحصل على حفّار قبور في أي وقت، ولكن ليس كاتباً، أليس كذلك؟ "

لم يكد يمضي أسبوعٌ حتى قلت وداعاً لتوني. كانت تلك هي آخر مرة أراه فيها. وقد سدَّدتُ دَيني له في نهاية المطاف، ولكن بمبالغ ضئيلة. أما الآخرون الذين كنت أدينُ لهم فلم يحصلوا على نقودهم إلا بعد ذلك بخمس عشرة أو عشرين عاماً. بعضهم توفي قبل أن أصل إليه. هكذا هي الحياة - " جامعة الحياة "، كما وصفها غوركي.

المسكن الجديد كان رائعاً، يُشكِّلُ مؤخَّر نصف طابق ثانٍ في منزلٍ قديمٍ بُنيَ بحجارة بنّيَّة اللون. وكان مزوَّداً بكل وسائل الراحة، بما فيها سجاجيد ناعمة، وملاءات صوفيّة سميكة، وثلاجة، وحمَّام ودش، وخزانة ضخمة لحفظ المؤن، ومدفأة تعمل بالكهرباء، وما إلى ذلك. أما صاحبة المنزل فأُخِذَتْ بنا. كانت يهودية تحملُ أفكاراً ليبرالية ومولعة بهيام بالفن. واستقبالها لكاتبٍ وممثِّلة - كانت مونا قد امتهنت التمثيل - كان بمثابة انتصارٍ مُضاعَف لها. وكانت قبل وفاة زوجها المفاجئة مُدرِّسة -

مع ميول إلى التأليف. وقيمة التأمين التي كانت قد تلقَّتها بعد وفاة زوجها أتاحتْ لها أن تتخلَّى عن التدريس. وأملَتْ في أن تباشرَ الكتابةَ. لعلّي أستطيع أن أزوِّدها ببعض الأفكار القيِّمة - أي، عندما يُتاح لي الوقت.

كان الوضعُ من زواياه كلها رائعاً. **إلى متى سيدوم**؟ هذا هو السؤال الذي كان يتردَّد في ذهني. وكان يسعدني أيَّما سعادة أن أرى مونا تصل بعد ظهر كل يوم مملوءة الجعبة. كان يُفرحني أن أراها تبدِّل ملابسها، وترتدي المئزر، وتطبخ طعام العشاء. كانت تمثِّلُ صورة الزوجة السعيدة. وبينما الوجبة في طور الإعداد أُديرُ أسطوانة فونوغراف لأستمع إليها - دائماً تكون شيئاً غريباً، شيئاً لا طاقةَ لي أبداً على تحمُّل ثمنه. وبعد تناول طعام العشاء نشرب مشروباً ممتازاً، مع القهوة، وبين حين وآخر نشاهد فيلماً سينمائياً كخاتمة. وإلا، تمشَّينا في الأحياء المجاورة الأرستقراطية. كان صيفاً هندياً، بكل معاني الكلمة.

وهكذا، حين أبلغتني فجأةً ذات يوم، في فورةٍ من الثقة، أنَّ هناك رجلاً عجوزاً ثرياً وغريب الأطوار فُتِنَ بها، ويؤمن بها - **ككاتبة**! - أصغيتُ إليها بصبرٍ ودون أقلّ إبداء لأي علامة للانزعاج أو الغضب.

سرعان ما كُشِفَ النقاب عن سبب فورة الثقة في النفس تلك. فإذا كان في إمكانها أن تبرهن لذلك المعجب - رائع كيف كان في استطاعتها أن تُبدِّل السم! - أنَّ في استطاعتها أن تؤلِّف كتاباً، رواية، مثلاً، وسوف يعمل هو على نشرها. وزيادةً على ذلك، عَرَضَ عليها أن يدفع راتباً أسبوعياً مُحترَماً لها طوال فترة تأليفها له. وطبعاً، كان يتوقَّع أن تعرض عليه بضع صفحات كل أسبوع. طلبٌ عادل، ماذا؟

twitter @baghdad_library

" وهذا ليس كل شيء يا فال، ولكن الباقي سأخبرك به لاحقاً، حين تتقدَّم في تأليف الكتاب. صدقني، من الصعب أن أخبرك، ولكن عليك أن تثق فيَّ. ما رأيك؟ "

كنتُ من شدَّة الدهشة بحيث لم أتمكن من تكوين رأي.

" أتستطيع أن تنفِّذه؟ هل ستفعل؟ "

" يمكنني أن أحاول. ولكن - "

" ولكن ماذا، فال؟ "

" ألن يستطيع أن يُميِّزُ فوراً أنها مكتوبة بقلمِ رجلٍ وليس امرأة؟ "

جاء ردُّها سريعاً " كلا، فال، لن يستطيع! "

" ما أدراك؟ كيف يمكنك أن تكوني متأكدة جداً؟ "

" لأني سبق أن اختبرته. لقد قرأ بعضاً من كتاباتك - أعطيتها له بوصفها من إنجازي، طبعاً - ولم ينْتَبْهُ أيُ شك "

" هكذا.. ا.. ا. همم. إذن لم تنقصك الحيلة؟ "

" إذا أردتَ أن تعرف فاعلمْ أنه أبدى اهتماماً أقصى. قال إني أتمتَّع بموهبةٍ لا ريبَ فيها. وسوف يعرض الصفحات على ناشر صديق له. ألا يرضيك هذا؟ "

" ولكن رواية... أتعتقدين بصدق أنَّ في استطاعتي أن أؤلف رواية؟ "

" ولِم لا؟ يمكنك أن تفعل كل ما تُصمِّم على فعله. ليس من الضروري أن تكون رواية تقليدية. إنَّ كل ما يهمُّه هو أن يكتشف إن كنتُ ملتزمة بالأمر. يقول إنني غريبة الأطوار، ومتقلِّبة، ونَزَوِيّة "

قلت " بالمناسبة، هل يعلم أين نحن... أعني أنتِ... تعيشين؟ "

" أوه طبعاً لا! أتظن أني مجنونة؟ لقد قلتُ له إني أعيشُ مع أمي المريضة "

" كيف يكسب لقمةَ عيشه؟ "

" أعتقد أنه يعمل في مجال تجارة الفرو ". بينما كانت تعطيني أجوبتها كنتُ أفكِّر كم سيكون مثيراً للاهتمام لو عرفتْ كيف تعرَّفتُ عليه، وأكثر من ذلك، كيف نجحتُ في إحرازِ كل ذلك التقدُّم في وقتٍ قصيرٍ جداً. ولكن على تلك التساؤلات كنتُ أتلقَّى فقط أجوبة سخيفة.

أضافتْ " وهو يُضاربُ في سوق البورصة. وربما لديه عدد آخر من الاهتمامات "

" إذن هو يعتقد أنك امرأة عزباء تعيشُ مع امرأةٍ مريضة؟ "

" قلتُ له إنني كنتُ متزوجة وطُلِّقتُ. وأعطيته اسمي الفني "

" يبدو أنكِ رتَّبتِ كل شيء. على الأقلّ لن تضطري إلى الركض متنقِّلة في الليالي، أليس كذلك؟ "

على هذا أجابتْ " إنه مثلك، يكره منطقة فيليج وكل ذلك الهراء البوهيمي. إنه بحقّ يا فال شخصٌ مثقَّف. وهو مولعٌ بالموسيقا ؛ إحدى اهتماماته. أعتقد أنه كان ذات مرة يعزف على آلة الكمان "

" أحقاً؟ وبماذا تناديه، ذلك العجوز الغريب الأطوار؟ "

" بوب "

" بوب؟ "

" نعم، فقط بوب "

" كم يبلغ من العمر... **تقريباً**؟ "

" أوه، في الخمسينات، أعتقد "

twitter @baghdad_library

" هذا السن ليس عجوزاً جداً، أليس كذلك؟ "

" كلا-ا-ا. إنه مستقرّ على طريقته. يبدو أكبر سناً "

قلتُ، على سبيل إغلاق الموضوع " حسن، يبدو الأمرُ كله مثيراً جداً للاهتمام. مَنْ يدري، قد ينتج عنه شيء. هيا بنا نتمشى، ما رأيك؟ "

قالت " حتماً. كما تشاء "

كما تشاء. كان هذا تعبيراً لم أكن قد سمعته منها منذ مدةٍ طويلة. هل كان لرحلتها إلى أوروبا مفعولُ السحر؟ أم أنَّ هناك ما يُطبَخُ وليستْ مستعدة للإفصاح عنه حالياً؟ ألم أكن تواقاً لأغذي شكوكي. ولكن الماضي كان موجوداً بكل ندوبه الواشية. هذا العرض من بوب مثلاً - كل شيء يبدو صريحاً، صحيحاً. ومن الواضح أنها تورَّطَتْ فيه من أجلي، وليس من أجلها. ماذا لو أنها أحبَّتْ إثارةَ أن تؤخذ على أنها كاتبة وليس ممثلة؟ إنها تفعلُ ذلك لتحثَني على العمل. وهذه هي طريقتها لحل مشكلتي.

كان هناك جانبٌ من الوضع حيَّرني كثيراً. وقد ألممتُ به لاحقاً، لدى إصغائي إليها وهي تنقل أحاديث معيَّنة دارتْ بينها وبين بوب ؛ أحاديث تدور حول " عملها ". يبدو أنَّ بوب لم يكن أحمقَ تماماً. كان يطرح أسئلة. أحياناً أسئلةً صعبة. وبما أنَّها لم تكن الكاتبة، لم يكن من المتوقع منها أن تعرفَ، حين يواجهها بسؤال مباشر - " لماذا قلت هذا؟ " - أنَّ الجوابَ هو " لا أدري ". ولما كانت تعتقد أنَّ عليها أن تعرفه، كانت تعطي أشدّ الشروح والتفسيرات إذهالاً جديرٌ بكاتب أن يفخر بها لو أنه كان يتمتعُ بالفطنة بحيث يفكِّرُ بمثل تلك السرعة. وقد استمتعَ بوب بسماع تلك الإجابات. على أي حال، هو أيضاً ليس كاتباً.

وأقول " زيديني "

وتفعل، وإنْ كان معظم ما قالته ربما مُلفَّقاً. أسترخي في جلستي وأهدر بالضحك. وقد ابتهجت كثيراً بحيث أني سألتها - " وما أدراكِ أنكِ لن تصبحي أنتِ أيضاً كاتبة؟ "

" أوه، كلا، فال، ليس أنا. لن أكونَ كاتبة أبداً. أنا ممثلة، لا أكثر"

" تعنين أنك زائفة؟ "

" أعني، لستُ موهوبة في أي مجال "

قلتُ، وقد تألّمتُ لأني انتزعتُ منها هذا الاعتراف، " لم تكوني دائماً تفكرين بهذه الطريقة "

ومضت تقول " بل فعلتُ. لقد أصبحتُ ممثلةً... أو بالأحرى ظهرتُ على خشبة المسرح... فقط لأثبتَ لوالديَّ أني أكثر مما ربياني لأكون. أنا لم أحب المسرح في الحقيقة. كنتُ أُصابُ بالرعب كلما قبلتُ دوراً. كنت أشعر كأني غشّاشة. وحين أقولُ أني ممثلة أعني أني دائماً أدَّعي. أنا لستُ ممثلة حقيقية، أنتَ تعلمُ هذا. ألستَ دائماً تعرف ما في داخلي؟ أنتَ تكشِف كل ما هو زائف ومُدَّعي. أحياناً أتساءلُ كيف تتحمل العيشَ معي. صدقاً أفعل... "

حديثُ غريب يصدر عن شفتيها. وحتى عندئذٍ، وهي شديدة الصدق، والإخلاص، كانت تمثِّل. عندئذٍ كانت تدَّعي حين لم تعُد غير مُدَّعية، كعددٍ كبيرٍ من النساء ذوات الموهبة المتصنِّعة، وحين كانت تضعُ حياتها الحقيقية على المِحَكّ كانت إما تُحقِّرُ من نفسها أو تُعظِّمها. ولا تكونُ طبيعية إلا حين ترغبُ في أن تترك أثراً على شخصٍ ما ؛ كانت تلك طريقتها في تجريد الخصم من أسلحته.

كنتُ مستعداً لأهبَ أي شيءٍ مقابلَ أن أسترقَ السمع إلى بعض

twitter @baghdad_library

تلك الأحاديث مع بوب! خاصة حين يناقشان موضوع الكتابة. كتاباتها هي. مَنْ يدري؟ لعلَّ ذلك العجوز الغريب الأطوار، كما سمَّته، كان يعرفُ ما في دخيلتها. لعلّه كان فقط يتظاهرُ بأنه يختبرها (بهذه المهمة الكتابية الروتينية) لكي يُسهِّلَ عليها قبول النقود التي كان يُمطرها بها. لعلّه ظنَّ أنه بجعلها تعتقد أنها تكسب النقود بكدِّها إنما يوفِّر على نفسه الإحراج. وكما فهمتُ، لم يكن من النمط الذي يقترح صراحةً أن تصبح عشيقته. وهي لم تصرِّح بذلك مباشرةً بل لَمَحَتْ إلى أنه من الناحية الجسدية منفِّر (بأي صورة أخرى يمكن للمرأة أن تعبِّر عن هذا؟) ولكن دعني أكمل الفكرة... بتملُّق أناها - وأي شيءٍ أشدُّ تملُّقاً لامرأةٍ من نمطها من معاملتها بجدية كفنانة؟ - لعلّها تتلبَّسُ دور العشيقة دون أن يُطلَبَ منها وبدافعٍ من شعورٍ صِرفٍ بالامتنان. فحين تشعر المرأة بامتنان صادق للاهتمام الذي تتلقاه، فإنها دائماً تقريباً تقدِّمُ جسدها.

وتشاءُ المصادفةُ، طبعاً، أنها تسعى وراء قيمة الأشياء، وكانت دائماً كذلك.

تأملات من هذا النوع لم تفسد بأي حال العلاقة المنسجمة التي أقمناها بيننا. فحين تسيرُ الأمورُ على ما يرام يكونُ مُذهلاً المدى الذي يمكنُ للعقل أن يبلغه دون أن يُسبب أذى للروح.

كنتُ أستمتعُ بالمشاوير التي نقومُ بها بعد العشاء. كانت تلك المشاوير جانباً جديداً في حياتنا. كنا نتحدث بحرية، وبعفوية أكثر. وقد ساعدنا في ذلك أيضاً وجود نقود في جيوبنا ؛ مكَّننا من التفكير والتحدُّث عن أمورٍ أخرى غير مآزقنا الحزينة المعتادة. كانت الشوارع في الجوار واسعةً، وأنيقة ورحبة ؛ والقصور العتيقة، التي تزدادُ رثاثة بشكل

جميل، تغفو في غبار لزمن. كان جو الفخامة ما يزال يُغلّفها، وكان يتقدَّم بعضها زنوج من حديد، هم أعمدةُ شدّ الخيل من أيامٍ مضتْ. كانت دروب العربات مُظلّلة بتعريشات، والأشجار العتيقة غنيّة بالأوراق؛ والمروج دائماً أنيقة ومَشذّبة، تتلألأ بخُضرةٍ كهربائية. وفوق ذلك كله سكونُ صافٍ يُغلّفُ الشوارع ؛ كان في وسع المرء أن يسمع وقع الخطى على البُعد.

كان جواً يساعدُ على الكتابة. من النوافذ الخلفية لمسكننا كنتُ أُطلُّ على حديقةٍ جميلةٍ فيها شجرتان ضخمتان ظليلتان. وكانت أنغام موسيقى ممتعة غالباً ما تنسابُ عبر النافذة المفتوحة. وبين حين وآخر كان يتناهى إلى سمعي صوت قائد جوقة ترتيل - عادةً يكون صوت سيروتا Sirota أو روزنبلات Rosenblatt - فقد كانت صاحبة المنزل قد اكتشفت أني أعشق موسيقى المعابد اليهودية. أحياناً كانت تدق على بابي وتقدِّم لي قطعة من فطيرة صُنِعَتْ في المنزل أو معجنات خَبَزَتها بنفسها. فتُلقي نظرةً طويلةً على الطاولة الكتابة، التي دائماً تكون مغطاة بالكتب المنتشرة والأوراق، ثم تندفع مبتعدة، ممتنة، كما يبدو، لحصولها على امتياز إلقاء نظرة سريعة إلى داخل عرين كاتب.

في إحدى نزهاتنا سيراً على القدمين توقّفنا عند أحد محال بيع القرطاسية، حيث يقدمون المثلجات والصودا، لكي نشتري سجائر. كان مؤسسة قديمة تديرها عائلة من اليهود. وعلى الفور وَلَجته وفتنني المكان ؛ كان يتَّسِمُ بذلك الجو الباهت، المُنوِّم للدكاكين الصغيرة التي كنتُ أتعاملُ معها وأنا فتى حين أفتش عن حبّة الكريما بالشوكولاة أو عن

twitter @baghdad_library

كـيـس من الفـول السـوداني الأسـبـاني. كـان صـاحـب المحل يجلسُ على طاولة في زاوية مُعتمة من المخزن، يلعبُ الشطرنج مع أحد الأصدقاء. والطريقة التي كانا يحدودبان بها فوق الرقعة ذكَّرتني بلوحات مرسومة شهيرة، وخاصةً بلوحة سيزان " لاعبا الورق ". الرجل الثقيل بشعره الشائب وقلنسوة كبيرة مرخيّة فوق عينيه تواصلُ دراسة الرقعة بينما النادل يخدمنا.

حصلنا على سجائرنا، ثم قرَّرنا أن نتناول بعض المثلجات.

قلتُ، بعد أن قدَّمَ لنا الطلب، " لا تدعاني أعطِّلكما عن لعبكما. أنا أعرف معنى أن يُقاطَع لاعب الشطرنج "

" إذن فأنت تلعب؟ "

" نعم، ولكني لاعبٌ سيّئ. لقد ضيّعتُ ليالَ كثيرة في ممارستها ".
ثم، على الرغم من أنه لم تكن لدي نيّــة في تعطيله، ألقــيتُ بضع ملاحظات عن الجادة الثانية، وعن نادي لعبة الشطرنج الذي كنتُ ذات يوم أتردَّدُ عليه، وعن الكافيه رويال، وما إلى ذلك.

نهضَ ذو القلنسوة وتقدَّمَ منا. ومن أسلوبه في تحيتنا أدركتُ أنه اعتبرنا من اليهود. فسرى فيَّ إحساسٌ دافئ.

قال " إذن تلعب الشطرنج؟ رائع. لِمَ لا تنضمَّ إلينا؟ "

أجبت " ليس هذا المساء. لقد خرجنا لنشمَّ الهواء "

" هل تسكن في الجوار؟ "

أجبت " في آخر الشارع "، وأعطيته العنوان.

قال " ولكن هذا منزل السيدة سكولسكي. أنا أعرفها جيداً. لدي

محل لبيع مراحيض الرجال على مقربة من هنا... في جادة مرتل. لِمَ لا تزرني أحياناً؟ "

قال هذا ومدَّ يده وقال " اسمي إسّن، سِد إسّن "، ثم صافحَ مونا.

أعطيناه اسمَينا ومرةً أخرى صافحنا. بدا مبتهجاً بشكلٍ غريب. قال " إذن، فأنتما لستما من اليهود؟ "

قلتُ " كلا، ولكن دائماً يحسبني الناس هكذا "

" ولكن زوجتك يهودية، أليس كذلك؟ "، وأمعنَ النظر في مونا.

قلتُ " كلا ؛ إنها جزئياً غجرية، وجزئياً رومانيّة. من بوكوفينا "

هتفَ " رائع! آبيه، أين ذلك السيجار؟ قدِّمْ الصندوق للسيد ميللر، من فضلك " ثم التفتَ إلى مونا " وما رأيك بتقديم بعض المعجنات للسيدة؟ "

قلت " دعك منها! كنا فقط نقتلُ الوقت. إنَّ التحدُّث مع شخصٍ مثلك متعة - وزوجتك الفاتنة، أظن أنها ممثلة أليس كذلك؟ "

هززتُ رأسي إيجاباً.

قال " " يمكنني أن أعرف من نظرةٍ واحدة "

هكذا بدأ الحديث. لابد أننا بقينا نتحدث مدة ساعة أو أكثر. وما حيَّره، بوضوح، كان وَلَعي بالأشياء اليهودية. واضطررتُ إلى أن أعِده بأن أمرَّ عليه في مخزنه في وقتٍ قريب. سوف نلعب دوراً في الشطرنج هناك، إذا رغبتَ في ذلك. وشرحَ قائلاً إنَّ المكان أصبحَ أشبه بالمشرحة. لم يكن يعرف لماذا يحتفظ بالمكان - لم يتبقَّ إلا حفنة من الزبائن. وحين تصافحنا مرةً أخرى قال إنه يأمل في أن نشرِّفه بلقاء عائلته. قال، إننا جيران تقريباً.

twitter @baghdad_library

علّقتُ، ونحنُ نمشي بخطى متمهّلة في الشارع، " ها قد حصلنا على صديق جديد "

قالت مونا " أرى أنه أولع بك "

" كان أشبه بكلب يرغبُ فيمَن يلاطفه ويربتْ عليه، أليس كذلك؟ "

" إنه رجلٌ يعاني وحشة هائلة، دون شك "

" ألم يقُل إنه يعزف على آلة الكمان؟ "

قالت مونا " نعم، ألا تتذكّر، لقد ذكرَ أنَّ الرباعي الوتري يجتمع عنده في المنزل مرةً في الأسبوع... أو كانوا يفعلون "

" هذا صحيح. يا إلهي، كم يحبّ اليهود آلة الكمان! "

" أعتقد أنه يظن أنه يجري في شرايينك عرقٌ يهودي، يافال "

" ربما هذا صحيح. وحتماً لن أخجل إذا كان صحيحاً "

تبِعَ ذلك صمتُ مرتبك.

أخيراً قلت " لم أقصد بالمعنى الذي فهمته "

أجابت " أعلم، لا بأس "

" كلهم يُحسنون لعب الشطرنج أيضاً ". كنتُ أتكلّمُ كأنما مع نفسي. " ويحبون أن يقدّموا هدايا، هل لاحظتِ هذا؟ "

" ألا نستطيع أن نتحدث في أمرٍ آخر؟ "

" طبعاً! طبعاً نستطيع! أنا آسف. إنهم يُثيرون إعجابي، لا أكثر. كلما قابلتُ يهودياً حقيقياً مُصادفةً أشعرُ كأني عدتُ إلى منزلي. لا أدري لماذا "

قالت " لأنهم ودودون وسمحون – مثلك "

" بل لأنهم عجائز، هذا رأيي "

" لقد خُلِقتُ من أجل عالمٍ آخر، وليس لأميركا، قال. إنك تُحرِز نجاحاً باهراً مع أي شعب آخر ما عدا شعبك. إنك منبوذ "

" وأنتِ؟ أنتِ أيضاً لا تنتمين إلى هنا "

قالت " أعلمُ، حسن اكتب الرواية ومن ثم سنذهب ,لا يهمّني إلى أين تأخذني، ولكن عليك أن تشاهد باريس أولاً "

" حتماً! ولكن أريد أن أشاهد أماكن أخرى أيضاً... روما، بودابست، مدريد، فيينا، القسطنطينية. أودُّ أن أقوم بزيارة مدينتكِ بوكوفينا أيضاً ذات يوم. وروسيا - موسكو، وبتسبرغ، ونيجني- نوفغورود... آه! كم أود لو أمشي في حديقة نيفسكي بروسبكت... على خُطى دوستويفسكي! ما أروعه من حلم! "

" يمكنُ تحقيقه، قال. لا سببَ يمنعنا من الذهاب إلى أي مكان... إلى أي مكان في العالم "

" أتعتقدين هذا حقاً؟ "

" أنا متأكدة من هذا ". ثم قالت فجأةً، وبتهوُّر - " أتساءلُ أين ستيسيا الآن؟ "

" ألا تعلمين؟ "

" طبعاً لا أعلم. إنني لم أتلقَّ منها كلمة واحدة منذ عودتي. لدي إحساسٌ بأني ربما لن أسمع أي خبر عنها بعد الآن "

قلتُ " لا تقلقي! سوف تسمعين أخبارها حتماً. سوف تظهر ذات يوم - دون سابق إنذار! "

twitter @baghdad_library

" هناك أصبحتْ شخصاً آخر "

" ماذا تعنين؟ "

" لا أعرفُ بالضبط. أصبحتْ مختلفة، هذا كل شيء. طبيعية أكثر، ربما. بدا أنَّ نمطاً معيَّناً من الرجال يجذبها. كذلك الأسترالي الذي أخبرتك عنه. فقد رأتْ أنه شديد الرقة، والمراعاة، ومتفهِّم إلى أبعد مدى"

" أتظنين أنه كان بينهما علاقة؟ "

" مَنْ يدري؟ كانا متلازمَين باستمرار، وكأنَّ بينهما علاقة حبٍ جارف "

" تقولين، كأنَّ. وماذا يعني هذا؟ "

تردَّدتْ، ثم قالت بحرارة، وكأنها ما تزال تتألم، " لا امرأةً يمكنها أن تحبَّ مخلوقاً مثل ذاك! كان يتملَّقها، ويأكل من يديها. وكانت تعشقُ هذا. لعلَّ ذلك كان يجعلها تشعر بأنوثتها "

قلتُ " هذا السلوك غير مألوف من ستيسيا. أتظنين حقاً أنها تغيَّرَتْ؟ "

" لا أدري ماذا أظن، فال. أشعرُ بالحزن، هذا كل شيء. أشعرُ أني فقدتُ صديقةً عظيمة "

قلتُ " هذا هراء! إنَّ المرءَ لا يفقدُ صديقاً في وقتٍ مبكِّرٍ هكذا "

" وقالت أيضاً إني ذات نزعة متطرفة إلى التملُّك... "

" لعلَّكِ كنتِ كذلك... معها "

" لا أحدَ فهمها أكثر مني. كل ما أردته هو أن أراها سعيدة، سعيدة وحُرَّة "

" هذا ما يقوله كل عاشق "

" بل كان أكثر من حب، يا فال. أكثر بكثير "

" كيف يمكن أن يوجد ما هو أكثر من الحب؟ الحب هو كل شيء، أليس كذلك؟ "

" لعلَّ بالنسبة إلى النساء هناك شيءٌ آخر. الرجال ليسوا مُرهفين بما يكفي ليحيطوا به "

خشيتُ أن يتحوَّلَ النقاش إلى نزاع فغيَّرتُ الموضوع بأشدّ ما استطعتُ من مهارة. وأخيراً تظاهرتُ بأني أشعر بجوعٍ شديد. وكم دُهِشتُ حين قالت - " وأنا أيضاً "

رجعنا إلى مسكننا. وبعد أن تناولنا وجبة خفيفة مُشبِعة - pate de foie gras (فطيرة كبد الإوز)، ودجاج حبش بارد، وسَلَطَة كرنب بارد، وأتبعناه " بموزيل لذيذ - شعرتُ كأنَّ في مقدوري أن أجلس إلى الآلة الكاتبة وأكتب حقاً. لعلَّ السببَ هو الحديث، وذِكرُ السَفَر والمدن الغريبة... والحياة الجديدة. أو لأني نجحتُ في منع حديثنا من التحوُّل إلى شجار (كانت ستيسيا تشكِّلُ موضوعَ نِقاشٍ حسَّاس)، أو ربما كان السبب هو اليهودي، سِدْ إسِّن، وإثارة ذكريات عرقيّة. أو ربما الأمرُ يعودُ فقط إلى جَودَة مسكننا، وإحساسنا بالكنكنة، والدفء، والسكينة.

على أي حال، بينما كانت تنظِّفُ المائدة، قلتُ " ليتَ في إمكان المرء أن يكتب كما يتكلّم... أن يكتب مثل غوركي، وغوغول، أو كنوت هامسن! "

twitter @baghdad_library

رمَتني بنظرةٍ جديرةٍ بأمٍ توجّهها أحياناً إلى الطفل الذي تضمه بين ذراعيها.

قالت " ولماذا تكتب مثلهم؟ اكتب كما أنت، هذا أفضل بكثير "

" ليتني أفكِّرُ هكذا. يا إلهي! أتعلَم ما مشكلتي؟ إنني حرباء. كل مؤلِّف أقعُ في حبه أرغبُ في تقليده. ليتني أستطيع أن أقلّد نفسي! "

قالت " متى ستعرِض عليَّ بعض الصفحات؟ أكادُ أموتُ شوقاً إلى رؤية ما فعلتَه حتى الآن "

قلت " قريباً "

" أهي تحكي عنا؟ "

" أعتقدُ ذلك. عن أي شيء آخر يمكنني أن أكتب؟ "

" يمكنك أن تكتب عن أي شيء، فال "

" هذا ما تظنين. يبدو أنكِ لا تدركين حدودي ؛ لا تعرفين أي صراعٍ أخوض. أحياناً أشعرُ أني فاشل تماماً. أحياناً أتساءلُ ما الذي يدفعني إلى الاعتقاد أن في إمكاني أن أكتب. ولكن قبل دقائق كنتُ أكتب كمجنون. في رأسي، مرةً أخرى. ولكن حالما أجلس أمام الآلة الكاتبة أصبحُ أخرق. أتشوَّش. أشعر بالهزيمة "

وقلت " أتعلمين أنَّ غوغول في آخر حياته ذهبَ إلى فلسطين؟ غريبٌ أمرُ ذلك الرجل. تصوَّري روسيّاً مجنوناً مثله يحتضر في روما! تُرى أين سأموت أنا "

" ماذا ألمَّ بك، فال؟ عمَّ تتحدث؟ ما زال أمامك ثمانون عاماً أخرى لتعيشها. اكتب! لا تتحدث عن الموت "

شعرتُ أني أدينُ لها بالكشف لها عن بعض جوانب الرواية. قلت " احزري ماذا أطلقتُ على نفسي في الكتاب! ". لم تحزر. " اتَّخذتُ اسم عمِّك ذاك المُقيم في فيينا. أعتقد أنك أخبرتني ذات مرة أنه في سلاح الفرسان. أستطيعُ بصورةٍ ما أن أتخيَّله زعيماً على رأس فوج الموت. ويهودياً. لكنه يعجبني... أحبُّ كل ما أخبرتني به عنه. لهذا اتَّخذتُ اسمه... "

صمتْ.

" إنَّ ما أريد أن أفعله بهذه الرواية اللعينة - وحده بوب قد لا ينتابه مثل هذا الشعور - هو أن أقتحمها كقوقازي ثمل. **روسيا، روسيا، إلى أين تتوجهين؟ تندفعين قُدُماً كرياح الزوبعة!** لطريقة الوحيدة لأكونَ بها نفسي أن أهشِّمَ الأشياء. لن أؤلف أبداً كتاباً لإرضاء الناشرين. لقد ألَّفتُ كتباً كثيرةً جداً ؛ كتباً تسيرُ وهي نائمة. أنتِ تفهمين ما أعني. هناك ملايين وملايين من الكلمات - كلها تسكنُ رأسي ؛ تتلاطمُ هناك، كقطعٍ من الذهب. لقد سئمتُ إنتاجَ قطعٍ من الذهب ؛ سئمتُ المهام الفروسية تلك... التي تؤدَّى في الظلام. على كل كلمة أدوّنها الآن أن تكون سهماً ينطلقُ مباشرةً إلى الهدف ؛ سهماً مسموماً. أريدُ أن أقتل الكتب، والكُتَّاب، والناشرين، والقُرّاء. والكتابة إلى الجمهور العريض لا تعني لي أي شيء. ما أريده هو أن أكتب للمجانين - أو للملائكة "

سكتُّ وارتسمتْ ابتسامةٌ غريبةٌ على وجهي للفكرة التي راودتني.

" أتساءلُ ماذا ستعتقد صاحبة المنزل إذا ما سمعتني أتكلم بهذه

twitter @baghdad_library

الطريقة. إنها شديدة الطِيبة معنا، أليس كذلك؟ إنها لا تعرفنا. ولن تصدِّق إذا ما علِمَتْ أني مذبحةٌ تمشي على قدمين. وهي لا تعلم أيضاً لماذا أنا مولعٌ بجنون بسيروتا وبموسيقا الكنيس اليهودي اللعينة ". ثم سكتٌّ فجأة. " ما دخلُ سيروتا في الأمر؟ "

" نعم، قال. أنتَ مُثار. سجِّل هذا في الكتاب. لا تهدر طاقتك في الظلام "

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث عشر

أحياناً أجلسُ أمام الآلة الكاتبة على مدى ساعات دون أن أكتب سطراً واحداً. ثم تضربني فكرة، غالباً لا علاقةَ لها بالموضوع، وتتواردُ الأفكارُ بأسرع من قدرتي على تدوينها، وتجرُّني معها وهي تقفزُ، كمحاربٍ جريحٍ مربوطٍ إلى عربته.

على الجدار إلى يميني عُلِّقَتْ كافة أنواع المذكّرات. لائحة طويلة من الكلمات سَحَرَتني ونويتُ أن أجرَّها من فروات رؤوسها إذا لزِمَ الأمر ؛ ونُسَخ من لوحات رسم، بريشة أوتشيللو، وديلا فرانشيسكا، وبروغل، وجيوتو، وممِلنغ ؛ وعناوين كتب كنتُ أنوي أن أنتقي منها برشاقة مقاطع ؛ وعباراتٌ مسروقة من كُتَّابي المفضّلين، ليس لأقتطفها بل لكي تذكِّرني كيف أشوِّه الأشياء أحياناً ؛ مثلاً: " الدودة التي تنهش مثانتها "، أو " اللب الذي غاص خلف جبينها ". في الكتاب المقدَّس مُزَقٌ من الورق تشيرُ إلى مواقع الدرر. كان الكتاب المقدس منجم ألماس حقيقي، وكلما فتَّشتُ عن فقرةٍ أصبتُ بالثمالة. وفي القاموس علامات على أماكن تبيِّن قوائم متنوعة: أزهار، طيور، أشجار، زواحف، دُرر، سموم، وما إلى ذلك. باختصار، تحصَّنتُ بمجموعة كاملة من الأسلحة.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ حين أتأمَّلُ في كلمة مثل praxis، أو

pleroma، يحوم عقلي كدبّورٍ سكران. قد ينتهي بي الأمر إلى الخوض في صراعٍ يائس لأتذكّر اسم ذلك الموسيقي الروسي، الصوفي، أو الثيوصوفي، الذي تركَ وراءه أعظم أعماله ناقصاً، الذي كَتبَ عنه أحدهم قائلاً - " إنه المسيح في مخيلته الخاصة، الذي حلُمَ بقيادة البشرية إلى " المهرجان الأخير "، الذي تصوَّرَ نفسه الله، وكل شيء، بما فيه هو نفسه، خلْقُه الخاص، الذي حلُمَ بأنَّ قوة الأنغام تطيح بالكون، الذي مات من البثور ". إنه سكريابين. هذا هو اسمه. نعم، كان في استطاعة سكريابين أن يجعلني أهيمُ على وجهي على امتداد أيام. وكلما برزَ اسمه في عقلي أعودُ بخيالي إلى الجادة الثانية ؛ إلى مؤخَّر إحدى المقاهي، يحيطُ بي روسٌ (خاصةً البيض منهم)، ويهودُ روس، ينصتون إلى عبقريٍ مغمور يسكبُ سوناتات، واستهلالات، ودراسات، إنه سكريابين القدسيّ. ومن سكريابين أنتقلُ إلى بروكوفييف، إلى الليلة التي سمعت موسيقاه للمرة الأولى، ربما في كارنيغي هول، وأنا في شرفة المسرح، وكنتُ من شدَّة الإثارة حتى أني حين نهضتُ لأصفِّقَ أو أهتف - في تلك الأيام كنا كلنا نهتف - كدتُ أقعُ من الشرفة. كان طويل القامة ونحيلاً، يرتدي معطف فروك، كأنه خارج من رواية " **أوبرا القروش الثلاثة** "، كأنه مسيو ليه بومب فونيبر. ومن بروكوفييف أنتقلُ إلى لوك رالستون، الذي توفي الآن، وكان بدوره زاهداً، ذا وجهٍ يشبه قناع الموت للمسيو آرويه. صديقٌ مخلص، لوك رالستون هذا، الذي بعد زيارته لمحال الخياطين في طول الجادة الخامسة وعرضها حاملاً عيّنات من الملابس الصوفية المستوردة، كان يعود إلى المنزل ويتدرَّب على الأغاني الألمانية بينما أمه العجوز العزيزة، التي دمَّرته بحبِّها، تطبخُ له قوائم

twitter @baghdad_library

الخنزير والشوكروت وتقول له للمرة الألف العاشرة كم هو ابنٌ طيبٌ وغالي وكان صوته الرفيع المثقف من شدّة الضعف، لسوء الحظ، بحيث ينجح في أداء ألحان هوغو فولف[٧٣] المشحونة، التي دائماً يزخرفُ بها برامجه. وتوفي وهو في الثالثة والثلاثين - متأثراً بذات الرئة، كما قالوا، ولكن لعلّ السبب هو قلبه المحطَّم... وتبرز ذكريات عن شخصيات منسيّة أخرى - عازفي كمان، وفلوت، وتشيللو، وبيانو، يرتدون تنانير، كتلك الأليفة التي كانت دائماً تُضمِّن برنامجها مقطوعة شوبرت " كرنفال " (كانت تذكِّرني إلى حدٍ بعيد بمود[٧٤]: الراهبة تصبح عازفة آلة منفردة) وكان هناك آخرون أيضاً، بشعورٍ قصيرة وشعور طويلة، كلهم أشبه بالسيجار الثخين، كسيجار هافانا. بعضهم بصدورٍ منتفخة كالثيران، يستطيعون تهشيم الثريات بزعيقهم الفاغنيري. والبعض الآخر أشبه بجيسيكا Jessicas الظريفة، شعورهم مفروقة عند المنتصف وملتصقة نحو الأسفل: سيدات عذبات (يهوديات في معظمهن) لم يتعوَّدن بعد على نهب صندوق الثلج في أي ساعة من ساعات الليل. ثم هناك عازفو الكمان، بتنانير وأحياناً عُسْر[٧٥]، وغالباً بشعورٍ حمراء اللون أو برتقالية قذرة، وصدور تعترضُ طريق الـ...

كما قلت، كان يكفي أن أنظر إلى كلمة، أو لوحة، أو إلى كتاب. أحياناً إلى العنوان وحده. مثل " **قلب الظلام** " أو " **تحت نجم الخريف** ". كيف بدأ ذلك الحديث الرائع من جديد؟ ألقي نظرة عجلى، أقرأ بضع صفحات، ثم أرمي الكتاب. شيءٌ لا يُضاهى. وكيفَ بدأتُ؟ أعدتُ قراءة مقدمة بول مورفي وليد مخيّلتي. ضعيفة، ضعيفة بشكلٍ مزرٍ. يسقطُ شيءٌ عن الطاولة. أنزلُ لكي أبحث عنه. أركعُ على يديّ وركبتيّ،

ثمة شرخٌ في الأرض يُحيّرني ؛ يذكّرني بشيءٍ ما. **ما هو**؟ أبقى هكذا، كأني أنتظرُ مَنْ " يخدمني "، كنعجة. تُدوِّمُ الأَفكارُ في رأسي ثم تخرجُ من ثقب في قمة جمجمتي. أمدُّ يدي لأتناولَ دِثاراً ثم أدوِّنُ على عجل بضع كلمات. ومزيداً من الأفكار، أفكارٌ مزعجة (ما وقع عن الطاولة كانت علبة ثقاب). كيف أضعُ هذه الأفكار في رواية. دائماً تواجهني المأزق نفسه. ثم أفكر في رواية " **اثنا عشر رجلاً** ". ليتني أستطيع بصورةٍ ما أن أؤلف مقطعاً صغيراً يتَّصِفُ بدفء، ورِقَّة، وعاطفة الشفقة الموجودةِ في ذلك الفصلِ الذي يدور حولَ بولَ دريسلر. لكنَي لستُ درايزر. وليس لي أخٌ اسمه بول. وضفاف نهر واباش بعيدة جداً؟ بل أبعد، أبعد بكثير، من موسكو أو كرونستات، أو كريميا، الدافئة، الرومانسية، إلى أقصى مدى. **لماذا** ؟

يا روسيا، إلى أين تقودينا ؟ إلى الأمام! Ech konee! konee!

أفكِّرُ في غوركي، مُساعد الخبَّاز، بوجهه الأبيض من الطحين، والفلاح الضخم البدين (بقميص نومه) يتخبَّط في الطين مع خنازيره الحبيبة، في " **جامعة الحياة** ". غوركي: الأم، الأب، الرفيق. غوركي، المتشرد والمحبوب، الذي سواءٌ أتنقَّلَ سيراً على قدميه، أو بكى، أو تبوَّل، أو صلَّى أو لعنَ، فإنه يكتب. غوركي: الذي كتبَ بدمِهِ. إنه كاتبٌ حقيقي مثل الساعة الشمسية.

أنظرُ فقط إلى العنوان، كما قلت.

هكذا، مثل كونشيرتو لآلة البيانو مؤلَّفة لتؤدَّى باليد اليسرى، يمضي النهار. أكونُ محظوظاً إذا ما كتبتُ صفحةً أو اثنتين لأعرضهما لِما فيهما من عذاب وإلهام. الكتابة! كانت أشبه باقتلاع السمَّاق السامِّ مِن جذوره. أو كالبحث عن شمندر الماشية.

twitter @baghdad_library

حين كانت بين حين وآخر تسألني " كيف يسيرُ العمل، عزيزي فال؟" أرغبُ في دفن رأسي بين يديّ لأبكي.

" لا تُرهِق نفسك، فال "

لكني أرهقتها ؛ أرهقتها وأرهقتها حتى استُنزِفَت قواي. غالباً حالما تقول لي - " العشاء جاهز! " يبدأ التدفُّق. لا يهمّ! ربما بعد تناول طعام العشاء. ربما بعد أن تخلد إلى النوم. Manana.

على المائدة أتحدثُ عن العمل وكأني ألكسندر دوما آخر أو بلزاك. دائماً أتكلَّم عما أنوي أن أنجزه، ولا أذكر أبداً ما أنجزته. إنني أتمتَّعُ بعبقرية في اللا محسوس، في البدءِ بأشياءَ ومن ثم تركها ناقصة، وفي ما لمْ يولد بعد.

أحياناً أقول " وماذا عن يومك؟ كيف كان يومك أنت؟ " (كان يمكن للشياطين الذين تلبَّسوني أن يُريحونني أكثر من سماع التفاهة التي أحفظها عن ظهر قلب)

أُنصِتُ بأُذُنٍ واحدة وأكاد أرى بوب ينتظرُ ككلب صيد مخلص للعَظْمَة التي سيتلقَّاها. هل سيكون عليها ما يكفي من الدسم؟ هل ستنكسر في فمه؟ وأُذكِّرُ نفسي بأنَّ ما كان ينتظره ليس صفحات الكتاب بل لقمة أخرى ريَّانة - **هي**. ويكون صبوراً، وقانعاً - لفترةٍ قصيرة على الأقلّ - بالنقاشات الأدبية، ما دامتْ تبقى جميلة المظهر، وتبقى ترتدي الملابس البهيجة التي يلحُّ عليها أن تنتقيها لنفسها، وما دامت تقبلُ عن طيب خاطر كل الهدايا الصغيرة التي يغدقها عليها. وبعبارة أخرى، ما دامت تعامله ككائنٍ بشريّ، ولا تخجل من الظهور معه. (أحقاً اعتقَدَ، كما جَزَمتْ، أنه يشبه العلجوم؟) أكادُ أراه وأنا

مُغمض العينين ينتظرُ عند ناصية الشارع، أو في بهو فندقٍ شبه حديث، أو في إحدى المقاهي الغريبة (في تجسُّدٌ آخر)، مقهى مثل "Zum Hid-digeigei". كنتُ دائماً أراه حَسَن الهندام كجنتلمن، وقد يضع طِماقاً للكاحل ويحملُ عصا للمشي وقد لا يفعل. كان أشبه بمليونير غير واضح، أو تاجر فرو أو سمسار بورصة، ليس من النمط السارق بل، وكما يدل كرشه، من النوع الذي يُفضِّل طيّبات الحياة على الدولار الإله الأكبر. كان ذات يوم يعزف على آلة الكمان. إنه رجلٌ ذوّاقة، لا جِدال في ذلك. باختصار، إنه ليس بالأحمق. ربما متوسط الذكاء، لكنه ليس عادياً. واضح في لا وضوحه. لعله مملوءٌ ببذور البطيخ وبذورٍ أخرى، وموثق إلى زوجةٍ مريضةٍ لا يمكنُ حتى أن يحلم بأنْ يؤذيها (" انظري، يا حبيبتي، ماذا اشتريتُ لك! بعض سمك الرنكة، والسلمون، وبرطماناً من مخلّل قرون الوعل من أرض غزلان الرنة ")

وحين يقرأ هذا المليونير التافه الصفحات الافتتاحية سيهتفُ: "أها! أشمُّ رائحة جرذ! ". أو، سوف ينعس عقله الواهن وينام، ويكتفي بالغمغمة لنفسه: " عملٌ تافه ممتع، رواية رومانسية من العصور المظلمة"

ماذا ستظن صاحبة منزلنا، الطيبة السيدة سكولسكي، إذا ما ألقَتْ نظرةً على تلك الصفحات؟ هل ستُبلِّل سروالها من فرط الإثارة؟ أم ستميِّزُ موسيقا حيث لا توجد إلا اهتزازات الزلازل؟ (أكادُ أراها تركض إلى الكنيس بحثاً عن قرون الأكباش) ذات يوم سوف نضطر إلى أن نتصارح، بشأن أمر الكتابة. فإما أن يكون هناك مزيدٌ من المعجّنات، وسيروتا، أو - الخنق. ليتني كنتُ أُحسِنُ القليل من لغة اليديش!

" نادني بـ ريب! ". كانت تلك كلمات سِد إسِّن قبل رحيله.

twitter @baghdad_library

يا له من عذاب رائع، ذلك الدَجَل المكتوب! إنه أحلامُ يقظةِ مجانين ممزوجٍ بنوبات اختناقٍ وبما يسمّيه السويديون mardrommen (كابوساً). تماثيل قصيرة وبدينة مربوطة بعمائم مرصّعة بالأحجار الكريمة. هندسة معمارية قوطية. لوغاريتمات قَبَلانيّة[٧٦] وميزوزاحات[٧٧] ودواليب الصلاة[٧٨]. عبارات استثنائية. (قال طائر الأوك " لا تدع أحداً ينظر إلى هذا الرجل بعين العطف! ") سماوات بلون النحاس الأخضر المزرَق، مُخرَّمة بشرائط مُخرَّمة ؛ أضلاع مظلات، ونقوش بذيئة. وبلعام الجحش يلعقُ مؤخرته ؛ وأبناء عرس يُنبتون براعمَ تافهة. وخنزيرة تحيض...

وذلك كله، كما قالت ذات مرة، لأنه توفَّرت لي " فرصة حياتي ".

أحياناً كنتُ أبحرُ فيه بجناحين أسودين ضخمين. ثم خرج كل شيءٍ مُختَلَطاً مُشوَّشاً. صفحات وصفحات. أكوامٌ منها. لا شيء منها ينتمي إلى الرواية. ولا حتى إلى " كتاب الكآبة الدائمة ". وبعد أن أقرأها مراراً وتكراراً يتكوَّنُ لديّ انطباعُ بأني أتفحَّصُ مطبوعات عتيقة: غرفة في مسكنٍ قرن-أوسطي، وامرأةٌ عجوز جالسة على القدر، والطبيب يقفُ جانباً حاملاً ملقطاً حامياً حتى الاحمرار، وثمة فأر يزحف نحو قطعةٍ من الجبن موجودة في الزاوية القريبة من الصليب. مشهدُ لطابقٍ أرضيّ، إن صح التعبير. فصلٌ من تاريخ البؤس الأبدي. فسادٌ، أرقٌ، وجشعٌ، يقفون بوصفهم النِعَم الثلاث. كل شيء موصوف بالزئبق، والبنزين وبرمنغنات البوتاسيوم.

في يومٍ آخر قد تتجوَّلُ يداي على أصابع آلة البيانو بأناقة مخالب بورجيا القاتل، وأنتقي تقنية الأنغام المتقطِّعة وأقلِّد أسلوب مراوغي ومواربي الغيبليين[٧٩]. أو أتصنَّع في أدائي مثل saltimbanque (بهلوان) يقومُ بحركاته أمام ملك ضعيف العقل.

اليوم التالي له أربع قوائم ؛ كل شيء فيه يتم على وقع الحوافر، وكتل البلغم، والشخير والضراط. فحل (إخ!) ينطلق فوق بحيرة متجمّدة وفي أحشائه طوربيدات. كل شيء يؤدّى بشكلٍ بارع، إنْ صح التعبير.

ثم، حين يخمد الإعصار، يتدفّق كأغنية - بهدوء، وتوازن، وثبات رونق المغنيزيوم. وكأني أرتّلُ الباغافاد غيتا[٨٠]. وكاهنٌ برداءٍ بلون الزعفران يُمجِّدُ عمل الكُلّي الوجود. لم أعُدْ كاتباً. أصبحتُ قدِّيساً. قديسٌ مُرسَل من السنهدرين[٨١]. باركَ الله المؤلّف! (هل لدينا داوود هنا ؟)

ما أشدّ فرحي وأنا أكتب كأرغن وسط بحيرة!

اقرصني، يا عث الفراش! اقرص ما دامت لديّ قوة!

*

لم أسمّه ريب على الفور. لم أستطع. كنتُ دائماً أقول - السيد إسّن. وهو كان دائماً يناديني بالسيد ميللر. ولكن إذا ما سمعنا أحدهم ونحن نتحدث لاعتقدَ أننا نعرف بعضنا طوال حياتنا.

كنتُ أحاولُ أن أشرح الأمر لمونا ذات مساء بينما كنتُ مستلقياً على الأريكة. كانت أمسية دافئة وكنا نستمتع بها بهدوء ويُسر. مع كأسٍ من الشراب البارد إلى جانبي ومونا تتنقّل برداء النوم الصيني القصير، كنتُ في مزاجٍ يسمحُ لي بالاسترسال (كنت قد كتبتُ بضع صفحات ممتازة في ذلك اليوم، زيادة على ذلك)

كان الحوار الإفرادي قد بدأ، ليس عن سِد ودكانه الشبيه بالمشرحة الذي كنتُ قد زرته في اليوم السابق، ولكن عن مزاجٍ معيَّن مدمِّر كان يتملّكني كلما مالَ القطار المُعلّق عند أحد المنعطفات. ولابد أنَّ إلحاح التحدُّث عنه قد اجتاحني لأنَّ ذلك المزاج الكئيب كان يتعارض بقوة

twitter @baghdad_library

شديدة مع المزاج الحالي الذي كان صافياً في المعتاد. وعند الانعطاف عند ذلك المنعطف استطعتُ أن أنظر إلى داخل تلك النافذة في الشقة التي زرتُ فيها الأرملة للمرة الأولى... حين كنتُ " أتقرَّبُ إليها ". وفي كل أسبوع كان يُعرِّجُ عليَّ شابٌ ظريف، يهودي يشبه سِد إسّن، لكي يتلقَّى دولاراً أو دولاراً وخمسة وثلاثين سنتاً تسديداً لثمن الأثاث الذي كانت قد اشترته بالتقسيط. ولو أنها لم تحصل عليه لقالتْ " حسن، في الأسبوع القادم إذن ". وفقر تلك الحياة، ونظافتها، وعقمها، كان أشد بثّاً للكآبة بالنسبة إليّ من الحياةٍ في المجرور. (هنا قمتُ بمحاولتي الأولى في الكتابة، بعقب قلم رصاص، كما أذكر جيداً. لم أكتب أكثر من عددٍ من الأسطر - كانت كافية لإقناعي بأني أفتقُر تماماً إلى الموهبة). كنتُ في كل يوم في الذهاب إلى العمل والعودة منه أستقل القطار المرفوع، وأمرُّ وأنا على متنه بتلك المنازل الخشبية نفسها، وينتابني المزاج السوداوي العدميّ نفسه. أردتُ أن أقتلَ نفسي، لكنْ كانت تنقصني الشجاعة. وهذا لا يعني أني تخلَّيتُ عنها. لقد حاولتُ ولكن دون إحراز أي نجاح. وكلما كافحتُ كي أتحرَّر ازداد ارتباطي بها. وحتى بعد ذلك بسنين، بعد أن تحرَّرتُ منها، ظلَّتْ تلك الحالة تنتابني عند المنعطف.

سألتُها " كيف تفسّرين ذلك؟ كأني تركتُ جزءاً مني في جدران ذلك المنزل. إنَّ جزءاً مني لم يتحرَّر أبداً "

كانت جالسةً على الأرض، تستند إلى ساق الطاولة. بدتْ رائعة ومرتاحة. كانت مستعدة للإصغاء. وعلى الفور طرحتْ عليّ سؤالاً - حول الأرملة - تتجنَّبُ النسوة عادةً طرحه. كان يكفي أن أميل قليلاً حتى تصبح يدي فوق كسّها.

كانت واحدة من تلك الأمسيات البارزة حين يتآمر كل شيء لتعزيز التناغم والفهم، حين يتكلَّم المرء بسهولة ويُسر، حتى مع زوجته، عن أمورٍ حميمة. لا داعي للعَجَلة لبلوغ أي شيء، ولا حتى للحصول على نكاحٍ جيد، على الرغم من أنَّ التفكير في ذلك كان مستمراً هناك ؛ يُخيِّمُ فوق كل حديث.

ثم تذكَّرتُ ركوب قطار جادة لكسنغتن المرفوع وكأني أنظر إليه من تجسُّدٍ مستقبليّ. فلم يبدُ فقط نائياً، بل مستحيلاً. بعد ذلك لم يعُد ذلك النوع الخاص من الكآبة واليأس يهاجمني، وهذا مؤكَّد.

" أحياناً أعتقد أنَّ ما حدث قد وقع لأني كنتُ بريئاً. كان من المستحيل أن أصدِّق أنه كان من الممكن أن أقع في الفخ بتلك الطريقة. أعتقد أنَّ من الأفضل، وأقلّ معاناة، لو أني تزوجتها، كما أردتُ. مَنْ يدري؟ ربما كنا عشنا سعيدَين بضع سنوات "

" أنتَ دائماً تقول يا فال إنَّ الشعور بالشفقة هو الذي تملّكك، ولكن أعتقد أنه الحب. أعتقد أنكَ أحببتها حقاً. أصلاً، أنت لا تتشاجر "

" لم أستطع. ليس معها. وهذا ما أعاقني. ولا أزال أتذكر كيف كنتُ أشعر حين أتوقف، كل يوم ـ لأحدِّق إلى صورتها الفوتوغرافية الموضوعة في واجهة أحد المحال. كانت في عينيها نظرةً حزينة، كانت تُجفلني. كنتُ دائماً أعود لأنظر إلى عينيها ؛ لأدقِّقُ النظر في ذلك التعبير الحزين، لأتساءل عن مبعثها. ومن ثم، بعد فترة من تعارفنا، صرتُ أرى تلك النظرة تعود إلى عينيها... عادةً بعد أن أسبِّب لها ألماً بطريقةٍ طائشة، حمقاء. تلك النظرة كانت أشدّ اتِّهاماً لي بكثير، وتدميراً، من مفعول أي كلام... "

twitter @baghdad_library

لزِمَ كلانا الصمت فترة. جعلَ النسيمُ العَطِرْ، الدافئ، الستارةَ تهتز. في الطابق السفلي كان الفونوغراف دائراً، يُطلِقُ أغنية " سوف أكرِّسُ نفسي لك، يا إسرائيل... ". أصغيتُ ومددتُ يدي ومرَّرتُ أصابع يدي برقَّةٍ على كسّها.

استأنفَتُ " لم أقصد أن أخوض في هذا. أردتُ أن أتحدث عن سد إسّن. قمتُ بزيارته بالأمس، في محله. إنه أشدُّ الأماكن التي يمكنُ لعينك أن تقع عليها كآبةً، وبؤساً. وهو ضخم. ويجلس هناك طوال النهار يقرأ أو، إذا ما عرَّجَ عليه صديق، يلعب معه دور شطرنج. حاول أن يُغدق عليّ الهدايا - قمصان، جوارب، أربطة عنق، كل ما أرغب. وكان من الصعب ردَّه خائباً. وكما قلتُ، إنه إنسانٌ وحيد. ومن الصعب التخلُّص من براثنه... آه، ولكني كدتُ أنسى ما كنتُ بدأتُ به كلامي. ماذا في اعتقادك وجدته يقرأ؟ "

" دوستويفسكي؟ "

" كلا. حاولي مرة أخرى "

" كنوت هامسن "

" كلا، بل كتاب ليدي موراساكي[٨٢] - " **حكاية جنجي** ". أكادُ لا أصدِّق هذا. يبدو أنه يقرأ كل شيء. يقرأ الروس بالروسية، والألمان بالألمانية. ويُحسنُ البولونية أيضاً، واليديّة، طبعاً "

" بوب يقرأَ بروست "

" أحقاً؟ حسنٌ، على أي حال، أتعرفين ما يرغبُ في فعله؟ أن يُعلِّمَني قيادة السيارة. لديه سيارة بويك كبيرة ذات ثماني اسطوانات ويودُّ أن يُعيرنا إياها حالما أتعلَّم القيادة. يقول إنه يستطيع أن يُعلِّمني ذلك في ثلاثة دروس "

" ولكن لماذا تريد أن تتعلَّم القيادة؟ "

" أنا لا أريد، وهذا هو لبُّ المسألة. لكنه يعتقدُ أنه سيكون أمراً جميلاً أن أصحبكِ في جولة بين حينٍ وآخر "

" لا تفعلْ، فال، لم تُخلَق لتقود سيارة "

" هذا بالضبط ما أخبرته إياه. كان الأمرُ اختلفَ لو قدَّمَ لي دراجة. كما تعلمين، من الممتع أن أحصل على دراجة من جديد "

لم تُعلِّقْ.

قلتُ " لا تبدين متحمِّسة لهذا "

"أنا أعرفكَ، يا فال. إذا حصلتَ على دراجة لن تقوم بأي عمل آخر"

" لعلَّكِ على حق. على أي حال، كانت فكرةً لذيذة. ثم إني أصبحتُ عجوزاً جداً ولم أعُد قادراً على قيادة دراجة "

انفجرتْ ضاحكة " عجوزاً جداً؟ أنت عجوزٌ جداً؟ أكادُ أراكَ قادراً على الإثارة الجنسية وأنت في الثمانين. أنت برنارد شو آخر لن تصبح عجوزاً جداً بالنسبة لأي شيء "

" سأصبحُ إذا ما اضطررتُ إلى تأليفِ مزيدٍ من الروايات. إنَّ الكتابة تستهلك المرء. أتدركين ذلك؟ قولي هذا لبوب ذات يوم. أيعتقد أنك تعملين عليها ثماني ساعات في اليوم؟ "

" إنه لا يفكِّرُ في مثل هذه المسائل، يا فال "

" لعلَّه لا يفعل، ولكن لابد أنه يتساءلُ بشأنك. فشيءٌ نادر فعلاً بالنسبة إلى امرأة جميلة أن تكونَ كاتبة أيضاً "

ضحكت. "بوب ليس أحمق. إنه يعلم أني لستُ كاتبة بالفطرة كل ما يريد مني أثبته هو أني أستطيع أن أنهي ما بدأته؛ يريدُ مني أن أنضبط"

twitter @baghdad_library

قلت " أمرٌ غريب "

" ليس كـثيـراً جداً ؛ إنه يعلم أني أحـرقُ نفـسي ؛ أني أذهبُ في الاتجاهات كلها دفعةً واحدة "

" لكنه بالكاد يعرفك؟ لابدّ أنَّ لديه حدساً قوياً "

" إنه يحبني، ألا يُفسِّرُ هذا الأمرَ؟ إنه لا يجرؤ على التصريح بهذا، طبعاً. يعتقد أنَّ النساء لا يجدنه جذّاباً "

" أهو قبيح إلى هذا الحد؟ "

ابتـسمتْ. " أنت لا تصدّقني، أليس كـذلك؟ حسنٌ، لا يمكن القول إنه وسيم. إنَّ مظهره يُعبِّرُ بالضبط عنه - كرجلِ أعمال وهو يخجل من ذلك. إنه إنسان تعيس، وحزنه لا يضيفُ أي شيء إلى جاذبيته "

" تكادين تجعلينني أُشفِقُ عليه، اللوطي المسكين "

" أرجوك لا تتكلم هكذا عنه، يا فال. إنه لا يستحقُّ هذا "

صمتٌ قصير.

" أتذكرين حين كنا نُقيمُ مع عائلة الطبيب في برونكس كيف كنتُ تحثِّينني على أخذ غفوة بعد العشاء لكي أستطيع أن أقابلك خارج صالة الرقص عند الساعة الثانية صباحاً؟ حسبتُ أني سأكون قادراً على فعل ذلك الشيء الصغير من أجلك وأستيقظ نضراً كزهرة الربيع، مستعداً للتوجه إلى العمل عند الساعة الثامنة صباحاً. أتذكرين؟ وقد فعلت ذلك - مراتٍ عدّة - على الرغم من أنه كاد يقتلني. أنت تعتقدين أنَّ على الرجل أن يكون قادراً على فعل شيءٍ كهذا إذا كان يحبُّ حقاً امرأة، أليس كذلك؟ "

" حينئذٍ كنتُ ما أزال صغيرة السن. ثم إني لم أرغب أبداً في أن تبقى في ذلك العمل. لعلّي كنتُ آمل في أن تتركه بإرهاقك "

" لقد نجحت فعلاً، وأعجزُ عن شكرك عليه. ولو أنَّ الأمرَ بيدي لبقيتُ ربما هناك، أُعيِّنُ وأفصلُ من العمل... "

صمت.

" ثم، حين كان كل شيء يسيرُ على ما يُرام أخذتْ الأمورُ تضطرب. أتعلمين أنكِ سبَّبتِ لي إزعاجاً كبيراً؟ أو ربما أنا الذي أزعجتُك "

" دعنا لا نخوضُ في هذا، يا فال، **أرجوك** "

" حسنٌ، لا أدري لماذا أتيت على ذِكره. دعك منه "

" أتعلم يا فال، لن يكون الأمر سهلاً بالنسبة إليك. ولو لم أكنْ أنا سبب بؤسك لكان شخصٌ آخر. أنتَ تبحث عن المتاعب. فلا تنزعج. لعلك بحاجة إلى المعاناة. المعاناة لن تقتلك أؤكد لك. ومهما يحدث سوف تنجو، دائماً. أنتَ مثل قطعة فلين ؛ إذا ضَغَطَكَ أحدٌ إلى القاع تبرزُ إلى السطح من جديد. أحياناً تُخيفني الأعماق التي يمكنكَ أن تغوصَ إليها. أنا لستُ كذلك. إنَّ قدرتي على الطفو جسدية، أما قدرتك عليها فهي... كنتُ سأقول روحيّة، ولكن هذا غير دقيق. إنها حيوانية. أنتَ تتمتّعُ فعلاً بتكوينٍ روحيّ قوي، ولكن الجانبَ الحيواني فيك أكبر مما يوجد عند أغلب الرجال. أنت تريدُ أن تعيش... أن تعيشَ بأي ثمن... كإنسان، أو كحيوان، أو كحشرة، أو كجرثومة... "

قلتُ " لعلَّكِ على حق في هذا. وبالمناسبة، أنا لم أخبرك أبداً عن التجربة الغريبة التي مررتُ بها ذات ليلة حين كنتِ في الخارج. مع أحد الشاذين جنسياً. كانت تجربةً مضحكة ومثيرة للسخرية، حقاً، ولكن في وقتِ حدوثها لم تبدُ لي مضحكة كثيراً "

نظرتْ إليّ بعينين جاحظتين، وبتعبير الذهول.

twitter @baghdad_library

" نعم، حدثَ ذلك بعد أن خرجتِ بقليل. وكنتُ أرغبُ بشدّة في أن أنضمَ إليك إلى درجة أنه لم يكن يهمني ماذا عليّ أن أفعل لتنفيذ ذلك. حاولتُ أن أَحصل على عمل على متن سفينة، لكني لم أنجح. وذات ليلة، في المطعم الإيطالي في البلدة... أنتِ تعرفينه... قابلتُ رجلاً كنتُ قد قابلته قبل ذلك... أعتقدُ أنه كان مهندس ديكور داخلي. مهما يكن، كان من النوع الدمث تماماً. وبينما نحن نتحدث... عن " ولا تزال الشمس تشرق "... خطر لي أن أطلبَ منه بعض المال. شعرتُ أنه سيُعطيني إياه إذا توصّلتُ إلى إثارة مشاعره بقدرٍ كاف. وحين حدّثته عن مدى توقي إلى الانضمام إليكِ، فاضتْ عيناه بالدمع، وفهمتُ أنه يذوب. أخيراً أخرجتُ محفظتي وأريته صورتكِ الفوتوغرافية، تلك المولع بها. وتأثّرَ بها. هتفَ " إنها جميلة فعلاً. خارقة حقاً. وأي شغف، وأي حسّيّة! ". قلتُ " ها أنتَ تدرك ما أعني ". قال " نعم، أدرك لماذا أنتَ مولعٌ بامرأةٍ كهذه "، ووضعَ الصورةَ على الطاولة، وكأنه يُدقّقُ فيها، ثم طلبَ مشروباً. ولسببٍ ما انتقلَ فجأةً إلى التحدُّث عن هيمنغواى. قال إنه يعرفُ باريس، وإنه ذهبَ إلى هناك مراتٍ عدّة، وما إلى ذلك "

سكتُّ لأرى إنْ كانت تستوعبُ ما أقولَ. نظرتْ إليّ وهي تبتسم ابتسامةً فضوليّة. قالتْ " تابع، كُلّي آذان "

" حسنٌ، أخيراً أخبرته بأني على استعداد لفعل أي شيء لأجمع نقود السفر اللازمة. فقال - " أي شيء؟ ". قلتُ " نعم، أي شيء ما عدا القتل ". هنا أدركتُ ما كان يرمي إليه. ولكن بدلَ أن يلحّ عليّ حوَّلَ دفّة الحديث إلى مواضيع أخرى - مصارعة الثيران، علم الآثار القديمة، وكل المواضيع البعيدة عن الموضوع الأساسي. وبدأ اليأسُ يتسلّلُ إليّ : إنه يتسرَّبُ من بين أصابعي "

" أصـغـيتُ إليـه أطول مـدة ممكنة، ثم نادى على النادل وطلب الفاتورة. قال " ألا ترغب في شرب كأس آخر؟ "، فقلت له إني أشعر بالتعب، وأريدُ أن أعودَ إلى المنزل. فجأةً تغيَّرت سحنته. قال " بالنسبة إلى تلك الرحلة إلى باريس، لِمَ لا نعرِّج على منزلي قليلاً لنتحدث في الأمر؟ لعلَّ في إمكاني أن أساعدك ". وطبعاً فهمتُ ما يدور في ذهنه، وغاصَ قلبي في صدري، وتملّكني الخوف. لكني بعد ذلك قلت في نفسي - " لا يهمني. لن يستطيع أن يفعل أي شيء إلا إذا أردتُ ذلك. سوف أبقى أتكلم حتى أستخلصها منه "، أقصد، النقود.

" طبعاً كنتُ مخطئاً. فحالما انتهى من استعراض مجموعته من الصور الإباحية عرفتُ إنَّ الخطة قد فشلت. يجب أن أعترف بأنَّ الصور كانت رائعة... **يابانية**. على أي حال، بينما كان يعرضها عليّ وضع يده على ركبتي. وبين حينٍ وآخر كان يتوقف وينظرُ إليّ وعلى وجهه تعبيرٌ ولهان، ويحاول أن يزلق يده أعلى ساقي. أخيراً دفعتُه بعيداً. قلت " أنا ذاهب ". هنا تغيَّرَ سلوكه. بدا حزيناً. قال " لماذا تقطع المسافة من هنا وحتى بروكلن؟ يمكنك أن تُمضي الليلَ هنا أيضاً. لستُ مضطراً إلى النوم معي، إنْ كان هذا ما يزعجك. هناك سرير إفرادي نقّال في الغرفة الأخرى "، وتوجَّه إلى الخزانة وأخرجَ منها منامة لأجلي.

" لم أدرِ إنْ كان يتلاعبُ بالأمر أم أنه سويّ أم... تردَّدتُ. قلت في نفسي " في أسوأ الأحوال ستكون ليلة من الأرق "

" قال " هل أنتَ مضطرٌ إلى الذهاب إلى باريس غداً؟ لو كنتُ في مكانك لما تركتُ قلبي يذوب بهذه السرعة ". كانت عبارةً ذات حدَّين، تجاهلتُها. قلت " أين السرير؟ سوف نتحدث عن هذا في وقتٍ آخر "

twitter @baghdad_library

" أويتُ إلى السرير، مُبقياً عينيَّ يقظتين تحسُّباً فيما إذا حاولَ لأن يمارسَ حركاته الشاذة. لكنه لن يفعل. من الواضح أنه اشمئزٌّ مني - أو لعلّه رأى أنَّ قدْراً من الصبر سوف يجعلُ الحيلةَ تنطلي. على أي حال، لم يغمض لي جفن، ورحتُ أتقلَّبُ في الفراش حتى الفجر، ثم نهضتُ، بهدوءٍ شديد، وارتديتُ ملابسي. وبينما كنتُ ألبس بنطالي لمحتُ نسخةً من " يوليسس ". تناولتُها واتخذتُ لي مجلساً بجوار النافذة الأمامية، وشرعتُ أقرأ حوار مولي بلوم الإفرادي. كدتُ أستسلمُ لغواية الهروب مع النسخة. ولكن بدل ذلك خطرت لي فكرة أفضل. قطعتُ أرض الرواق على رؤوس أصابع قدميّ، إلى حيث خزانة الملابس، فتحتُها برفقٍ وأخذتُ أفتش في جيوب ملابسه، ومحفظته وكل شيء. كل ما استطعتُ أن أعثرَ عليه كان نحو سبعة دولارات وبعض الفكّة. أخذتها وخرجتُ مُسرِعاً... "

" ألمْ تره بعد ذلك؟ "

" لا، لم أعُد إلى ذلك المطعم أبداً "

" لنفرض، يا فال، أنه أعطاكَ نقود السفر، أقول **إذا**... "

" من الصعب الإجابة عن هذا. لقد فكَّرتُ في الأمر كثيراً منذ ذلك الحين. أعلمُ أنه ما كان يمكنني أن أفعل ذلك، ولا حتى إكراماً لك. من السهل أن يكون المرءُ امرأةً في مثل هذه الظروف "

بدأتْ تضحك. ضحكتْ وضحكتْ.

قلتُ " ما سبب هذا الضحك كله؟ "

صرختْ " أنتَ! هكذا هو الرجل! "

" ماذا تعنين؟ أكنتِ تفضّلين لو أني استسلمتُ؟ "

" ليس هذا ما أقوله، فال. كل ما أقوله هو أنكَ تصرَّفتَ بأسلوبِ الذكَر النموذجي "

فجأةً تذكَّرتُ ستيسيا ومعارضها المتطرفة. قلت " لم تُخبريني حتى الآن ماذا حدث لستيسيا. أبسببها فاتتكِ السفينة؟ "

" ما الذي أدخلَ هذه الفكرةَ إلى رأسك؟ لقد أخبرتكَ كيف حدث وفاتتني السفينة، ألا تذكُر؟ "

" صحيح، فعلتِ. لكني لم أكنْ أنصتْ جيداً. على أي حال، غريبٌ أنكِ لم تتلقي أي كلمة منها طوال تلك الفترة. أين في اعتقادكِ هي الآن؟ "

" في أفريقيا، ربما "

" أفريقيا؟ "

" نعم، في آخر مرة وصَلَتني أخبارها كانت في الجزائر "

" هممم "

" نعم، فال، لكي أعودَ إليكَ كان عليَّ أن أعِدَ رولان، لرجل الذي أخذني إلى فيينا، بأني سأبحِرُ معه. وافقتُ على شرط أن يُرسِلَ إلى ستيسيا نقوداً تكْلِفة سَفَرِها إلى أفريقيا. فلم يفعل. لم أكتشف ذلك إلا في اللحظة الأخيرة. لم يكن معي نقود لأُبرق إليك بشأن التأخير. على أي حال، لم أُبحِرِ مع رولان. أعدتُه إلى باريس. ودفعته إلى القسم على أنْ يعثُر على ستيسيا ويُعيدها إلى المنزل سالمة. هذه هي الحكاية "

" وطبعاً لم يفعل؟ "

" لا، إنه مخلوقٌ فاسد، ضعيف، لا يهتمُّ إلا بنفسه. كان قد تركَ ستيسيا وصديقها النمساوي في الصحراء، حين كانت الظروف صعبة

twitter @baghdad_library

جداً. تركهما دون أي نقود. كان في وسعي أن أقتله حين اكتشفتُ الأمر... "

" أهذا كل ما تعرفينه؟ "

" نعم. لعلّها ماتت الآن. ولا يهمّني هذا "

نهضتُ لأبحثَ عن سيجارة، فوجدتُ علبةً منها على الكتاب المفتوح الذي كنتُ أقرأ فيه في وقتٍ مبكّرٍ من النهار. قلت، " اسمعي هذا "، ورحتُ أقرأ فقرة كنتُ قد علّمتُ عليها " " إنَّ هدفَ الأدب هو مساعدة الإنسان على معرفة نفسه، لتقوية إيمانه وليدعم سعيه إلى الحقيقة... "

ناشدتني " اجلس، أريدُ أن أسمعكَ تتحدث، لا تقرأ "

" مرحى لآل كارامازوف! "

" كفي، فال. دعنا نتحدث أكثر، أرجوك "

" حسنٌ، إذن. ماذا عن فيينا؟ هل قمتِ بزيارة عمِّك أثناء وجودكِ هناك؟ أتعلمين أنكِ لم تخبريني أي شيء عن فيينا؟ أعلَمُ أنه موضوعٌ حسَّاس... بسبب رولان وكل ذلك، ومع ذلك... "

شرحتُ قائلةً إنهما لم يُمضيا الكثير من الوقت في فيينا. ثم إنه لا يمكنُ لها أن تقومَ بزيارة أقاربها دون أن تمنحهم نقوداً. ورولان لم يكن من النوع الذي يتصدّق بالنقود بسخاء كلما قابلَ فناناً محتاجاً.

قلت " عظيم! وهل صادفتِ أياً من مشاهير عالم الفن؟ بيكاسو، مثلاً، أو ماتيس؟ "

أجابتْ " أول مَنْ تعرَّفتُ إليه كان زادكين، المثّال "

قلتُ " لا، أحقاً؟ "

" ثم تعرَّفتُ إلى إدغار فاريز "

" ومَنْ يكون؟

" مؤلف موسيقي. إنه إنسانٌ رائع، فال. ستعبده "

" أثمة آخر؟ "

" مارسيل دو شان. أنتَ تعرفُ مَنْ هو؟ "

" يجب أن أقول نعم. كيف كان - كإنسان؟ "

" إنه أشدّ مَنْ قابلتُ تحضُّراً ". هكذا أجابتْ بسرعة.

" هذا يفسِّرُ أشياء كثيرة "

" كنتُ أعلم هذا، فال، لكنها الحقيقة "، وتابعاْ لتحكي لي عن آخرين قابلتهم؛ فنانين لم أسمع بهم قط... هانس رايخل، تيهانيا، ميشونزه، وكلهم من الرسامين. بينما كانت تتكلّم كنتُ أدوِّنُ ملاحظةً ذهنية عن ذلك الفندق الذي نزلتُ فيه في فيينا - فندق موللر، في غرابن. إذا ما ذهبتُ مرة إلى فيينا سوف ألقي نظرة على سجلّ الفندق ذات يوم لأرى تحت أي اسمٍ سجَّلتْ نفسها.

" أعتقد أنكِ لم تزوري مرةً قبر نابوليون، أليس كذلك؟ "

" كلا، لكننا وصلنا إلى ماليزون؛ شعرتُ كأني شاهدت عملية إعدام "

" أعتقد أنه لم يفُتكِ الكثير، أليس كذلك؟ "

قلتُ في نفسي، بينما هي تواصلُ سردَ جولتها، من المؤسف أنَّ مثل هذا الحديث لا يجري إلا نادراً. وما كان يعجبني خاصة هو طبيعة تلك الأحاديث المتلوّنة، المتبدلة، المكسورة. وغالباً، أثناء فترات الصمت بين الملاحظات، كنتُ أدلي بأجوبةٍ ذهنية تختلف كلياً عن الكلمات التي ينطقها لساني. وقد أضافَ جو الغرفة، والكتب المبعثرة في المكان،

twitter @baghdad_library

وأزيز ذبابة، ووضعيّة جسمها، والملمس المريح للأريكة، نكهةً إضافيّة، طبعاً. لم يكن هناك ما يُرسِّخُ، أو يُقام أو يُضاف. فإذا ما انهارَ جدارٌ فقد انهار. كانت الأفكار تقفز قفز الأغصان الصغيرة إلى الغدير المُغمغم. يا روسيا، أما زال الدربُ يدخِّن من تحت دواليبك؟ هل تدمدمُ الجسور أثناء عبورك لها؟ أما من إجابات؟ ما الحاجة إلى الإجابات؟ آه، أيتها الخيول! وأي خيول! ما مغزى تشكُّل الزبَد في الفم؟

*

تذكَّرتُ فجأةً. وأنا أستعدُّ للإيواء إلى السرير، أني كنتُ قد رأيتُ ماكغريغور في صباح ذلك اليوم. أتيت على ذِكر هذا بينما كانت تعتليني لننزلق بين الملاءات.

قالت " آمل ألاّ تكون قد أعطيته عنواننا "

" لم نتبادل أي كلمة. هو لم يرَني "

قالت، وهي تقبض على أيري " هذا جيد "

" ما هو الجيد؟ "

" أنَّه لم يرَك "

" حسبتُكِ تعنينَ شيئاً آخر "

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

غالباً حين كنتُ أخرجُ لأستنشقَ بعض الهواء النقيّ أُعرِّجُ على سِد إسِّن لأتسامرَ معه. مرةً واحدة فقط رأيتُ زبوناً يرتادُ محلَّه. وصيفاً وشتاءً كان داخله مظلماً وبارداً - وهي درجة الحرارة المناسبة لحفظ الجثث. كانت الواجهتان الزجاجيتان مزدحمتين بقمصانٍ بهُتتْ ألوانها بفعل أشعة الشمس وغطّتها مخلّفات الذباب.

كان عادةً يتمركزُ في مؤخر المخزن، يقرأ على ضوء مصباحٍ كهربائيّ مُعتم مُعلّقٍ من السقف بحبلٍ طويلٍ تدلّتْ منه شرائطُ من ورق الذباب اللاصق. كان يُعِدُّ لنفسهِ مجلساً مُريحاً فوق مقعد سيارةٍ مُقامٍ فوق صندوق. وبجانب الصندوق مبصقة كان يستخدمها حين يمضغ تبغه. عادةً كان يضعُ بين أسنانه غليوناً قذراً، وأحياناً سيجار ماركة البوم. والقلنسوة الكبيرة الثقيلة لم يكن يخلعها إلا حين يأوي إلى السرير. وياقة معطفه كانت دائماً بيضاء من كثرة قشرة الرأس وحين كان يتمخَّطُ، وكثيراً ما كان يفعل - وكأنه فيلٌ ينفخُ في بوق - يستعينُ بمنديلٍ كبيرٍ أزرق اللون ومزركشٍ مساحته ياردة.

على النضد القريب وُضِعَتْ أكوامٌ من الكتب، والمجلات والصحف. كان ينتقلُ من واحدةٍ إلى أخرى وِفقاً لمزاجه. وإلى جانب مسألة القراءة

هذه كان هناك دائماً صندوقٌ من الفول السوداني المُحلّى. كان يغوصُ فيه حين يتحمّسُ. وكان جلياً، من حجمه، أنه أكول. وقد أخبرني مراتٍ عدة أنَّ زوجته طبّاخة لا يُعلى عليها. وهذا الجانب هو الأشدّ جاذبية في شخصيتها، كما فهمت. إلا أنه كان دائماً يُضيفُ إلى هذا قوله كم هي واسعةُ الإطلاع.

ومهما كانت الساعة من النهار التي أمرُّ فيها عليه كان يُخرِجُ زجاجة مشوب ويقول " مجرد رشفة "، وهو يلوِّحُ بدورقٍ من الشنابس أو بزجاجةٍ من الفودكا. فأقبلُ مقدارَ كأسٍ إكراماً له. فإذا قطَّبتُ جبيني يقول - " لم تحبُّه كثيراً، أليس كذلك؟ لِمَ لا تجرِّب قطرةً من الجاودار؟ "

وفي صباح أحد الأيام، وأثناء شرب كأسٍ من الجاودار، كرَّر رغبته في أن يُعلِّمَني القيادة. قال " لا تحتاجُ إلى أكثر من ثلاثة دروس. لا معنى لتركِ السيارة عاطلة. وحالما تتعلّقُ بها سوف تتولّه بها. اسمع، لِمَ لا ترافقني في جولة بعد ظهر يوم السبت؟ سوف أُحضِرِ مَنْ يرعى شأن المتجر"

وجاء يوم السبت وقابلتُهُ في المرآب. كانت السيارة الكبيرة ذات الأبواب الأربعة متوقِّفةً عند حافة الطريق. ومنذ النظرة الأولى عليها أدركتُ أنه لا طاقة لي على الأمر. ولكن كان لابد لي من أنْ أمضي فيه. اتَّخذت مكاني أمام المقود، وتلاعبتُ بالسرعات، وتعرَّفتُ إلى دوّاسة الوقود والمكابح. درسٌ موجز. وسوف تلي دروسٌ أخرى حالما نصلُ إلى المدينة.

أمام المقود أصبحَ ريب شخصاً آخر. الآن أصبحَ مَلِكاً. فكيفما اتَّجهنا يتمُّ ذلك بأقصى سرعة. كان فخذاي يؤلماني حتى قبل أن نقطع نصف الطريق، من كثرة استخدام المكابح.

twitter @baghdad_library

قال، رافعاً كلتا يديه عن المقود لكي يومئ، " أترى، سهل جداً. إنها تسيرُ من تلقاء نفسها "، ثم رفعَ حذاءه عن دواسة الوقود واستعرض استخدام المخنق اليدوي. وكأنه يقود قطاراً.

في ضواحي المدينة أخذنا نتوقّفُ هنا وهناك لنجمعَ نقود الإيجار. فقد كان يمتلكُ عدداً من المنازل هنا وفي أماكن أخرى أبعد. كلها تقعُ في أحياءٍ متهدِّمة، وكلها تشغلها عائلاتٌ من الزنوج. قال لي إنه يجب جمعُ النقود كل أسبوع. الملونون لا يعرفون كيف يتعاملون مع النقود.

في أرضٍ بور بالقُربِ من أحد تلك الأكواخ أمدَّني بمزيدٍ من المعلومات. هذه المرة علَّمني كيف أستدير، وكيف أتوقَّفُ فجأةً، وكيف أركنُ السيارة. وكيف أرجع إلى الخلف. مهمٌّ جداً، الرجوع إلى الخلف، كما قال.

جعلني ضغط الأمر أتصبَّبُ عرقاً فوراً. قال " حسنٌ، هيا بنا. قريباً سنعودُ إلى الطريق السريع، وعندئذٍ سوف أُطلقُ سراحها. إنها تطير كالريح - سوف ترى... أوه، بالمناسبة، إذا ما أُصِبتَ بالذعر ولم تعرف ماذا تفعل، فقط أطفئ المحرِّك واضغط على المكابح.

ووصلنا إلى الطريق السريع، وقد أصبحَ وجهه مُشعَّاً. ثم شدَّ قلنسوته فوق عينيه. قال " تمسَّك! "، وانطلقَ! شعرتُ أننا بالكاد كنا نلمسُ الأرضَ. ألقيتُ نظرةً على مؤشِّر السرعة: خمسة وثمانون. وزاد السرعة. " تستطيع أن تسيرَ بسرعة مئة دون أي جهد ظاهر. لا تقلق، أنا قادرٌ عليها "

لم أفِه بأي كلمة، واكتفيتُ باستجماعِ شجاعتي وأغمضتُ عينيّ. وحين انحدرنا عن الطريقِ السريع اقترحتُ عليه أن نتوقَّف بضع دقائق ليدعني أُمدِّدُ ساقيّ.

هتفَ " شيءٌ مسلٍ، أليس كذلك؟ "

" حتماً "

قال " ذات يوم أحد، بعد أن نجمع الإيجارات سأصحبكَ إلى مطعمٍ أعرفه، يُعِدُّون فيه طبقَ بطٍ لذيذ. أو يمكننا أن نذهب إلى الجانب الشرقي، إلى مطعمٍ بولوني. أو ما رأيك في بعض الطبخ اليهودي؟ أي شيء تشاء. إنّ صُحبَتُكَ ممتعة "

في مدينة لونغ آيلند قُمنا بجولةٍ لنتزوَّد ببعض المؤن: سمك الرنكة، والسمك الأبيض المُدخن، والخبز اليهودي، والقستر، والمخلَّل الحامض، وخبز الذرة، والزبد الحلو، والعسل، وجوز البقان، والجوز العادي، والـ niggertoes، والبصل الأحمر الكبير، والثوم، والكاشا، وغيرها.

قال "إذا لم نفعل أي شيء آخر فسوفَ نأكل جيداً. طعام طيب، وموسيقى عذبة، وحديث ممتع-إلامَ يمكن للمرءِ أن يحتاج أكثر من هذا؟"

قلت بتهورٌ " إلى زوجةٍ صالحةٍ، ربما "

" أنا لدي زوجةٌ صالحةٌ، لكننا نتبادلُ الإهانات المزاجيّة. إنني شديد الابتذال بالنسبة إليها ؛ أقرب شبهاً بعاملٍ أخرق "

قلت " أما أنا فلم أجدك هكذا "

" إنني أكبحُ مشاعري... أعتقدُ أني أتقدَّمُ في السن. ذات يوم كنتُ بارعاً في العمل اليدوي، وقد ورَّطَني هذا في الكثير من المشاكل. وكنتُ أُقامرُ كثيراً أيضاً. أمرٌ سيئ أن يكونَ لك زوجة كزوجتي. بالمناسبة، هل سبق لك أن راهنتَ على الخيول؟ ما أزال أفعلُ بين حينٍ وآخر. لا أعدُكَ بأنْ أجعلَ منكَ مليونيراً ولكن في استطاعتي دائماً أن أُضاعِفَ نقودك. أعْلِمني في أي وقت، إنَّ مالكَ آمنٌ معي، تذكَّر هذا "

twitter @baghdad_library

كنا نقتربُ من غرينبوينت. أثارَ مشهد صهاريج الوقود في نفسي وخزاً عاطفياً. وبين حين وآخر كنا نشاهدُ كنيسةً كأنها مأخوذةً من روسيا. وأخذت أسماءُ الشوارع تصبحُ مألوفةً أكثر فأكثر.

سألته " ألديك مانع في أن نتوقف في ١٨١ شارع ديفو؟ "

" طبعاً، ولِمَ لا؟ أتعرفُ أحداً هناك؟ "

"كنتُ أعرف. حبيبتي الأولى. أودُّ أن ألقي نظرةً على المنزل، لا أكثر"

داسَ بحركةٍ آليةٍ وبقوة على دواسة الوقود. حدّقَ ضوء التوقُّف في وجهينا مباشرةً، لكنه تابعَ طريقه. قال " إشارات المرور لا تعني لي أي شيء، ولكن لا تقتدي بي "

عند رقم ١٨١ ترجّلتُ، وخلعتُ قبعتي (وكأني أزورُ قبراً) وتقدّمتُ من السياج في مقدِّمة المرج. رفعتُ بصري إلى نوافذ الردهة ؛ كانت الستائر مُسدلة، كعهدها دائماً. بدأ قلبي يخفقُ بقوة كما فعل قبل سنواتٍ حين رفعتُ بصري إلى النوافذ وتمنّيتُ وصلّيتُ كي ألمح شبحها يتحرك. لم أكن أتوقف أكثر من لحظة أو اثنتين، ثم أنطلقُ من جديد. أحياناً كنتُ أتمشّى حول المبنى ثلاث مرات أو أربع - تحسُّباً. (قلت لنفسي " أيها اللوطي المسكين، أما تزال تمشي حول ذلك البناء ")

حين استدرت عائداً إلى السيارة قرقعتْ بوابة الطابق التحتيّ. أبرزت امرأةٌ عجوز رأسها. اقتربتُ منها وسألتها وأنا أرتعش تقريباً إنْ كان أيٌ من آل غيفورد ما زال يقطنُ في الجوار.

نظرتْ إليّ بتمعُّن - وكأنها رأتْ شبحاً، كما بدا لي - ثم أجابتْ: "يا إلهي كلا! لقد انتقلوا منذ زمن بعيد "

جمدتُ.

قالتْ " لماذا تسأل، أكنتَ تعرفهم؟ "

" كنتُ أعرفُ أحدهم، نعم، ولكن أعتقد أنها تتذكرني. كان اسمها أونا. أتعرفين ماذا حلَّ بها؟ "

" لقد ذهبوا إلى فلوريدا " (قالتْ، **هم**، وليس **هي**)

" شكراً لكِ. شكراً جزيلاً "، ورفعتُ لها قبعتي، وكأني أرفعها لإحدى أخوات الرحمة.

حالما وضعتُ يدي على باب السيارة هتفَتْ قائلة " يا سيد، يا سيد، إذا أردتَ أن تعرف المزيد عن أونا هناك سيدة تسكن قريباً من هنا تستطيع أن تخبرك... "

قلتُ " لا عليكِ، ليس الأمرُ هاماً "

كانت دموعي تتجمَّع، على الرغم من حماقة ذلك.

قال ريب " ما الأمر؟ "

" لا شيء، لا شيء. مجرَّد ذكرياتٌ، لا أكثر "

فتحَ صندوق القفّاز وأخرجَ منه دورقاً. تناولتُ جرعةً كعلاجٍ لكل شيء. كان شراباً نارياً صرفاً. لهثت.

قال " إنه لا يُخطئ أبداً. ألا تشعر بتحسُّن الآن؟ "

"فعلاً". وفي اللحظة التالية وجدتُني أقول "ـيا إلهي! ما أغرب أنْ يظلَّ المرءُ قادراً على الإحساس بمثل هذه الأشياء. إنه يُحيِّرني. ماذا كان سيحدث لو أنها ظهرتْ - مع طفلها؟ شيء مؤلم. ولا يزالُ يؤلمني. لا تسألني عن السبب. إنها تخصّني، هذا كل ما أستطيع أن أبوحَ به لك"

" لابد أنها كانت علاقةً عاطفية حارة ". عبارةُ علاقة عاطفية تركتْ لديّ تأثيراً مغلوطاً.

twitter @baghdad_library

قلت " كلا، بل كانت إخفاقاً صِرفاً ؛ اغتيالاً. كان يمكنني أيضاً أن أقعَ في غرام الملكة غوينيفر[٨٣]. لقد خذلتُ نفسي، هل تفهم؟ كان شيئاً سيئاً. لن أتغلّب عليه أبداً. **اللعنة!** لماذا نتحدث في هذا ؟ "

لزِمَ ريب الطيب الهدوء. نظرَ أمامه مباشرةً وزاد سرعة السيارة.

بعد مرور بعض الوقت قال ببساطة شديدة - " يجب أن تكتب عن هذا يوماً ما ". فأجبت - " مستحيل! لن أجد أبداً الكلمات المناسبة للتعبير عنه "

عند المنعطف، حيث مخزن القرطاسية، ترجّلت.

قال ريب، ماداً يده الكبيرة والكثيفة الشعر، " فلنُكرِّرَ هذا قريباً، هه؟ في المرة القادمة سأعرِّفكَ على أصدقائي الملونين "

تمشّيتُ على طول الشارع، ماراً بأعمدة تثبيت الأحصنة الحديدية، والمروج الفسيحة، والشرفات الكبيرة. لا أزال أفكّرُ في أونا غيفورد. ليت في إمكاني فقط أنْ أراها... أنْ ألقي نظرةً عليها، لا أكثر. ثم أغلِقْ الكتابَ - إلى الأبد.

تابعتُ سيري، ماراً بالمنزل، ماراً بمزيدٍ من تماثيل الزنوج الحديدية ذوي الأفواه بلون البطيخ الوردي والبلوزات المُخطَّطة، ماراً بمزيدٍ من القصور المَهيبة، والمزيد من الشرفات والردهات المسقوفة المغطاة بنبات اللبلاب. **فلوريدا**، ولا أقلّ. لِمَ ليس كورنوول، أو أفالون، أو قلعة كاربونيك؟ ورحتُ أغني بيني وبين نفسي... " ألم يكن هناك في العالم كله فارسٌ يفوقه نبلاً، وإيثاراً... "، ثم تملّكتني فكرةٌ رهيبة. إنه ماركو! مُعلّقٌ من سقف عقلي، ماركو الذي شنق نفسه. كان قد صرَّحَ لمونا ألف مرة بأنه يُحبُّها ؛ ألفَ مرة قام بدور الأحمق ؛ ألف مرة حذَّرَها بأنه

سيقتل نفسه إذا لم يرَ عطفاً في عينيها. وكانت تضحكُ عليه، وتسخر منه، وتوبِّخه، وتذلُّه. ومهما قالتْ أو فعلتْ كان يستمر في إهانة نفسه، يستمرُ في إغداقها بالهدايا ؛ وكان مجرد مرآها، وسماع ضحكها الساخر، يجعله يتذلَّلُ ويتودَّدُ. ومع ذلك لم يكن هناك ما يمكن أن يقتلَ حبه، وولهه. وحين كانت تطرده كان يعودُ إلى علِّيته لكي يؤلِّفُ نكتاً. (كان المسكين يكسبُ عيشه من بيع النكات للمجلات). وكل بنس يكسبه يعود إليها. وكانت تأخذه حتى دون أن تشكره. (" اذهبْ الآن، يا كلب! "). وذات صباح وُجِدَ مشنوقاً من رافدةٍ في علِّيته الزريّة. لا رسالة. فقط جثة تتمايلُ وسط الكآبة والغبار. آخر نكتة له.

حين نقلتُ الخبرَ إليها قالت - " **ماركو؟ وماذا يعني ماركو لي؟** "

بَكَتْ بمرارة ؛ دموعاً مُرَّة. كل ما استطعتُ أن أقوله على سبيل مواساتها كان: " كان سيفعلُ ذلك في كل الأحوال آجلاً أو عاجلاً. كان جديراً به أن يفعل "

فأجابتْ " أنتَ قاسٍ ؛ لا قلبَ لك "

كانتْ على حق ؛ لا قلبَ لي. ولكن كان هناك آخرون ما تزال تعاملهم بالأسلوب البغيض نفسه. وذكَّرتُها بطريقتي القاسية، الفظَّة، بهم، قائلاً - " مَنْ التالي؟ "، فهرعتْ تغادر الغرفة وهي تغطي أذنيها بيديها. شيءٌ فظيع ؛ فظيعٌ جداً.

قلتُ في نفسي وأنا أستنشقُ عطر أزهار اللَيْلَج، والبوغنفيلا، والورد الأحمر الثقيل - " لعلَّ ذلك المسكين ماركو أحبَّها كما أحببتُ أنا أونا غيفورد. لعلّه آمنَ بأنَّ توبيخها له واشمئزازها منه سوف يتحولان ذات يومٍ بفعلِ معجزةٍ ما إلى حب، وأنها ستراه على حقيقته ؛ قلباً

twitter @baghdad_library

عظيماً دامياً يتفجَّرُ بالرِّقة والغفران. لعلَّه في كل ليلة، لدى رجوعه إلى غرفته، كان يركعُ على ركبتيه ويصلي (ولكن ما منْ مُجيب). ألمْ أئنّ أنا أيضاً في كل لبلة لدى لجوئي إلى السرير؟ ألم أصلّي أنا أيضاً؟ وكم فعلت! وتلك الصلوات، تلك التوسلات، والنشيج، كم كانت مُخزية! ليتني سمعتُ صوتاً يقول: " لا أمل، لم تُخلَق لتكونَ لها ". لعلّي استسلمتُ، لعلّي أفسحتُ الطريق لشخصٍ آخر. أو على الأقل لعنتُ الله الذي أعدَّ لي ذلك القَدَر.

مسكينٌ ماركو! لم يستجدِ أن يُحَب بل أن يُسمَح له أن يُحبْ. وقد حُكِمَ عليه بأن يؤلِّفَ نكاتاً. الآن فقط أدركتُ كم عانيتَ وتحمَّلتَ، أيها العزيز ماركو. الآن تستطيع أن تستمتع بها - من الأعالي. يمكنك أن ترعاها نهاراً وليلاً. إذا كانت لم ترَكَ أبداً كما أنتَ في الحياة، فيمكنكَ أنتَ على الأقل أن تراها كما هي. لقد كان قلبُكَ أكبر بكثير من ذلك الجسد الهش. غوينيفر نفسها لم تكن تستحق الحبَّ العظيم الذي ألهمَتكَ به. غير أنَّ الملكة تخطو بخفَّة شديدة، حتى عندما تسحق بقَّة...

*

كانت المائدة مُعدَّة، وطعام العشاء ينتظرني حين دخلتُ المنزل. كانت مونا في مزاجٍ طلقٍ بشكلٍ استثنائي.

هتفت، وهي تطوقني بذراعيها، " كيف كانت؟ هل استمتعت؟ "

لاحظتُ الأزهار الواقفة داخل مزهرية وزجاجة النبيذ إلى جانب الطبق. إنه نبيذ نابوليون المفضَّل، الذي كان يشربه حتى وهو في جزيرة القديسة هيلانة.

سألتها " ما معنى هذا؟ "

كانت تفورُ بالفرح. " إنه يعني أنَّ بوب يرى أنَّ الصفحات الخمس والخمسين رائعة. كان ممتلئاً بالحماس "

" أحقاً؟ أخبريني عن هذا. ماذا قال بالضبط؟ "

كانت من فرط الذهول بحيث أنها لم تعُد تتذكر الكثير الآن. وجلسنا لنأكل. قلت " تناولي قليلاً من الطعام وسوف تتذكرين "

هتفتُ " آه نعم، إنني فعلاً أتذكَّر... لقد قال إنه يُذكِّره قليلاً بكتابات ملفيل المُبكِّرة... وبدرايزر أيضاً "

تناولتُ جرعة.

" نعم، ولافكاديو هيرن[٨٤] "

" ماذا؟ أيقرأه بوب أيضاً؟ "

" لقد قلتُ لكَ يا فال إنه كان قارئاً عظيماً "

" لا أظنك تعتقدين أنه كان يسخر؟ "

" لا أبداً. لقد كان صارم الجدّية. أؤكد لك أنه كان حتماً مفتوناً "

صببتُ النبيذ. " أبوب هو الذي اشترى هذا؟ "

" لا، أنا اشتريته "

" كيف عرفتِ أنه مشروب نابوليون المفضَّل؟ "

" الرجل الذي باعني إياه أخبرني هذا "

رشفتُ رشفة كبيرة.

" ما رأيك؟ "

"لم أذُق أطيب منه. ونابوليون شربَ هذا في كل يوم؟ يا له من محظوظ!"

قالت " فال، يجب أن تدرِّبني قليلاً إذا أردتَ مني الإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحها بوب عليّ "

twitter @baghdad_library

" حسبتُ أنكِ تعرفين الإجابات كلها "

" اليوم كان يتحدث في عِلم الصرف والنحو وفي البلاغة. وأنا لا أفقه أي شيء فيهما "

" ولا أنا، لكي أكونَ صادقاً. أنت تلقَّيتِ التعليم في المدرسة، أليس كذلك؟ وخرّيج جامعة ويلزلي يجب أن يعرف شيئاً عن... "

" أنت تعلم أني لم ألتحق أبداً بالجامعة "

" أنت قلت أنك فعلت "

" لعلّي قلتُ في لقائنا الأول. لم أكن أريد أن تعتقد أني جاهلة "

قلت " يا إلهي، لم يكن ليهمّني إذا لم تكوني قد أنهيتِ المرحلة الثانوية. إنني لا أكنُّ أي احترام للتعليم. إنَّ النحو والصرف والبلاغة هي محض هراء؛ كلما قلَّتْ معرفتكِ بمثل هذه الأشياء كان أفضل. خاصةً إذا كان المرءُ كاتباً "

" ولكن لنفرض أنه أشارَ إلى أخطاء. فماذا عندئذ؟ "

" قولي - " لعلّكَ على حق. وسأفكِّرُ في الأمر ". بل وأفضل من هذا قولي - " كيف تصيغ أنت هذا؟ ". وحينئذٍ سوف تجدينه في موقف الدفاع، أتفهمين؟ "

" أحياناً أتمنى لو أنكَ تكون في مكاني "

" وأنا كذلك. حينئذٍ سأعرفُ إنْ كان ذلك اللوطي صادقاً أم لا "

قالت، متجاهلةً ملاحظتي، " اليوم كان يتكلّم عن أوروبا. وكأنه كان يقرأ أفكاري. كان يتكلم عن الكُتّاب الأميركيين الذين عاشوا ودرسوا في الخارج. قال إنه من المهم العيش في مثل ذلك الجو، لكي يغذوا أرواحهم "

" ماذا قال أيضاً؟ "

تردَّدتْ برهةً قبل أن تنطق.

" قال إنني إذا أكملتُ الكتاب سوف يمنحني مبلغاً من المال يكفيني للعيش في أوروبا مدة عامٍ أو عامين "

قلت " رائع. ولكن ماذا عن أمكِ المريضة؟ أي أنا، بعبارةٍ أخرى "

لقد فكّرتْ في هذا. " ربما سأضطرٌ إلى قتلها ". ثم أضافت إنه مهما دفع سيكونُ حتماً كافياً لنا نحن الاثنين حتى النهاية. لقد كان بوب كريماً.

قالت " في الواقع. لم أكن مخطئةً بشأن بوب. أنا لا أريدُ أن أغضبك يا فال، ولكن... "

" أتتمنين مني أن أُسرِع بإنهاء الكتاب، هه؟ "

" نعم. كم في اعتقادك سيستغرقُ إنهاؤه؟ "

قلت إنه ليست لدي أي فكرة.

" هل أقولُ ثلاثة أشهر؟ "

" لا أعلم "

" هل ما تريد أن تفعله واضح لك؟ "

" كلا. ليس كذلك "

" أيزعجكَ هذا؟ "

" طبعاً. ولكن ما حيلتي؟ إنني أكدحُ قدرَ ما أستطيع "

" ألن تفقد صوابك؟ "

" إذا فعلت سوف أستعيده ثانية. على أي حال، آمل هذا "

" ألا تريد أن ترحل إلى أوروبا؟ "

twitter @baghdad_library

ألقيتُ عليها نظرةً طويلةً قبل أن أجيب.

" أتسألين إنْ كنتُ أرغبُ في الانتقال إلى أوروبا ؟ يا امرأة، إنني أرغبُ في الذهاب إلى كل مكان... إلى آسيا، وأفريقيا، وأوستراليا، والبيرو، ومكسيكو، وسيام، والجزيرة العربية، وجاوا، وبورنيو... والتيبت أيضاً، والصين. ما أن أنطلق أريدُ أن أبقى بعيداً إلى الأبد. أريد أن أنسى أني قد ولدتُ هنا. أريدُ أن أظل أتقدم، وأتجول، وأجوبُ العالم كله. أريد أن أذهب إلى نهاية كل طريق... "

" ومتى ستكتب؟ "

" أثناء تقدُّمي "

" فال، أنت حالم "

" طبعاً أنا حالم. لكني حالمٌ فعّاَل، وهناك فرق "

ثم أضفتُ: " نحن جميعاً حالمون، غير أنَّ بعضنا يستيقظ في الوقت اللازم ليكتب بضع كلمات. لاشك في أني أريد أن أكتب، ولكني لا أعتقد أنها الغاية النهائية. كيف أعبِّرُ عن هذا ؟ إنَّ الكتابةَ تشبه التبرُّز في سروالك أثناء نومك. وهو براز لذيذ، أؤكد لك، لكنَّ الحياة تأتي في المرتبة الأولى، ثم التبرُّز. الحياة تغيُّر، حركةٌ، بحث... تقدُّم إلى الأمام لُملاقاة المجهول، المفاجأة. فقط عدد قليل من الرجال يمكنهم أن يقولوا عن أنفسهم - " لقد عشتُ! " ولهذا لدينا كتب - لكي يعيشُ الناس حياةً بديلة. ولكن حين يعيشُ المؤلّفُ أيضاً حياةً بديلة -! "

قاطعَتني " حين أصغي إليك أحياناً، يا فال، أشعر أنك تريد أن تعيش ألف حياة في حياة واحدة. أنت على الدوام غير قانع - بالحياة كما هي، بنفسك، بكل شيء. أنت منغولي، تنتمي إلى سهوب وسط آسيا "

قلت، وقد ثارَ غضبي الآن، " في الواقع إنَّ أحد أسباب شعوري بالتفكُك هو أنَّ هناك قدراً قليلاً من كل شيء داخلي. أستطيعُ أن أضع نفسي في أي فترةٍ زمنيّة وأشعر فيها بالألفة. فحين أقرأ عن عصر النهضة أشعرُ كأني رجل من عصر النهضة ؛ وحين أقرأ عن إحدى السلالات الصينية الحاكمة أشعرُ بالضبط كأني صينيٌّ من ذلك العصر. ومهما كانت السلالة البشرية، أو الحقبة الزمنية، أو الشعب، سواءٌ أكانَ مصرياً، أزتيكياً، هندياً أو كلدانياً، أغوصُ تماماً فيها، وهي دائماً غنيّة؛ عالمٌ مزركش برسومٍ وصورٍ عجائبية لا تنضب. هذا ما أتوقُ إليه - عالم إنساني، يستجيبُ إلى أفكار الإنسان، وأحلامه، ورغباته. إنَّ ما يُحيّرني في حياتنا هذه، هذه الحياة الأميركية، هو أننا نقتلُ كلَّ ما نلمسه. وبمناسبة الحديث عن المنغول والهَن - كانوا بالمقارنة بنا فرساناً. إنَّ هذا البلد خاو، شنيع، بائس. إنني أرى مواطنيَّ من خلال عيون أسلافي ؛ أرى بوضوح من خلالها - وهم فارغون، نخرون... "

تناولتُ زجاجة غيفيري-شامبرتان وأعدتُ ملء الكؤوس. كان فيها ما يكفي جرعة واحدة كبيرة.

قلت " في صحة نابوليون! الرجل الذي عاشَ الحياةَ حتى الزُبى "

" قال، أحياناً تُخيفني، بطريقتك في الكلام عن أميركا. أحقاً تكرهها إلى هذه الدرجة؟ "

قلت " لعلّه حب. حبٌ منحرف. لا أدري "

" آمل ألاّ تضعَ شيئاً مما قلت في الرواية "

" لا تقلقي. سوف تكون الرواية لا واقعية وغريبة غرابة البلد الآتية منه. لن أضطرّ إلى القول - " إنَّ كل الشخصيات في هذا الكتاب

twitter @baghdad_library

مختلفة "، أو كائناً ما كانت العبارة التي يكتبونها في مُستهلّ الكتب. لا أحد سيتعرّف على أحد، وآخر مَنْ سيتعرّفون عليه هو المؤلِّف. سيكون شيئاً جيداً يحملُ اسمكِ. كم سيكون مضحكاً إذا ما حقّقَ نجاحاً تجارياً! إذا ما جاء المراسلون الصحفيون يدقون على بابكِ ليُجروا مقابلات صحفية معك أنت! "

هذه الفكرة بثّتْ الرعبَ في نفسها ولم تجدها مسلّية على الإطلاق.

قلتُ " قبل قليل نعتّني بالحالم. دعيني أقرأ عليكِ فقرة - وهي قصيرة - من " تلّ الحالمين ". يجب أن تقرئي الكتاب ذات يوم ؛ إنه حلمُ كتاب "

توجّهتُ إلى رف الكتب وفتحتُ على الفقرة التي عنيتُها.

" هنا كان يتحدث عن قصيدة ملتون " لاسيداس "، ويتساءل لماذا كانت ربما أكثر المقطوعات الأدبية كمالاً في المطلق. ثم يقول ماتشن[٨٥]: " الأدب هو الفن الحسّي الذي يثير انطباعاتٍ رائعة عبر الكلمات ". ولكن ها هي الفقرة... إنها تلي هذا مباشرة: " ومع ذلك كان هناك شيء آخر ؛ إلى جانب التفكير المنطقي، الذي غالباً ما كان عائقاً، حادثاً مزعجاً وإنْ كان لا ينفصل، إلى جانب الإحساس، وهو دائماً السرور أو البهجة، إلى جانب هذه الأشياء هناك الصور العصيّة على التحديد والوصف التي يستدعيها كل أدب رفيع. وكما أنَّ الكيميائي في تجاربه يُصاب بالدهشة أحياناً حين يكتشف عناصر مجهولة، غير متوقعة، في البوتقة أو الجهاز المتلقّي، وكما أنَّ عالم الأشياء الماديّة يعتبره البعضُ غلالةً رقيقةً من الكون اللا ماديّ، كذلك مَنْ يقرأ نثراً أو شعراً رائعاً يعي التلميحات التي لا يمكنُ صياغتها بالكلمات، ولا تنتُج عن الحس

المنطقي، بل بالأحرى توازي البهجة الحسّية، ولا ترتبط بها. إنَّ العالم المكشوف جداً هو عالم الأحلام، العالم الذي يعيشُ في الأطفال أحياناً، يظهرُ في لحظة، ويختفي في لحظة، عالمٌ يتجاوز كل وسيلة تعبير وتحليل، لا ينتمي إلى العقل ولا إلى الأحاسيس... "

قالت، وأنا أحطُّ الكتابَ، " شيءٌ جميل، ولكن لا تحاولْ أنْ تكتب مثله. دعْ آرثر ماتشن يكتب هكذا، إذا شاء. أما أنت فاكتب على طريقتك "

جلستُ مرةً أخرى إلى الطاولة. كانت زجاجةٌ من شارتروز موضوعة بجانب فنجان قهوتي. بينما كنتُ أصبُّ ملء كشتبان من المشروب الأخضر الناريّ في كأسي، قلت " هناك الآن شيءٌ واحُد فقط مفقود: **الحريم**.

قالت " بوب هو الذي جلبَ الشارتروز. لقد ابتهجَ كثيراً بتلك الصفحات "

"دعينا نأمل في أن يُحبّ الصفحات الخمسين التالية بالقدر نفسه "

" أنتَ لا تكتب الكتاب لأجله، فال. أنت تكتبه من أجلنا "

قلت " هذا صحيح، أحياناً أنسى هذا "

عندئذٍ تبدّى لي أني لم أذكر لها أي شيءٍ بعد عن الخطوط العامة للكتاب الحقيقي. فقلت " هناك أمرٌ أودُّ أنْ أخبرك به. أم هل أخبرك؟ ربما ينبغي أنْ أحتفظ به لنفسي فترةً أطول "

ناشدتني ألاّ أضايقها.

" حسنٌ، سأخبرك. إنه يدور حول الكتاب الذي نويتُ أن أكتبه ذات يوم. لقد دوّنتُ كل الملاحظات اللازمة له. كتبتُ لك رسالةً طويلة عنه، حين كنتِ في فيينا أو يعلمُ الله أين. لم أتمكن من إرسال الرسالة لأنكِ

twitter @baghdad_library

لم تزوّديني بعنوانك. نعم، سيكونُ هذا كتاباً حقيقياً... ضخماً. يحكي عنكِ وعني "

" ألمْ تحتفظ بالرسالة؟ "

" كلا، لقد مزّقتُها. الذنب ذنبك! ولكن لديّ الملاحظات. لكني لن أريكِ إياها الآن "

" لماذا؟ "

" لأني لا أريدُ أنْ أسمعَ أي تعليقات. ثم، إذا تحدثنا عنه قد لا أكتب الكتاب. أيضاً، هناك أشياء لا أريدُ أن أطلعك عليها إلا بعد أن أدوِّنها كلها "

قالت " يمكنك أن تثق بي "، وأخذتْ تتوسل إليّ.

قلت " لا فائدة، عليك أن تنتظري "

" ولكن افرضْ أنَّ الملاحظات ضاعت؟ "

كانت قد بدأتْ تستاءُ. فقبل كل شيء الكتاب يحكي عنها وأيضاً عني... وما إلى ذلك. لكني بقيتُ صلباً.

لما كنتُ أعلمُ جيداً أنها سوف تقلب المكان رأساً على عقب لكي تضع يدها على الملاحظات، أوحيتُ لها بأني تركتها في منزل أهلي. قلت " لقد وضعتها حيث لا يمكنهما العثور عليها ". وفهمتُ من طريقتها في النظر إليّ أنها لم تنخدع بكلامي. وكل تحركاتها كانت تنمُّ عن أنها تتظاهر بأنها استسلمتْ ولم تعُد تفكّر في الأمر.

لكي أُلطِّفَ الجوّ أخبرتها أنه إذا ما تمَّ إنجاز الكتاب، إذا ما حدث ورأى النور، فسوف تجد أنها قد خُلِّدَت. وبما أنَّ هذا الكلام بدا مصطنعاً قليلاً أضفتُ - " قد لا تتعرَّفين على نفسك دائماً ولكن أعدكَ بأني حين أتمّ رسم صورتك لن ينساك بعدها أحد "

بدتْ أنها تأثَّرتْ بهذا. قالت " تبدو شديد الثقة بنفسك "

" لدي مُبرِّر لذلك. لقد عشقتُ هذا الكتاب. وأستطيع أن أبدأ من أي موقعٍ فيه ومن ثم أتابع طريقي. الأمر أشبه ببرجٍ فيه ألفُ مِرشَّة: كل ما عليَّ أن أفعله هو أن أفتح الصنبور "، ثم ربتُّ على رأسي. " كله مكتوبٌ هنا، بحبرٍ خفيّ - أعني أنه لا يُمحى "

" هل ستبوح بالحقيقة - **عنا** ؟ "

" سأفعل حتماً. وليس فقط عنا، بل عن الجميع "

" أتعتقد أنك ستجد مَنْ ينشر لك مثل هذا الكتاب؟ "

أجبتُ " لم أفكِّر في هذا. عليّ أولاً أنْ أكتبه "

" هل هناك أمل في أن تُكمِل الرواية؟ "

" دون شك. وربما المسرحية أيضاً "

" المسرحية؟ أوه فال، سيكون ذلك رائعاً "

وبهذا ختمنا حديثنا.

مرةً أخرى برزتْ الفكرة المزعجة: إلى متى ستدوم هذه السكينة والهدوء؟ كان سير الأمور أكثر من جيد. تذكَّرتُ هوكوساي[٨٦]؛ تقلُّبات أقداره، التغييرات التسعمائة والسبعة والأربعون لعنوانه، ودأبه، وإنتاجه الهائل. أي حياة! وأنا، أنا كنتُ فقط أقفُ على العتبة. فقط إذا عشتُ لأبلغَ التسعين أو المئة سيتكوَّنُ لديّ ما أتباهى بأنه نِتاجي.

فكرةٌ أخرى لا تقلُّ عن هذه إزعاجاً شغلَتْ تفكيري: **هل سأتوصَّلُ أبداً إلى كتابة أي شيءٍ مقبول؟**

الجواب الذي قفز فوراً إلى شفتيّ كان: " أيري في هذا! "

وفكرةٌ أخرى أيضاً خطرتْ على بالي. " **لماذا أنا ممسوسٌ بالحقيقة؟** "

twitter @baghdad_library

والجواب على هذا أيضاً جاءني واضحاً وصريحاً: " **لأنَّ هناك فقط الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة** "

لكنَّ صوتاً بعيداً خافتاً اعترضَ قائلاً: " مرةً أخرى أقول إنَّ الأدبَ شيءٌ آخر "

إذن فليذهب الأدب إلى الجحيم! إنَّ ما أريدُ أن أكتبه هو " **كتاب الحياة** "

وبأي اسمٍ ستوقِّعُ عليه؟

باسم " **الخالق** ".

وهكذا بُتَّ الأمر.

*

أبقاني التفكيرُ طوال يومٍ كاملٍ في معالجة أمرٍ مثل ذلك الكتاب – كتاب الحياة – أتقلَّبُ طوال الليل. كان ماثلاً هناك أمام عينيّ المُغمضتين، كسراب أسطورة. وبما أني قد أخذتُ عهداً على نفسي بأنْ أجعله حقيقةً واقعة، أخذ يلوحُ لي أكبر بكثير، وأصعب بكثير في إنجازه مما كان حين تحدَّثتُ عنه. بدا طاغياً حقاً. ومع ذلك، كنتُ متيقِّناً من أمرٍ واحد – أنه سيتدفَّقُ حالما أباشرُ به. لن يكونَ مسألةَ عصر بضع قطرات وسيلٍ رفيع. وتذكَّرتُ ذلك الكتاب الأول الذي كنتُ قد ألَفتُهُ عن الاثنى عشر ساعياً. ويا له من إخفاق! وقد أحرزتُ فعلاً بعض التقدُّم منذ ذلك الحين، حتى وإنْ كان لا أحد غيري يعرفُ ذلك. ولكن كم أهدرتُ من مواد أولية! وكان من المفروض أن تكون مادة القصة هي الآلاف الثمانين أو المئة شخص الذين كنتُ أعيِّنهم وأطردهم خلال تلك السنوات المتعضيّة الكونية المتوترة ولا عجب أني كنتُ أفقدُ صوتي باستمرار. كان مجرَّد

التحدُّث إلى ذلك العدد من الناس إنجازاً. لكنَّ السبب لم يكن فقط الكلام، بل ووجوههم، وما تحمله من تعبيرات - حزن، غضب، خداع، مكر، خبث، غدر، امتنان، حَسَد، وما إلى ذلك - وكأني بدل أن أتعامل مع كائنات بشرية كنتُ أتعاملُ مع مخلوقات طوطمية: الثعلب، والوَشَق، وابن آوى، والغراب، والاموس[٨٧]، والعقعق[٨٨]، واليمامة، وثور المسك، والحية، والتمساح، والضبع، والنمس، والبوم... كانت صورهم ما تزال حيّة في مخيّلتي، الطيبون والأشرار، المخادعون والكذّابون، المُعاقون والمهووسون، والمتسكعون، والمقامرون، والطفيليون، والمنحرفون، والقديسون، والشهداء، كلهم، العاديين منهم والخارقين. وحتى ملازم معيَّن من الحرس الوطني الذي كان وجهه مشوّهاً - على يد الحمر أو السود - إلى درجة أنه حين كان يضحك يبكي، وحين يبكي يتهلّل؛ وحين كان يخاطبني - عادةً ليشتكي - يقف في حالة انتباه، وكأنه الحصان وليس الفارس. وهنك اليوناني ذو الوجه الفَرَسي[٨٩] الطويل، مثقف دون أدنى شك، أرادَ أن يقرأ من قصيدة " برموثيوس مقيَّداً " - أم هل كانت " طليقاً "؟ لماذا كان يُثيرُ تأنيبي له وسخريتي منه، على الرغم من إعجابي به؟ كم كان ذلك المصري الأبيض العينين، المهووس بالجنس، محبوباً أكثر، وأكثر إثارة للاهتمام! دائماً تجده في ورطة، خاصة إذا فشل في أن يقذف مرةً أو مرتين في اليوم. وتلك السحاقيّة، إلياذة، كما سمَّت نفسها - لماذا إلياذة؟ - كانت غاية في الظُرف، والاحتشام. والحياء... وموسيقية ممتازة أيضاً. أعرف هذا لأنها جَلَبَتْ معها آلة الكمان إلى المكتب ذات مساء وعزَفَتْ لأجلي. وبعد أن عزفَتْ لباخ، وموتسارت، ومجموعة ألحان باغانيني التي يتقنها، كانت في

twitter @baghdad_library

الوقاحة بحيث تُبلغني أنها ملّتْ كونها سُحاقية، وتريد أن تصبح عاهرة، فهلاّ وجدت لها من فضلي مكتباً آخر لتعمل فيه، وتستطيع أن تمارس مهنتها الصغيرة.

كانوا كلهم هناك يمشون في استعراض أمام عيني - بوجوههم وتكشيراتهم، وتضرّعاتهم، وخدعهم الصغيرة الماكرة. كانوا في كل يوم يتمّ تفريغهم على طاولة مكتبي وكأنما من كيس طحين ضخم - هم، واضطراباتهم، ومشاكلهم، وآلامهم وأوجاعهم. ربما حين وقع الاختيار عليّ للقيام بتلك الوظيفة البغيضة رشا أحدهم كبير الموظفين وقال له: "أبقِ هذا الرجل مشغولاً ومنهمكاً! ضعْ قدميه في وحل الواقع، اجعل شعرَه ينتصب، أطْعِمهُ دابوقاً، حطِّمْ آخر وهمٍ لديه! "، وسواءٌ أكان تلقّى الرشوة أم لا، فإنَّ ذلك الموظف العجوز قد نفَّذَ هذا بحذافيره ؛ نفَّذه وأكثر بقليل ؛ جعلني أتآلف مع الأسى والحزن.

ما علينا... مِنْ بين الآلاف الذين كانوا يفِدون ويرحلون، يستجدون، يصفِّرون ويبكون أمامي عُراةً، محرومين، يُطلقون نداءهم الأخير، إنْ صحّ التعبير، قبل أن يستسلموا للمسلخ، كان يظهر بين حينٍ وآخر شاب كالدُرّة، يكونُ عادةً من مكانٍ ناءٍ، ربما تركي أو فارسي. وهكذا يظهر ذلك العلي كذا أو كيت دون إنذار، مُسلم، تلقّى علماً عُلوياً بالكتابة باليد في مكانٍ ما في الصحراء، وبعد أن يتعرَّف عليّ، ويعلم أني رجل ذو أذنين كبيرتين، يكتبُ لي رسالة، رسالة، رسالة من اثنتين وثلاثين صفحة، دون ارتكاب أي خطأ، لا تنقصُ منها فاصلة أو فاصلة منقوطة، يشرح فيها (وكأنَّ ذلك مُهمّاً بالنسبة إليّ أن أعرف) أنَّ معجزات

المسيح - وقد استعرضها واحدةً واحدة - لم تكن معجزات على الإطلاق، وأنه كان رجالٌ آخرون قد قاموا بها من قبل، حتى عملية البعث، رجال فهموا قوانين الطبيعة، قوانين أصرّ على أنّ علماءنا لا يعرفون عنها أي شيء، لكنها قوانين أبدية ويمكنُ عرضها للقيام بما يُسمَّى معجزات كلما ظهرَ الرجل المناسب... وهو، أي علي، كان يملك مفتاح هذا السر، ولن يكشف عنه لأنه، أي علي، اختارَ أن يعملَ ساعياً" ويحمل شارة العبودية " لسببٍ لا يعرفه أحد غيره هو بعد الله تعالى اسمه، ولكن عندما يأتي الوقت المناسب يكفي أن أطلبَ الخ الخ الخ...

وكيف كنتُ أنجحُ في استعباد تلك المخلوقات العجيبة الرائعة والضجيج الذي كانوا يُسبِّبونه، وأتلقّى التأنيب الشديد مرةً كل بضعة أيام لكي أُفسِّرَ هذا التصرُّف وذاك. وكأني كنتُ أحرِّضهم على سلوكهم المعتوه، المُبهم والغريب. نعم، ما أصعب محاولة إقناع الرأس الكبير (الذي يحملُ عقلَ قزم) بأنَّ زهرة أميركا زُرِعَتْ من بذور أولئك المعتوهين، الوحوش، البلهاء الضعفاء العقول الذين، مهما بلغوا من الخبث، يملكون مواهب غريبة كقدرتهم على قراءة " القبلانية[٩٠] " بالعكس، وضرب عشرة أعمدة من الأرقام دفعةً واحدة أو الجلوس على كعكة من الثلج مع ظهور دلائل الحُمَّى عليهم. وطبعاً لم تستطع أيٌ من تلك الشروح أن تُخفِّف من الحقيقة الرهيبة القائلة إنَّ امرأةً عجوزاً اغتُصِبَتْ في الليلة الفائتة على يد شيطان داكن البشرة يُسلِّم رسالة موت.

كان الوضعُ صعباً. لم أتمكّن أبداً من توضيح الأمور له، بقدر ما

twitter @baghdad_library

فشلتُ في عرض قضية توباسنيكوف الطالب التلمودي، الذي كان أقرب شبَهاً بنسخة طبق الأصل من المسيح الحيّ يمشي على قدميه في شوارع نيويورك يحملُ بيده رسائل التهاني بعيد العنصرة. كيف أمكنني أن أقول لذلك الرئيس البوم: " هذا المسكين بحاجةٍ إلى مساعدة. أمه تحتضر بداء السرطان، ووالده بائع جوّال لأربطة الأحذية طوال النهار، والحمائم مُعاقة (تلك التي كانت تجعلُ من الكنيس مسكنها). إنه بحاجة إلى علاوة ؛ بحاجة إلى أنْ يأكل "

ولكي أثير دهشته أو حيرته كنتُ أحياناً أحكي له نوادر صغيرة عن سُعاتي، مستخدماً طوال الوقت صيغة الفعل الماضي وكأني أحكي عن شخصٍ كان في الماضي في الخدمة (على الرغم من أنه موجود طوال الوقت، تحت كُمْ قميصي، مُخبَّأ بأمان في مكتب) **px** أو **Fu** فأقول نعم كان العازف المرافق ليوهان غادسكي، حين قاما بجولةٍ في " الغابة السوداء ". نعم (عن شخصٍ آخر)، كان قد عمِلَ ذات مرة مع باستور في المؤسسة الشهيرة في باريس. نعم (وأيضاً آخر)، لقد عاد إلى الهند لكي يُنهي كتابه " **تاريخ العالم** " بأربع لغات. نعم (طلقة أخيرة)، كان أحد أعظم الساسة[٩١] على الإطلاق ؛ وجمعَ ثروةً بعد أن غادرنا، ثم سقط في مهوى المصعد وتحطمت جمجمته.

وماذا كان جوابه الدائم؟ " شيء مثير حقاً للاهتمام. تابعْ عملك الجيد. تذكَّر، لا تُعيِّنْ إلا الفتية النظيفين المؤدبين المنحدرين من عائلات كريمة. لا يهود، لا مُعاقين، لا محكومين سابقين. نريدُ أن نفخرَ بكتيبتنا من السُعاة "

" حاضر، **سيدي!** "

" وبالمناسبة، احرصْ على التخلّص من كل أولئك الزنوج الذين لدينا ضمن كتيبتنا ؛ لا نريدُ لعملائنا أن يجنّوا من فرط الرعب "

" حاضر، **سيدي!** "

وأعودُ إلى مجثمي، أقومُ بلخبطة بعض الأشياء وثم أجمعها قليلاً بسرعة، لكني لم أطرد أحداً، حتى وإنْ كان أسود مثل الأس السباتي.

كيف نجحتُ في أن أبعدهم عن سجل السُعاة، كل أولئك الـ demen-tia praecox (المُصابين بالعتاه المُبكّر[٩٢])، جوّابي النجوم، علماء المنطق الساميّن، المصروعين بندوب الصراع، واللصوص، والقوادين، والعاهرات، والكهنة المجرَّدين من مناصبهم، وطلاب يتعلّمون التلمود، والقبلانية وكتب الشرق المقدسة؟ روايات! وكأنّ في الإمكان تضمين مثل هذه المسائل، هذه النماذج، في الرواية. أين يمكن، في مثل هذه الرواية، وضعُ القلب، أو الكبد، أو العَصَبْ البَصَري، أو البنكرياس أو المرارة؟ إنهم ليسوا زائفين ؛ إنهم أحياء، كل واحد منهم، وإلى جانب كونهم مشوّهين بتأثير المرض، فإنهم يأكلون ويشربون في كل يوم، ويتبوّلون، ويتبرَّزون ويفسقون، ويسرقون، ويقتلون، ويدلون بشهادة زور، ويخونون أقرانهم البشر، ويدفعون أولادهم إلى العمل، وأخواتهم إلى ممارسة الدعارة، وأمهاتهم إلى الاستجداء، وآباءهم إلى التجوّل لبيع أربطة أحذية أو أزرار ياقات وأن يُحضِروا إلى المنزل أعقاب سجائر، وصُحُفاً قديمة وبضعَ قطعٍ نقدية نحاسية من كأس الرجل الأعمى القصديري. أيُ مكانٍ في الرواية يمكنُ أن يحتوي مثل هذه الأحداث؟

twitter @baghdad_library

نعم، كان شيئاً جميلاً الخروجُ من دار المسرح في ليلةٍ مُثلجة، بعد الاستماع إلى أداء سيمفونية صغيرة. الجو هناك حضاري جداً، تصفيقٌ مُتحفِّظ، وتعليقات ذكية. الآن الأضواء تلمسُ الثلج، وسيارات الأجرة تتوقفُ ثم تنطلقُ مبتعدةً ؛ والأضواء تتلألأ، وتتشظّى كالنوازل الجليدية، والمسيو بارير وجماعته الصغيرة تتسلّلُ خارجةً من المدخل الخلفي لكي تُقيمُ حفلاً موسيقياً خاصاً في منزل أحد المتجنِّسين الأثرياء في جادّة بارك. هناك ألف دربٍ يقود بعيداً عن دارا المسرح وعلى كلٍ منها شخصية مأساوية تتبع مصيرها في صمت. والدروب تتقاطعُ في كل مكان: الحقير مع العظيم، الخَنوع مع الطاغية، وصاحب الأملاك مع الخالي الوفاض.

نعم. كم من أمسية أمضيتُها في حضور حفلٍ موسيقي في أحد تلك المسالخ الموسيقية المُبجَّلة وفي كل مرة أخرج فيها لا أفكر في الموسيقا التي كنتُ أصغي إليها بل في أحد لقطاتي، أحد أفراد الطاقم المتعضّي الكوني النازف الذي أكونُ قد عيَّنتُه أو طردته في ذلك اليوم ولا يمكنُ لهايدن، أو باخ، أو سكارلاتي، أو بيتهوفن، أو بعلزبوب، أو شوبرت، أو باغانيني أو أي ٍ من زمرة عازفي آلات النفخ، أو الآلات الوترية، أو البوق أو التشيمبالو، أن يُبدِّدَ ذكراه. أكادُ أراه، ذلك المسكين، يغادرُ المكتب مع زي الساعي ملفوف على شكل حزمة، ويتوجه إلى خط القطار المرفوع عند جسر بروكلن، ويستقل أحد القطارات المتوجهة إلى فريشبوينت رود أو جادّة بتكن، أو ربما إلى شارع كوسيوسكو، وهناك يغوص في الحشو، يختطف المخلل الحامض، ويتفادى ركلةً على قفاه،

ويُقشِّرُ البطاطا، وينظِّف السرير من البق ويتلو صلاةً لجدِّه الأكبر الذي قُتِلَ على يد بولوني مخمور لأنَّ مرأى لحيةٍ تذروها الريح كان بمثابة حرمانٍ كنسي بالنسبة إليه. وكدتُ أيضاً أراه يسيرُ على طول جادة بتكين، أو شارع كوسيوسكو، يفتّش عن زريبةٍ معيَّنة، أم هل كان وجاراً، وقلتُ في نفسي كم أنا محظوظ لأني لم أولد يهودياً ولأني أتكلم الإنكليزية أيضاً. (أما يزالُ هذا حي بروكلن؟ أين أنا؟) أحياناً أكادُ أشمُّ رائحة سمك بطلينوس في الخليج، أو لعله كان في مياه المجرور. وأينما أذهب، بحثاً عن الضائعين والملعونين أجدُ دائماً سلالم نجاة تزدحمُ بالبطانيات، ومن البطانيات تسقطُ، كملائكةٌ جريحة، تشكيلةٌ من القمل، وبق الفراش، والخنافس البنيّة اللون، والصراصير وقشور سلامي الأمس المحرشفة. وبين وقتٍ وآخر أتناولُ مخللاً حامضاً رياناً، أو سمكةَ رنكة مدخنة مُغلَّفة بورقة من صحيفة. وذلك البسكويت المملّح الكبير، كم كان لذيذاً! والنساء كلّهنّ أياديهنّ حمراء وأصابع زرقاء - من شدّة البرد، ومن طول الكشط والغسيل والشطف (ولكنَّ الابنَ، العبقري منذ الآن، ستكونُ له أصابعُ رقيقة وطويلة وذات نهايات صلبة. وقريباً سوف يعزف في قاعة كارنيغي). ولم يحدث أبداً في أي مكان من العالم المسيحي المُنجَّد الذي أتيتُ منه أن صادفتُ عبقرياً، أو حتى شبه عبقري. حتى مكتبة كان من الصعب العثورُ عليها. أما روزنامات، فنعم، أكوامٌ منها، يعدُّها اللحام والبقَّال. لا تجد فيها لوحة لهولباين، أو كارياتشيو، أو هيروشينغه، أو جيوتو، ولا حتى لرامبرانت. ويسلر، ربما، ولكن فقط صورةً لأمه، تلك المخلوقة ذات المظهر الهادئ

twitter @baghdad_library

ومتلفّعة بملابس سوداء ويداها مضمومتان في حجرها، في استسلامٍ تام، ومحترمة جداً. كلا، لم يكن هناك بيننا نحن المسيحيين الكئيبين أي شيءٍ يدلُّ على فن، ما عدا مخازن بيع لحم الخنزير المُزيَّنة بمختلف أنواع الكرشة، والقوانص. وطبعاً هناك مُشمَّع الأرضيات، والمكانس، وأُصص الزهور. كل شيء ينتمي إلى مملكة الحيوان والنبات، بالإضافة إلى الخردوات، وكعك الجبن الألماني والسجق الألماني الثخين والسوكروت. وثمة كنيسة في كل بناء، كئيبة المنظر، من النوع الذي لا يمكن إلا للّوثريين والمشْيخيين أن يُنتجوه من أعماق إيمانهم العقيم. والمسيح كان نجّاراً! بنى كنيسةً، ولكن ليس من خشبٍ وحجارة.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

ظلّت الأمور تتقدّم بيسر وسهولة. كان الوضع أشبه بتلك الأيام الأولى في عش الحب الياباني. فإذا خرجتُ للتمشي تُلهمني حتى الأشجار الميتة ؛ وإذا قمتُ بزيارة ريب في مخزنه أعود مُحمَّلاً بالأفكار بالإضافة إلى القمصان، ربطات العنق، والقفازات والمناديل. وحين أصادفُ صاحبة المنزل لم أعُد أقلق حول الإيجار الميت. فقد أصبحنا حينئذٍ نتلقّى نقوداً من كل جهة ولو أردنا أنْ نستدين لتوفّرٍ مبلغ وافر. حتى أيام عُطل اليهود كانت تمرُّ ممتعة، بوليمة في هذا المنزل وأخرى في ذاك. كنا قد أصبحنا في عز الخريف، لكنه لم يعُد يُسبِّب لي الانقباض كما كان يفعل في السابق. الشيء الوحيد الذي كنتُ أفتقده ربما هو وجود دراجة.

حينئذٍ كنتُ قد تلقَّيتُ بضع دروس أخرى في قيادة السيارة واستطعتُ أنْ أطبِّقها للحصول على إجازة قيادة في أي وقت. وحين أحصل عليها كنتُ سأصحب مونا في جولة، كما كان ريب قد ألحّ عليّ أن أفعل. في تلك الأثناء تعرَّفَتْ إلى السُكان السود أناسٌ طيّبون، كما قال ريب. كنا كلما جمعنا الإيجارات نعود إلى المنزل مخمورين وغايةً في الانبساط. وأحد السكان، الذي يعملُ كمفتش في الجمارك، عَرَضَ

عليّ أن يعيرني كُتُباً. كانت لديه مكتبة مُذهلة من الكتب الفاحشة وكلها سرقها من أرصفة الميناء أثناء تأديته واجبه. ولم أرَ في حياتي كلها كلَّ ذلك العدد الهائل من الكتب القذرة، والصور الداعرة. مما دفعني إلى التساؤل عمّا تحتويه مكتبة الفاتيكان الشهيرة من ثمارٍ مُحرَّمة.

في يومٍ مُشمس كنتُ أجلسُ في حديقة فورت غرين وأقرأ في كتاب - " **أيامٌ كسولة في بتاغونيا** "، " **ورك** "، " **البطن والفك** " أو " **الحسّ المأساوي بالحياة** " (**أونامونو**[٩٣]) إذا كانت هناك أسطوانة أريد أن أستمع إليها وليست لدينا منها نسخة كان في استطاعتي أن أستعيرها من مجموعة ريب أو من مجموعة صاحبة المنزل. وحين لا نرغب في فعل أي شيء كنا نلعب الشطرنج، مونا وأنا. ولم تكن لاعبة بارعة، ولكن أنا أيضاً لم أكن كذلك. لقد وجدتُ أنَّ من المثير أكثر دراسة الخطط الواردة في كُتُب تعليم لعبة الشطرنج - وأولها كتاب بول مورفي[٩٤]. أو حتى أن أقرأ عن نشأة اللعبة، أو عن الاهتمام بها الذي يبديه أهل آيسلندا أو ماليزيا.

لم يكن حتى للتفكير في رؤية الأهل - بمناسبة عيد الشكر - أن يُعيقني. الآن أستطيع أن أخبرهم - ستكون فقط نصف كذبة - أني كُلِّفتُ بتأليف كتاب ؛ أني سأتلقّى نقوداً مقابل جهودي ؛ كم سيُبهجهم هذا الخبر! عندئذٍ لم أكن أقلّب إلا هذا النوع من الأفكار في رأسي. كل الأمور المُفرحة التي كانت قد وَقَعَتْ لي طَفَتْ على السطح. شعرتُ برغبةٍ في الجلوس وتدوين هذا الشيء وذاك، شاكراً له أو لها لكل ما فعلاه من أجلي. ولِمَ لا ؟ وهناك أماكن أيضاً أودُّ أن أقدِّم شكري لها لأنها وَهَبَتْني لحظات من النعيم. كنتُ أحمق إلى هذه الدرجة حول الأمر كله حتى أني قمتُ بجولةٍ

twitter @baghdad_library

خاصة في ماديسون سكوير غاردن وقدّمتُ شكراً صامتاً للجدران من أجل اللحظات الرائعة التي عشتها في الماضي في مشاهدة بفالو بيل وهنود البوني يُثيرون الحماس، ولحصولي على امتياز مشاهدة جيم لوندوس، الهرقل الصغير، يُطيحُ بعملاقٍ بولوني من فوق رأسه، ولسباقات الأيام الستة على الدراجات ولإنجازات التحمُّل الفذّة التي شهدتها.

في تلك الأحوال المزاجية المرحة، حين كان كل شيء مُنفتح نحو السماء مثلي، لا عَجَبَ أنَّ السيدة سكولسكي التي أصادفها في طريق عودتي أو ذهابي مصادفةً وتنظرُ إليّ بعينين جاحظتين أثناء توقُّفي لأقضي وقتَ راحتي اليومية. كان التوقُّف يدومُ مدة نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة أحياناً، أسردُ خلالها عناوين كتب، وشوارع، وأحلام غريبة، والحمام الزاجل، وزوارق القطر، وأي شيء مهما كان، كل ما يخطر على بالي، وبدا أنَّ كل شيء كان يأتي دُفعةً واحدة، لأني كنتُ سعيداً، ومسترخياً، وخالٍ من الهموم، وفي أحسن حالة صحّية. وعلى الرغم من أني لم أكن أبداً أقومُ بحركة خاطئة، عرفنا نحن الاثنان أنَّ ما علينا أن نفعله هو أن أضمَّها بين ذراعيَّ، وأقبّلها، وأعانقها، أجعلها تشعر أنها أنثى وليس صاحبة منزل. وتقول، ولكن بلغةِ نهديها " نعم "، وببطنها الناعم، الدافئ، " نعم ". " نعم " دائماً نعم. ولو قلت – "ارفعي تنورتك وأريني عشّك! " لقالت أيضاً نعم. ولكن كان لدي من الحس السليم ما يجعلني أتجنَّب قول مثل ذلك الهراء. كنتُ راضياً بما أبدو عليه – مؤدَّباً، ثرثاراً، وبصورةٍ ما مُستأجِراً غير عادي (بالنسبة إلى غوي[٩٥]) كان يمكن أن تظهر أمامي عارية، حاملةً طَبَقاً من زلابية البطاطا مُشبَّعة بصلصة اللحم الكثيفة دون أن أضعَ مخلبي عليها.

كلا، لقد كنتُ أشدّ سعادةً بكثير، ورضا، بحيث أفكر في نكاحٍ تصادفي. وكما كنتُ أقول، الشيء الوحيد الذي كنتُ أفتقده حقاً هو الدراجة. سيارة ريب، التي أرادني لأن أعتبرها ملكي لم تعنِ لي أي شيء، ليس أكثر مما كان يمكن لسيارة ليموزين مع سائق تتنقّل من حولي أن تعنيه. ولا حتى رحلة إلى أوروبا لم تعد تعني لي الكثير عندئذٍ. في تلك اللحظة لم تكن بي حاجة إلى أوروبا. جميل أن أحلم بها، أن أتحدث عنها وأبدي إعجابي بها، ولكني كنتُ سعيداً حيث أنا. أجلسُ في كل يوم وأكتب بضع صفحات، وأقرأ الكتب التي أرغب في قراءتها، وأصغي إلى الموسيقا التي أولع بها، وأتمشى، أشاهدُ عرضاً موسيقياً، أدخّن سيجاراً إذا شئت - ماذا أريد أكثر من ذلك؟ لم تعد هناك مشاجرات حول ستيسيا، لا تلصُّص، ولا تجسُّس، ولا سَهَر ولا انتظار. كل شيء كان يجري على أحسن ما يرام، بما فيه مونا. وقريباً قد أتطلّع إلى الإصغاء إليها وهي تتحدث عن طفولتها، تلك الأرض المُقفِرة التي تفصل بيننا ؛ وحين أراها عائدة إلى المنزل وذراعاها عامران، ووجنتاها متورّدتان، وعيناها لامعتان - ماذا يهم من أين هي قادمة أو كيف أمضت يومها؟ هي سعيدة، وأنا سعيد. حتى العصافير في الحديقة تكون سعيدة ؛ إنها تغرِّد طوال النهار، وحين يأتي المساء توجِّه مناقيرها نحونا وبلُغَتها التغريدية يقول بعضها للبعض الآخر " أترون! هناك زوج سعيد! هيا نغني لهما قبل أن نأوي إلى النوم "

أخيراً حل اليوم الذي توجَّبَ فيه أن أصحب مونا في نزهة أصبحتُ الآن مؤهَّلاً للقيادة وحدي، حسب رأي ريب. ولكن اجتياز امتحان أمر وأن تجعل زوجتك تضعُ حياتها بين يديك فأمرُ آخر. كان الخروج بالسيارة

twitter @baghdad_library

إلى الوراء من المرآب يجعلني متوتِّر الأعصاب كقطة. فذلك الشيء اللعين ضخم، ويتحرك ببطء ؛ وقوته هائلة. أصابني الرعب من أن نفقد السيطرة على سرعتها. وكنتُ أنتقي الطُرق الفرعية كلما استطعت ذلك، لكنها كانت دائماً تعيدني إلى الطُرُق الرئيسية. وحين قطعنا مسافة عشرين ميلاً كنتُ قد غرقتُ في عَرَقي. كنتُ آمل أن نبلغ بلو بوينت، حيث كنتُ قد أمضيت عُطَلاً رائعة وأنا فتى، لكننا لم ننجح في ذلك. ولكن سيان أيضاً، لأنني حين زرتُ المكان لاحقاً شعرتُ بانكسارٍ في قلبي ؛ لقد تغيَّرَ إلى درجة أني لم أتعرَّف عليه.

تمدَّدتُ على جانب الطريق، أراقبُ الحمقى الآخرين الذين يقودون سياراتهم مارّين بنا، وأقسمتُ على ألاّ أقود سيارة بعد ذلك. وسرَّتْ مونا بخيبتي. قالت " لم تُخلَق لهذا ".ووافقتها. قلت " ما كنتُ حتى أعلم ماذا أفعل لو أنَّ الشمعة انطَفَأتْ "

سألتني " وماذا كنتَ ستفعل حقاً؟ "

أجبتها " أخرج منها وأسير "

قالت " تصرُّفٌ خليقٌ بك "

ناشدتُها " لا تخبري ريب عن شعوري بشأنها ؛ إنه يعتقد أنه يقدِّم لنا معروفاً كبيراً. ولا أريد أن أخذله "

" أينبغي أن نذهب إلى هناك على مائدة العشاء؟ "

" طبعاً "

" فلنغادر باكرين إذن "

أجبت " القولُ أسهلُ من الفعل "

في طريق عودتنا واجهنا متاعب في السيارة. لحسن الحظ هبَّ سائقٌ

شاحنة إلى نجدتنا. ثم إني اصطدمت بمؤخّر السيارة القديمة المضروبة، ولكن بدا أنَّ السائق لم يأبه بذلك. ثم هناك المرآب - كيف كنتُ سأحشرها داخل ذلك الممر الضيّق؟ ولجتُ حتى منتصف المسافة، ثم غيَّرتُ رأيي، وأثناء حركة الرجوع إلى الخلف كدتُ أرتطمُ بسيارة نقل. وتركتُها واقفةً نصفها على الرصيف، ونصفُها في قناة جانب الطريق، وغمغمت " أيري فيكي! افعلي ذلك وحدك "

كانت قد بقيتْ مسافة قصيرة علينا أن نسيرها. كنتُ مع كل خطوة نبتعد عن ذلك الوحش أشعرُ بارتياحٍ أكبر. كنتُ سعيداً لأني أسيرُ على قدميّ وأنا سليمٌ مُعافى، وشكرتُ الله لأنه جعلني ميكانيكياً فاشلاً، ولعلّي فاشلٌ في مجالاتٍ أخرى أيضاً. كان هناك قاطعو الخشب وساحبو المياه، وشياطين العصر الآلي. أنا كنتُ أنتمي إلى عصر المتزلّجين على المزلجات أو الدراجات الثلاثية الدواليب. ما أسعدني بحصولي على ذراعَين وساقين قوية، وقدمين رشيقتين، وشهية قوية! كان في إمكاني أن أقطع المسافة حتى كاليفورنيا ذهاباً وإياباً سيراً على قدميّ. أما بالنسبة إلى السفر بسرعة خمسة وسبعين في الساعة فأستطيع أن أسير أسرع من ذلك - في أحلامي. كان في استطاعتي أن أذهب إلى كوكب الزهرة وأعود بلمح البصر، دون أن يتعطّل شيء...

*

كانت أول مرة نتناولُ فيها طعام العشاء مع آل إسِّن. لم نكن قد قابلنا السيدة إسِّن قبل ذلك، ولا ابن وابنة ريب. كانوا في انتظارنا؛ المائدة ممدودة، والشموع مُضاءة، والنار مستعرة، والرائحة الذكية الرائعة تصلنا من المطبخ.

twitter @baghdad_library

كـان ريب أول المتـحـدثين، قـال وهو يحـملُ زجاجـتين من البـورت الثقيل، " إليكما المشروب! كيف وجدتها؟ هل شعرت بتوتُّر؟ "

قلت " لا أبداً! انطلقنا دون توقف حتى بلو بوينت "

" في المرة التالية ستذهبان إلى مونتوك بوينت "

هنا انضمَّتْ السيدة إسِّن إلينا في الحديث. كانت مخلوقاً لذيذاً، كما قال ريب. ربما كانت راقية أكثر مما ينبغي قليلاً. ثمة منطقة ميتة في مكانٍ ما فيها. ربما في مؤخرتها.

لاحظتُ أنها لا تكادُ تخاطب زوجها. وبين حين وآخر كانت تؤنبه على فظاظته أو على بذاءة لغته. كان جليّاً انه لم يعُد بينهما أي علاقة.

كانت مونا قد تركت أثراً قوياً على الصغيرين اللذين كانا في طور المراهقة. (من الواضح أنهما لم يكونا قد قابلا أحداً من نمطها). الابنة كانت ثقيلة الوزن أكثر مما ينبغي. وبدت عادية، وتتمتع بساقين تشبهان إلى درجة خارقة ساقَيّ آلة بيانو. وكانت مفرطة الخجل. أما الابن فكان أحد أولئك الأولاد المبكِّري النضج الذين يُكثرون من الكلام، ويعرفون أكثر مما ينبغي، ويضحكون أكثر مما يجب، ودائماً يقولون الشيء الخطأ. كان مملوءاً بالطاقة الزائدة، والحماس، بحيث أنه كان دائماً يرتطم بالأشياء أو يطأ قدم أحدهم. كان pipperoo حقيقي، وذا عقلٍ يقفزُ كحيوان الكنغر.

حين سألته إنْ كان ما يزال يتردَّد على الكنيس رسم تعبيراً ساخراً على وجهه، وأمسك منخريه بإصبعين من يده، وقام بحركة كأنه يشد سلسلة السيفون. وأسرعت أمه بالشرح قائلة إنه تحوّل إلى جمعية "الثقافة الأخلاقية ". وأسعدها أن تعلمْ أني أنا أيضاً كنتُ في الماضي أتردَّد على اجتماعات تلك الجمعية.

قال ريب " دعونا نشرب المزيد "، وبدا جلياً أنه قد ملّ الحديث عن "الثقافة الأخلاقية "، و " الفكر الجديد "، والبهائيّة، وما شابه من التوافه.

شربنا المزيد من ذلك البورت الأسمر الضارب إلى الصِفرة. كان لذيذاً، لكنه ثقيل جداً. قال " بعد العشاء سنعزف لأجلك ". كان يقصد بذلك هو وابنه. (قلت في نفسي، ما أفظع هذا!). سألته إنْ كان الفتى متقدِّماً. " لم تصبح بعد في مستوى ميشا إلمن[٩٦] حتماً ". ثم التفت إلى زوجته، " ألم يجهز العشاء بعد؟ "

نهضتْ واقفةً بأسلوبٍ مهيب، ومسَّدت على شعرها بدءاً بجبينها وإلى الخلف، ومشتْ مباشرةً باتجاه المطبخ، كالسائرة في نومها.

قال ريب " فلننتقل إلى المائدة. لابد أنَّ ضيفينا يشعران بجوعٍ شديد "

كانت مسز إسِّن طباخة ماهرة، لكنها ليست شديدة الإسراف. كان هناك من الطعام على المائدة ما يكفي شخصين كما كنا فعلاً. والنبيذ كان رديئاً. إذ نادراً ما تُقابل يهودياً يتمتَّعُ بذوقٍ رفيع في النبيذ، كما لاحظت. ومع القهوة والفاكهة جاء الكومل والنبيذ البندكتي. وانتعشت مونا. كانت تحب الكحول. ولاحظتُ أنَّ السيدة إسِّن لا تشرب إلا الماء. أما ريب فكان يشرب دون تحفُّظ. يمكنني القول إنه كان قد سكر قليلاً أصبحَ لسانه ثقيلاً في الكلام، وإيماءاته سائبة ورخوة. كان منظره مسلّياً؛ على الأقلّ كان على سجيَّته. وطبعاً تظاهرتْ السيدة إسِّن بأنها غير منتبهة إلى حالته. لكنَّ الابن كان مبتهجاً ؛ مستمتعاً بمشاهدة والده يجعل من نفسه أبله.

كان جواً غريباً، مخيفاً. وكانت السيدة إسِّن تحاولُ بين حين وآخر أن

twitter @baghdad_library

ترفع من مستوى الحديث. بل إنها فتحت سيرة هنري جيمس - كانت تلك، بلا شك، فكرتها عن الموضوع المثير للجدل - لكنَّ محاولتها أخفقتْ. كانت لريب اليد الطولى ؛ أخذ الآن يُكيلُ السباب دون حساب ونَعَتَ الحاخام بالمغفَّل. لم يكن يُكثر من الكلام، فاهتمامه الآن، كما قال، منصبٌّ على الملاكمة والمصارعة. وأخذ يمدّنا بالمعلومات الهامة عن بيني ليونارد[٩٧]، معبوده، ويشجب لويس الخنّاق، الذي يمقته.

لكي أستحثه على الكلام قلت " وماذا عن ردكاب ويلسن؟ " (كان قد عملَ عندي كساعٍ ليليّ. كان شبه أخرس وأبكم حسب ما أذكر)

أَزاحه جانباً قائلاً - " إنه درجة ثالثة، حقير "

قلت " مثل باتلنغ نلسن "

هنا تدخّلت السيدة إسِّن لنقترح أن ننتقل إلى الغرفة الأخرى، الصالون. قالت " يمكننا أن نتحدثا بارتياح أكثر هناك "

هنا ضرب سد إسِّن بقوة على الطاولة، وصرخ " ولماذا ننتقل؟ ألسنا على ما يرام هنا؟ أنتِ تريديننا أن نُغيِّر الموضوع، هذا هو السبب"، وتناولَ كأسَ الكومل، " هيا نشرب المزيد. كلنا. إنه طيِّب "

نهضتْ السيدة إسِّن مع ابنتها لتنظيف الطاولة. فَعَلَتا ذلك في صمتٍ وكفاءةٍ، كما يمكن لأمي وأختي أن تفعلا، وتركتا فقط الزجاجات والكؤوس على الطاولة.

لكزني ريب ليُفضي إليّ بما اعتقدَ أنه همس - "حالما ترى أني أستمتعُ بما أفعل تُطبقُ عليّ. هذا ما تفعله النساء بك "

قال الفتى " هيا، يا أبي، دعنا نُحضِر آلات الكمان "

صرخَ ريب " أحضرهما، مَنْ يمنعك؟ ولكن لا تعزف نشازاً، فذلك يُثيرُ جنوني "

انتقلنا إلى الصالون، وهناك تمدَّدنا على الصوفا وعلى كرسي مريح. ولم آبه إنْ كانا سيعزفان أم لا. من ناحيتي كنتُ سكران من كثرة ما شربتُ من النبيذ الرخيص وباقي المشروبات.

بينما العازفان يدوزنان آلتيهما وُزِّعَتْ كعكة الفاكهة علينا، ثم الجوز العادي، وجوز البيقان المقشور.

اختارا مقطوعةً ثنائية من موسيقى هايدن ليعزفاها أولاً. ومنذ النغمات الأولى لم يبدءا معاً. لكنهما بقيا هكذا آملَين، في اعتقادي، أنهما في النهاية سوف ينضبطان في خطوة واحدة. والضجيج المتقطِّع الذي كانا يصدرانه كان يبعث القشعريرة في الجسم. وفي منتصف المقطوعة انهارَ الأب، وزعقَ، وهو يرمي بالكمان إلى الكرسي، " اللعنة! تبدو فظيعة. أعتقد أننا لسنا مؤهَّلَين للعزف "، ثم التفتَ إلى ابنه، "أما أنت فيستحسن أن تتدرَّب أكثر قبل أن تعزف أمام أحد "

تلفَّتَ حوله وكأنه يبحث عن الزجاجة، ولكن لما رأى النظرة المتجهِّمة التي تلقَّاها من زوجته غاصَ في كرسيه المريح. وغمغمَ معتذراً بأنه يصبحُ صدِئاً. لم ينطق أحد. تثاءبَ بصوتٍ عالٍ. قال بضجر " لِمَ لا نلعب الشطرنج؟ "

قالت السيدة إسِّن " أرجوك، ليس هذه الليلة! "

جرَ نفسَه جراً ليقفَ على قدميه. قال " الجو فاسد هنا. سأخرج لأتمشّى. لا ترحلا! لن أغيب طويلاً "

بعد أن ذهب حاولتْ السيدة إسِّن أن تُعلِّل سلوكه المُشين. " لقد فَقَدَ الاهتمامَ بكل شيء؛ إنه يقضي وقتاً أطول مما ينبغي وحده ". تكلمت عنه وكأنه ميت.

twitter @baghdad_library

قال ابنها " يجب أن يأخذ إجازة "

قالت الابنة " نعم، إننا نحاول أن ندفعه إلى زيارة فلسطين "

قالت مونا " لِمَ لا ترسلينه إلى باريس؟ سوف يُنعشه ذلك "

أخذ الفتى يضحك بشكل هستيري.

سألتُهُ " ما الأمر؟ "

ازداد ضحكه عزماً، ثم قال "إذا وصلَ إلى باريس لن نراه أبداً بعد ذلك"

قالتْ الأم " كفى! كفى! "

" أنتِ تعرفين أبي ؛ سوف يُصاب بالجنون، بعد أن يرى كل تلك الفتيات، والمقاهي، والـ... "

قالت السيدة إسِّن " يا له من أسلوبٍ في الكلام! "

ردَّ الفتى "أنتِ لا تعرفينه. أنا أعرفه؛ **إنه يريد أن يعيش.** وأنا كذلك"

قالت مونا " لِمَ لا ترسليهما معاً إلى خارج البلاد؟ الوالد يعتني بالولد والولد يعتني بالوالد "

هنا رنَّ جرس الباب. كان أحد الجيران قد سمع أننا نقومُ بزيارةِ آل إسِّن وجاء لكي يتعرَّفَ علينا.

قالتْ السيدة إسِّن "هذا السيد إلفنباين". بدت غير مبتهجة لرؤيته.

تقدَّمَ السيد إلفنباين منا، بمرفقين منحنيين ويدين متشابكتين. كان وجهه يشع، والعرق يقطرُ من جبينه.

هتفَ، وهو يقومُ بانحناءة قصيرة. " يا له من امتياز! "، ثم شدَّ على أيدينا وأخذ يهزّها بحيوية. " لقد سمعتُ الكثير عنك. آمل أن تعذُرا انتهاكي المكان. هل تتكلَّم اليديّة - أو الروسية؟ ". حنى كتفيه وهزَّ رأسه من جنبٍ إلى جنب، وتبعت عيناه الحركة كإبرتيّ البوصلة. ثم

ثبّتني بابتسامةٍ عريضة. " السيدة سكولسكي تقول لي إنك مولعٌ بسماع كانتور سيروتا... "

شعرتُ كأني عصفور تحرَّرَ من قَفَصِه. تقدّمتُ من السيد إلفنباين وعانقته بقوة.

قلتُ " من منسك أم من بنسك؟ "

أجاب " أنا من أرض الموآبيين[٩٨] "

نظرَ إليّ نظرةً مشرقة وداعبَ لحيته. وضعَ الفتى كأساً من الكومل في يده. كانت هناك خصلة شاردة من الشعر على قمة رأس السيد إلفنباين الأصلع ؛ انتصبَتْ كفتاحة سدادات الفلين. جرَعَ محتوى كأس الكومل وقَبِلَ قطعةً من كعكة الفاكهة. ومرة أخرى شَبَكَ يديه فوق صدره.

قال " كم أنا مسرور لتعرُّفي إلى غويّ مثقَّف حقيقي. غويّ يؤلّف كُتُباً ويخاطبُ الطيور، يقرأ للكُتَّاب الروس ويحتفل بيوم التكفير، ولديه من الحسّ السليم بحيث يتزوج فتاة من بوكوفينا... غجرية، ولا أقلّ. وممثلة! **أين ذلك المتسكّع، سيد؟ هل سكِرَ مرة أخرى**؟ وتلفَّتَ حوله كبومٍ عجوز حكيم يوشكُ أن ينعب. " **سيدتي**، إذا أمضى رجلٌ حياته وهو يدرس ومن ثم اكتشفَ أنه غبي، فهل هو على حق؟ الجواب هو نعم أو لا. في قريتنا نقول إنَّ على الرجل أن يهذِّبَ سلوكه الأحمق، لا سلوكَ شخصٍ آخر. **والقبلانيّة** تقول... ولكن يجب ألاّ نخوض في المهاترات منذ البداية. من مينسك تأتي معاطف المنك ومن بينسك لا يأتي إلا البؤس. واليهودي القادم من منطقة " الرواق[٩٩] " هو يهودي لا يلمسه الشيطان. وموشى إشت كان من هذا النوع. هو ابن عمي، بعبارة أخرى. دائماً متورِّط في مشكلة مع الحاخام. وحين يحلُّ الشتاء يغلق على نفسه في مخزن الحنطة. كان صانع أطقُم خيول... "

twitter @baghdad_library

سكَتَ فجأةً وابتسمَ لي ابتسامةً شيطانية.

باشرتُ بالقول " في سِفر أيوب "

قال " اجعله سِفر الرؤيا ؛ إنه أكثر روحانيّة "

قهقهَتْ مونا، وانسحبتْ السيدة إسِّن خلسةً. وحده الفتى بقي. كان يقومُ بإشارات من خلف ظهر السيد إلفنباين، وكأنَّ جهازَ هاتف يرنّ مُثبَّت إلى صدغِه.

كان السيدَ إلفنباين يقول " بأي لغة تُصلّي أولاً؟ "

أجبته على الفور " بلغة آبائنا ؛ ابراهيم، واسحق، وحزقيال، ونحميا... "

غرَّدَ قائلاً " وداوود وسليمان، وراعوث واستر "

هنا ملأ الفتى كأسَ السيد إلفنباين من جديد " حين يكبُر سيصبح شاباً رائعاً " وهو يتلمَّظ بشفتيه. " الآن هو لا يميِّز شيئاً من شيء. يجب أن يصبحَ عالِماً فقيهاً - إذا ما كان عاقلاً. أتذكُر رواية " **جُرْمٌ وعوقِبَ**"...؟ "

قال الفتى إسِّن " تقصد **الجريمة والعقاب**؟ "

" بالروسية عنوانه الأصلي " **الجريمة وعقابها** ". والآن اجلسْ ولا ترسم تعبيرات ساخرة من خلف ظهري. أنا أعرفُ أني meshuggah (بالعبرية: مجنون)، لكنَّ هذا السيد ليس كذلك. دعه يكتشف ذلك وحده. أليس كذلك، أيّها الجنتلمن؟ "، وقام بانحناءةٍ ساخرة.

ثم تابعَ، واضعاً في حسبانه السيدة إسِّن دون شك. " حين يتحوَّلُ يهودي عن ديانته فالأمرُ يشبه تحوُّل الدهن إلى ماء، الأفضل أن يكونَ المرءُ مسيحياً على أن يكونَ أحد تلك المركَّبات التفهة - " قاطَعَ نفسَه،

وقد انتبه إلى وجوب مراعاة آداب المجتمع. "المسيحي هو يهودي يحملُ صليباً بيده. إنه لا يستطيع أن ينسى أننا قتلناه، أقصد يسوع، الذي كان يهودياً كأي يهودي آخر، إلا أنه أشدّ تعصُّباً . ولكي تقرأ تولستوي لا داعي لأن تكونَ مسيحياً؛ إنّ اليهودي يفهمه بالقدر نفسه. والجيد في تولستوي هو أنه أخيراً تحلّى بالشجاعة لكي يفرّ من زوجته... ويَهِبَ أمواله. المجنون نال التبريك؛ إنه لا يأبه بالمال. المسيحيون وحدهم يتظاهرون بأنهم مجانين ؛ وهم يحملون بوالص التأمين على الحياة كما يحملون المسابح وكُتُب الصلوات. اليهودي لا يتنقَّلُ حاملاً المزامير؛ إنه يحفظها عن ظهر قلب. حتى حين يبيع أربطة أحذية تراه يُهمهمُ بآياتٍ لنفسه. أما المسيحي فحين يُهمهمُ بترتيلة يبدو كأنه يشنُّ حرباً. "**إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون**! "كيف الحال-؟ يسيرون كأنما للمشاركة في حرب. لماذا "كأنما"؟ إنهم دائماً يشنّون حرباً - بخنجرٍ بيد وصليبٍ بالأخرى"

هنا نهضَتْ مونا لتقترب. مدَّ السيد إلفنباين يديه، وكأنه شريك رقص. أمسكها ورفعها حتى عَلَتْ عن الأرض، كما يفعل الدلاّل. ثم قال " ماذا مثّلتِ مؤخراً، يا زهرة شارون[100]؟ "

أجابتْ " مثلت في مسرحية **الببغاء الأخضر** " (تيك-تاك-تو)

" وقبلَ ذلك؟ "

" في مسرحيات " **أغنية العنزة** " و "**ليليون** "... " **والقديسة جان**""

رفعَ يده " كفى! إنَّ مسرحية " **الدايبوك** " يناسب مزاجك أكثر. إنها أشدّ صلة بأمراض النساء. والآن ماذا كان عنوان تلك المسرحية لسودرمن؟ لا يهم. أه نعم... " **ماغدا** ". أنتِ ماغدا، وليس مونا فانا، أنا أسألكِ، كيف يمكن أن أبدو في " **إله الانتقام** "؟ هل أنا شيلدكروت

twitter @baghdad_library

أو بن عامي؟ أعطيني مسرحية مثل " **سيبريا** " لكي لأمثلها، وليس "**خادم في المنزل!** " ونقرَ تحت ذقنها بلطف. " إنك تذكرينني قليلاً بإليسا لاندي. نعم، ربما مع لمسة من ناظيموفا[١٠١]. لو كنتِ أثقلَ وزناً لاستطعت أن تكوني وريثة موجسكا. وشخصية **هيدا غابلر**، هذه تناسبكِ. مسرحيتي المفضَّلة هي " **البطة البرية** ". وبعد ذلك " **أزعر العالم الغربي** ". ولكن ليس باللغة اليديّة، أعوذ بالله! "

كان المسرح هو موضوعه المفضَّل بكل وضوح. وقد كان يعمل ممثلاً قبل سنواتٍ طويلة، أولاً في الروملدومفيزا أو في بؤرة مشابهة، ثم في تالبا في حي الباوري. هناك قابلَ بن عامي، وفي مكانٍ آخر قابلَ بلانس يوركا، وتنعرَّفَ أيضاً إلى فيستا تيللي، شيء غريب. وإلى ديفيد وورفيلد. ورأى أنَّ " اندروكليس والأسد " درَّة من الدرر، لكنه لم يأبه بمسرحيات شو الأخرى. كان شديد الولع بين جونسن ومارلو، وهازنكليفر وفون هوفمنستال.

كان يقول " النساء الجميلات نادراً ما يصبحنَ ممثلات جيدات. يجب أن يكون فيهنَّ عيب من نوعٍ ما – أنف طويل أو عين حولاء قليلاً. والأفضل أن يكون لهُنَّ صوت غير عادي. الناس دائماً يتذكرون الصوت. خُذ عندك صوت بولين لورد، مثلاً "، ثم التفت نحو مونا، " أنتِ لكِ صوت جميل أيضاً. فيه سُكَّر أسمر وكبش قرنفل وجوز الطيب. وأسوأها هو الصوت الأميركي – لا روح فيه. يعقوب بن عامي له صوت رائع... كالشوربة اللذيذة... لا تفسد أبداً. لكنه كان يجرّه معه مثل السلحفاة. وعلى المرأة أن تُهذِّب صوتها قبل أي شيء. وعليها أيضاً أن تفكِّر أكثر في ما ترمي إليه المسرحية... ليس عن " حوذيها " الممتاز... أقصد

في " مؤخرتها[١٠٢] ". عادةً الممثلات اليهوديات يحملن مقداراً ضخماً من اللحم ؛ وعندما يتكلّمن وهن على خشبة المسرح يهتززن كالهُلام. ولكن في أصواتهنّ حزنٌ دفين... sorge. لسنَ بحاجة إلى أن يتخيَّلن أنَّ شيطاناً يقطعُ أثدائهنّ بكمّاشة حامية. نعم، الإثم والحزن هما أفضل المقومات. مع قليلٍ من الـ phantasmus (الوهم). كما في مؤلفات ويبستر ومارلو. الحذَّاء الذي يتحدَّث مع الشيطان كلما ذهبَ إلى المرحاض. أو يقع في حب سويقة فاصولياء، كما عند مولدافيا. الممثلون الأيرلنديون يوجد بينهم الكثير من المجانين والسكارى، والهراء الذي يقولونه هو هراء عُلوي. الأيرلنديون شعراء دائماً، خاصةً حين لا يعرفون أي شيء. وقد عُذِّبوا أيضاً، ربما ليس بقدرِ ما تعذَّبَ اليهود، ولكن بقدرٍ كاف. لا أحد يحب أن يأكل البطاطا ثلاث مرات في اليوم أو أن يستخدم المذراة بدل الخِلال. ممثلون عظماء، الأيرلنديون. إنهم قِردة بالفطرة. الإنكليز مُغالون في رُقيِّهم وعقلانيتهم. إنهم سلالة من الذكور، لكنهم مخصيّون... "

كان هناك هياج عند الباب. إنه سِد إسِّن عائد من نزهته مع قطتين تبدو عليهما الرثاثة كان قد أنقذهما. وكانت زوجته تحاول أن تطردهما.

صرخ، وهو يلوِّح بقلنسوته " إلفنباين! تحياتي! كيف وصلتَ إلى هنا؟ "

" كيف يجب أن أصلَ إلى هنا؟ على قَدَمَيّ طبعاً، أليس كذلك؟ "، وخطا خطوة إلى الأمام. " دعني أشمّ أنفاسك! "

" ابتعد، ابتعد! متى رأيتني ثملاً؟ "

" حين تكون مفرط السعادة – أو ليس سعيداً جداً "

twitter @baghdad_library

قال ريب، وهو يزلق ذراعاً حول كتفيه بحب، " يا صديقي الحميم! إلفنباين، ملك لير اليديّ، هكذا هو... ما الأمر، الكؤوس فارغة "

قال إلفنباين " مثل عقلك. إنه شراب الروح. مثل موسى. من الصخرة فجَّرَ الماء، ومن الزجاجة لا تخرج إلا الحماقة. عيب عليك، يا ابن تزفايفل، أن تكون ظمآن إلى هذه الدرجة "

تشتَّتَ الحديث. كانت السيدة إسِّن قد تخلَّصَتْ من القطّتين، ونظَّفَتْ الفوضى التي سبَّبتاها في الردهة، وعادت من جديد تمسّد شعرها نحو الخلف بدءاً بجبينها. كانت سيدة محترمة، بكل إنش فيها. لا ضغينة، لا تبادُل اتِّهامات. باردة جداً، بأسلوبها المثقَّف-الأخلاقي، الفائق الرُقيّ. اتَّخذتْ لها مجلساً بالقُرب من النافذة، آملةً دون شك في أن يأخذ الحديث منحى أكثر عقلانيّة. كانت مولعة بالسيد إلفنباين، لكنه كان يُسبِّب لها الأسى بحديثه عن العالم القديم، وبتكشيره المجنون، ونكاته البائخة.

كان الملك لير اليديّ الآن قد تخطّى كل كابح. كان قد انطلقَ في حوار إفراديّ مُطوَّل حول زند فستا[١٠٣]، مع انعطافات جانبية عَرَضيّة إلى كتاب الأتيكيت، لعلّه يهودي، على الرغم من أني خمَّنتُ من المراجع التي أوردها عنه أنه ربما يكون أيضاً صينياً. كان قد انتهى لتوِّه من قول إنَّ الإنسان، وفقاً لزرادشت، قد اختيرَ لمواصلة عمل الخلق. ثم أضاف: "الإنسان لا شيء إذا لم يكن متعاوناً. ليس الصلوات والأدوية هي التي تُبقي الله حياً. لقد نسيَ اليهود هذا كله - والمسيحيون مُعاقون روحياً "

تبعَ تلك الإقرارات نقاشٌ مُشوَّش، وقد تسلّى إلفنباين كثيراً. ووسطَ ذلك كله بدأ يغني بأعلى ما أمدَّته رئتاه من قوة - Rumeinie, Rumeinie, Rumeinie ... a mameligele...a pasrtamele ...a karnataele ... un a gleizele wine, Aha!

قال، بعد أن خَمَدَ الضجيج، " في الواقع، حتى في البيوت المتحرِّرة من الخطر تقديم أفكار. في وقتٍ من الأوقات كانت مثل هذه الأحاديث كسماعِ الموسيقا. كان الحاخام يأخذ شعرةً ويشقُّها إلى ألف شعرةٍ بسكينٍ حادةٍ كالموسى. لا أحد كان مضطراً إلى موافقته ؛ كان يتدرَّب. كان ذلك يشحذُ ذهنه وجَعَلَنا ننسى الرعب. إذا ما عُزِفَتْ الموسيقا لم تكن بحاجة إلى شريك ؛ كنتَ ترقص مع روف، أو توفت، أو غيمل. والآن حين نتجادل نُغمضُ عيوننا. نذهب لمشاهدة توماشيفسكي[١٠٤] ونبكي كخنازير. لم نعُد نعرف مَنْ هو بتشورين[١٠٥] أو أكساكوف[١٠٦]. لو أنَّ يهودياً زارَ ماخوراً على خشبة المسرح - ربما ضلَّ طريقه! - يحمرّ وجه الجميع نيابةً عن المؤلف. لكنَّ اليهودي الصالح يستطيع أن يجلس في المسلخ ولا يفكِّرُ هناك إلاَّ في يهوه. وذات مرة كنتُ في بوكوريستس ورأيتُ رجلَ دينٍ يشربُ آخرَ ما في زجاجة فودكا وحده، ثم راح يتكلَّم على مدى ثلاث ساعات دون توقُّف، عن الشيطان. جعل صورته كريهة حتى كدتُ أشمُّ رائحته. وحين غادرتُ المقهى كان كل شيء يبدو شيطانياً رجيماً لعيني. كان لابد لي أن أذهب إلى خمّارة لأتخلَّص من الكبريت، لا تؤاخذني. كان يتوهَّج هناك كالفرن، وبدتْ النسوة أشبه بملائكةٍ ورديّة اللون. حتى " المدام "، التي كانت صقراً حقيقياً. ويا له من وقتٍ أمضيته في تلك الليلة! وذلك كله لأنَّ الـ Tzaddik (الصدّيقي[١٠٧]) أفرطَ في شرب الفودكا.

" نعم، أمر جيد أن يأثُم المرءُ مرةً كل حين، ولكن دون أن يجعل من نفسه خنزيراً. أن يأثم بوعي. انغمسْ في متع الجسد، ولكن ابقَ مُعلَّقاً بشعرة. إنَّ الكتاب المقدَّس مملوء بالرجال الأجلاَّء الذين انغمسوا في المتع

twitter @baghdad_library

الجسدية لكنَّهُم لم يفقدوا رؤاهم لله الواحد. إنّ أسلافنا كانوا روحانيين ولكن عظامهم ترتدي لحماً. وكان يمكن لأحدهم أن يتخذ له خليلة ويظلّ محتَرَماً في عينيّ زوجته. فقبل كل شيء، كانت العاهرة تتعلّم أصول مهنتها عند باب المعبد. نعم، كان الإثمُ حقيقياً حينئذٍ، والشيطان أيضاً. اليوم لدينا آداب أخلاقيّة، وأولادنا أصبحوا صُنّاع ثياب، وقُطّاع طرق، وقوّاد فِرَقٍ موسيقية. وقريباً سيصبحون بارعين على أرجوحة السيرك ولاعبي هوكي... "

قال ريب من أعماق أريكته " نعم، الآن نحنُ أقلّ من لا شيء. وذات يوم كان لدينا كبرياء... "

تدخَّلَ إلفنباين. " اليوم لدينا اليهودي الذي يتكلّم مثل اللا يهودي، الذي يقول إنه لا شيء يهمّ غير النجاح ؛ اليهودي الذي يُرسل ابنه إلى الأكاديمية العسكرية لكي يتعلّم كيف يقتل أختاه اليهودي؛ ويُرسِل ابنته إلى هوليوود لكي تصنع لنفسها اسماً، كهنغارية أو رومانيّة عبر ظهورها عارية. وبدل الحاخامات العِظام لدينا ملاكمون محترفون من الوزن الثقيل، بل أصبح لدينا شاذون جنسياً، weh is mir (يا لألمي!)، وقريباً سيصبح لدينا قوقاز يهود "

تنهَّدَ ريب، كأنها لازمة موسيقية: " إنَّ إله إبراهيم لم يعُد موجوداً "

قال إلفنباين " دعهم يُظهرون عُريهم، ولكن لا أنْ يدَّعوا أنهم وثنيون. دعهم يتذكَّرون آباءهم الذين كانوا باعةً متجولين وفقهاء وسقطوا كقش تحت أقدام المجرمين.

أخذ يتكلّم ويتكلّم، قافزاً من موضوعٍ إلى موضوع كغزالٍ يُحلّقُ في الجو. كانت أسماء مثل موردخاي وأحازوروس تسقطُ من بين شفتيه مع

"مروحة الليدي ويندمير "، وسدوم وعمورة. وبِنَفَسٍ واحد أخذَ يُسهِبُ في الكلام عن " **إجازة الحذّاء** " وعن القبائل المفقودة في إسرائيل. وكان دائماً يعود، كشكوى الصيف، إلى موضوع مرض اللا يهود، الذي شبَّهه بـ eine Archkrankheit. ومصر مرةً أخرى، ولكن دون تفخيم، دون معجزات. وهذا المرض الآن أصبحَ في الدماغ. وبرقات وبذور خشخاش. حتى اليهود يتطلّعون إلى يوم البعث. قال إنه بالنسبة إليهم أشبه بحربٍ دون طلقات دَمْ-دَمْ.

الآن أصبحتْ كلماته تجرفه معها. ولم يعُد يشرب غير مياه سلتزر. وكلمة نعيم التي تركها تسقطُ منه بدتْ أنها تُحدثُ انفجاراً في رأسه. ما النعيم؟ إنه نومٌ طويل الأمد في أنابيب فالوب. أو - قبائل الهَنّ دون schrecklichkeit (رعب). والدانوب دائماً أزرق اللون، كما في فالس شتراوس. واعترفَ: نعم، في أسفار موسى الخمسة هناك الكثير من الهراء، لكنها منطقية. وسفر الأعداد ليس كله فجل حارّ؛ فيه أيضاً إثارةٌ غائيّة. أما الختان، فيمكن استبداله بالحديث عن السبانخ المفروم، إذ ليست له أي أهمية. والكنيس تفوحُ منه رائحة المواد الكيميائية ومبيد الصراصير. والعماليق[١٠٨] كانوا صراصير روحيّة في زمنهم، مثل القائلين بتجديد العِماد[١٠٩] اليوم. وهتف، وهو يغمزنا غمزة مرعبة، " لا عَجَبَ أنَّ كل شيء في حالة " **عماء** ". كم كانت صحيحة كلمات الصدّوقيّ الذي قال: " فيما عداه لا شيء واضح ".

أوووف! كان يدور في متاهة، ولكن لا يزال هناك المزيد. الآن قامَ بقفزةٍ كالوميض من أعماق منصّة البهلوان. ما يزال هناك الكثير من أسماء العظماء يجب أن يأتي على ذكرها: إنهم ينتمون إلى فئةٍ أخرى:

twitter @baghdad_library

باربوس، طاغور، رومان رولان، بيغيه، على سبيل المثال. أصدقاء الإنسانية. أرواحٌ بطولية، كلهم. حتى أميركا كانت قادرة على إنجاب روحاً إنسانية ؛ انظر إلى ف. دبس[١١٠]. وقال إنَّ هناك فئران يرتدون أزياء رسمية لقُواد حربيين وآلهة تمشي بيننا على هيئة متسولين. الكتاب المقدَّس يعجُّ بعمالقة في الروح. مَنْ يضاهي الملك داوود ؟ مَنْ كان في روعة، وحكمة، سليمان؟ كان أسد يهوذا ما يزال حيّاً ويزأر. وما كان لأي مُخدِّر أن يدفع الأسد إلى النوم الأبدي. وقال " نحنُ مُقدِمون على زمنٍ سوف تقعُ فيه أثقل المدفعية في شبك العنكبوت وتذوب الجيوش كالثلج. إنَّ الأفكار تتهاوى، كالجدران العتيقة. العالم ينكمش، كقشرة جوز ليتش، وينضغط الناس معاً كأكياسٍ مُبلَّلة متعفّنة من شدَّة الخوف. وحين يبشِّر الأنبياء تتكلَّم الحجارة. الشيوخ الأجلاّء لم يكونوا بحاجة إلى مكبِّرات صوت ؛ كانوا يقفون دون حِراك وينتظرون الله ليظهر لهم. الآن نحنُ نتقافزُ كالضفادع، من حمأةٍ إلى أخرى، ونتكلَّمُ هراءً. لقد فرشَ الشيطانُ شباكه على العالم ونحن نقفزُ نحو الخارج كالأسماك المستعدَّة لتُقلى في المقلاة. والإنسان يقفُ وسط حديقةٍ عارياً وبلا أحلام. كان لكل إنسان مكانه، ومكانته. **اعرف مكانك!** هذه كانت الوصيّة. لا "اعرف نفسك! ". إنَّ الدودة تصبح فراشة فقط حين تثمل بروعة الحياة وعظمتها.

" لقد استسلمنا إلى اليأس. والنشوة أفسحتْ المجالَ للثمالة ؛ والرجل الذي يثمل بالحياة يرى رؤى، وليس أفاعٍ، ولا يُصابُ بآثار ما بعد السُكر. اليوم أصبحَ لدينا في كل منزل عصفور أزرق - موضوع داخل زجاجة مسدودة بفلينة ؛ أحياناً يحمل اسمَ العجوز كنتكي، وتارةً يحمل رقم إجازة - فات [٦٩]. وكلها مسمومة، حتى حين يُخفَّفُ محتواها"

سكَتَ لكي يبخّ بعضاً من مياه سلتزر في كأسه. كان ريب في سابع نومه، ويرسمُ على وجهه ابتسامةَ السعادة القصوى، وكأنه شاهَدَ لتوّه جبل سيناء.

قال إلفنباين، رافعاً كأسه، " فلنشرب الآن نخب عجائب العالم الغربي. ليتها تفنى قريباً! لقد تأخَّرَ الوقت واحتُكِرَتْ الساحة. في المرة التالية سوف نناقش المزيد من المواضيع المسكونيّة. قد أحكي لك عن أيامي مع كارمن سيلفا[١١١]، أقصد المقهى، وليس الملكة. وإنْ كنتُ أستطيع أن أقول إني مُتُّ ذات يوم في قصرها... أي، في الإسطبل. ذكِّرني كي أحكي لك المزيد عن يعقوب بن عامي. لقد كان أكثر بكثير من مجرَّد صاحب صوتٍ متميِّز... "

بينما كنا نستأذن بالرحيل سألَ إنْ كان في استطاعته أن يوصِلنا حتى باب بيتنا. قلتُ " بكل سرور ".

أثناء سيرنا في الشارع توقَّفَ لكي يُطلِقَ أحد إلهاماته. قال " هل لي أن أقترح أنه إذا لم تكن قد اخترتَ بعدُ عنواناً لكتابك أن تدعوه "هذا العالم المسيحي" ؟ سيكونُ الأنسب حتى وإنْ لم يكن له معنى. استخدم nom de plume (اسماً مستعاراً) مثل بوغسلافسكي[١١٢] - ذلك سيُشوِّش القارئ أكثر "

ثم أضاف " لستُ دائماً مهذاراً جداً، أما أنتما الاثنان فمن نمط قاطني منطقة غرينز، وبالنسبة إلى شخصٍ منبوذ من ترانسلفينيا هو أشبه بطبقٍ فاتحٍ للشهية. لطالما وددتُ لو أكتب رواية، روايات حمقاء، كروايات ديكنز، على غِرار السيد بيكويك. وبدل ذلك أصبحتُ أزعر. حسن، الآن سأقول تُصبحان على خير. إنَّ إلفنباين هو اسمي المستعار ؛

twitter @baghdad_library

اسمي الحقيقي سوف يدهشكما. انظرا في سِفر التثنية، الفصل الثالث عشر. " إذا قام في وسطك... ". تغلَّبَتْ عليه نوبة عُطاس عنيفة. ثم هتف " مياه سلتزر! ربما يجب أن أذهب إلى حمّامٍ تركي. إنه وقت انتشار وباء أنفلونزا آخر. أسعدتما مساءً الآن! تقدَّما كما لو أنكما في حرب! لا تنسيا أسد يهوذا! يمكنكما أن تشاهداه في السينما، بعد أن تبدأ الموسيقا "، وقلَّدِ صوتاً مُدمدِماً. قال " يفعلُ هكذا ليُبيِّن أنه ما يزال يقِظاً "

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر

" لماذا ينبغي علينا دائماً أن نحيد عن طريقنا لكي نَصِفَ بؤس حياتنا ونقائصها، وننبش شخصيات من أركانٍ نائية وقَفْر من بلدنا؟ "

هكذا يبدأ غوغول الفصل الحادي عشر من روايته الناقصة.

كنتُ حينئذٍ قد تقدَّمتُ في تأليف الرواية - روايتي - ولكن مع ذلك لم تكن لدي فكرة واضحة إلى أين ستؤدي بي، ولا كان هذا يهمّني، ما دام بوب مسروراً بما كان يعرض عليه حتى ذلك الحين، وكانت النقود دائماً في المتناول، وكنا نأكل ونشرب جيداً، وأصبحتْ الطيور أشدّ نُدرة لكنها بقيتْ تغرِّد. وحلَّ عيد الشكر وانقضى، وكان لعبي قد تحسَّن في الشطرنج نوعاً ما. وزيادةً على ذلك، لم يكتشف أحد مكان وجودنا، ولا أحد من أصدقائنا المُقرَّبين المزعجين، أعني. لذلك استطعتُ أن أقومَ باستكشاف الشوارع على هواي، وقد فعلت ذلك بإفراط، لأنَّ الهواء كان جاداً وقارصاً، والريح تصفِّر، ودماغي دوامة تجرفني وأنا منكفئ نحو الأمام، تجبرني على أنْ أستكشف الشوارع، والذكريات، والأبنية، والروائح (خضروات عفنة)، ومزالق عبّارات مهجورة، وأصحاب مخازن ماتوا منذ زمن بعيد، وحانات تحوَّلتْ إلى مخازن لبيع التجزئة، ومقابر لا تزال تعبق برائحة خشب صوفان المُعزِّين.

كانت أركان الأرض النائية القفر في كل مكان حولي، وعلى مبْعَدةِ مرمى حجر من التخم الذي يُحدِّد منطقتنا الأرستقراطية. كان يكفيني أن أعبر الخط، منطقة غرينز، وأصبح في عالم الطفولة الأليف، أرض الفقراء والمعتوهين بسعادة، وأرض الخردة حيث كل ما هو خَرِبْ، ولا فائدة منه، ونَخِر، أنقذته الجرذان التي رفضتْ أن تهجر السفينة.

بينما كنتُ أحدِّقُ إلى واجهات المحال التجارية، أنعِم النظر إلى الأزقة، لا أجد غير الإقفار الموحش، تذكرت الزنوج الذين كنا نقوم بزيارتهم بانتظام وكم بدو غير ملوَّثين. لم يكن مرض البيض قد دمَّرَ ضحكهم، وموهبتهم في الخطابة، وأساليبهم الطيِّعة. كان أمامهم كل أمراضنا ليكافحوها وأيضاً تحاملاتنا، ومع ذلك بقوا منيعين.

أصبحَ صاحب مجموعة المؤلفات الإباحية مولعاً بي، كان عليَّ أن آخذ حذري خشيةَ أن يجرّني إلى إحدى الزوايا ويقرصني من طيزي. لم أكن قد حلمتُ مرةً بأنه ذات يوم سيستولي على كتبي أيضاً ويضيفها إلى مجموعته المذهلة. يجب أن أعترف بأنه كان عازف بيانو رائعاً. كانت لديه تقنية الدواسة الجافة تلك التي كنت أستمتع بها كثيراً في كونت بيسي وفاتس والر[113]. كان في استطاعة أولئك الأحباء أن يعزفوا مع آلةٍ موسيقية ما. فإذا لم تتقُر كانوا يُصدِرون الموسيقى بأصابعهم وأكفِّهم – على أعالي الطاولات، والبراميل، أو على كل ما تصل إليه أيديهم.

حتى ذلك الحين لم أكن قد أنتجتُ بعد أي " فصول منبوشة " في الرواية. كنتُ ما أزال مذعوراً ؛ عاشقاً للكلمات أكثر مني لاكتشافات الاضطرابات العقلية. كان في وسعي أن أقضي ساعات دون انقطاع مع والتر باتر[114]، أو حتى هنري جيمس، على أمل أن أنتقي عبارةً مكتوبة

twitter @baghdad_library

بشكلٍ جميل. أو قد أجلس وأحدِّقُ إلى لوحةٍ يابانيّة، فلنقُل لوحة " نمط متقلِّب " لأوتامارو. في محاولةٍ لإقحام جسر بين غيبوبة حالمة غامضةٍ لصورةٍ وزندِ خشبٍ ملوَّنةٍ حيّة. كنتُ أرتقي بسُعرٍ مُطَّردٍ سلالم لأقطِفَ ثمرة تين ناضجة من حديقةٍ غريبة مُعلَّقة من الماضي. كان في استطاعة صفحاتٍ مصوَّرةٍ من مجلةٍ مثل " المجلة الجغرافيّة " أنْ تُبقيني مذهولاً لساعات. كيف أعملُ على إشارةٍ غامضةٍ إلى منطقةٍ نائيةٍ من آسيا الصغرى ـ إلى موقعٍ حيثُ، مثلاً، خلّفَ أحد وحوش العائلة الملكية الحثيين تماثيل ضخمة احتفاءً بذكرى أناه العفنة؟ أو قد أستخرج كتاب تاريخ قديماً - وليكُن أحد مؤلفات مومسن[١١٥] - لكي أتوصَّل إلى وجود تشابه لامع بين وديان شارع وول الشاهقة ومقاطعات روما المزدحمة في ظل حُكم الأباطرة. أو قد أصبح مهتماً بالمجارير، مجارير باريس العظمى، أو مدينة كبرى أخرى، وعلى الأثر يظهر لي أنَّ هوغو أو أي كاتب فرنسي آخر قد استخدمَ تلك الموضوعة، وأتناول قصة حياة ذلك الروائي لأكتشفَ فقط ما الذي دفعه إلى الاهتمام الشديد بالمجارير.

كما كنتُ أقول، في تلك الأثناء كانت " أركان بلدنا النائية والقفر " في المتناول. كان يكفيني أن أتوقَّف وأشتري حزمةً من الفجل لأنبش شخصية غريبة الأطوار. ولو أنَّ مؤسسة إيطالية لدفن الموتى أثارت فضولي لولجتُها وسألتُ عن سعر التابوت ؛ كل ما كان يقع بعد حي غريتز كان يُثيرني. وقد اكتشفتُ أنَّ بعضاً من أشد زملائي الأوغاد الكونيين المتعضِّين دلالاً كانوا يسكنون في تلك الأرض القفر ؛ باتريك غارستن، عالم المصريات كان أحدهم (كان أقرب شبهاً بمنقِّب عن الذهب منه إلى مُنقِّب عن الآثار) ودوناتو عاش هنا أيضاً. دوناتو، الفتى

الصقلي، الذي حين انهالَ بالفأس على والده لم يقطع له لحسنِ الحظ غير ذراعٍ واحدة. كم كان مُلهَماً، قاتلُ أبيه الفتى ذاك! في سن السابعة عشرة كان يحلم بالحصول على عملٍ في الفاتيكان، وذلك، كما قال، ليتعرَّف عن قُربٍ على القديس فرانسيس!

أثناء تقلُّبي على سرير الأرق، حدَّثتُ معلوماتي الجغرافيَّة، وفي الأعراق البشرية، والفولكلور، وعلم المدفعيّة. إنَّ هندسة العمارة تعجُّ بالأشكال الشاذة التأسّليّة[116]. كانت هناك أبنيةٌ تبدو وكأنها نُقِلَتْ من شواطئ بحر الخزر، وأكواخُ أُخِذَتْ من حكايات أندرسُن الخرافية، ودكاكين أُخِذَتْ من متاهات مدينة فاس الباردة، ودواليب عربات احتياطيّة وعربات يجرّها حصان دون عريشة، وأقفاص عصافير كثيرة ودائماً خالية ,وأصص الغرف، وهي غالباً من الخزف ومزيَّنة ببنفسج الثالوث وأزهار عبّاد الشمس، ومشدّات الأرداف، وعكازات ومقابض وأضلاع مظلات... وعدد لا يُحصى من الطُرَف وكلها مُعلَّمة بعبارة "صُنِعَ في هجيا ترياداا ". وكم من قزم! أحدهم، تظاهرَ بأنه لا يتكلَّم إلاّ الهنغارية - في الواقع كان مولدافياً - يعيشُ في وِجارِ كلب في خلفيّة كوخه. كان يأكل مع الكلب - من طبقِ التنك نفسه. وحين يبتسم لا يبدو في فمه غير سنتين ضخمتين، كنابَيّ كلب. وكان ينبح أيضاً، أو يشمّ ويزمجر ككلبٍ هجين.

لم أجرؤ على وضع أيٍ من هذه الأشياء في الرواية. كلا، كنتُ أحافظُ على الرواية كالمخدع. لا dreck (بالييديّة: قذارة). وهذا لا يعني أنَّ الشخصيات كلها محترمة أو معصومة عن الخطأ. أه، كلا! فبعضها ممّن أقحمتُها بغرض التلوين كان Schmucks (حُثالة[117]). والبطل، الذي

twitter @baghdad_library

هو أيضاً الراوي ويُشبهني قليلاً، يُذكِّرُ بمخٍ منحرف الشكل. كان عمله أن يُبقي دوامة الخيل دائرة. وبين حينٍ وآخر يسمحُ لنفسه بجولةٍ مجّانيّة.

العناصر الشاذة والغريبة كانت تحيِّر بوب دائماً ؛ وكان قد تساءلَ - صراحةً - كيف يمكن لامرأة شابة، أو بكلمةٍ أخرى، المؤلِّفة، أن تأتي بمثل تلك الأفكار، والصور. ولم يخطر في بال مونا أبداً أن أقول: " مِنْ تجسُّدٍ آخر! ". بصراحة، لم أعرف ماذا أقول لنفسي. وبعض الصور الأشدّ حماقة كنت قد سرقتها من الروزنامات، وبعضها الآخر كانت وليدة أحلام احتلاميّة. وما بدا أنَّ بوب استمتعَ به حقاً كان إدخال كلب أو قطة أحياناً (وطبعاً، لم يكن يعلم أني أموتُ رُعباً من الكلاب أو أني أشمئزُّ من القطط)، ولكني أستطيع أن أجعل كلباً يتكلَّم. وقد كان كلاماً كلبيّاً، لا شك في ذلك. والسبب الحقيقي الذي دفعني إلى إقحام تلك المخلوقات المنحطَّة كان لكي أعرض احتقاري لبعض شخصيات في الكتاب خرجَ أمرها من يدي. والكلب إذا ما رُسِمَ جيداً يستطيعُ أن يجعل من ملكةٍ حمارة. ثم، إذا رغبت في السخرية من فكرةٍ سائدة أبغضها، فكل ما عليَّ أن أفعله كان أن أتخذ شكل قلب، وأرفع قائمتي الخلفية واتبوَّل عليها.

على الرغم من كل الحماقات، والخدع، نجحتُ في ابتكار نوعٍ من الطبقة الصقيلة العتيقة. وكان هدفي من ذلك أن أُضفي لمسةً أخيرة ؛ مسحةَ عتقٍ جماليّة، بحيث تلمع كل صفحة كغبارٍ نجميّ. وكان ذلك هو عمل الإبداع، كما فهمته حينئذ. كنتُ أضعُ بِركاً من الطين، إذا لزِمَ الأمر، لكني حرصتُ على أن يعكس لمعةً مَجَرِّية. وحين أصدر صوتاً أبله فإني أمزجُ الكلامَ الفارغ مع التلميحات الطنّانة إلى مواضيع مثل علم

الإحاثة، والمعادلات التربيعية، ومناطق القطب الشمالي. ودائماً أُوردُ قولاً وَرَدَ على لسانِ أحد القياصرة المجانين له علاقة بالموضوع، أو لعنةً أطلقها قزم يشبه الخنزير، أو مجرد ملاحظة ساخرة على الطريقة الهامسونيّة[١١٨] مثل - " أتتمشّين يا فروكن؟ إنَّ زهر الربيع يكادُ يموتُ عطشاً ". أنا أقول إنه ماكر لأنَّ التلميح، على الرغم من كونه متكلِّفاً، كان موجّهاً إلى عادةً فروكن في مباعدةِ ما بين ساقيها، وذلك حين تظن أنها بعيدة عن الأنظار، وتتبول.

كان للنزهات التي قمتُ بها لغرض الاسترخاء أو الحصول على إلهام جديد - غالباً كانت فقط لتهوية خصيتيّ - أثرٌ مزعجٌ على العمل الذي في طور الإنجاز. وعند انعطافي إلى أحد الشوارع بدرجةِ ستين، قد يحدث أن يزدهر حديثٌ فجأةً (دارَ مع سائق قطار أو مُساعد بنَّاء عاطل عن العمل) كان قد انتهى قبل فقط بضع دقائق ليغدو حواراً مُطوَّلاً، ومتطرِّفاً، بحيث يستحيل عليّ، حين أعود إلى طاولة كتابتي، أن أستأنفَ ما انقطعَ من خيط سردي للرواية. فمع كل فكرة كانت تدخل رأسي يُعلّق عليها مساعد البنَّاء أو كائناً مَنْ كان. ومهما كان جوابي فإنَّ الحديث يستمر. وكأنَّ أولئك النكرات الثملين قد قرَّروا أن يشتِّتوا تركيزي.

أحياناً هذا النوع من التصرُّف السيئ نفسه يبدأ بتماثيل، خاصةً المكسور منها والمشوَّه. قد أكونُ أتسكَّعُ في فناءٍ خلفيّ ما أحدِّقُ بشرودٍ إلى رأسٍ رخاميّ فَقَدَ إحدى أذنيه وفجأةً! إذا به يخاطبني... يتكلَّم بلغةِ حاكمٍ إداريّ. يستحوذ عليّ حافزٌ مجنون لأداعبَ قسماته المشوَّهة، وعلى الأثر، وكأنَّ لمسةَ يدي أعادتْ إليه الحياة، إذا به يبتسم لي. ولا حاجةَ إلى القول إنها كانت ابتسامةَ امتنان. ومن ثم قد يحدثُ شيءٌ

twitter @baghdad_library

غريب آخر. فبعد ذلك، فلنقل، بساعة، وأثناء مروري من أمام زجاج واجهة محلٍ خالٍ، ومَنْ سيُحيّيه من الأعماق المُظلمة غير الحاكم الإداري نفسه! يستولي عليَّ الرعبُ فأضغطُ أنفي على واجهة المحل وأحدِّقُ. ها هو - بأذُنٍ مفقودة، وأنفٍ مكسور. وشفتاه تتحركان! فأغمغمُ " نزيف في شبكة العين، فليُعنِّي الله إذا ما زارني في منامي "، ثم أتابعُ طريقي.

وهكذا، لا غرابةَ في أني اكتسبتُ ما يشبه عين رسّام. وكثيراً ما كرَّستُ وقتي للعودة إلى بقعةٍ معيّنة لكي أُعاينُ من جديد " طبيعة صامتة " كنتُ قد مررتُ بها على عَجَل في اليوم السابق. والحياة الصامتة، كما سمّيتُها، قد تكون تركيبة من الأشياء الخالية من الفن لا يمكنُ لأي شخصٍ يملكُ قواه العقلية أن يزعج نفسه بالنظر إليه مرتين. فمثلاً - بضعة أوراق شدّة مُلقاة ووجوهها نحو الأعلى على الرصيف وإلى جوارها مسدس لعبة أو رأس دجاجة مفقودة. أو مظلّة مفتوحة ممزّقة إرباً تبرزُ من جزمة قاطع أخشاب، وإلى جانب الجزمة نسخةٌ ممزقةٌ من "**الحمار الذهبي**[١١٩] " مطعونةً بمطواةٍ صدئة. وحين أتساءلُ ما الذي يفتنني في تلك التركيبات التصادفيّة، يتبدَّى لي فجأةً أني تبيَّنتُ فيها أشكالاً لأتذكَّر أي لوحة، وأي رسَّام، وأين صادفتُها للمرة الأولى. ومن العجيب أنه حين يسعى المرءُ وراء مثل تلك المخلوقات الخرافيّة، يكتشف أي توافه مُذهلة، أي جنونٍ صِرف، ابتلى به مَنْ تُحَف الفن العظيم.

لكنّ أبرز ما ارتبطَ بتلك الجولات القصيرة، والنزهات، والغزوات والاستطلاعات، هو عالمُ الإيماء، البانورامي في تَذكُّرِه. إيماءات إنسانية؛ وكلها مُستعارة من عوالم الحيوان والحشرات. حتى أولئك الأفراد "الراقين"، أو المزيّفين في رقيّهم، كالحانوتية، والخدم، والكهنة

الإنجيليون، والقهرمانات. والطريقة التي يرفعُ بها أحد النكرات رأسه، حين يُباغتُ، ويصهل، تثبت في ذاكرتي فترةً طويلة بعد أن أنسى كلماته وإنجازاته. وقد اكتشفتُ أنَّ هناك روائيين يستغلون بشكلٍ مميَّز تلك الخواص، ولا يخطر في بالهم أبداً أن يلجؤوا إلى خدعةٍ صغيرة كالصهيل كالخيول حين يرغبون في تذكير القارئ بشخصيةٍ ذُكِرَتْ قبل ستين صفحة. النقاد يُسمّونهم حِرفيين. إنهم بارعون، حتماً.

نعم، كنتُ أحقِّقُ شتى أنواع الاكتشافات، بطريقتي المتعثِّرة، المضطربة. أحدُها كان أنَّه لا أحد يستطيع أن يُخفي هويته تحت ستار الشخص الثالث، ولا أن يبني هويته فقط عبر استخدام الشخص الأول المتكلِّم. وآخر كان - ألاّ أفكِّر أمام صفحةٍ خالية. Ce n'est pas moi, le roi, c'est l'autmnome. أو بعبارةٍ أخرى: هذا ليس أنا، بل الآب الكامن داخلي.

يا له من تدريبٍ أن تدعَ الكلمات تقطُرُ دونَ أن تُهوِّيها بريشة أو تُحرِّكها بملعقة فضيّة، وأن تتعلم أن تنتظر، تنتظر بصبر، كطيرٍ كاسر، مع أنَّ الذباب يقرص بجنون والعصافير تشقشقُ كالمعتوهة. وقبل أيام إبراهيم... نعم، قبل غوته الأولمبي، قبل شيكسبير العظيم، قبل دانتي المقدَّس أو هومر الخالد. كان هناك الصوت وكان الصوتُ هو الإنسان كله. إنَّ الإنسان لم يفتقر مرةً إلى الكلمات. الصعوبة لم تنشأ إلا حين أجبرَ الإنسان الكلمات على أن تقول ما ليس له معنى. **اثبَتْ، وانتظر مجيء الرب**! امحُ كلَّ تفكير، راقبْ حركة السماوات الساكنة! كل شيء في حالة تدفُّق وحركة، ونور وظل. ما هو أشد سكوناً من المرآة، من صقالة الزجاج المتجمدة. - ومع ذلك، أي سُعر، أي غضب، يمكن لسطحها الساكن أن يعكس!

twitter @baghdad_library

" أتمنى منك أن تتعطّف وتجعل رجال هيئة الحدائق العامة يُقلّموا، ويُشذِّبوا كل الأخشاب الميتة، من غصينات، وأغصان، وجدعات، ودبق، وأغصان جديدة، والأفرُع السفليّة، والأجزاء القذرة والمشوّشة، والمنخفضة، والمنخفضة جداً، والأغصان المتدلية وأغصان الأشجار الجيدة وأن يُقلّموها جيداً جداً وحتى يلامسوا اللحاء وأن يرشّوا بشكلٍ كامل الأشجار الجيدة ومن قاعدتها وحتى أطرافها العُليل ونزولاً على طولها في كل أرجاء كل شارع، وجادّة، وساحة، وفناء، وزقاق، وبولفار الخ الخ... وبهذا يُفسحون المجال لقدرٍ كبير من الضوء، الضوء الطبيعي، والمزيد من الهواء، والمزيد من الجمال إلى المناطق المجاورة كلها "

ذلك كان نوع الرسائل التي كنتُ أحب أن أبعثه أحياناً إلى إله عالم الأدب لعلّي أتخلّص من الفوضى، وأنجو من العماء، وأتحرَّر من هَوَسي بالإعجاب بالمؤلفين الأحياء منهم والأموات الذين تسد كلماتهم، وعباراتهم وصورهم، طريقي.

وما الذي كان يمنع أفكاري الفريدة من الانبجاس وإغراق الصفحة؟ كنت منذ سنوات وأنا أعدو جيئةً وذهاباً مثل جرذ الغاب، أستعيرُ هذا وذاك من الأساتذة الأحبّاء، وأخفي غنائمي، وأنسى أين خبَّأتُها، ودائماً أفتش عن المزيد، والمزيد، والمزيد. كانت أفكاري كلها وتجاربي التي يمكنني أن أنسبُها بالكامل إلى نفسي، وكانت حتماً فريدة من نوعها، مدفونة في حُفرةٍ عميقةٍ ومَنسيّة، لكني افتقرتُ إلى الشجاعة اللازمة لإنعاشها. فهل كان أحدٌ قد رماني بسحرٍ لكي أكافحُ بجدعتين مفصليَّتين بدل قبضتين مقدامتين؟ هل وقفَ أحدهم فوقي أثناء نومي وهمسَ لي: " لن تنجح أبداً، أبداً! " (لم يكن ستانلي حتماً، لأنه كان

يأنف أن يهمس. أما كان في وسعه أن يهسّ كأفعى؟) فمَن إذن؟ أم أني كنتُ ما أزالُ في طور الشرنقة ؛ دودةً لم تثمل بالقدر الكافي بروعةِ وعَظَمة الحياة؟

كيف يعرف المرءُ أنه ذات يوم سوف ينبُتُ له جناحان، وأنه كالطائر الطنّان سوف يرتعش وسط الجو وينبهر ببريق قوس قُزَحيّ؟ إنه لا يعرفُ؛ بل يأمل ويُصلّي ويضرب رأسه بعنفٍ على الجدار. لكنّ الرأسَ يعرفُ، يستطيع أن ينتظر الفرصة الملائمة، ويعرف أنَّ الأخطاء كلها، والالتفافات كلها، وكل فشل وإحباط سوف يُحسِنُ استغلالها. ولكي يولد المرء صقراً يجب أن يتعوَّد على الأماكن العالية ؛ ولكي يولد كاتباً عليه أن يتعلَّم أن يحبَّ الحرمان، والمعاناة، والمهانة. وفوق ذلك كله، عليه أن يتعلَّم أن يعيشَ منعزلاً. والكاتب، كحيوان الكسلان، يتدلَّى من أطرافه في حين أنَّ تحته تموجُ الحياة مارةً به بثبات، ومثابرة واصطخاب. حين تكون مستعداً اغطُسْ! ويقع إلى التيار ويكافح من أجل الحياة. أليس الأمر يشبه هذا؟ أم أنَّ هناك أرضاً رحبةً، مُبتسمة، حيث يؤخذ الكاتب الغضّ في سنٍ مُبكِّرة جانباً، ويلقَّن أصول فنه، على أيدي أساتذة مُحبّين ؛ وبدل أن يقع في وسط السيل ينزلق كحنكليز خلال الوحل، والحمأة والمستنقع؟

كان لدي وقتٌ لا نهاية له من أجل مثل هذه الأهواء على امتداد روتيني اليومي ؛ وكأشجار الحور تقفز إلى جانبي وأنا أجاهدُ في الفكر، وأنا أجوبُ الشوارع استجلاباً للإلهام، أو بينما أضعُ رأسي على الوسادة لأدفع نفسي إلى النوم. ما أعظمها من حياة، حياة الأدب! هذا ما أقوله أحياناً لنفسي. وأعني بكلامي هذا العالمَ الأوسط المكتظّ

twitter @baghdad_library

بأغصان، وغصينات، وأوراق، والأوراق المصمَّغة والفروع السفلية وما إلى ذلك، المتشابكة والمتضافرة. النشاط المعتدل المقرون بـ " عملي " ليس فقط فشل في استنزاف طاقتي بل أثارها. كنتُ على الدوام أئزّ، وأئز. وإذا اشتكيتُ بين حينٍ وآخر من فرط الإرهاق يكونُ ذلك من عدم قدرتي على الكتابة، وليس أبداً بسبب الإفراط في الكتابة. فهل كنتُ أخشى، في لا وعيي، أني إذا نجحتُ في ترك نفسي على سجيتها فسوف أتكلّمُ بصوتي أنا؟ هل خشيت أني ما أن أعثُر على ذلك الكنز المدفون الذي خبَّأته فلن أعرف بعد ذلك السلام، لن أتوقَّف عن الكدّ؟

كم كان مجرد التفكير في الخلق بعيد المنال بُعداً مُطلقاً! أو نقيضه، العماء. مستحيلٌ افتراضُ أنَّ مثل هذا الشيء لم يُخلق. فكلما تعمَّقنا في تحديقنا اكتشفنا أكثر النظام في الفوضى، والقانون في التسيُّب، والنور في الظلام. أما العدَم - غيابُ الأشياء - فغير وارد ؛ إنه شبحُ فكرة. كل شيء يُهمهمُ، يندفعُ، يذوبُ، يتضاءلُ، يتغيَّر - وكان كذلك منذ الأزل. وكل شيء يتمّ وِفقاً لدوافع ـ وقوى، مُبهَمة. وحين نميِّزها نسمِّيها قوانين. والعماء! إننا لا نعرفُ أي شيءٍ عن العماء! والصمتُ! وحدهم الموتى يعرفونه. العدم! انفخْ قدرَ طاقتك ويبقى شيءٌ دائماً.

متى وأين يتوقَّفُ الخلق؟ وماذا في وسع مجرد كاتب أن يخلق ما لم يكن موجوداً حتى الآن؟ لا شيء! إنَّ الكاتب يُعيدُ ترتيب المادة الرمادية في رأسه. إنه يضعُ بدايةً ونهاية - وهذا هو النقيض المباشر للخلق! - وبينهما، حيث يتنقَّلُ، أو على الأصحّ يتمُّ تَقَاذُفه، يتولَّدُ تقليدٌ للواقع: كتاب. وبعض الكتُب بدَّلَتْ وجه الأرض. إنه إعادة ترتيب، لا أكثر. وتبقى مشاكل الحياة على حالها. قد يُرفَع وجهٌ، أما العُمر فلا يُمحى.

الكُتُب لا تأثيرَ لها. والكُتّابُ لا تأثير لهم. التأثير مُنِحَ في العِلّة الأولى. " **أين كنتَ حين خَلَقتُ العالم؟** ". أجِبْ عن هذا وتكون قد حللتَ لُغزَ الخلق!

إننا نكتبُ، ونحن نعلم أننا مهزومون قبل أن نباشرَ. وفي كل يوم نتوسَّل كي نحصل على عذابٍ جديد. وكلما حككنا وخدشنا جلدنا شعرنا بتحسُّن. وحين يبدأ قرّاؤنا أيضاً بالحكاك والخدش شعرنا بالسموّ. لا تدعو أحداً يموت من الخمول! يجب أنْ تزدحم الأجواء بسهامِ الأفكار التي يُطلقُها الأدباء les homes de lettres. أحرُف[١٢٠]، انتبه. ما أجودْ صِياغتها! أحرُف مربوطة معاً بأسلاكٍ خفيّة مشحونةٍ بتيّاراتٍ مغناطيسيّة لا يمكنُ وزنها. هذا الكدح كله يُقحَمُ على الدماغ الذي ينوي أن يعمل كالسحر، أن يعمل دون أن يعمل. هل مَنْ يقترب منكَ شخص أم عقل؟ إنه عقلٌ مُقسَّمٌ إلى كتبٍ، وصفحاتٍ، وجُمَلٍ مُفعمةٍ بالفواصل، والنقاط، والفواصل المنقوطة، والشرطات، والعلامات النجميّة. كاتبٌ يتلقّى جائزةً أو مقعداً في الأكاديمية لقاءَ جهوده، وآخر يتلقّى عَظْمَةً نَخَرَها الدود. أسماءُ البعض تُعارُ إلى الشوارع والجادّات، وأخرى للمقصلات ولملاجئ الفقراء. وبعد أن تُقرَأ تلك" الإبداعات " في نهاية المطاف وتُهْضَم سيظلُّ البشرُ يلوطُ بعضهم بعضاً. لا يوجد كاتب، ولا حتى أعظمهم، استطاعَ أن يتجنَّب هذه الحقيقة الباردة، القاسية.

إنها حياةٌ عظيمةٌ مع ذلك. أعني، الحياة الأدبية. مَنْ يريدُ أن يُغيِّر العالم؟ (فليتعفَّن، فليمُتْ، فليتلاشى!). تتراتزيني[١٢١] تتدرَّبُ على غنائها، وكاروزو[١٢٢] يُهشِّم الثُريات. كورتو يعزف لحن الفالس كفأرٍ أعمى، والعظيم فلاديمير[١٢٣] يُثيرُ رعبَ لوحة المفاتيح - أكانَ ما يُفكِّرُون

twitter @baghdad_library

فيه خَلقاً أم خلاصاً؟ لعلّه ليس حتى إمساكاً... في الطرقات ينبعث الدخان من تحت حوافر خيولكم، والجسورُ تدمدم، والسماوات تنهار نحو الخلف. " **ما معنى هذا كله؟** ". الهواء، الممزق، يندفع حاراً. كل شيء يتطايرُ، وأجراسٌ، وأزرارُ ياقات، وشوارب ضخمة، وثمار رمّان، وقنابل يدويّة. نقفُ جانباً لنُفسحِ الطريق لأجلكم، أيتها الجياد الناريّة؛ ولأجلكَ، أيها العزيز ياشا هايفتز[١٢٤]، وأيها العزيز زيغيتي[١٢٥]، أيها العزيز يهودي مانوهن[١٢٦]. إننا نتنحّى جانباً، تواضعاً - هل تسمع؟ لا جواب. فقط صوت أجراس ياقاتهم.

ما أجمل الليالي التي يسيرُ فيها كل شيء بسلاسة ويُسر! حين تنسلُّ الشخصيات المنبوشة من أماكن اختفائها وتظهر على سطح دماغي لكي تقوم بأدائها، تجادلُ، تصرخُ، تغرِّدُ، تجرُّ عربات اليد، ويصهل أيضاً - ويا لها من خيول! - وأنا أعلمْ أنَّ هذه هي الحياة الوحيدة، حياة الكاتب هذه. وهذا العالم قد يبقى في مكانه، ويزدادُ سوءاً، ويمرض ثم يموتُ، كل ذلك مرةً واحدةً، ذلك لأني لم أعُد أنتمي إلى العالم، عالمٌ يمرضُ ويموتُ؛ يطعنُ نفسه مرةً بعد أخرى؛ يتمايل مثل سرطانٍ مبتور الأطراف... أنا لدي عالمي الخاص، عالم من القبور Graben، مُزدحم بالـ Vespasiennes (المبولات)، وبأمثال ميرو[١٢٧]، وهايدغر[١٢٨]، وبمبولات نسائية، وبيشيفا بوخر وحيد، وبكانتورات يغنون كآلات الكلارينيت، ومغنيات سوبرانو يسبحن في دهنهنَّ، وبنافخي أبواق وعربات خيل تسابقُ الريح... نابوليون لا مكان له هنا، ولا غوثه، ولا حتى تلك الأرواح اللطيفة التي لها سلطة على العصافير من أمثال القديس فرانسيس، وميلوش الليتواني، وفتغنشتاين[١٢٩]. حتى حين أستلقي على

ظهري يسمّرني أقزامُ وعفاريت، تبقى سلطتي واسعة وعنيدة. أتباعي يطيعونني ؛ يقفزون مثل حبات الذرة على الصاج، ويدورون لينتظموا في رتّلُ واحدُ ليشكّلوا جُمَلاً، وفقرات، وصفحات. ومن مكان بعيد ناءٍ، في يومٍ فردوسيّ آت، سوف يستجيب آخرون متكيّفون مع موسيقى الكلمات للرسالة ويقتحمون السماء نفسها لينشروا هياجاً لا حدود له. مَنْ يدري لماذا يجب أن توجد مثل هذه الأشياء، أو لماذا كانتاتات وأوروتوريات؟ نحنُ نعلمُ فقط أنَّ سحرها قانون، وأننا بملاحظتها، بالانتباه إليها، بتوقيرها، نُضيفُ فرحاً إلى فرح، وبؤساً إلى بؤس، وموتاً إلى موت.

لا شيء يُضاهي الخلق إلا الخلق نفسه. قابِل يُنجبُ بوغل، وبوغل يُنجب موغل، وموغل يُنجبُ زوبل. قسطر، بلاثطر، شاترر. حرفُ يُضافُ إلى آخر فيضعُ كلمة ؛ وكلمة تُضافُ إلى كلمة فتصنعُ عبارة ؛ وعبارةٌ فوق عبارة ؛ وجملة فوق جملة ؛ وفقرة فوق فقرة ؛ وفصلُ بعد فصل، وكتابُ بعد كتاب، وملحمة بعد ملحمة: برجُ بابل يتطاولُ حتى يكادُ يبلغ، ولكن ليس بالضبط، شفتيَّ **أنا العظيم الموجود**. " المذلّة هي كلمة السرّ! ". أو، كما يشرح أستاذي الحبيب، العزيز: " علينا أن نتذكّر صلَتنا الوثيقة بأشياء مثل الحشرات، والزواحف المجنَّحة، والعظائيات، والعَظاية العمياء، والمناجذ، والظرابين، وتلك السناجب الطائرة الصغيرة المُسمَّاة بولاتتش ". ولكن دعونا أيضاً لا ننسى، حين يجرّنا الخلق من شعرنا، أنَّ كل ذرَّة، كل جُزيء، كل عنصر في الكون مُتَّحِد بنا، يحثّنا على التقدُّم، ويعنّفنا، وذلك كله لكي لا نفكّر في القذارة على أنها

twitter @baghdad_library

قذارة أو في الله على أنه الله بل في أنَّ كل شيء مُتَّحد، ويدفعنا إلى العدو كالنيازك وراء أذيالنا، وهكذا ندحضُ الحركة، والمادة، والطاقة، وكل الهراء المفاهيمي الآخر المُعلّق بثقب طيز الخليقة كبواسير دامية.

(" قبّعتي القشّية تمتزج بالقبعات القشّية لزارعي الأرز ")

ليس ضرورياً، في هذا العالم المُشرق، أن نولِمَ على الروث الإنساني أو أن نتسافدَ مع الموتى، على غِرار أسلوب أرواح معيَّنة مهذَّبة، وليس ضرورياً أن نمتنع عن أكل الطعام، وشرب الكحول، وممارسة الجنس ومعاقرة المخدرات، على غِرار أسلوب الفوضويين. ولا أحد مُلزماً على التدرُّب ساعاتٍ طوال على سلالم الميجور والمينور الموسيقية أو على توقيع النغمات بتواترٍ سريع، أو نقر أوتار الكمان بالإصبع، أو النغمة الختامية، كما فعلتْ ذرّية " ليست "، وتشيرني وعازفون مشرقون آخرون. ولا أحدَ مضطرٌ إلى أنْ يكدح ليجعل الكلمات تتفجّر كالألعاب النارية انسجاماً مع أنظمة علم دلالات الألفاظ وتطوّرها التفجيرية المخبولة. ويكفي كثيراً أن نتمطّى، ونتثاءبُ، ونئزُّ، ونضرطُ ونصهل. القواعد وُضِعَتْ للبرابرة، والتقنية لساكني الكهوف. فليغرب الشعراء الجوالون عنا، حتى أولئك الذين من كابادوسيا![١٣٠]

وهكذا، بينما كنتُ أُقلِّدُ أساليب الأساتذة بكدٍّ الرقيق - بعبارة أخرى، أدواتهم وتقنيتهم - كانت غرائزي تفور متمرِّدة. إذا ما رغبتُ بقوةٍ في امتلاك قوى سحريةً فذلك ليس لكي أنشئ أبنية جديدة، ليس لأُقيمَ برجَ بابل آخر، بل لكي أدمِّرَ، لكي أنسفَ. الرواية التي كان "عليَّ" أن أكتبها. point d'honneur. ولكن ماذا بعد ذلك...؟ بعد

ذلك، الثأر! أيها الخراب، اجعلْ الأرضَ يباباً: اجعلْ الثقافةَ مجروراً مفتوحاً، لكي تبقى نتانته عالقة في الأنوف إلى الأبد للذكرى. سوف أُقدِّمُ لأبطالي كلهم - وهم يملؤون هيكلاً حقيقياً - أضاحي . كنتُ ألعنُ وأكفُر بمَلَكات الكلام التي منحوني إياها. ألم يَعِدُ الأنبياء القُدامى بالدمار؟ هل تردَّدوا مرةً في تلويث كلامهم، لكي يُحيوا الموتى؟ إذا كنتُ لم أتَّخذ لي رفاقاً أبداً غير المنبوذين والمتبطلين، ألم يكن لي سبب لذلك؟ ألم يكن أبطالي أيضاً من المنبوذين والمتبطلين - بالمعنى العميق؟ ألم يطفوا فوق مدّ الثقافة، ألم يتمايلوا ذات اليمين وذات اليسار مثل البؤساء الأمّيين في عالم الكدّ اليومي؟ ألم يكن شياطينهم قُساة القلوب ولا يعرفون الرحمة كأي مُراقب للأرقَّاء؟ ألم يتآمر كل شيء - الأعمال العظيمة، والنبيلة، والمثالية، إلى جانب الحقيرة، والخسيسة، والدنيئة - على جعلِ الحياة أقلّ قابليّة لعيشها في كل يوم؟ ما فائدة قصائد الموت، والأقوال المأثورة ونصائح الحكماء، ودساتير ولوائح المُشرِّعين، ما فائدة القادة، والمفكرين، والفنانين، إذا كانت العناصرُ نفسها التي كوَّنَتْ نسيج الحياة عاجزةً عن التحوُّل؟

لم يكن مسموحاً إلاّ لِمَنْ لم يعثُر على سبيله بعد أن يطرحَ كل الأسئلة الخطأ، وأنْ يطرقَ الدروبَ الخطأ كلها، وأنْ يأمل ويُصلّي لكي تدمَّر كل الأنماط والأشكال الموجودة. والغريب أني وأنا مضطرب ومحتار، أتبرَّم متنقلاً هنا وهناك، مشوّشاً ومرتبكاً، أجاهد وألعن، أسْخَرُ من هذا وذاك، أضبط نفسي أحياناً، وأنا غارق في التفكير في إحدى دُرر الفكر، أحدِّق أمامي مباشرة فارغ الذهن، أشبه بقردٍ يمتطي

twitter @baghdad_library

أنثـاه. في تلك اللحظة يُنجِب قـابِل بوغل، وبوغل يُنجبُ مـوغل. كنتُ آخرَ واحدٍ في الرتل، كلب زوبل يعضّ بأنيـابه عـلى عَظْمـة، لا أنا قـادر على مـضغـها ولا على طحنهـا. وأتلاعب بهـا وأقلّبهـا، وأبصق وأبربر. وسرعان ما أتبوّل عليها وأدفنها. وكان اسم العَظْمَة بابل.

إنَّ الحياةَ الأدبية حياةٌ عظيمة. ولن أحصل على ما هو أفضـل منها. يا لـروعـة الأدوات! يا لـروعـة الـتـقـنيـة! كـيـف يمكنُ لأي إنسـان، إلا إذا عـانقني وكـأني شبح، أن يعرف العـدد الهـائل مـن الأمـاكـن الخرِبة التي تردَّدتُ عليـها أثناء بحثي عـن معـدنٍ نفيس؟ أو تـشكيـلات العـصـافيـر التي غـرَّدَتْ لأجلي أثـنـاء حـفـري حُـفَـري وممراتي؟ أو الأقـزام الخـرافـيـة والعـفـاريت الضـاحكة، المقـوَّقـة، التي سـهـرتْ على راحـتي أثنـاء كـدِّي، ودغدغَتْ خصيتـيَّ بإخلاص، وتدرَّبتُ على إلقـاء كلامي، أو تـكشف لي الأسـرار الكـامنة في الحـصى، والغـصـينـات، والبراغـيث، والقـمل وغبـار الطلع؟ مَنْ كـان يمكن أن يعـرف الأسرار التي كـشـفهـا أبطالي الذين كـانوا دائمـاً يرسلون إليّ رسـائل لـيليـة، أو الشـفـرات السـرّيـة التي نُقلَتْ إليّ تعلّمت بواسطتـهـا أن أقـرأ بين الأسطر، لأصحّح مـعلومـات سيـريّة زائفة وأُهمِل التعليقات الروحيّة؟ لم يكن هناك مرةً terra firma (أرض صلبة) أشدّ ثبـاتاً تحت قدميّ مما كـانت حين قبضتُ بحزم على هذا العـالم العـائم، المتنقِّل الذي خَلَقَه مُخرِّبو الثقافة الذين تعلَّمتُ أخيراً أن أديرُ طيزي لهم.

وأسألُ، مَنْ غـيـر " أسـتـاذ في الـواقـعـيـة " يسـتطيـع أن يتـصـوَّر أنَّ أول خطوة داخل عـالم الخلق يجب أن تصحبـهـا ضرطةٌ عـاليـةٌ، فظيعـةٌ، قـويـةُ الرائحـة، وكـأنما يختـبـر للمرة الأولى أهميـة رمي القنابل؟ وتقـدَّم دائمـاً!

أساطين الأدب يغطّون في نومٍ عميق في أسرَّتهم الصغيرة الأليفة. أما نحن، الكثيفو الشعر، فنقاتل من الخندق الذي يجب أن نفهم أنه لا رجوع منه. اصطفوا خلفنا، أيها المكلّلون بغار الشيطان! إذا توفّرتْ لنا السواطير لنقاتل بها، فلنستخدمها ولنَفِد منها إلى أقصى مدى Faugh a balla! (تفووه عليهم جميعاً!) اقضوا على تلك البطّات المُزيّتات! Avanti! Avanti! (إلى الأمام! إلى الأمام!)

المعركة لن تنتهي أبداً. لا بداية لها، ولن يُعرَف لها نهاية. نحن الذين نثرثر ويُزبدُ فَمُنا كنا على هذا الحال منذ الأزل. وفّروا علينا المزيد من الدروس! هل سنزرع مروجاً خضراء ونحن نتقدَّم من خندق إلى خندق؟ هل نحن رسامو مناظر طبيعية إلى جانب كوننا سفّاحين؟ أيجب أن ننطلق نحو النصر ونحن مُعطَّرون كالعاهرات؟ لصالح مَنْ نُنزِل الهزيمة الساحقة؟

كم أنا محظوظ لأنه ليس لدي غير قارئ واحد! وهو قارئ متسامح، أيضاً. كلما جلستُ لأكتبَ صفحةً لأجله أُعيد ترتيب تنورتي، وأعتني بتصفيف شعري وأبودرُ أنفي. ليت كان في استطاعة العزيز بوب أن يشاهدني وأنا أعمل! ليته يعرف الآلام التي أعانيها لأمنحَ روايتَه الشكلَ الأدبيّ المناسب. أيُّ ماريوس جعل مني! أيُّ أبيقوريّ!

كان بول فاليري قد قال في موقعٍ ما: " إنَّ ما له قيمة بالنسبةِ إلينا فقط (يعني بكلامه شعراء الأدب) لا قيمةَ له على الإطلاق. هذا هو قانون الأدب ". أصحيح هذا؟ تش! تش! صحيح أنَّ صاحبنا فاليري كان يناقش فن الشعر - يناقشُ مُهمَّة الشاعر وهدفه، وraison d'etre

twitter @baghdad_library

(سبب وجوده). من ناحيتي، أنا لم أفهم أبداً الشعر كشعر. بالنسبة إليّ بصمةُ الشعر موجودةٌ في كل مكان، في كل شيء. إنَّ تقطير الفكر إلى أن يتدلّى في إمبيق قصيدة، دون أن يكشف أي شيء، لا ظِل، ولا نَفَس متبخِّر من " النجاسات " التي استُخلِصَتْ منها، بحيث أنه بالنسبة إليّ سعيٌ عقيم، لا قيمةَ له، على الرغم من أنه عملٌ رصين ومحلوفٌ عليه يخصّ أولئك القابلات اللواتي يكدحنَ باسم الجمال، والشكل، والذكاء، وما إلى ذلك.

إنني أتكلّم عن الشاعر لأني حينئذٍ كنتُ، وأنا في حالتي الجنينية السعيدة، أقرب إلى هذا من أي وقت. لم أعتقد أبداً، كما فعل ديدرو، أنَّ " أفكاري هي عاهراتي ". إذ ما حاجتي إلى عاهرات؟ كلا، كانت أفكاري حديقةً من المباهج ؛ وكنتُ بستانياً حالماً، على الرغم من رِقّته وإدراكه، لم يبدُ أنَّ هناك أي أهمية لوجود الأعشاب الضارة، والأشواك، والقرّاص، ولكن كنتُ أتوقُ فقط إلى متعةِ الترددُّ على هذا المكان المنعزل، على هذه المنطقة الحميمة المأهولة بالأكمات، والبراعم، والأزهار، والنحل، والطيور، والبق بأنواعه كافة. إنني لم أتحول في الحديقة كقوّاد، ولا حتى بنيَّة الزنى. ولا استغليتُها كعالِمْ نبات، أو اختصاصي الحشرات، أو اختصاصي بستنة. لم أدرس أي شيء ولا حتى معجزتي الخاصة. ولا عمَّدتُ أي شيءٍ مُبارك. كان يكفيني مرأى زهرة، أو شمّ عطرها. كيف وجِدَتْ الزهرة؟ كيف وُجِدَ أي شيء؟ لو أني طرحتُ سؤالاً، لكان – " **هل أنتِ هنا، يا صديقتي الصغيرة؟ هل ما تزال قطرات الندى عالقة ببتلاتكِ؟** "

أيُّ تصرُّف أكثر مراعاة - وتهذيباً! - من معاملةِ التفكير، والأفكار، وومضات الإلهام، كأزهار بهيّة؟ أي عادات عمل أفضل من تحيّتها بابتسامةٍ في كل يوم أو السير بينها والتأمُّل في سرعةِ زوالِ بهائها؟ صحيح أني بين حينٍ وآخر قد أتصرَّف بجرأة كبيرة وأقطف واحدة لأضعها في عروة سترتي، أما استغلالها، أو إرسالها لتعملَ عاهرةً أو سمسارَ بورصة - فغيرُ وارد. وأما أنا فكان يكفيني أن يأتيني إلهام، وليس أنْ أكون مُلهِماً على الدوام. لم أكن شاعراً ولا كادحاً؛ كنتُ ببساطة أشذُّ عن الحشد. heimatlos (مُشرَّداً).

قارئي الوحيد... لاحقاً سوف أبادله بالقارئ المثالي، ذلك الوغد الحميم، ذلك النذل الحبيب، الذي يمكنني أنْ أخاطبه وكأنَّ لا شيء له أهمية إلاّ له - ولي. لماذا أُضيفُ - ولي؟ أيمكنُ لهذا القارئ المثالي أن يكونَ أي شخصٍ آخر غير ذاتي الأخرى؟ لماذا يَخلقُ المرءُ عالماً خاصاً به إذا كان يجب أن يكونَ ذا معنى لكل من هبّ ودبّ؟ أليس للآخرين عالم الحياة اليومية هذا، الذي يعترفون بأنهم يمقتونه ومع ذلك يتعلّقون به كجرذان تغرق؟ أليس غريباً أنَّ الذين يرفضون، أو أنهم من فرط الكسل بحيث يخلقون عالماً خاصاً بهم يصرّون على غزو عالمنا؟ مَنْ الذي يدوس على مساكب الزهور أثناء الليل؟ مَنْ الذي يترك أعقاب السجائر في حوض استحمام العصافير؟ مَنْ الذي يتبوَّل على البنفسج الخجول فيذبُل إزهاره؟ نحنُ نعرفُ كيف نُفسِد صفحات الأدب بحثاً عمّا يسرّك. نكتشف آثار أقدام روحكَ المضطربةِ الخُطى في كل مكان. أنت الذي تقتُل العبقري، أنتَ الذي تُعيقُ تقدُّم العمالقة. إنه أنتَ، أنتَ، سواءُ

twitter @baghdad_library

أعبْرَ الحبّ والعبادة أو عبر الحَسَد، والاشمئزاز والحقد. إنَّ مَنْ يكتب نيابةً عنك إنما يكتبُ شهادةَ نعْيِه.

أيها الدوري الصغير،

انتبه، ابتعدْ عن الطريق ؛

فالسيد حصان قادم.

إسّا-سان كتب هذا. قُل لي إنْ كانت له أي قيمة!

twitter @baghdad_library

الفصل السابع عشر

كانت الساعةُ تقتربُ من العاشرة صباحاً من يوم سبت، بُعَيدَ أن انطلقتْ مونا إلى المدينة ببضع دقائق، حين قَرَعَتْ السيدة سكولسكي الباب. كنتُ جالساً أمام الآلة الكاتبة وفي مزاجٍ حسن للكتابة.

قلت " ادخل! ". دخلَتْ بتردّد، ثم توقَّفَتْ باحترام، وقالت " هناك سيدٌ في الطابق السفلي يريدُ أن يقابلك. يقول إنه صديقك "

" ما اسمه؟ "

"رفَضَ أن يعطي اسمه. قال إنه لا يريدُ أن يزعجك إنْ كنتَ مشغولاً"

(مَنْ يمكن أن يكون بحق الجحيم؟ إنني لم أُعطِ عنواني لأحد)

قلت " قولي له إني سأنزل حالاً "

حين وصلتُ إلى أعلى الدرج كان يرفعُ بصره إليّ، وابتسامةٌ واسعةٌ تحتلُّ وجهه. إنه ماكغريغور، ولا أقلّ ؛ آخر رجل على وجه الأرض توقَّعتُ أن أراه.

قال بصوتٍ حادّ " أراهن على أنكَ سعيد برؤيتي. كما أرى، إنكَ مُختبئ بعيداً. كيفَ حالك، كيف حالك يا ابن الحرام الحميم؟ "

" اصعد! "

"أواثقٌ أنتَ من أنكَ لستَ مشغولاً جداً؟"، قال هذا بسخرية كاملة.

أجبتُ " يمكنني دائماً أنْ أُفرِدَ عشر دقائق لصديقٍ قديم "

أخذ يرتقي الدرجَ قفزاً. قال "، وهو يدخل المكان "، " مكانٌ جميل. منذ متى وأنتَ تُقيمُ هنا ؟ يا إلهي، ولم تقُل لي ". جلسَ على الصوفا ورمى بقبعته على الطاولة.

أومأ باتجاه الآلة الكاتبة وقال: " أما تزال على هذا، هه؟ حسبتُ أنكَ تخلّيتَ عنه منذ زمنٍ بعيد. يا إلهي، أنت شَرِه للعقاب "

سألته " كيف عثرتَ على هذا المكان؟ "

قال " الأمر غاية في السهولة ؛ لقد اتَّصَلتُ بوالديك. لم يعطياني عنوانك لكنهما ذكرا لي رقم هاتفك. والباقي كان أمراً سهلاً "

" اللعنة! "

" ما الأمر، ألستَ سعيداً برؤيتي؟ "

" طبعاً، طبعاً "

"لا داعي للقلق، لن أُخبِرَ أحداً. بالمناسبة، أما تزال ما اسمُها تُقيمُ معك؟"

" تقصد مونا ؟ "

" نعم، مونا. لا أستطيع أن أتذكَّر اسمها "

" حتماً هي تعيشُ معي. ولِمَ لا تكون؟ "

" لمْ أعتقدْ أنها ستدوم معك كل هذه المدة. حسن، جميل أن أعرف أنك سعيد. أنا لستُ سعيداً! إنني في ورطة، ورطة رهيبة. لهذا جئتُ لأراك. إنني بحاجة إليك "

"لا، لا تقُل هذا! كيف يسعني أنا أنْ أساعدك؟ أنتَ تعلم أني... "

" كل ما أريده منك أن تُصغي إليّ. لا تُصَبْ بالذُعر. إنني عاشق، هذا هو الأمر "

twitter @baghdad_library

قلتُ " عظيم. وما الخطأ في هذا ؟ "

" إنها لا تقْبَلُني "

انفجرتُ بالضحك. "أهذا كل شيء؟ أهذا ما يقلقك؟ أيها المسكين الأحمق!"

" أنتَ لا تفهم. الأمرُ مختلفٌ هذه المرة. إنه حب. دعني أخبرك عنها... ". سكتَ لحظة كاملة. " إلاّ إذا كنتُ منشغلاً كثيراً الآن "، ووجَّه تحديقه إلى طاولة العمل، حين لاحظَ وجود صفيحة الورق الخالية في الآلة الكاتبة. ثم أضاف " ما هو العمل هذه المرة – أروايةٌ؟ أم رسالةٌ فلسفية؟ "

قلت " إنه لا شيء. لا شيء هام "

قال " أمرٌ غريب. في وقتٍ من الأوقات كان كل ما تفعله هاماً، بل غايةً في الأهمية. هيا، قُل لي لماذا تتردَّد ؟ أعلمُ أني أزعجك، ولكن هذا ليس سبباً يجعلك تُخفي عني "

" إذا أردتَ فعلاً أن تعرف، فاعلم أني أعملُ على رواية "

" رواية؟ يا إلهي، يا هن لا تَخُضْ في هذا... لن تمكَّن أبداً من تأليف رواية "

" لماذا ؟ ما الذي يجعلك واثقاً إلى هذه الدرجة؟ "

" لأني أعرفكَ، هذا هو السبب. أنتَ ليس لديك أي حسّ بالحبكة "

" وهل الرواية دائماً يجب أن يكونَ فيها حبكة؟ "

تابعَ قائلاً " اسمعْ، لا أريدُ أن أُصعِّبَ الأمرَ، ولكن... "

" ولكن ماذا ؟ "

" لِمَ لا تلتزم بما تعرف؟ تستطيع أن تكتب أي شيء، ولكن ليس رواية "

" ما الذي يجعلك تعتقد أني أُحسِنُ الكتابةَ أصلاً؟ "

رفعَ رأسه، وكأنه يفكِّرُ في صياغة جواب.

قلت " أنت كاتب حتماً. لعلَّكَ لم تقدِّمَ أي شيءٍ بعد يستحقُّ إلقاءَ نظرةٍ عليه، ولكن لديك مُتَّسعاً من الوقت. مشكلتكَ هي أنكَ عنيد "

" عنيد؟ "

" نعم، عنيد! حرون، كالبغل. أنتَ تريد أن تدخل من الباب الرئيسي؛ تريد أن تكونَ مختلفاً لكنَّكَ لا تريد أن تدفع الثمن. اسمع، لِمَ لا تقبلْ وظيفة مراسل صحفي، وتشق طريقك، وتصبح مراسلاً صحفياً، ثم تُنفِّذ العمل العظيم؟ أجِبْ عن هذا! "

" لأنَّ ذلكَ مضيعةٌ للوقتْ، هذا هو السبب "

" رجالٌ آخرون فعلوا ذلك. رجالٌ أعظم منك، أو بعضهم. ماذا عن برنارد شو؟ "

أجبتُ " لقد أحسنَ عملاً. أنا لديّ طريقي الخاص "

سادَ صمتٌ بضع لحظات. ذكَّرته بأمسيةٍ في غرفةِ مكتبه قبل زمنٍ بعيد، حين رمى بمجلّة نقدية إليّ وأمرني أنْ أقرأ قصةً لجون دوس باسوس، وكان حينئذٍ كاتباً ناشئاً.

" أتعرفُ ماذا قلتَ لي عندئذٍ؟ قلتَ: " هِنْ، لِمَ لا تجرِّبْ يدكَ فيها؟ يمكنكَ أن تتوصَّل ذات يومٍ إلى أنْ تُحسِنَ الكتابة مثله. اقرأها وانظُرْ! "

" أأنا قلتُ هذا؟ "

" نعم، ألا تذكُر؟ في الواقع، إنَّ تلك الكلمات التي قُلتَها بلا اهتمام استقرَّتْ في رأسي. ولا يهمّني إنْ أصبحتُ جيداً مثل جون دوس باسوس أم لا. المهم هو أنكَ ذات يوم اعتقدتَ أني أستطيع أن أكتب "

twitter @baghdad_library

" هل قلتُ مرةً رأياً مختلفاً يا هِنْ؟ "

" كلا، لكنكَ تصرَّفتَ بشكلٍ مختلف؛ تصرَّفتَ وكأنكَ ستقومُ معي بعملٍ طائشٍ مجنون ؛ وكأنَّ الأمرَ كله لا أملَ فيه. إنكَ تريدني أن أفعلْ ما يفعله الآخرون، وعلى طريقتهم ؛ أنْ أكرِّر أخطاءهم "

" يا إلهي، لكنكَ حسَّاس! هيا امضِ في تأليف روايتك اللعينة! اكتُب حتى ينفجر رأسك. إنْ أحببت! كنتُ فقط أحاولُ أن أنفحُكَ بنصيحة صغيرة ودود... على أي حال ليس هذا ما جئت لأجله، أي أنْ أتحدَّث عن الكتابة. أنا في ورطة، وأحتاج إلى مساعدة. وأنت مَنْ سيساعدني

" كيف؟ "

" لا أدري. ولكن دعني أقولُ لك شيئاً صغيراً أولاً، وبعدئذٍ ستفهم بصورة أفضل. ألا تستطيع أن تُخصِّص لي نصف ساعة؟ "

" أعتقد ذلك "

" حسنُ إذن، الأمر هو كما يلي... أتذكُر ذلك المرْبع الذي كنا نتردَّد عليه في منطقة فيليج في أمسيات أيام السبت؟ المكان الذي يتواجد فيه جورج دائماً؟ قبل حوالي الشهرين، أعتقد، مررتُ عليه لأرى كيف تجري الأمور فيه. لم تتغيَّر كثيراً... ما زالتْ تتسكَّع فيه نوعيةُ الفتيات نفسها. لكنَّ الملَلَ استولى عليَّ. تناولت كأسين من الشراب وحدي - بالمناسبة، لم يتحرَّش بي أحد - أعتقد أني كنتُ أرثي لحالي لأني أتقدَّم بالسن وما إلى ذلك، وفجأةً لمحتُ فتاةً على بُعد طاولتين مني، كانت وحدها مثلي "

" أعتقدُ أنها كانت ذات جمال أخَّاذ؟ "

" كلا، هنْ، لمحتُها. لا أستطيع أن أقول هذا. لكنها مختلفة. على أي حال، لمحتُها، وطلبتُ منها أن نرقص، وبعد انتهاء الرقصة جلستْ معي. لم نرقص بعد ذلك، اكتفينا بالجلوس والتحدُّث، حتى وقت الإقفال. أردتُ أن أوصِلها إلى المنزل لكنها رفَضَتْ أن تسمح لي بذلك. طلبتُ رقمَ هاتفها فرفضتْ أيضاً طلبي هذا. قلت " هل سأراكِ في يوم السبت القادم هنا؟ ". أجابت " ربما ". وانتهى الأمر عند هذا الحد... أعتقدُ أنه لا يوجد مشروبٌ هنا، أليس كذلك؟ "

" طبعاً يوجد "، واتّجهتُ صوب الخزانة وأخرجتُ زجاجة.

قال، وهو يمسك بزجاجة الفرمون. " ما هذا؟ "

قلتُ " هذا مقوٍ للشعر. أعتقد أنكَ تريد ويسكي؟ "

" إذا كان لديك، نعم. وإذا لم يكن، لديَّ بعضه في سيارتي "

أخرجتُ زجاجة من ويسكي وصببتُ له شراباً قوياً.

" وأنت؟ "

" لا أقْرَبُه. ثم إنَّ الوقتَ ما يزال مُبكِّراً جداً من النهار "

" هذا صحيح. إذن يجب أن تقوم بكتابة تلك الرواية؟ "

قال " حالما تغادر "

" سأختصر، هنْ. أنا أعلم أنكَ تشعرُ بالملل. ولكن لا يهمّني. يجب أن تسمعني حتى النهاية... إلى أين وصلتُ الآن؟ نعم، إلى صالة الرقص. حسنٌ، في يوم السبت التالي عدتُ لأنتظرها ولكن دون أن أجد لها أثراً. بقيتُ جالساً هناك طوال فترة بعد الظهر. لم أحظَ بأي رقصةٍ. ولم تظهر غيلدا "

" ماذا؟ غيلدا؟ أهذا اسمها؟ "

twitter @baghdad_library

" نعم، ما الخطأ في هذا؟ "

" إنه اسمٌ غريب، هذا كل شيء. ما هي... ما جنسيتها؟ "

" أعتقد أنها اسكتلندية-أيرلندية. ما الفرق؟ "

" لا شيء، لا شيء على الإطلاق. مجرد فضول "

"إنها ليست غجرية، إنْ كان هذا ما يجولُ في فكرك. ولكن فيها شيئاً يؤثّر فيَّ. لا أقوى على الكفّ عن التفكير فيها. **أنا عاشق**، هذا هو الأمر. ولا أعتقد أني كنتُ عاشقاً من قبل. ليس بهذه الطريقة، حتماً"

" لا شك في أنَّ سماعكَ أمرٌ مسلٍ "

" أعلمُ هذا، هِنْ. بل إنه أكثر من مسلٍ؛ إنه مأساوي "

انفجرتُ بالضحك.

كرَّرَ " نعم، مأساوي. للمرة الأولى في حياتي أقابلُ فيها شخصاً لا يوليني أي اهتمام "

قلت " وما أدراك؟ هل قابلتُها مرةً أخرى؟ "

" قابلتُها مرةً أخرى؟ يا رجل، إنني منذ ذلك اليوم ألاحقها. لقد قابلتُها حتماً. وذات ليلة اقتفيتُ أثرَ منزلها كانت تترجَّلُ من حافلةٍ عند محلَّة بورو هول. طبعاً هي لم ترني. وفي اليوم التالي اتَّصَلتُ بها هاتفياً، فاستشاطتْ غضباً. ماذا أعني باتصالي بها؟ وكيف حصلتُ على رقمها؟ وما إلى ذلك. حسن، وبعد ذلك ببضعة أسابيع عادتْ إلى قاعة الرقص من جديد. في هذه المرة كان عليَّ أن أركع حَرْفيّاً على رُكبتيّ لكي أنتزع الرقص معها. فأمرتني بألاّ أزعجها، وأنَّ ذلك لا يُثيرُ اهتمامها، وأني فظٌ... آه، وأشياء كثيرة متنوعة. بل إني لم أتمكّن حتى من دفعها إلى مُجالستي. وبعد مرور بضعة أيام أرسلتُ لها باقةً من

الورد. ولكن عبث. وحاولتُ من جديد الاتصالَ بها هاتفياً، ولكن حالما سمعتْ صوتي علّقتْ السمّاعة "

قلت " لعلّها مجنونة بكَ "

" إنني كالسُمِّ لها، هذا هو الواقع "

" هل عرفتَ ماذا تعمل لتكسب عيشها ؟ "

" نعم، إنها مُعلِّمة مدرسة "

" معلمة مدرسة؟ هذا أعجبْ ما ذكرت. أنت تلاحقُ معلّمة مدرسة! الآن أتخيّلها بصورة أوضَح - هي أقرب إلى مخلوقٍ ضخم، أخرق، شديد البساطة لكنه ليس مألوفاً، تكاد لا تبتسم، وتُصفِّفَ شعرها بشكل... "

" لقد اقتربتْ، يا هِنْ، لكنكَ أيضاً بعيد جداً. نعم، إنها تميلُ إلى الضخامة، ولكن بالمعنى الحَسَن. لا أستطيعُ أن أتكلّم عن شكلها. إنني لا أرى إلاّ عينيها - إنهما بلون الأزرق الصيني وهما تتلألآن... "

" كالنجوم "

قال " بل كالبنفسج. تماماً كالبنفسج. أما باقي تقاسيم الوجه فلا أهمية لها. ولأكون صادقاً معك، أعتقد أنَّ لها ذقناً متراجعاً "

" وماذا عن الساقَين؟ "

" ليستا جيّدتَين كثيراً ؛ تميلان إلى الامتلاء. لكنهما ليستا كساقيّ آلة البيانو! "

" وطيزها، أهي تهتزّ وهي تمشي؟ "

قفزَ واقفاً على قدميه. قال، وهو يُطوِّقني بذراعه، " هِنْ، إنَّ طيزها هي التي تُجنّنني. ليتني أستطيع أن أفرك يدي عليها - ولو مرّة - بعد ذلك سأموتُ سعيداً "

twitter @baghdad_library

" أتريد أن تقول إنها مُغالية في الاحتشام؟ "

" لا يمكنُ لمسها "

" ألمْ تقبِّلها بعد؟ "

" أمجنونٌ أنت؟ **أُقبِّلها** ؟ سوف تودّ أن تموت قبل أنْ أفعل "

قلت " اسمع، ألا تعتقد أنَّ لعلَّ السبب في وَلَهَكَ بها هو ببساطة لأنها ترفض أن تتعامل معك؟ لقد كنتَ قد حصلت على فتيات أفضل منها، حسب ما فهمتُ من شكلها. انْسَها، هذا أفضل شيء. لن يُحطِّمَ ذلك قلبك. أنت لا تملك قلباً ؛ أنت دون جوان بالفطرة "

" لم أعُدْ كذلك، يا هِنْ. لا أستطيع أن أنظر إلى أي فتاة أخرى. إنني عالق "

" كيف توصّلت إلى الاعتقاد بأني أستطيع أن أساعدك حينئذ؟ "

" لا أدري. كنتُ أتساءلُ لو... لو أنكَ ربما تحاولُ أن تُقابلها لأجلي، كلِّمها، أخبرها عن مدى جدّيتي... شيئاً من هذا القبيل "

" ولكن كيف سأتوصَّل إليها - أباعتباري مبعوثاً من قِبَلك؟ سوف ترميني إلى الخارج حالما ترى وجهي، أليس كذلك؟ "

" هذا صحيح. ولكن قد نتمكّن من إيجاد سبيلٍ لكي تتقابلا دون أن تعرف هي أنكَ صديقي. تسلَّل إلى الحديث عن محاسنها ومن ثم... "

" ثم أثبُ عليها، هه؟ "

" وما الخطأ في هذا؟ هذا ممكن، أليس كذلك؟ "

" كل شيء ممكن. لولا... "

" لولا ماذا؟ "

" هل خطَرَ في بالك أني أنا نفسي قد أتولَّع بها؟ " (أنا طبعاً لا أخشى هذا ؛ أردتُ فقط أن أرى ردَّة فعله)

هذه الفكرة السخيفة جعلتني أقهقه. " إنها ليستْ من النوع الذي يعجبك، يا هن، لا تقلقْ. أنت تفتش عن الغريب. إنها، كما قلت لك. اسكتلندي-أيرلندي. إنك لا تشترك معها في أي شيء. " ولكنكَ تُحسِنُ الكلام، اللعنة! "، أي حين ترغب في ذلك. كان يمكن أن تصبح محامياً مفوَّهاً، لقد قلتُ لكَ هذا من قبل. حاول أن تتصوَّر نفسك تستأنف حُكماً في إحدى القضايا... قضيَّتي. يمكنك أن تنزل عن عليائك وتفعل شيئاً صغيراً كهذا إكراماً لصديق قديم، ألا تستطيع؟ "

قال " قد يتطلَّب الأمرُ بعض المال "

" مال؟ لِمَ؟ "

" للإنفاق. أزهارٌ، سيارات أجرة، مسرح، ملاهٍ ليليّة.. "

قال " إليك عني! أزهارٌ ربما. ولكن إياك أن تفكِّر في الأمر على أنه حملة طويلة الأمد. فقط تعرَّف إليها وابدأ بالتحدث معها. لستُ مضطراً إلى أنْ أقول لك كيف تفعل هذا. أذِبها، هذا هو بيتُ القصيد. إبكِ، إذا اضطررت. يا إلهي، ليتني فقط أستطيع أن ألج بيتها؛ أن أراها وحدها. سوف أسجدُ عند قدميها، وألعق أصابع قدميها، وأدعها تدوسني. أنا جادّ، هِنْ. لو لم أكن يائساً لما لجأتُ إليك "

قلتُ " حسن، سأفكِّر في الأمر. امنحني بعض الوقت "

" آمل أنك لا تتخلَّص مني؟ أتعدني؟ "

قلت " أنا لا أعدك بأي شيء. الأمر يحتاج إلى التفكير فيه. سأبذل أقصى جهدي. هذا كل ما أستطيع قوله "

قال " فلنتصافح بهذه المناسبة "، ومدّ يده لي.

" أنت لا تعلم كم يُريحني أن أسمعك تقول هذا، يا هنْ. لقد فكَّرتُ

twitter @baghdad_library

في أن أطلب هذا من جورج، ولكن أنت تعرف جورج. إنه يتناول الأمر بالمُزاح. إنه أي شيء آخر غير المُزاح، كما تعلم. يا إلهي، أذكرُ حين كنتَ تتكلم عن نسف دماغك - بسبب امرأتك ما اسمُها... "

قلت " مونا "

" نعم، مونا. كنتَ مُصمِّماً على الحصول عليها، أليس كذلك؟ آمل أن تكون سعيداً الآن. إنني لا أطلبُ حتى هذا، يا هِن - أقصد أن أكونَ سعيداً معها. كل ما أريده هو أن أنظر إليها، أن أؤلِّهها، أعبدها. يبدو هذا تصرُّفاً مراهقاً، أليس كذلك؟ ولكني أعني ما أقول. لقد هُزِمتُ. إذا لم أحصل عليها سأُجَنّ "

صببتُ له ملْ كأس أخرى.

" كنت أضحكُ عليك، أتذكُر؟ دائماً كنتُ في حالة عشق. أتذكُر كيف كانت أرملتك تكرهك؟ لقد كان لديها سببٌ لذلك. بالمناسبة، ماذا حدثَ لها؟ "

هززتُ رأسي جهلاً.

" كنتَ مدلّهاً بحبّها، أليس كذلك؟ الآن حين أستعيدُ ذلك أدركُ أنها لم تكن سيئة. لعلها كبيرة في السن قليلاً، ويبدو عليها الحزن قليلاً، لكنها جذابة. ألم يكن لديها ابن يكادُ يكون في مثل سنك؟ "

قلت " نعم. لقد توفي قبل بضع سنوات "

" وكنتَ تعتقد أنكَ لن تتمكَّن من التخلُّص من تلك الورطة، أليس كذلك؟ يبدو كأنَّ ألفَ عام قد مرَّت على ذلك... وماذا عن أونا؟ أعتقد أنكَ لم تتغلَّب على تلك المحنة، هه؟ "

قال " لا أعتقد هذا "

" أتعلمْ يا هِنْ؟ أنتَ محظوظ. إنَّ الله يهُبُّ إلى نجدتك في كل مرة. اسمع، لن أُعيقك أكثر مما فعلتُ عن أداء عملك. سوف أتِّصل بك هاتفياً بعد بضعة أيام وأرى ماذا أعددت. لا تخذلني، هذا كل ما أرجوه منك "

التقطَ قبعته ومشى نحو الباب. ثم قال، مع ابتسامة واسعة، وأومأ برأسه باتجاه الآلة الكاتبة - " بالمناسبة، ما هو عنوان الرواية التي تؤلّفها ؟ "

أجبتُ " عنوانها " خيول **فلاديفوستوك الحديدية** " "

" بلا مُزاح "

" أو ربما - " **هذا العالم المُهذَّب** " "

قال " هذا حتماً سيجعله كتاباً رائجاً "

" بلغَ أفضل تمنياتي إلى غيلدا ، حين تتصل بها هاتفياً مرةً أخرى! "

" فكِّر الآن في فكرةٍ جيدةٍ، يا ابن الحرام أنت! وبلِّغ حبي لـ... "

" مونا! "

" نعم، مونا. باي باي! "

*

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم قُرِعَ البابُ ثانية. هذه المرة كان سِدْ إسِّن. بدا متوتِّراً ومنزعجاً. واعتذر بإفراط لتدخّله.

بدأ بالقول " كان لابد لي من أن أراك. آمل أنْ تغفر لي. اطردني إنْ كنتَ منهمكاً في عملٍ ما... "

قلت " اجلس، اجلس. لا يمكنني أن أكون مشغولاً إلى درجة ألاّ أقابلك. ألديك مشكلة؟ "

" لا ، لا مشكلة. لعلّي أشعرُ بالوحشة... أشعر بالاشمئزاز من

twitter @baghdad_library

نفسي. أجلسُ هناك في الظلام وأزدادُ كآبة باطِّراد. أكادُ أنتحر. وفجأةً تذكَّرتُكَ. فقلت " لِمَ لا تقابل ميللر؟ هو سيرفع من معنوياتي " . وهكذا نهضتُ وغادرتُ. الفتى هو الذي يُديرُ المحل... إنني بحقّ خجِل من نفسي، ولكن لم يعُد في مقدوري أن أتحمَّل أكثر من ذلك "

نهضَ عن الصوفا ومشى حتى لوحةٍ معلّقة على الجدار بجوار الطاولة. كانت إحدى لوحات هيروشنغه، من مجموعة " ثلاث وخمسون مرحلة من التوكايدو ". حدَّقَ إليها بإمعان، ثم التفتَ ليُدقِّقَ النظر في الأخريات. في تلك الأثناء كانت تعبيرات وجهه من تعبير القلق والوجوم إلى البهجة الصرف. وحين التفتَ بوجهه أخيراً إليّ كانت الدموع تملأ عينيه.

" ميللر، ميللر! أي مكان رائع لديك! أي جو! إنَّ مجرَّد الوقوف هنا في حضرتك، وأنتَ مُحاطٌ بكل هذا الجمال، يجعلني أشعرُ وكأني إنسانٌ جديد. كم أتمنى لو أستطيع أن نتبادل مكانينا! أنا إنسان جلف، وكما تعلم، لكني أحبّ الفنَّ حقاً. أعتقد أنَّ اليابانيين شعب رائع. كل ما يفعلونه يُنفِّذونه بفن... نعم، نعم، إنه العمل في مثل هذه الغرفة. إنك تجلس هناك مع أفكارك وتشعر أنك ملِكُ العالم. أي حياة نقيّة! أتعْلَم، يا ميللر، أحياناً تُذكِّرني بفقيه عبراني. إنَّ فيك شيئاً من قديس، أيضاً. لهذا أتيتُ لأراك. إنك تمنحني الأقل والشجاعة. حتى حين لا تنطق بأي كلمة. آمل أنك لا تُمانع في ثرثرتي على طول الخط، هل تُمانع؟ يجب أن أزيحه عن صدري ". وسَكَتَ، وكأنه يستجمع شجاعته. " أنا فاشل، ولا فائدة من المراوغة. أنا أعلم هذا ومتصالحٌ معه. ولكنَّ المؤلم في الأمر هو أن يعتقدَ الفتى هذا أيضاً. لا أريده أن يرثي لحالي. فليحتقرني، لا بأس. ولكن لا أن يرثي لحالي "

قلت " ريب، إنني لم أعتبركَ مرةً فاشلاً. إنك تكادُ تكون بالنسبة إليّ أخاً أكبر. زيادةً على ذلك، أنت لطيف، ورقيق، وكريم حتى الإسراف "

" أتمنى لو أنَّ في استطاعة زوجتي أن تسمعك تقول هذا "

" لا عليك مما تعتقده هي. الزوجات دائماً قاسيات على مَنْ يحببن"

" الحب. لم يكن بيننا أي حب، طِوال سنين عديدة. كان لها عالمها الخاص ؛ ولي عالمي "

ثم سادَ صمتُ الارتباك.

" أتعتقد أنَّ من المفيد أن أغيب عن الأنظار ؟ "

" أشكُّ في ذلك يا ريب. ماذا ستفعل؟ أين ستذهب؟ "

" إلى أي مكان. أما بالنسبة إلى كسب العيش، فأؤكّد لك أنه سيسعدني أن أمسح الأحذية. المال لا يعني أي شيء. أنا أحبّ الناس، أحبّ أن أخدمهم "

مرةً أخرى رفعَ بَصَرَه إلى الجدار، وأشارَ إلى لوحةٍ لهوكوساي - من " الحياة في العاصمة الشرقية "

قال " أترى هذه الأشكال الإنسانية كلها، إنهم أُناسٌ عاديون يؤدون أعمالاً يومية عادية. هذا ما أريده - أن أكون واحداً منهم، أن أقوم بعملٍ عاديّ، كصنع البراميل أو السمكرة - ما الفرق؟ المهم هو أن أكون جزءاً من الموكب، لا أن أجلس في مخزنٍ خاوٍ طوال اليوم وأقتلُ الوقت. اللعنة، ما زلتُ فاشلاً. ماذا كنتَ فعلتَ لو أنكَ في مكاني؟ "

قلت " لقد كنتُ يا ريب بالضبط في مثل موقفك ذات يوم. نعم، كنتُ أجلس طوال النهار في دكان والدي، لا أفعل أي شيء. حسبتُ أني سأجَنّ. وكرهتُ المكان، لكنني لم أعرف كيف أتحرَّر "

twitter @baghdad_library

" كيف فعلتَ إذن؟ "

" أعتقد أنَّ القدَرَ هو الذي دفعني إلى الخارج. ولكن يجب أن أقولَ لك ما يلي... بينما أنا أعاني كنتُ أصلّي أيضاً. صلّيتُ كل يوم لكي يأتي مَنْ - ربما الله - يُنيرُ لي الطريق. كنتُ أيضاً أفكِّر في الكتابة، حتى ذلك الزمن البعيد. لكنه كان اقرب إلى الحلم منه إلى إمكانية التحقُّق. واستغرق مني كتابة سطر واحد، حتى بعد أن تركت محل الخياطة، سنوات كثيرة. على المرء ألاّ ييأس أبداً... "

" لكنك حينئذٍ كنتُ مجرد فتى. أما أنا فمتقدِّم في السن "

" وإن كان. إنَّ ما تبقَّى لكَ من سنوات هي ملكُ لك. إنْ كان ثمة ما تريد أن تنجزه فما زال هناك وقت "

قال، بحزن تقريباً، " ميللر، ليس فيَّ أي حافز إلى الإبداع؛ كل ما أطلبه هو أن أتخلَّص من الفخ. اريد أن أعيش من جديد. أريد أن أعود إلى التيار. هذا كل شيء "

" ومَا الذي يمنعكَ؟ "

" لا تقُلْ هذا! أرجوك لا تقُل هذا! **أتسأل ما الذي يمنعني**؟ كل شيء: زوجتي، وأطفالي، والتزاماتي. وقبل كل شيء أنا نفسي. أصبحتُ معدوم الثقة في نفسي "

لم أتمالك نفسي من الابتسام. ثم أجبتُ، وكأني أكلِّم نفسي: " فقط نحن البشر نفقد الثقة في أنفسنا. خذ الدودة، مثلاً - أتظن أنَّ الدودة تحتقر نفسها؟ "

قال " الشعور بالذنب شيء فظيع. ومن أجل ماذا؟ ماذا فعلت؟ "

" بل ما الذي لم تفعله، أليس كذلك؟ "

" نعم، نعم، طبعاً "

" أتعلمْ ما هو أشدّ أهمية من إنجاز شيءٍ ما ؟ "

قال ريب " لا "

" أن تكونَ ذاتك "

" ولكن ماذا لو أنكَ نكرة؟ "

" إذن كُنْ نكِرة. ولكن كُنْ كذلك إلى آخر مدى "

" يبدو كلامك جنوناً "

" هو كذلك. لهذا يبدو هكذا "

قال " تابعْ، أشعر بتحسُّن "

" ألمْ تسمع القول المأثور، في الحكمة الموت؟ أليس من الأفضل أن تكون meshuggah (مجنوناً) قليلاً؟ مَنْ يَقلَق عليك؟ أنتَ وحدك. ما دمتَ لم تعد تُطيق الجلوس في المحل، لِمَ لا تنهض وتتمشّى؟ أو شاهد فيلماً سينمائياً؟ أغلق المحل وأوصد الباب. إنَّ زبوناً أكثر أو أقلّ لن يُشكِّلَ أي فرق في حياتك، أليس كذلك؟ استمتع بحياتك! اذهبْ لصيد السمك مرةً كلَّ حين، حتى وإنْ كنتَ لا تُحسِن صيد السمك. أو استقلّ سيارتك واخرجَ بها إلى الريف. إلى أي مكان. أصغِ إلى العصافير، اجلب بعض الزهور إلى المنزل، أو بعض المحار "

كان يميلُ إلى الأمام، وكله آذانٌ صاغية، وابتسامة عريضةٌ تمتدُ عبر وجهه.

قال " زِدني ؛ كلامكَ رائع "

" حسن، تذكَّر ما يلي... المحل لن يهرب منك. وأحوال العمل لن تتحسَّن. لا أحد يطلب منك أن تحبس نفسك طوال النهار ؛ أنتَ رجلٌ

twitter @baghdad_library

حرّ. وإذا وفَّرَتْ اللامبالاة والإهمال السعادة، فمَنْ سيلومك. خُذ معك أحد السّكان من الزنوج معك ؛ وفِّر له وقتاً طيباً. أعطه بعض الملابس من محلك. اسأله إنْ كنتَ تستطيع أن تُقرِضه بعض المال. اشترِ لزوجته هدية صغيرة وأعطه إياها ليأخذها معه إلى المنزل. أتفهم ما أعني؟ "

بدأ يضحك. " أتسألني إنْ كنتُ أفهم؟ يبدو شيئاً عظيماً. هذا بالضبط ما سوف أقومُ به "

حذَّرته قائلاً " إياك أن تفرط في إظهار تباهيك دفعة واحدة ؛ أخذ الأمور برويّة وهدوء. اتبعْ فطرتك. مثلاً، ذات يوم سوف تشعر برغبةٍ في الحصول على امرأة. إياك أن تشعرَ بالذنب حيال هذا الأمر. جرِّبْ ذوات البشرة الداكنة مرةً كل حين. إنَّهُنَّ ألذّ، وأرخص تكلفة. افعلْ كل ما من شأنه أن يُريحك، تذكَّر هذا. دائماً أحسِنْ معاملة نفسك. إذا شعرتَ أنك دودة، فازحف ؛ وإذا شعرتَ أنك طائر، طِرْ. لا عليك مما يظنه الجيران لا تقلق على أطفالك، سوف تُغيِّر نغمتها. إنَّ زوجتكَ امرأة طيبة. كل ما في الأمر أنها حيّة الضمير أكثر مما ينبغي، وتحتاج إلى أنْ تضحك بين حينٍ وآخر. هل حاولتَ مرةً أن تجرِّب إلقاء قصيدة فكاهية على مسمعها؟ هاكَ واحدة لأجلك...

" كان هناك فتاة من بيرو
حلُمَتْ بأنَّ يهودياً اغتصبها،
فاستيقظَتْ أثناء الليل،
وهي تصرخ من البهجة،
لتجد أنَّ ذلك صحيح تماماً! "

هتفَ " جيدة، جيدة! أتعرف المزيد منها؟ "

قلت " نعم، ولكن يجب أن أعود إلى عملي الآن. أعتقد أنك أفضل حالاً، أليس كذلك؟ غداً سنزور آل داركي، هه؟ قد أرافقك في الأسبوع القادم بالسيارة إلى بلويوينت. ما رأيك في هذا؟ "

" أتفعل؟ أوه، سيكون ذلك رائعاً، رائعاً تماماً. بالمناسبة، كيف يسير حال الكتاب؟ هل اقتربتَ من الانتهاء منه؟ أكادُ أموتُ اشتياقاً لقراءته في الواقع. وكذلك السيدة إسِّن "

كان يصرخ وهو يقول " كيف تقول هذا؟ "

" لأنه ليس جيداً "

نظرَ إليَّ وكأني فقدتُ عقلي. للوهلة الأولى لم يدرِ ماذا يقول. ثم انفجر قائلاً -" ميللر، أنت مجنون! لا يمكن أنْ تكتب كتاباً رديئاً. مستحيل. أنا أعرفك جيداً "

قلت " أنت تعرف فقط جزءاً مني. أنت لم ترَ أبداً الجانب الآخر من القمر، أليس كذلك؟ هذا هو أنا terra incognito (أرضٌ مجهولة). خذها مني، أنا مجرَّد مُبتدئ. ربما بعد عشر سنين من الآن قد أعرض عليك شيئاً "

" لكنك تكتب منذ سنوات "

" تقصد أني أتدرَّب. أتدرَّب على السلّم الموسيقي "

قال " أنت تمزح. أنت مفرط التواضع "

قلت " هنا أنتَ مخطئ ؛ أنا كل شيء ما عدا متواضع ؛ أنا أناني مئة في المئة. لكني أيضاً واقعي، مع نفسي على الأقلّ "

قال ريب " أنت تبخُس نفسك حقَّها. سوف أعيدك إلى كلماتك أنت - **لا تستخفّ بنفسك!** "

twitter @baghdad_library

" حسنُ، أنت تربح "

كان يتوجه نحو الباب، وفجأةً تكوَنَ لديَّ حافزٌ لأخفِّف عبئاً عن كاهلي.

قلت " انتظر لحظة. هناك ما أريد أن أقوله لك "

خطا عائداً إلى الطاولة وتوقَّف هنا، كأحد السُعاة الفتية، وكلّه انتباه ؛ انتباهٌ مع احترام. تساءلتُ ما الذي أعتقدَ أني سأخبره "

باشرتُ بالقول " حين أتيتَ قبل بضع دقائق كنتُ وسطَ جملةٍ وسط فِقرة طويلة. أتحبّ أن تسمعها ؟ ". ملتُ فوق الآلة الكاتبة وقرأتها له. كانت واحدة من تلك الفقرات المجنونة التي حتى أنا لا أعرف لها رأساً من قَدَم. أردتُ أن أرى ردَّة فعله هو، وليس بوب أو مونا.

وقد حصلتُ عليها فوراً.

صرخ " ميللر! ميللر، هذا رائع حقاً! إنَّ أسلوبك يشبه أسلوب الروس. أنا لم أفهم معناه ولكن فيه موسيقى "

" أتعتقدُ ذلك؟ صدقاً؟ "

" طبعاً أعتقد. لن أكذب عليك "

" هذا جيد. إذن سأتابع، سأكمِل الفقرة "

" هل الكتاب كله هكذا ؟ "

" لا. اللعنة! هذه هي المشكلة. الأجزاء التي أحبّها أنا لا تُعجِب أحداً. على الأقلّ، ليس الناشرون "

قال ريب " فليذهبوا إلى الجحيم! إذا رفضوا نشره سأنشره لك بنفسي، وعلى نفقتي "

أجبتُ " لا أنصحُكَ بهذا. تذكَّر، يجب ألاّ تهدر مالك كله دفعةً واحدة"

"ميللر، سأفعلْ، حتى ولو بآخر سنت معي. سأفعله لأني مؤمنٌ بك"

قلتُ " اطرحْ الفكرةَ من ذهنك ؛ لدي أساليب أخرى لإنفاق نقودك "

" ليس أنا! سوف أشعر بالفخر والسعادة إذا روَّجتُ لكتُبك، وكذلك ستشعر زوجتي وأولادي. إنهم يضعونك في مراتب عالية. لقد أصبحتَ فرداً من العائلة "

" يسعدني أن أسمع هذا، يا ريب. آمل أم أكونَ جديراً بهذه الثقة. إذاً، إلى الغد، هه؟ دعنا نجلب شيئاً جيداً لآل داركي، ما رأيك؟ "

بعد أنْ رحلَ رحتُ أذرع المكان جيئةً وذهاباً، بهدوءٍ، وتمالكٍ للنفس، متوقِّفاً بين حينٍ وآخر لأُمعِن النظر في مطبوعة كليشيه خشبية، أو نسخة ملوَّنة عن لوحة (لجيوتو أو ديلا فرانشيسكا، أو أوتشيللو، أو بوش، أو بروغل، أو كاراباتشو) ثم أعودُ لأتمشَّى من جديد، لأزداد خصباً، ثم أقف ثابتاً، وأحدِّق في الفراغ، وأترك العنان لعقلي، أدعه يرتاح حيث يشاء، وأزدادُ صفاءً، وأنشحن باطِّراد بجمال الماضي الخصب، سعيدٌ لأني أشكِّلُ جزءاً من هذا الماضي (ومن المستقبل أيضاً) مُهنِّئاً نفسي لأني أعيشُ وجوداً أشبه بالرحم أو القبر... نعم، كانت غرفةً ممتعةً حقاً؛ مكاناً ممتعاً، وتحتوي على كل شيء، كل ما ساهمنا فيه لجعلِهِ قابلاً للسكنى، ويعكسُ الجمالَ الداخلي لحياتنا، حياة الروح.

" إنكَ تجلس هناك مع أفكارك وكأنك ملكُ العالم ". هذه الملاحظة البريئة الصادرة عن ريب عَلِقَتْ بذهني، وزوَّدتني باتِّزان بحيث أني شعرت برهة من الزمن بأني من الحقيقة عرفتُ معناها - أنْ أكونَ ملِكاً على العالم. ملِك! أي، شخص قادر على إغداق الثناء على الناس

twitter @baghdad_library

جميعاً ؛ ملكٌ شديدُ الحساسية، شديد التفهُّم، والتنوُّر بالحب بحيث أنَّ لا شيء يُفلِت من انتباهه أو فهمه. باختصار، الشنيع الشاعري. لا يحكم العالم بل يعبده مع كل نَفَس من أنفاسه.

وأقفُ من جديد أمام عالم هوكوساي اليومي... لماذا تكبَّدَ أستاذ الريشة العظيم هذا مشقَّة عمل نسخة طِبق الأصل عن العنصر الأشد ابتذالاً في عالمه؟ والكشف عن مهارته؟ هراء. لقد فعلَ ذلك لكي يُعبِّر عمّا يعتلج فيه من حب، لكي يدلّ على أنه ممتد في طول الأرض وعرضها، وأنه يتضمَّن أضلاع البرميل، وورقة العشب، وعضلات المصارع المتماوجة، والمطل المنحرف في وجه مهبّ الريح، وأسنان الموجة، والعمود الفقري للسمكة... باختصار، كل شيء. تكاد تكون مُهمّة مستحيلة، لولا ما فيها من متعة.

كان قد قال، إنه مولعٌ بالفن الشرقي. وحين ردَّدتُ كلمات ريب بيني وبين نفسي إذا بالقارّة الهندية كلها تظهر ماثلةً أمامي فجأةً. هناك، وسط تلك الخليّة التي تعجّ بالبشر، كانت بقايا العالم النابضة التي كانت وستبقى دائماً مُذهلة. ريب لم يلاحظ، أو لم يقُل أي شيء إنْ فعل، الصفحات الملوّنة المُنتَزَعَة من كُتُبِ الفن التي كانت بدورها تزيِّن الجدران: نسخُ طبق الأصل عن معابد وستوبات[١٣١] من ديكان[١٣٢]، وكهوف، وأغوارٌ محفورة، وكل الرسومات الجدارية، والجصيات التي تمثِّل الأساطير والخرافات الغامرة لشعبٍ ثملٍ بالشكلِ وبالحركةِ، بالشغفِ وبالنمو، بالفكرة، وبالوعي نفسه. كانت نظرةٌ واحدة إلى كتلة المعابد العتيقة التي تنهض من قلب الحرارة ونباتات التربة الهندية تمنحني

إحساساً بأني أحدِّقُ إلى الفكر نفسه، على الرغم من أنها كانت تكافحُ لتتحرَّر، وعلى الرغم من أنها كانت تصبحُ بلاستيكية وإسمنتية، وأكثر إيحاءً وإثارةً للعواطف، وبثّاً للرعب، وبالتالي تنتشر على القرميد والحجارة، بشكلٍ تعجزُ الكلمات عن التعبير عنه.

على الرغم من كثرة ما قرأت كلماته، إلا أني لم أتمكّن قط من حفظها. حينئذٍ كنتُ جائعاً إلى ذلك السيل الجارف من الصور، وتلك العبارات، والجمل، والفقرات الضخمة والفخمة - كلمات رجل فتح عينيه على هذا الإبداع الهندي المذهل: إنه إيلي فور. مددتُ يدي إلى المجلَّد الذي كنتُ طالما قلّبتُ صفحاته - المجلد الثاني من " تاريخ الفن " - وانتقلت إلى الفقرة التي تبدأ هكذا - " بالنسبة إلى الهنود الطبيعة كلها مقدَّسة... إنَّ ما لا يكذب في الهند هو الإيمان... "، ثم يلي ذلك أسطرُ التي حين قابلتُها للمرة الأولى جَعَلَتْ عقلي يُصاب بالدوار.

" في الهند حدثَ ما يلي: انتقلَ آلافُ من البشر هرباً من الغزو، والمجاعة، ونزوح الحيوانات الضارية، إلى الشمال أو إلى الجنوب. وعلى شاطئ البحر، عند أسفل الجبل. قابلوا جداراً هائلاً من الغرانيت. ثم دخلوا جميعاً جدار الغرانيت، وعاشوا في ظلاله، وأحبوا، وعملوا، وماتوا، وولدوا، وبعد مرور أربعة قرون خرجوا مرةً أخرى، واجتازوا الجبل، وأصبحوا على بُعد أميال كثيرة، وخلّفوا وراءهم الصخرة الفارغة، بسراديبها الخاوية في كل اتجاه، وتحوَّلت جدرانها المنحوتة، وأعمدتها الطبيعية والمصطنعة، إلى تخريمات عميقة مزوّدة بعشرة آلاف تمثال مرعب، أو رائع، الجمال، وآلهة لا تحمل أرقاماً ولا أسماء ـ ورجال، ونساء،

twitter @baghdad_library

وحيوانات - مدٌ من الحياة الحيوانية يتحرَّكُ وسط الكآبة. أحياناً حين لم يجدوا فسحة مكشوفة من الأرض على طريقهم، كانوا يحفرون هوّةً سحيقة وسط كتلةٍ من الصخر لكي يُخفوا فيها حجراً كريماً أسود صغيراً.

" في تلك المعابد المبنيّة بحجارةٍ عملاقة، وعلى جدرانها القائمة أو على واجهتها المسفوعة بأشعة الشمس، تنشرُ العبقرية الهندية الحقّ قوتها الرهيبة كلها. هنا يُسمَعُ الخطاب المشوَّش لحشودٍ غفيرة مشوَّشة. هنا يعترفُ الإنسان دون مقامة بقوته، وعدميته... "

وأتابعُ القراءة، ثملاً كالمعتاد. الكلمات لم تعد كلمات بل أصبحتْ صوراً حيّة، صوراً خرجتْ حديثاً من القالب، تومضُ، ترتعشُ تتماوجُ، تخنقني بمجرَّد وفرتها.

"... العناصر نفسها لن تمزج هذه الحيوات كلها مع فوضى الأرض بنجاح أكثر مما حقَّقه النحَّات. أحياناً يعثر المرء، في الهند، على فطور من الحجارة في أعماق الغابات. تسطع في الظل الأخضر كنباتات سامة. وأحياناً أخرى يعثر على أفيالٍ ثقيلةٍ تقفُ وحدها، تنمو عليها الطحالب، وخشنة الجلود وكأنها حيّة ؛ إنها تمتزج مع عرائش متضافرة، تصل الأعشاب حتى بطونها، وتغطيها أزهارٌ وأوراقٌ خضراء، **وحتى بعد أن تعود رفاتها إلى الأرض فلن تمتصّها ثمالة الغابة امتصاصاً كاملاً** "

آه، والآن إليك الفقرة...

"... لم يعُد الإنسانُ هو مركز الحياة ؛ لم يَعُد زهرة العالم أجمع التي أعدَّتْ نفسها ببطء لتشكّله وتنضجه ؛ إنه ممزوجٌ بالأشياء كلها، وعلى مستوى واحدٍ مع الأشياء كلها، وهو ذرَّة اللا نهاية، ليس أكثر ولا

أقلّ أهمية من باقي ذرّات اللا نهاية. الأرضُ تتغلغلُ في الأشجار، والأشجار في الثمار، والثمار في الإنسان أو الحيوان، والإنسان والحيوان في الأرض ؛ وتستمر دورة الحياة وتولِّدُ كوناً مشوَّشاً فتبرز أشكالٌ للحظة ومن ثم تختفي ومن ثم تعود فتظهر، تتراكبُ، ترتعشُ، تتداخل وهي تجيشُ كالأمواج. والإنسان لا يعرف إنْ كان بالأمس أم لا الأداة نفسها التي سوف يُجبِر هو نفسه المادةَ على إطلاق الشكل الذي قد يتَّخذه غداً. إنَّ كل شيء هو فقط مظهر، وتحت تنوُّع المظاهر يشكِّلُ برامز، روح العالم، وِحدَةً... فهل يعلمُ وهو تائه في خضم أشكالٍ وطاقاتٍ ممزوجة، إنْ كان ما يزال شكلاً أم روحاً؟ هل هذا الذي أمامنا كائنٌ مفكِّر، أو حتى كائن حيّ، أو كوكب، أو كائنٌ قُدَّ من حجر؟ إنَّ الإنبات والتعفُّن ينشطان دون توقُّف. لكل شيء حركته الثقيلة، والمادة المتمدِّدة تنبضُ كالقلب. ألا تكمُنُ الحكمةُ في الانغماس فيها، لكي نتذوَّق ثمالة إلى وعي ونحن نكتسب القوة التي تُحرِّك المادة؟ "

حبُ الفن الشرقي. ومَنْ لا يُحبّه؟ ولكن أيّ شرقٍ، الأدنى أم الأقصى؟ أنا أحبُّهما كليهما جميعاً. لعلّي أحببتُ هذا الفن الشديد لاختلاف عن فننا لأنَّ، ولأستخدم كلمات إيلي فور، " الإنسان لم يعُد مركز الحياة ". لعلّ تسطيح الإنسان هذا (ورفعه)، هذا الاختلاط بالحياة كلها، هذا الشيء، المطلق الضآلة والمطلق الضخامة في وقتٍ واحد، الذي ينتج فرطَ الانفعال حين يواجه عملهما. أو، بعبارة أخرى، لأنَّ الطبيعة (معهما) كانت شيئاً آخر، أكثر من مجرَّد سِتار خلفيّ. لأنَّ الإنسان، على الرغم من قدسيته، لم يعُد أكثر قدسية من تلك التي

twitter @baghdad_library

وُلِدَ فيها. وربما أيضاً لأنهما لم يمزجا اصطخاب الحياة واضطرابها مع اصطخاب الفكر واضطرابه، ولآنَّ العقلَ - أو الروح أو النفس - سَطَعَ على كل شيء، مُحدِثاً تألُّقاً قدسياً. وهكذا، على الرغم من تواضع الإنسان وطهارته، فإنه لم يتسطَّح، أو يُلغَ، أو يُمحَ، أو يُحَط أبداً؛ إنه لم يُخلَق لكي يتذلَّلُ أمام ما هو سامٍ، بل لكي يتَّحد معه. إنْ كان هناك مفتاحُ لحلّ الألغاز التي تُغلِّفه، وتتغلغل فيه، وتدعمه، فقد كان مفتاحاً بسيطاً، ومُتاحاً للجميع. لم يكن فيها ما هو مُلغَّز.

نعم، لقد أحببتُ عالم الهنود هذا الهائل، المُدوِّخ، ومَنْ يدري، قد أشاهده بأمّ عيني ذات يوم. لقد أحببته ليس لأنه غريب عني وناءٍ، لأنه في واقع الأمر كان أقرب إليّ من فن الغرب ؛ بل أحببت الحب الذي تولَّدَ منه ؛ حباً تشاركتُ فيه مع الحشود الغفيرة، حباً ما كان يمكن أن يتم التعبير عنه لو لم يُعبِّر عن الحشود ويَصدُر عنها وكان لأجلها. أحببتُ الجانبَ المجهول لإبداعاتهم المذهلة. كم هو مريحٌ ومقوٍّ أن يكون المرءُ عاملاً مجهولاً، متواضعاً - حِرَفيّاً ماهراً وليس عبقرياً! - واحداً بين آلاف، يشاركُ في خلقِ ما يخصُّ الجميع. وعدم كوني أكثر من حاملٍ للماء - كان يعني لي أكثر من أن أصبح بيكاسو، أو رودان، أو مايكل أنجيلو، أو دا فنشي. وحين أستعرضُ بانوراما الفن الأوروبي، أرى أنَّ اسمَ الفنان هو الذي يبرز دائماً كإصبعٍ متقرِّح. وعادةً تجري قصةٌ، مصحوبةٌ بأسماءٍ عُظمى، تحكي عن المِحَن، والبلايا، وسوء الفهم القاسي. إن كلمة عبقري بالنسبة إلينا نحن الغربيين يحيط بها شيءٌ رهيب. **العبقري**! أو اللا مُتكيِّف ؛ **العبقري**، الذي يموتُ في المجرور أو في المنفى، أو على الخازوق.

صحيحٌ أنَّ لديَّ أسلوباً في إغاظة أصدقائي الحميمين حين أُفرِطُ في مديح مزايا أناسٍ آخرين. وقد أكَّدوا على أني أفعلُ ذلك للتباهي، وأني فقط أتظاهرُ بأني أستحسِنُ وأحترمُ أعمالَ فنانين غرباء وأنَّ هذا أسلوبي في توجيه الانتقاد الشديد إلى شعبنا، مبدعينا نحن، ولم يقتنعوا بأني أستطيعُ أن أُبدي إعجابي بالغريب، والأجنبي وغير المألوف في الفن على الفور، وأنَّ الأمرَ لا يتطلَّبُ أي استعدادٍ، أو استهلال، أو معرفة بتاريخ نشوئهم. " ما معنى هذا؟ ماذا يحاولون أن يقولوا؟ ". هكذا سخروا وتهكَّموا، وكأنَّ التفسيرات تعني أي شيء. وكأني أهتم بما تعني.

فوق هذا كله، ما كان يزعجني هو الإحساس بالوحدة والعُقم الذي رافقَ كوني فناناً. وحتى الآن من رحلة حياتي لم أقابل إلا كاتبَين يمكنني أن أقول إنهما فنانان، وهما: جون كوبر بويز وفرانك هاريس. الأول عرفتُهُ عبر حضور محاضراته؛ والثاني عرفته من خلال دوري كخيّاط تجاري، الصبي، بعبارة أخرى، الذي يقومُ بتسليم ملابسه، الذي يساعده في ارتداء بنطاله. أكانَ خطأي، ربما، أني بقيتُ خارج الدائرة؟ كيف كان لي أن أقابل كاتباً آخر، أو رساماً أو نحاتاً؟ هل أقتحمُ عليه مُحترفِه، وأقول له إني أنا أيضاً أتوقُ إلى الكتابة، والرسم، والنحت، والرقص وما إلى ذلك؟ أين يجتمع الفنانون في مدينتنا الكبرى الشاسعة؟ قالوا، في منطقة فيليج. لقد عشتُ في الفيليج، وتجولت في شوارعها على مدى ساعات، وزرتُ مقاهيها وصالات الشاي، ومعارضها الفنيّة ومحترفاتها، ومحلات بيع الكتب، وحاناتها، ومرابعها الليلية، والمرابع السريّة. نعم، لقد شققتُ طريقي بصعوبة في إحدى الحانات الحقيرة،

twitter @baghdad_library

المزدحمة بشخصياتٍ مثل ماكسويل بودنهايم، ساداكيتشي هارتمَن، وغويدو برونو، لكنني لم أُصادف أشباه دوس باسوس، أو شروود أندرسُن، أو والدو فرانك، أو إ.إ كمنغز، أو ثيودور درايزر أو بن هشت. لم ألمح حتى شبحاً شبيهاً بأو. هنري. أين يجتمعون؟ بعضهم كان قد رحلَ إلى الخارج، ويعيشُ حياةً سعيدةً كمنفيين أو مُرتدّين. لم يكونوا يفتِّشون عن فنانين آخرين، وحتماً ليس عن مبتدئين أغرار من أمثالي. وكم كان شيئاً رائعاً لو أني، في تلك الأيام التي كانت تعني لي الكثير، تمكّنتُ من مقابلةِ ثيودور درايزر والتحدُّث معه، أو مع شروود أندرسن، الذي أعبده! ربما كان لدى كلٍ منا ما يقوله للآخر، وأنا الغرّ حينئذٍ. ربما كنتُ سأستمدُّ الشجاعة لأبدأ الكتابة في وقتٍ مبكِّر أكثر - أو أنْ أهربْ، سعياً وراء مغامرة في أراضٍ أجنبية.

أكانَ الحياءُ، أم الخوف، أم الافتقارُ إلى الثقة في النفس ما عَزَلَني وأبقاني وحيداً على امتداد تلك السنوات العقيمة؟ ثم قفزتْ حادثةٌ مضحكةٌ إلى ذهني. ففي فترةٍ ما كنتُ ومونا نقومُ بجولة، نبحثُ عَبَثاً عن شيءٍ جديد ومثير، عن أي شيء يوفِّر لنا التسلية، وذات ليلة ذهبنا لحضور محاضرة في مدرسة راند. كانت واحدة من تلك الأمسيات ذات الطابع الأدبي، التي يُطلَبْ من الحضور الإدلاء بآرائهم عن هذا المؤلف أو ذاك. وربما في تلك الأمسية كنا قد استمعنا إلى محاضرةٍ حول كاتبٍ معاصر يُقالُ عنه " ثوري ". ويبدو لي أنَّ هذا ما فعلناه. ذلك أني أدركتُ فجأةً، حين وجدتُني أنهضُ واقفاً وأتكلَّم، أنَّ ما كنتُ أقوله لا صِلةَ له بما جرى من قبل، على الرغم من أني ذُهِلتُ - فقد كانت تلك هي

المرة الأولى التي أنهضُ فيها وأتكلّم على الملأ، حتى في جوٍ غير رسمي كذاك - لكني كنتُ واعياً، أو شبه واعٍ، أنّ مشاهديَّ كانوا كالمنوَّمين مغناطيسياً. استطعت أن أشعر، بدلَ أن أرى. وجوههم المضطربة كانت تتوتَّر لتلتقط كلماتي. كانت عينايَ تتركَّزان أمامي مباشرةً على الشكل الواقف خلف المِقرأ الذي كان يغفو على مقعده، مُحدِّقاً إلى الأرض. كما كنتُ أقول، كنتُ في حالةِ ذهول تام ؛ لم أدرِ ماذا كنتُ أقول ولا إلامَ سيقودني كلامي. رحتُ أتدفَّق، كما يحدثُ للمرء وهو في حالة نشوة. وعمَّ كنتُ أتكلم؟ عن مشهدٍ في إحدى روايات هامسُن، شيء بخصوص المختلس النظر. أتذكَّر هذا لأنه لدى ذِكر الموضوع، ولعلني فصَّلتُ في إيراد المشهد، صَدَرَ ضحك مكبوت عن الجمهور تبعه مباشرة صمتٌ دلَّ على انتباهٍ مستغرق. وحين انتهيت ضجّتْ القاعة بالتصفيق ومن ثم ألقى رئيس المراسم خطاباً إطرائياً عن حُسن الحظ الذي صادفوه بسماعهم هذا الضيف غير المدعو، وهو كاتبٌ دون شك، على الرغم من أنه يأسف لأنه لا يعرف اسمي، وما إلى ذلك. وعندما تفرَّقَ الجمع قفزَ عن منصَّته واندفعَ مُقترباً مني ليُهنِّئني من جديد، وليسألني عن اسمي، وماذا كتبت، وأين أعيش، الخ الخ. وطبعاً كان جوابي غامضاً ومُلتبساً. حينئذٍ كان الرعبُ قد تولاّني ولم أفكِّر إلا في الهروب. لكنه تشبَّثَ بي من الكُمّ حين هممتُ بالرحيل، وقال لي بجدّيةٍ كاملة - وكم صُعقتُ لذلك! - " لماذا لا تتولى أنت أمر هذه اللقاءات؟ أنت أفضل تسلُّحاً في هذا المجال مني. إننا بحاجةٍ إلى شخصٍ مثلك، يستطيع أن يُلهِب الحماس "

غمغمتُ قائلاً شيئاً، ربما أعطيتُه وعداً ضعيفاً، وشققتُ طريقي نحو

twitter @baghdad_library

المخرج. وفي الخارج التفتُّ إلى أومارا وسألته " ماذا قلتُ، هل تذكُر؟ "

رماني بنظرةٍ غريبة، متسائلاً دون شك إن كنتُ أتصيَّدُ مديحاً.

قلت " لا أذكر. فمنذ أن نهضتُ واقفاً على قدمَيّ لم أعُد موجوداً. كل ما أعرفه بشكلٍ مبهم هو أني كنتُ أتحدثُ عن هامسن "

قال " يا إلهي! خسارة! كنتَ رائعاً ؛ إنك لا تتردَّد لحظةً ؛ كانت الكلمات تكرُّ من فمك "

" كل ما أودُّ أن أعرفه، هل كان لكلامي معنى "

" له معنى؟ يا رجل، كنتَ تكادُ تبلغ جودة بويز "

" كفى، كفى، دعكَ من هذا! "

قال " أنا جادّ، هنري "، ونضَحَتْ الدموعُ من عينيه. " يمكنُ أن تصبحَ مُحاضِراً عظيماً. لقد سحرتهم، وصُعِقوا أيضاً، أعتقد أنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معك "

" أكنتُ جيداً إلى هذه الدرجة؟ ". كنتُ أدركُ ببطءٍ ما الذي حدث.

" لقد قلتَ الكثير قبل أن تباشرَ كلامك عن هامسن "

" أحقاً فعلتُ؟ مثل ماذا، مثلاً؟ "

" يا إلهي، لا تطلب مني أن أعيدَه على مسمعك. لا أستطيعُ. بدا أنكَ طرقتَ كل المواضيع. حتى أنك تكلَّمتَ عن الله قليلاً "

" لا! لا أذكر أياً من هذا ؛ نسيته تماماً "

قال "ما الفرق؟ ليتَ في استطاعتي أن أنسى وأتكلَّم بتلك الطريقة"

*

تلك كانت الحادثة. تافهة، لكن مُلهمة. لم ينتج عنها أي شيء. لم

أحاول بعد ذلك أبداً، ولا حلمتُ، أن أفتح فمي أمام جمهور من الناس. فإذا ما حضرت محاضرة، وقد فعلتُ مرات عِدة في تلك الفترة، كنتُ أجلسُ مفتوح العينين، والفم، والأذنين، مبهوراً، مستسلماً، وليّناً ومطواعاً كأي شخص من حولي. ولا يخطر في بالي أبداً أن أقفَ وأطرح سؤالاً، وأقلّ من ذلك أن أُدلي برأيٍ نقديّ. كنتُ أحضَر لأتعلّم، لأنفتح. لم أقُل لنفسي أبداً - " أنتَ أيضاً تستطيع أن تقف وتُلقي خطاباً. أنت أيضاً يمكنك أن تجعل الجمهور يتمايلُ من قدرات فصاحتك. أنت أيضاً تستطيع أن تنتقي كاتباً وتُسهِب في استعراض بأسلوبٍ مذهل ". كلا، لم يخطر لي أيٌ من هذه على ذهني. أما قراءة كتاب، فنعم، قد أرفع عينيّ عن الصفحة بعد الانتهاء من إحدى الفقرات الرائعة، وأقول لنفسي: " أنت أيضاً تستطيع. لقد فعلتَ هذا من قبل، في الواقع. لكنك لا تفعله كثيراً ". وأواصلُ القراءة، أنا الضحية المذعنة، التلميذ الشديد التوقّ. كنتُ التلميذ المُطيع بحيث، عندما تحين الفرصة الملائمة، يتوفَّر المزاج المناسب، كان في إمكاني أن أشرح، وأحلّل وأنتقد الكتابَ الذي انتهيتُ من قراءته للتو وكأني أنا الذي ألّفه، دون أن أستخدم كلماته هو بل أستخدمُ صورةً زائفةً لها وزن وتوحي بالاحترام. وفي تلك المناسبات دائماً يضربني السؤال التالي - " لِمَ لا تؤلّف كتاباً خاصاً بك؟ "، وعلى الأثر أطبقُ فمي كسمكة، أو أقول إلى مهرِّج - أو أفعل أي شيء من شأنه أن يبخّ التراب في عينيّ. كنتُ دائماً أولّد في حضور الأصدقاء والمعجبين، أو حتى في المؤمنين بي، إحساساً بأني كاتب واعد، لأنه كان دائماً سهلاً عليّ أن أخلق " مؤمنين ".

twitter @baghdad_library

ولكن حين أكونُ وحيداً، أراجعُ كلماتي وإنجازاتي باتّزان، يتملّكني دائماً إحساسي بأني مبتور، وأقول لنفسي " إنهم لا يعرفونني "، وأعني بذلك أنهم لا يعرفون ما أنا عليه الآن ولا ما يمكن أن أصبح عليه لاحقاً. كانوا مُعجَبين بالقناع. أنا لم أُسمِّ الأمرَ هكذا، ولكن هكذا كنتُ أفكر في مقدرتي على ترك أثرٍ في الآخرين. لم أكن أنا مَنْ يفعل ذلك، بل persona (قناع) كنتُ أعرفُ كيف أتلبّسه. في الواقع، كان أحياناً شيئاً يمكن لأي شخص يتحلّى بقدرٍ قليلٍ من الذكاء وحسّ التميُّز أن يتعلّم كيف يضعه. بعبارةٍ أخرى، خِدَع القرود. ومع ذلك، على الرغم من أني نظرتُ إلى هذه العروض على هذا الأساس، غير أني كنتُ أحياناً أتساءلُ إنْ كنتُ أنا القابع خلف تلك المظاهر الغريبة.

تلك كانت عقوبة مَنْ يعيشُ وحيداً، ويعملُ وحيداً، لا يُقابلُ روحاً رقيقةً، ولا يلامسُ حوافَ تلك الدائرة الداخلية السرّية التي يمكنُ ضمنها إخراج تلك الشكوك والصراعات التي نهشتني كلها إلى العراء، ومشاركتها، ومناقشتها، وتحليلها، وإذا لم يتمّ التخلُّص منها، فعلى الأقلّ تُنشَر على الملأ.

تلك الشخصيات الغريبة المأخوذة من عالم الفن - عالم الرسامين، والنحاتين، وخاصة الرسامين - ألم يكن طبيعياً أن أشعر بألفة معها؟ كانت أعمالهم تتحدث إليّ بأسلوبٍ سرّي. ولو أنها استخدمت الكلمات لأُصِبتُ بالحيرة. ومهما كان عالمهم بعيداً عن عالمنا فإنَّ المقوّمات هي نفسها: الصخور، الأشجار، الجبال، المياه، المسرح، العمل، اللعب، الأزياء، العبادة، الشباب والشيخوخة، البغاء، الغنج، التنكُّر، الحرب،

المجاعة، التعذيب، المكيدة، الرذيلة، والشبق، والمتعة، والحزن. وكانت الكتابات التيبيتيّة، بمندلاتها[١٣٣]، وآلهتها، وشياطينها، ورموزها الغريبة، وألوانها الباهتة مع مرور الزمن، مألوفة لدى، وتشكّل جزءاً مني، وكأنها حوريات، وجداول وغابات، رسمها رسام أوروبي.

ولكن أقرب شيءٍ إليّ في الفن الصيني، أو الياباني، أو التيبيتي، كان هذا الفن الهندي المولود من الجبل نفسه. (كأنَّ الجبالَ حَبِلَتْ بالأحلام وأنجبتْ أحلامها، مستخدمةً الكائنات البشرية المسكينة التي أفرغوها لتُصبح أدوات). كانت طبيعةً رهيبة، إذا صحَّ أن نتكلّم عن العظمة هكذا، نعم، الطبيعة الرهيبة لتلك المخلوقات التي أكنُّ لها كل الإعجاب، وتُشبِع شيئاً من الجوع غير المُعلَنْ في كياني. وحين أتنقَّل بين أقراني من الناس لا أتأثّر بأيٍ من منجزاتهم؛ لا أشعرُ أبداً بوجود أي إلحاح ديني عميق، ولا بأي حافز جمالي عظيم ؛ لم تكن هناك أي هندسة معمارية سامية، ولا رقصات مقدسة، ولا طقوس من أي نوع. كنا نتحرَّك في حشدٍ، بقصد إنجاز شيءٍ واحد - أن نجعل الحياة أسهل. الجسور العظيمة، والسدود الضخمة، وناطحات السحاب الشاهقة، كانت تُشيعُ فيَّ البرودة. وحدها الطبيعة كان في استطاعتها أن تغرسَ حسَّاً بالخوف. وكنا نحن نشوِّه وجه الطبيعة عند كل منعطف. ومهما اندفعتُ لأطهِّرَ الأرض، أعودُ دائماً خالي الوفاض. لا شيء جديد، لا شيء غريب الأطوار، لا شيء أجنبي، والأسوأ من ذلك، لا شيء يستحقُّ الانحناء له احتراماً، لا شيء يستحق التبجيل. إنني وحيد في أرضٍ الكلُّ فيها يتقاذفون كالمجانين. وما كنتُ أتوقُ إليه هو الصلاة والعبادة ؛ ما كنتُ

twitter @baghdad_library

بحـاجة إليـه هو رفـاقٌ يشـعرون بمثـل ما أشـعر. ولكـن لم يكن هناك مـا يسـتـحقُ الصـلاة لأجله وعـبادته، ولا رفـاقٌ يحـملون مـثـل هذه الروح. لم يكن هناك غـيـر غـابٍ من الفـولاذ والحـديد، من الأسـهم والسندات، من المحاصيل والغِلال، من المصانع، والمعامل وأفنيةِ تجميعِ الأخشاب ؛ غابٌ من الضجر، والمنافع العديمة النفع، والحب المجرَّد من الحب...

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

بعد ذلك ببضعة أيام، وصلني هاتفٌ من ماكغريغور. " أتدري يا هِنْ؟ "

" كلا، ماذا؟ "

" لقد عادت. وهي وحدها أيضاً. لا أدري ماذا ألمَّ بها. هلاّ ذهبت لمقابلتها؟ "

" لا. في الحقيقة لا تكاد تُتاحُ لي فرصةٌ للتفكير فيها "

" يا ابن الحرام! لكنكَ جَلَبتَ لي الحظ الحَسَن، في كل الأحوال. أو بالأحرى تصوّرتك فَعَلَتْ ذلك. نعم، إنَّ تلك المطبوعات اليابانية التي تُعلّقها على جدارك. لقد ذهبتُ واشتريتُ منها اثنتين، بإطارَين جميلَين، وأرسلتهما إليها. وفي اليوم التالي اتَّصَلَتْ بي هاتفياً وكانت فرحةً جداً. قالت إنهما بالضبط ما كانت تتوقُ إلى حيازته. فقلتُ لها إنك أنتَ ألهمتني بفعل ذلك. وأصاخت سمعها. أعتقد أنها دُهشَتْ لأنَّ لي صديقاً يهتمُّ بأي قدرٍ بالفن. والآن تريد أن تقابلك. فقلتُ لها إنك رجلٌ مشغول، لكني سأتصل بك وأرى إنْ كان في استطاعتنا أن نأتي إلى منزلك ذات أمسية. فتاةٌ غريبة، أليس كذلك؟ على أي حال، هذه فرصتك لترتِّبْ الأمور لي. ارمِ الكثير من الكتب في أرجاء المكان؛ من

النوع الذي لا يمكنُ أن أقرأه، كما تعلم. إنها معلّمة مدرسة، تذكَّر. والكتب تعني لها الكثير... حسنٌ، ما رأيك؟ ألستَ سعيداً؟ قُلْ شيئاً!"

" أعتقد أنَّ هذا رائعٌ. انتبه، وإلاّ تزوَجتَ من جديد "

"لا شيء يمكن أن يجعلني أسعد من هذا. ولكن يجب أن أتصرَّف بهدوء. لا تستعجلها. هي لا تحبّ هذا! وكأنك ستحرّك جداراً من الحجارة"

ساد صمتٌ قصير. ثم قال - " أتسمعني، هِنْ؟ "

" طبعاً أسمعك "

" أودُّ أن أحصلْ منك على قليلٍ من المعلومات قبل أن أراك... أقصد، قبل أن أُحضِر غيلدا. فقط بعض الحقائق عن الرسامين واللوحات. أنت تعرفني، أنا لا أهتمّ البتة بالتعرُّف إلى هذه الأشياء. فمثلاً، يا هن، ماذا تعرف عن بروغل - أكان أحد العظِام؟ يُخيَّلُ إليّ أني شاهدتُ أعماله من قبل - في محلٍ لبيع الإطارات وفي محلات بيع الكتب، وتلك اللوحة التي لديك، التي تمثِّل فلاحاً يحرثُ الحقل... كان يقفُ فوق تل، كما أذكُر، وهناك شيء يسقطُ من السماء... رجلٌ، ربما... ينطلقُ نحو المحيط. أنت تعرف التي أعنيها. ما اسمها؟ "

" عنوانها " **طيران إيكاروس** "، أعتقد "

" طيران مَنْ؟ "

" **إيكاروس**. الرجل الذي طارَ باتجاه الشمس لكنَّ الجناحين ذابا، أتذكُر؟ "

" طبعاً، طبعاً. إذن الأمرُ هكذا؟ أعتقد أنَّ من الأفضل أنْ أُعرِّج عليك ذات يوم لألقي نظرةً على تلك الصور. يمكنك أن تُثقِّفني. لا أريدُ أن أبدو كالحمار حين تبدأ بالتحدُّث عن الفن "

twitter @baghdad_library

قلت " حسن. تعالَ في أي وقت، ولكن تذكَّر، لا تُعطِّلني طويلاً "

" قبل أن تُنهي المكالمة، يا هِن، أعطني عنوان كتابٍ يصلحُ أن أقدِّمه هدية لها. شيء نظيف - وشاعري. هل يخطر على بالك اسمٌ واحد على وجه السرعة؟ "

" نعم، وهو بالضبط ما يناسبها: إنه " **قصورٌ خضراء** " من تأليف و.هـ. هدسن. سوف تحبه "

" أواثقٌ أنت؟ "

" كل الثقة. اقرأه أنت أولاً "

" كنتُ أودُّ ذلك، يا هِنْ، ولكن لا وقتَ لدي لذلك. بالمناسبة، أتذكُر لائحة الكتب التي زوَّدتني بها... قبل نحو سبع سنوات؟ لقد قرأتها ثلاث مرات حتى الآن. أنت تفهم ما أعني "

أجبت " أنت ميؤوسٌ منك "

" هناك أمرٌ واحدٌ آخر، يا هِنْ. كما تعلم، موسم الأجازات سيحينُ قريباً، وأفكِّرُ في أن أصحبها معي إلى أوروبا. أي إذا لم أُغضِبها حتى ذلك الحين. ما رأيك؟ "

" فكرةٌ رائعة. قُمْ برحلة شهر عسل "

*

قالت مونا " أراهن على أنه كان ماكغريغور "

" صحّ. الآن هو يُهدِّد بإحضار صاحبته غيلدا ذات مساء "

" يا للمُصيبة! لماذا لا تقول لصاحبة المنزل أن تقول حين يتَّصل في المرة القادمة إنك خارج المنزل؟ "

" لن ينفع هذا كثيراً. سوف يأتي إلى هنا ليرى إنْ كانت تكذب. إنه يعرفني. لقد وقعنا في الفخ "

كانت تتهيّأ للمغادرة - لديها موعدٌ مع بوب. الرواية أصبحتْ تقريباً في طور المنتهية، وما يزال بوب يعتقد أنها رائعة "

" قريباً سيذهب بوب ليقضي أجازته في ميامي "

" هذا جيد "

" كنتُ أفكِّر، يا فال... كنتُ أفكِّرُ في أنه ربما يمكننا أن نأخذ أجازة نحن أيضاً ما دامَ هو بعيد "

قلت " ونذهب إلى أين مثلاً؟ "

" أوه، إلى أي مكان. ربما إلى مونريال أو كيبيك "

" سيكونُ الطقسُ متجمِّداً هناك، أليس كذلك؟ "

" لا أعلمْ. بما أننا سنذهب إلى فرنسا فقد رأيتُ أنكَ ربما ترغبُ في أن تتذوّق أولاً طعمَ الحياة الفرنسية. فصل الربيع يقترب، وأعتقد أنَّ الطقسَ لن يكون بارداً جداً هناك "

لم نعُد إلى ذِكر أمر الرحلة مدة يومٍ أو يومين. في تلك الأثناء كانت مونا تقومُ ببعض الأبحاث. وحصلتْ على كل المعلومات الخاصة بكيبيك. ورأتْ أني سأحبّها أكثر من مونريال. قالت إنَّ الصبغة الفرنسية فيها أقوى. والفنادق الصغيرة فيها ليست مُكلِفة كثيراً "

بعد ذلك ببضعة أيام بُتَّ الأمرُ ؛ سوف تستقلّ القِطار المتوجه إلى مونريال وأذهب أنا سيراً على قدميّ. وسوف أقابلها عند محطة القطار في مونريال.

كان غريباً أن أعودَ إلى الطريق من جديد. كان الربيع قد حلَّ لكنَّ الجوَّ ظلَّ بارداً. وبوجود نقود في جيبي لم أقلق بشأن مَنْ يقلّني على الطريق. فإذا لم ينفع الأمر في استطاعتي دائماً أن أقفز على متن حافلة

twitter @baghdad_library

عامة أو قطار. لذا وقفتُ هناك على الطريق العامة خارج باترسن ن. جـ، وقد صمَّمتُ على أن أستقل أول سيارة متجهة شمالاً، ولا يهمّ إنْ كان مسارها متعرجاً أم مستقيماً.

استغرق مني ما يُقاربُ الساعة الحصول على أول توصيلة. وقد تقدَّمتُ بهذا مسافة عشرين ميلاً. والسيارة التالية تقدَّمتْ على مسافة خمسين ميلاً. بدتْ منطقةَ الريف باردة وكئيبة. لم أكن أحصل إلا على قطع مسافات قصيرة. ولكن كان لدي الكثير من الوقت. وبين حين وآخر كنتُ أسير مسافةً على قدَمَيّ، لكي أدرِّب أعضائي. لم أكن أحمل متاعاً يُذكَر - فرشاة أسنان، وموسى للحلاقة وغيار ملابس داخلية. كان الهواء القارس البرودة مُنشِّطاً. وكان السير على القدمَين وتركُ السيارات تتجاوزك أمراً ممتعاً جداً.

سرعان ما تعبتُ من السير على قدمَيّ. لم أكن أشاهدُ إلا المزارع. بدت لي أشبه بالمقابر. كان لابدَّ لي أن أفكِّر في ماكغريغور وصاحبته غيلدا. أعتقد أنَّ اسمها كان مناسباً لها. وتساءلتُ إنْ كان ماكغريغور قد سبَّبَ انهيارَ أعصابها. يا لها من طريقة خالية من السرور لانتزاع الحُب!

توقَّفتْ إحدى السيارات فقفزتُ إليها، دون السؤال عن وجهَتها. كان السائق مجنوناً، متديِّناً مجنوناً. لم يكفّ عن الكلام. وأخيراً سألتُه إلى أين هو متجه، فأجاب " إلى الجبال البيضاء ". كان يملكُ مقصورةً فوق الجبال. كان واعظاً محلّياً.

سألته " هل يوجد فندق قريب من هنا؟ "

كلا، ليستْ لديهم فنادق، أو أنزال[١٣٤]، ولا أي شيء. ولكن سوف يسعده أن يستضيفني ؛ لديه زوجة وأربعة أطفال. أكَّدَ لي أنهم جميعاً مُحبّون لله.

شكرته، ولكن لم تكن لديّ أدنى نيّة في تمضية الليل معه ومع عائلته. وقرَّرتُ أن أترجَّل عند أول بلدة نصلها. لم أستطع أن أتخيَّل نفسي راكعاً أصلي مع ذلك الأبله.

قال، بعد فترةٍ من الصمت المرتبك، " يا سيد، أعتقد أنك أبعد ما تكون عن مخافة الله، أليس كذلك؟ ما ديانتك؟ "

أجبتُ " لا ديانة لي "

" هذا ما حسبته. وأنت لا تشرب، أليس كذلك؟ "

أجبتُ " قليلاً. بيرة، نبيذ، براندي... "

" الله شفوقٌ بالآثمين يا صديقي. لا أحد يُفلتُ من عينه "، وانخرطَ في حديثٍ طويل عن السراط المستقيم، وعاقبة الإِثم، وعَظَمَة الاستقامة، وما إلى ذلك. وقد سرَّه أن يعثُر على آثمٍ مثلي، لأنَّ ذلك زوَّده بمادةٍ تشغله.

قلت، بعد أن انتهى من إحدى خُطَبه الرنانة، " يا سيد، أنتَ تُضيِّع وقتي. أنا آثم لا أمل يُرجى منه ؛ ميؤوس مني تماماً ". وهذا القول زوَّده بمزيدٍ من الزاد.

قال " لا أحد دون فضل الله ". وبقيتُ أهمهم وأصغي. وفجأةً بدأتْ تُثلج، واكتسى الريف كله بالثلج. قلت لنفسي " الآن أصبحتُ تحت رحمته.

سألته " هل البلدة التالية ما تزال بعيدة؟ "

قال " بضعة أميال أخرى "

قلت " جيد، إنني بحاجة ماسّة إلى التبوُّل "

" تستطيع أن تفعل هنا، يا صديقي. سأنتظر "

قلت " أحتاج إلى أنْ أفعل الأخرى أيضاً "

حين سمع هذا زاد من سرعته. " سوف نصل في غضون بضع دقائق، يا سيد. سوف يهتمّ الله بكل شيء "

twitter @baghdad_library

" حتى بأحشائي؟ "

قال برصانة " حتى بأحشائك. إنَّ عينَ الله لا تغفل "

" لنفرض أنَّ الوقودَ نفد، فهل سيجعل الله السيارة تسير رُغمَ ذلك؟ "

" يا صديقي، إنَّ في استطاعة الله أن يجعل السيارة تسير من دون وقود - لا شيء مستحيل بالنسبة إليه - ولكن هذا ليس أسلوب الله. الله لا يخرقُ أبداً قوانين الطبيعة؛ إنه يعمل معها وعبرها. لكنَّ الله سوف يفعلُ هذا، إذا ما نفَدَ الوقودُ منا وكان لابد لي من أن أتقدَّم: سوف يجدُ طريقةً ليوصِلَني إلى حيث أريد. وقد يساعدك أنت للوصول إلى حيث تريد أيضاً. ولكن بما أنك أعمى لا ترى طيبته ورحمته، فلنْ يخطر في بالك أنَّ اللهَ هو الذي ساعدك ". سكتَ لكي أستوعِبَ ما قال، ثم تابعَ قائلاً " ذات يوم انحصرتُ هكذا مثلك، وسط البرية، وكان لابدَّ من أن أتبرَّز على جناح السرعة، فلجأتُ إلى ظلِ أكَمَةٍ من الشجيرات وأفرغتُ أحشائي. ثم، وبينما كنتُ أرفعُ سروالي، لمحتُ ورقةً نقديةً بقيمة عشرة دولارات مُلقاة على الأرض أمامي مباشرة. لقد وضعَ اللهُ النقودَ هناك من أجلي ومن أجل أي شخص آخر. تلك كانت طريقته في إيصالي إليها؛ بدفعي إلى التبرُّز. لا أدري لماذا قدَّمَ لي هذه الخدمة، لكني ركعتُ وشكرتُه. وحين وصلتُ إلى المنزل وجدتُ زوجتي نائمة في السرير مع اثنين من أولادنا. كانوا مُصابين بالحمّى. وقد وفَّرَتْ لي النقود الدواء، وأشياء أخرى كنا بأمسّ الحاجة إليها... ها قد وصلنا إلى بلدتك يا سيد. لعلّ لدى الله ما يُريكَ إياه حين تُفرِغ أحشاءك ومثانتك. سوف أنتظرك هناك عند المنعطف، بعد أن أقومَ بالتسوُّق... "

مررنا بمحطةِ وقود. تبولّتُ، لكني لم أتبرّز. لم يكن هناك أي دليل على حضور الله في المرحاض ؛ لم أجد غير لافتة تقول: " أرجو أن تحافظ على نظافة المكان ". قمتُ بالتفافة حول المكان لكي أتجنّبَ لقاءَ مُخلِّصي وهرعتُ إلى أقرب فندق. كان الظلام قد ساد والبرد قارصاً. كان الربيع متأخراً كثيراً هنا.

سألتُ الموظَّف وأنا أكتب اسمي في السجل، " أين أنا ؟ أقصد، أي بلدة هذه ؟ "

قال " بتسفيلد "

" بتسفيلد ماذا ؟ "

أجابَ وهو يتفحَّصني ببرود واحتقار، " بتسفيلد، ماساتشوستس "

في صباح اليوم التالي استيقظت باكراً ومُشرقاً. والجيد في الأمر هو أنَّ السيارات كانت أقلّ عدداً وتفصل بينها مسافات، وبدا أنَّ لا أحد كان تواقاً إلى أخذ مسافر واحد زيادة. وبحلول الساعة التاسعة، وبسبب الأميال التي قطعتُها سيراً على قدميّ، شعرتُ بجوعٍ شديد. لحسن الحظ، كان الرجل الجالس إلى جاري في المقهى - لعلَّ الله وَضَعَه على دربي - متوجِّهاً تقريباً نحو الحدود الكندية. قال إنه يسعده أن يقلّني معه. كان أستاذاً في الأدب، كما اكتشفتُ بعد أن انطلقنا معاً. وكان جنتلماناً أيضاً. وأسعدني أن أُصغي إليه. كان يتكلّم وكأنه قرأ كل شيء ذا قيمة في اللغة الإنكليزية. تكلَّمَ مُطوّلاً عن بليك، وجون دَنْ، وتراهيرن[١٣٥]، ولورانس ستيرن[١٣٦]. تكلَّمَ عن براوننغ أيضاً، وهنري آدمز، وعن مقالة ميلتون Areopagitis (رسالة إلى البرلمان[١٣٧]). باختصار، كل شيء كان رائعاً.

twitter @baghdad_library

قلت " أعتقد أنك أنتَ نفسك ألّفتَ عدداً من الكتب "

قال " كلا، فقط اثنين " (مقرَّرات مدرسية). ثم أضاف " أنا أُعلِّمُ الأدبَ ؛ لا أصنعه "

بالقُرب من الحدود أنزلني عند محطة وقود يملكها صديقٌ له. أما هو فكان سينعطف إلى طريقٍ فرعية ويذهبُ إلى قريةٍ جبليّةٍ قريبة.

" سوفَ يحرصُ صديقي على أنْ نوفِّر لك توصيلة صباح يوم غد. تعرَّف عليه ؛ إنه شابٌ مثيرٌ للاهتمام "

كنا قد وصلنا إلى هذه النقطة بالضبط قبل موعد الإقفال بنصف ساعة وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ صديقَه هذا شاعر. تناولتُ طعام العشاء معه في نُزُلِ صديقٍ ودود ثم رافقني إلى بيتٍ لإيواء الشباب لقضاء الليل.

عند ظهيرة اليوم التالي وصلتُ إلى مونريال. اضطررتُ إلى انتظارِ بضع ساعات حتى وصول القطار. كان الجوّ قارصَ البرد. قلتُ في نفسي، تماماً كما في روسيا. وبشكلٍ عامّ كانت مدينةً كئيبة. لجأتُ إلى أحد الفنادق، وجلستُ في البهو طلباً للدفء، ثم انطلقتُ عائداً إلى المحطة.

قالت مونا، ونحن داخل إحدى سيارات الأجرة، " هل أعجبكَ المكان؟ "

" ليس كثيراً. الجو بارد ؛ إنه يتغلغلُ إلى نقيّ العظام "

" فلنذهب غداً إلى كيبيك، إذن "

تناولنا طعامَ العشاء في مطعمٍ إنكليزي. شيءٌ فظيع. كان الطعامُ أشبه بجيفة متعفِّنة سُخِّنَتْ قليلاً.

قالت مونا " سيكونُ الوضعُ أفضل في كيبيك. سوف ننزل في فندقٍ فرنسيّ "

في كيبيك كان الثلج يتكدَّسُ أكواماً عالية وقد تحوَّلَ إلى جليدٍ قاس. وكان التجوُّل في الشوارع أشبه بالسير بين الجلاميد، فحيثما نتجه يبدو كأننا نصادفُ أسراباً من الراهبات أو الكهنة، تبدو عليهم الكآبة ويجري الثلجُ في عروقهم. كيبيك أيضاً لم تعجبني كثيراً. لم يكنْ الأمرُ ليختلف لو أننا ذهبنا إلى القطب الشمالي. يا له من جوٍ للاسترخاء!

لكنَّ الفندقَ كان أليفاً ويُشيعُ فيه جو المرح. وأي وجبات! أهو كذلك في فرنسا؟ سألتُها. وكنتُ أعني الطعام. قالت إنه أفضل في باريس. إلا إذا تناولَ المرءُ طعامه في مطاعم راقية.

ما أوضحَ ذِكرى تلك الوجبة الأولى! ما ألذَّ الشوربة! وأي لحم عجل ممتاز! وأي أجبان! ولكنَّ أفضلها جميعاً كانت أنواع النبيذ.

أذكرُ النادلَ وهو يناولني carte des vins (لائحة بأنواع النبيذ) وكيفَ تصفَّحتُها بعناية، وقد تولتني الحيرة التامة جرّاء فرصة الاختيار المعروضة عليّ. وعندما حان وقت الطلب عجز لساني عن النطق. رفعتُ بصري إليه وقلت " هل لكَ أن تنتقي صنِفاً لنا؟ إنني لا أفهم شيئاً في أصناف النبيذ "

أخذ لائحة أصناف النبيذ وتفحَّصها، وبدأ ينظر إليّ تارةً، وتارةً أخرى إلى مونا، ثم يعود إلى اللائحة. بدا أنه يركِّزُ عليها تركيزاً شديداً ويفكِّرُ، كمَنْ يتفحَّصُ لائحة سباق.

قال " أعتقد أنه يجب أن تطلبا **ميدوك**. إنه خفيف، وجاف من بوردو، وسوف يُبهِج حاسّة التذوُّق عندكما. إذا أعجبكما، فسوف نقومُ غداً بتجريب صنف آخر "، وانطلقَ برشاقة، مُشرِقاً كملاك.

twitter @baghdad_library

على مائدة الغداء اقترحَ نوعاً آخر من النبيذ - **الآلجو**. قلت في نفسي، إنه نبيذٌ عُلويّ. تبعَه في موعد الغداء التالي نبيذ فوفراي. وعلى العشاء، إذا لم نتناول ثمار البحر كنا نشرب أصناف النبيذ الأحمر - **بومار، نوي، سان-جورج، كلو-فوغو، ماكون، مولان-أ-فان، فلوري،** وما إلى ذلك. وبين حينٍ وآخر كان يُقحِم بينها **بوردو** القويّ النكهة المخليّ، **وشاتو المُعتَّق**. كان بمثابة ثقافة. (ذهنياً كنتُ أتصدَّق عليه بإكراميّة ضخمة). أحياناً كان هو نفسه يتناول رشفةً، لكي يتأكَّد من أنه على المستوى المطلوب. ومع النبيذ كان، طبعاً، يُقدِّمُ أروع الاقتراحات حول ما يجب أكله. جرّبنا كل شيء. وكل شيء كان لذيذاً.

بعد العشاء، كنا عادةً نجلسُ على الشرفة (الداخليّة)، ونلعب الشطرنج مع مشروبٍ مُعطَّر ممتاز أو براندي. أحياناً كان الخادمُ ينضمّ إلينا فنسترخي على مقاعدنا ونصغي إليه وهو يحكي لنا عن la doulce France (فرنسا الجميلة). وأحياناً كنا نستأجر مركبةً يجرُّها حصان، ونقومُ بجولةٍ في الظلام، متدثّرين حتى الاختناق بالفرو والملاءات. بل إننا في إحدى الليالي حضرنا القُدّاس، إرضاءً للخادم.

في العموم كانت أشدّ العُطل التي قضيتها في حياتي كسلاً، وهدوءاً. وأدهشني إنَّ مونا قَبلَتها قبولاً حَسَناً.

ذات يوم قلت " سأجنُّ إذا لم أقضِ البقية الباقية من حياتي هنا "

فأجابتْ " هذا المكان لا يشبه فرنسا، إلاّ في الأطعمة "

قلتُ "وهو ليس أميركا أيضاً. إنه أرضٌ مشاع. يجب أن يحتلّها الإسكيمو"

مع اقتراب نهاية الأجازة - قضينا هناك عشرة أيام - كنتُ توّاقاً إلى العودة إلى كتابة الرواية.

سألتني " هل ستُنهيها بسرعة الآن يا فال؟ "

أجبتُها " بسرعة البرق "

" عظيم! إذن في استطاعتنا أن نرحل إلى أوروبا "

قلتُ " كلما أسرعنا كان أفضل "

*

حين عُدنا إلى بروكلن كانت الأشجارُ كلها قد أزهرَتْ. لابد أنَّ الجوَّ كان أشد دفئاً بمقدار عشرين درجة عمّا كان في كيبيك.

رحَّبَتْ بنا السيدة سكولسكي بحرارة. قالتْ " اشتقتُ إليكما "، وتبِعَتنا حتى الباب. قالتْ " أوه، لقد نسيت. صديقك ذاك - اسمه ماكغريغور أليس كذلك؟ - جاء إلى هنا ذات مساء مع صديقته. في أول الأمر لم يصدِّقني، وعندما قلتُ له إنك ذهبتَ إلى كندا، هتفَ "مستحيل! ". ثم سألني إنْ كان يستطيعُ أن يرى غرفة مكتبك. لم أدرِ ماذا أقول له. كان يتصرَّف وكأنَّ رؤيته لغرفة صديقه أمرٌ غايةٌ في الأهمية. قال لي " يمكنكِ أن تثقي بي. أنا أعرفُ هنري منذ أنْ كان فتى". فاستسلمت، لكني لازمتُهما طوال فترة مكوثهما هناك. وعَرَضَ عليها الصوَر المعلَّقة على الحائط - والكتب. كان يتصرَّفُ وكأنه يحاولُ أن يُثيرَ إعجابها. ثم جلسَ على الكرسي وقال لها: " هنا يؤلِّفُ كتبه، أليس كذلك يا سيدة سكولسكي؟ "، ثم استرسلَ في حديثه عنك وكم أنتَ كاتب عظيم، وصديقٌ وفيّ، وما إلى ذلك. لم أدرِ ماذا أستنتجُ من سلوكه. وأخيراً دعوتهما إلى الطابق السفلي ليتناولا الشاي معي. أعتقدُ أنهما مكثا ما يُقاربُ الساعتين. وكان مُثيراً للاهتمام أيضاً... "

سألتها " عمَّ تحدث؟ "

twitter @baghdad_library

قالت " عن أشياء كثيرة، ولكن أعتقد أنَّ أغلب حديثه كان عن الحب. بدا مفتوناً بالفتاة "

" وهي هل تكلَّمَتْ كثيراً؟ "

" كلا، لم تنطق بأي كلمة. أعتقد أنَّ تصرفها كان غريباً. إنها غير ملائمة لرجلٍ مثله "

" أكانت جميلة؟ "

قالت السيدة سكولسكي " المسألة نسبيّة. بصراحة، وجدتُها عاديّةً جداً، تكادُ تكونُ بسيطة. وجامدة أيضاً. وهذا حيَّرَني. ماذا يجد في فتاةٍ كتلك؟ أهو أعمى؟ "

قالتْ مونا " إنه أحمق صِرف! "

قالت السيدة سكولسكي " يبدو عاقلاً تماماً "

قالت مونا " أرجوكِ يا سيدة سكولسكي، إذا اتَّصَلَ هاتفياً أو حتى إذا جاء إلى الباب، فاصنعي معروفاً وقولي له إننا لسنا هنا. قولي أي شيء، فقط لا تدعيه إلى الدخول. إنه وباء، مُضجِر؛ شخص تافه تماماً "

نظرَتْ السيدة سكولسكي مُستفهِمةً.

قلتُ " نعم، معها حق؛ إنه أسوأ من هذا، في الحقيقة إنه أحد أولئك الذين لا يخدمُ ذكاؤهم أي هدف. إنه ذكيّ بما يكفي ليكونَ محامياً، لكنه من النواحي الأخرى كلها ليس أكثر من أبله "

بدتْ السيدة سكولسكي محتارة. لم تكن متعوِّدة على سماع الناس يتكلمون بتلك الطريقة عن " أصدقائهم ".

قالت " لكنه تحدَّثَ عنك بودٍ شديد "

أجبتُ "لا فرق. إنه بليد الحسّ، لا يتأثَّر... سميك الجلد؛ هذه هي الحقيقة"

" حسن... كما تشاء يا سيد ميللر "، وتراجعتْ.

قلتُ " لم يعد لديّ أي أصدقاء ؛ لقد قتلتهم جميعاً "

شَهَقَتْ شهقةً قصيرة.

قالت مونا " إنه لا يعني هذا بالضبط "

قالت السيدة سكولسكي " أنا واثقة من أنه لا يمكن أن يعني ما يقول. يبدو كلاماً مُريعاً "

" إنها الحقيقة، أعجبتكِ أم لم تعجبكِ. أنا إنسانٌ غير اجتماعي على الإطلاق، يا سيدة سكولسكي "

أجابتْ " لا أصدِّقكَ، ولا السيد إسِّن سيصدِّق "

" سوفَ يكتشفُ ذات يوم. وهذا لا يعني أنه لا يعجبني، أنتِ تفهمين "

قالت السيدة سكولسكي " لا، لا أفهم "

قلت " ولا أنا "، وأخذت أضحك.

قالت السيدة سكولسكي " إنَّ فيكَ شيئاً من الشيطان، ألا توافقني، يا سيد ميللر؟ "

قالت مونا " ربما. ليس من السهل فهمه دائماً "

قالتْ السيدة سكولسكي " أعتقد أني أفهمه. أعتقد أنه خجِل من نفسه لأنه شديد الطيبة، والصدق، والإخلاص - وشديد الوفاء لأصدقائه"، والتفتتْ نحوي. " " حقاً يا سيد ميللر، أنتَ أشدّ المخلوقات البشرية وداً التي قابلتُها في حياتي. لا يهمني ماذا تقول عن نفسك - سوف أرى ما يُرضيني... بعد أن تُفرِغا الحقائب انزلا إلى الأسفل لتتناولا طعام العشاء معي، أنتما الاثنان "

twitter @baghdad_library

قلتُ، بعد أن انسحبَتْ "أترين كم هو صعبٌ جعلُ الناس يقبلون الحقيقة؟"

" أنتَ تحب أن تصدم الناس يا فال. هناك دائماً حقيقة فيما تقول، ولكن عليك أن تجعلها بغيضة "

" حسنٌ، أعتقد أنها لن تدعَ ماكغريغور يزعجنا بعد الآن، هذا أمرٌ واحدٌ جيد "

قالت مونا " سوف يلاحقك حتى قبرك "

" ألن يكونَ غريباً إذا ما قابلتُهُ مصادفةً في باريس؟ "

" لا تقُل هذا، فال! إنَّ مجرَّد التفكير في هذا كافٍ لإفساد رحلتنا "

" إذا أحضرها ذلك الرجل إلى باريس سوف يغتصبها. أما الآن فلا يستطيع أن يضع يده على مؤخرتها... "

" هلاّ نسينا أمرهما الآن، يا فال؟ إنَّ التفكير فيهما يُشيعُ القشعريرة في جسدي "

ولكن كان من المستحيل نسيانهما. وطوال فترة تناول طعام العشاء تحدثنا عنهما. وفي تلك الليلة حلمتُ بهما، وبلقائهما في باريس. في الحلم بدتْ غيلدا وتصرَّفَتْ كامرأةٍ لعوب، وتكلَّمتْ الفرنسية كأحد أبنائها، وكانت تجعلُ حياة ماكغريغور لا تُطاق بأساليبها الفاسقة. وناحَ قائلاً " لقد أردتُ زوجةً لا عاهرة! هلاّ أصلحتَ حالها يا هِنْ؟ "، وتوسل إليّ. فأخذتُها إلى قسيسٍ لكي تتطهَّر من خطاياها، ولكن الأمورَ تبدَّلَتْ ووجدنا أنفسنا في ماخورٍ وكانت غيلدا، الفتاة رقم واحد مطلوبةً إلى درجةٍ أننا لم نتمكَّن من الحصول على كلمةٍ واحدةٍ منها. وأخيراً صحِبَتْ

القسيس إلى الطابق العُلوي، وعلى الأثر طَرَدَتْها مدام الماخور وهي عارية تماماً، مع منشفة بإحدى يديها وقطعة صابون بالأخرى.

*

بعد بضعة أسابيع سوف أنتهي من الرواية. وبوب يفكِّرُ في ناشرٍ معيَّنٍ لينشرها ؛ أحد أصدقائه تعرَّفَ عليه في البلد العتيق بنفسه، حسب قول مونا. كان اللوطي سعيداً في تلك الأيام، لأنه كان يجمع المال من كلّ حدبٍ وصوب في سوق البورصة. بل لقد هدَّدَ بأنه سيذهبُ إلى أوروبا هو أيضاً، ربما مع مونا. (" لا تقلق، قال، عندما يحين الوقت لن يُفلِتَ مني ". " نعم، ماذا عن النقود التي كنتَ تنوي أن تودِعها المصرف؟ ". " سأتدبَّر هذا الأمر أيضاً، لا تقلق! ")

لم يكن يُخامرها أي شكٍ أو ينتابها خوفُ فيما يخصُّ بوب. كان من العبث أن أحاولُ قيادتها، أو حتى أن أقدِّمَ مقترحات: كانت تعلم أفضل مني بكثير ما تستطيع فعله وما لا تستطيع. وكل ما كنتُ أعرفه عن الرجل هو ما أخبرتني به عنه. كنتُ دائماً أتخيَّله حَسَنَ الملبَس، مفرط التهذيب، ويحملُ محفظة نقودٍ منتفخةٍ بالأوراق المالية الخضراء (مينيليك[١٣٨] الكريم)، ولم أشعر حتى بالأسى عليه. كان جلياً أنه يستمتعُ بوقته. وما تساءلتُ بشأنه هو - كيف تمكَّنتَ من إبقاء عنوانها سرّياً ؟ إنّ العيشَ مع أمٍ مريضةٍ هو أمر، أما إبقاء مكان المنزل سراً فأمرٌ آخر تماماً. ماذا لو أنَّ بوب ارتابَ في الحقيقة - بأنها تعاشرُ رجلاً. ماذا يهمّه إنْ كانت أماً مريضة أو عاشقاً أو زوجاً - ما دامت تحافظُ على مواعيدها ؟ لعله يكونُ من اللباقة بحيث يساعدها على الحفاظ على ماء وجهها ؟ لم يكن مغفَّلاً حتماً... ولكن لماذا يشجِّعها على المغادرة إلى

twitter @baghdad_library

أوروبا، لتبتعد بضعة أشهر أو أكثر؟ هنا، طبعاً، كان عليّ فقط أن أقومَ بقليلٍ من التنقُّل. وحين قالت " بوب يودُّ أن أرحل إلى أوروبا لبعض الوقت "، كان يكفيني أن أقلِّبَ التفكير في الأمر حتى أكادُ أسمعها تقول - لبوب: " أرغبُ كثيراً في مشاهدة أوروبا من جديد، حتى واو لفترةٍ قصيرة! ". أما بالنسبة إلى نشر الرواية، فربما لم يكن لدى بوب أدنى نيّة لفعل أي شيء، إما عبر صديقه، الناشر (إنْ كان له وجود) أو وحده. لعله التقى بها هناك إرضاءً للعاشق أو الزوج - أو الأم المريضة المسكينة. لعله ممثل أفضل منا نحن الاثنين!

ربما - كانت هذه فكرةً اعتباطية - ربما لم يتبادلا أي كلمة حول موضوع أوروبا. ربما هي فقط صمَّمتْ على أنْ تعودَ إلى هناك ثانية، مهما كلَّفَ الثمن.

فجأةً تراءت صورة ستيسيا أمامي. غريبٌ كيف أنهما لم يتلقّيا منها كلمة واحدة! لا يمكنُ أن تكون ما تزال تتجوّل في شمال أفريقيا. أتكون في باريس - تنتظر؟ ولِمَ لا؟ كان من السهل الحصول على صندوقٍ في مكتب البريد، وعلى صندوقٍ آخر في مكانٍ آخر، تُخفي فيه الرسائل التي يمكن أن تكون ستيسيا قد أرسلتها. وسيكونُ الالتقاءُ بستيسيا في باريس مصادفةً أسوأ من الالتقاء بماكغريغور وصاحبته غيلدا. ما أغباني إذ لم أفكّر أبداً في أمر وجود مراسلاتٍ سرّيةٍ! لا عَجَبَ في أنَّ كل شيء كان يسير بيُسر.

كانت هناك إمكانية أخرى واحدة: لعلَّ ستيسيا انتحرتْ. ولكن من الصعب إبقاء هذا الأمر سراً ،فمخلوقةٌ غريبةُ الأطوار كستيسيا لا يمكنُ أن تنتحر دون أن يتسرَّب خبرها. اللهم إلا إذا، وهذا أمرٌ بعيد الاحتمال،

كانا قد توغّلا في عمق الصحراء، وتاها، وأصبحا الآن كومةً من العِظام.

كلا، إنها على قيد الحياة ؛ كنتُ متأكداً. وإذا كانت ما تزال حيّةً فلدينا زاوية أخرى. لعلها عثَرَتْ على شخصٍ آخر في تلك الأثناء. على رجلٍ، هذه المرة. لعلّها قد أصبحتْ الآن مدبِّرة منزل صالحة. مثل هذه الأمور تحدث بين حينٍ وآخر.

كلا، استبعدتُ هذا أيضاً. لا يمكنُ أن يصدر عن صاحبتنا ستيسيا.

قلت لنفسي " أيري في كل شيء! لماذا أقلقُ على أشياءٍ كهذه؟ إلى أوروبا، هذا هو المهم! ". حين قلتُ هذا كنتُ أفكر في أشجار جوز الهند (لا شك في أنها جميعاً مزهرة الآن) وفي تلك الطاولات الصغيرة (التي تسمّى les gueridons) الموضوعة على مصاطب المقاهي المزدحمة، وفي ورجال الشرطة المتطين الدراجات يمرّون أزواجاً. وفكّرتُ في الـ Vespasiennes (المبولات) أيضاً. ما أروع التبوُّل في العراء، على الرصيف، وأنت ترمق كل السيدات الجميلات يتمشين مارّات بك...

يجب أن تتعلّم الفرنسية... Ou sont les lavabos ? (أين المراحيض؟)

إذا أردنا أن نفهم كل ما قالته مونا فسوف نفعل، لِمَ لا نذهب إلى بعض الأماكن... فيينا، بودابست، براغ، كوبنهاغن، روما، ستوكهولم، أمستردام، صوفيا، بوخارست؟ لِمَ لا نذهب إلى الجزائر، وتونس، والمغرب؟ فكّرتُ في صديقي الألماني الحميم الذي خلعَ بزّةَ الساعي ذات مساء ليسافر إلى الخارج مع رئيسه الأميركي... ويراسلني من صوفيا، ولا أقلّ، ومن غرفة انتظار " كوين أوف رومانيا "، في مكانٍ ما فوق الجبال الكارباثيّة.

twitter @baghdad_library

وتساءلتُ، وأومارا ماذا حلَّ به يا تُرى؟ إنه الصديق الوحيد الذي أحبُّ من كل قلبي أن أراه ثانية. إنه صديق حقّ، ماذا! ما أمتع أن نصحبه معنا إلى باريس، ومونا راغبة في ذلك. (أمرٌ مستحيل، طبعاً)

كان عقلي يدور، ويدور. دائماً حين كنتُ أنفعل، حين أعلمْ أنَّ في استطاعتي أن أنفِّذ ما لديّ، أن أُصرِّح به، يبدأ عقلي بالتحرُّك في الاتجاهات كلها دفعةً واحدة. وبدل أن أجلس أمام الآلة الكاتبة وأفرغ ما لدي، أجلسُ على طاولة المكتب وأفكِّر في مشاريع، وأحلمُ أحلاماً، أو أتوقَّفُ عند مَنْ أحببتُهم، والأوقات الممتعة التي أمضيناها معاً، والأشياء التي قلناها وفعلناها (**هو هوا هاو هاوا**) أو نفبرك بحثاً ما وإذا به فجأةً يتَّخذُ أهميةً قصوى، ويجب الانكباب عليه فوراً. أو أتصوَّر مناورةً بارعةً في لعبة الشطرنج، ولكي لا أنسى، أرتِّبُ القطع، وأوزِّعها، وأعدُّ الفخَّ الذي خطَّطتُ له لكي أنصبه لأول قادم. ثم، حين أُصبحُ مستعداً للتعامل مع مفاتيح الآلة الكاتبة يتكشَّف لي فجأةً أني في الصفحة كذا وكذا كنتُ قد ارتكبتُ خطأً فادحاً، فأعودُ إلى تلك الصفحة واكتشف أن جُمَلاً بأكملها مشوَّشة، لا معنى لها، أو أنها تقولُ عكس ما أقصده. وبعد أن أُصحِّحها تُجبرني الحاجة إلى الإتقان إلى كتابة صفحات أُدركُ لاحقاً أنه كان يمكن أيضاً أن أحذفها.

فعلتُ كل ما من شأنه أن يؤجِّل الحَدَث. أكان هكذا؟ أم أنه، لكي أكتبَ بسلاسةٍ وثبات، كان عليّ أولاً أن أُطلقَ بخاراً، وأُخفِّف الطاقة، وأُبرِّد المحرِّك؟ كان دائماً يبدو أنَّ الكتابةَ تسيرُ سيراً حَسَناً بعد أن أكون قد وصلتُ إلى مستوى أكثر انخفاضاً، وأقلّ رفعة؛ أما البقاء على السطح، حيث لا شيء غير الزَبَد وأمواجٌ مُزبدة، فأمرٌ كان لا يستطيعُ إلا البحّار العتيق أن يفعله.

حالما كنتُ أحلّق، حالما أسرعُ خطاي، يصبحُ الأمرُ أشبه بأكل الفول السوداني: الفكرة تغوي الأخرى. وبينما أصابعي تطير، تتدخّلُ أفكارٌ سارة لكنها مُشتّتة ومبعثرة - دون أن تُفسد التدفق ؛ شذراتٌ مثل "هذه الفقرة لك، يا ألريك ؛ أكادُ أسمعك منذ الآن تضحكُ ضحكاً مكبوتاً " أو " كم سيُحبُّ أومارا هذا! ". كانت ترافقُ أفكاري، كدلافين عابثة. كنتُ أشبَهَ برجلٍ واقفٍ عند الدفّة يتفادى السمكةَ التي تطيرُ من فوق رأسه. وتنطلقُ السفينةُ مُبحرةً بأقصى سرعتها، مائلةً بحَذَر لكنها ثابتةٌ على مسارها، وأحيِّي سُفُناً وهميةً مارةً بي، وألوِّحُ بقميصي في الهواء أنادي على الطيور، وأهتفُ للجروف المثلّمة وأحمدُ الله على" قدرته المُنقذة والحافظة "، وما إلى ذلك. غوغول كانت لديه عربة ثلاثيّة الجياد، وأنا كان لديّ زورقي الصغير الأنيق. إنني مَلِكُ الممرات المائيّة - ما دام السحرُ مستمراً.

وأدكُّ الصفحات الأخيرة في المنزل، بعد أن أبلغَ الشاطئ وأجوبُ جادات مدينةٍ مُضيئة، وأرفعُ قبعتي لهذا الشخص وذاك، وأتدرَّبُ على S'il vous plait, monsieur " " ،A votre service, madame " " ،Quelle belle journee, n'est-ce pas ? "

" C'est moi qui avais tort "" ،A quoi bon se plaindre, la vie est belle!! " الخ الخ. (وذلك كله بلغة فرنسية رقيقة ومُتخيّلة)

إنني حتى انغمستُ إلى درجةِ إقامةِ حديثٍ مُتَخيَّل مع أحد الباريسيين الذين يفهمون الإنكليزية جيداً بحيث يتابعني. أحد أولئك الفرنسيين (الذين لا تقابلهم إلا في الكتب) الذين دائماً يهتمّون بملاحظات شخص أجنبي، على الرغم من تفاهتها. وقد اكتشفنا اهتماماً

twitter @baghdad_library

مُشتركاً بأناطول فرانس. (ما أشدّ بساطة هذه العلاقات المتبادلة، في عالمِ أحلام اليقظة!) وأنا، الأبله الطنَّان، قبضتُ على المقدمة الافتتاحية لكي آتي على ذكر رجلٍ إنكليزي مُثيرٍ للفضول أحبَّ فرنسا أيضاً - البلد وليس الكاتب[١٣٩]. وفُتِنَ مُرافقي بإشارتي إلى boulevardier (متبطِّل) شهير لذلك العصر البهيج، la fin de siecle (نهاية القرن)، وأصرَّ على مُرافقتي حتى ساحة بيغال، لكي يشير إلى مُلتقى النجوم الأدبية في تلك الحقبة - La Rat Mort (الجرذ الميت). وأقولُ " ولكن، مسيو، أنت شديد اللطف "، "Mais non, monsieur, c'est un privilege "، وما إلى ذلك. كل هذا الهراء، هذا التملُّق والـ flanerie (التمشية) تحت السماء ذات اللون الأخضر المعدني، والأرض المنشورة بأوراق الخريف، والسيفونات اللامعة على كل طاولة - ولا يوجد حصان واحد بذيلٍ مبتور. باختصار، إنها باريس المثالية، والفرنسي المثالي، واليوم المثالي لإجراء حديثٍ متنقِّل بعد تناول وليمة.

ختمتُ حديثي مع نفسي قائلاً " أوروبا، يا عزيزتي، يا حبيبتي أوروبا، لا تخدعيني! مع أنكِ لستِ كما أتخيَّلكِ الآن تماماً، وأتوقُ إليه، وأحتاجُ إليه حاجةً ماسّة، امنحيني على الأقل وهم الاستمتاع بهذا الرضا التام الذي يبعثه ذكرُ اسمك. فليحتقرني مواطنوكِ، فليزدروني، إذا شاؤوا، ولكن اسمحي لي أن أسمعهم يتحدثون كما لم أتخيّلهم يفعلون ذلك. دعيني أشرب من تلك العقول الجوّالة، المتوقِّدة التي لا تمرح إلا في الكونيّ، من المثقّفين المُدرَّبين (منذ المهد) على مزج الشعر بالحقيقة والعمل، من الأرواح التي تضيء عند ذكر فَرْقٍ دقيقٍ، وتحلِّقُ وتحلِّقُ، مُحقِّقَةً أسمى الارتفاعات، ومع ذلك تلمس كل شيء بفطنةٍ، وخُبثٍ،

وسِعَة اطّلاع، وبنكْهتِهِ الدنيوي وطعمه. لا، يا أوروبا المُخلصة، لا، أرجوك. لا تريني الوجه اللامع لقارّةٍ مُكرَّسة للتقدُّم، أريد أن أرى وجهك العتيق، المهترئ، بأخاديده التي حَفَرَها صراعٌ عمرُهُ من عُمر الزمن نَشَبَ على حَلَبَة. أريد أن أرى بعينيَّ الاثنتين الصقورَ التي دربّتِها لتأكلَ من يدك. إنني آتٍ إليك كحاجٍ، حاجٍ خاشع، ليس يؤمنُ بل ويعرفُ أنَّ الوجه اللا مرئي للقمر مجيد، مجيد فوق كل تصوُّر. إنني لم أرَ غير الوجه الشَبَحيّ، المجدور للعالم الذي يُدوّمنا. إنني أعرف جيداً هذا العدد الكبير من البراكين الخاملة، وسلاسل الجبال المجدّبة، ومن صحارى خالية من الهواء تتوزّعُ تصدُّعاتها كشرايين متوسِّعة على امتداد الفراغ المُتحجِّر القلب والمُفجِع. اقبلوني أيها العريقون، اقبلوني كتائبٍ، ليس كتائهٍ لا خلاصَ له بل كضالٍ في غياهب الضلال، كجوّالٍ كُتِبَ عليه منذ الولادة أن يغيبَ عن أنظار إخوته وأخواته، ومُرشديه، وناصحيه ومُعزّيه"

عند انتهاء ابتهالي إذا بألريك يمثُلُ أمامي، تماماً كما بدا في ذلك اليوم حين قابلتُهُ عند تقاطع الجادّة السادسة مع الشارع الثاني والخمسين: الرجل الذي ذَهَبَ إلى أوروبا، وإلى أفريقيا أيضاً، الذي ما يزال سحرُهما، وروعتهما يتوهّجان في عينيه. كان يجري لي عملية نقل دم، يصبُّ إيمانه وشجاعته في عروقي Hodie mihi, cras tibi! (اليوم أنت، وغداً أنا). أوروبا كانت هناك، في انتظاري. سوف تبقى كما هي، سواءٌ أنَشَبَتْ حرب، أو ثورة، أو حدثت مجاعة، أو صقيع أو غير ذلك. سوف تبقى دائماً أوروبا للروح المجوَّعة. أصغي إلى كلماته، امتصُّها بجرعاتٍ كبيرة، أتساءلُ إنْ كان ممكناً (أو يمكنُ بلوغه)

twitter @baghdad_library

بالنسبة إلى رجلٍ مثلي، " دائماً يتجرجر في الخلف كذيل البقرة "، ثمل، يتلمَّسُ طريقه كأعمى يسيرُ من دون عصاه، قوة كلماته المغناطيسية (جبال الألب، والأبنين، ورافينا، وفيزول، وسهول هنغاريا، وجزيرة سان لوي، وشارتر، والتورين، ولو بيريغور...) سبَّبَتْ لي ألَمَاً استقرَّ في قاع معدتي، ألَماً تَكَشَّفَ بوضوحٍ وببطءٍ عن نوعٍ من الـ Heimweh، اشتياقاً إلى " المملكة القائمة على الجنب الآخر من الزمن والظواهر ". (" آه، يا هاري، علينا أن نخوضَ بخطى متعثِّرة في الكثير من القذارة والخِداع قبل أن نصل إلى المنزل ").

نعم، يا ألريك، في ذلك اليوم زرعتَ البندورة داخلي، ثم مشيتَ عائداً إلى محترفك لترسمَ مزيداً من الموز والأناناس لصالح " ساترداى إيفننغ بوست " وتركتَني تائهاً مع رؤيا. كانت أوروبا في قبضتي. ما أهمية سنتين، خمس سنوات، عشر سنوات؟ أنتَ الذي سلَّمَني جواز السفر ؛ أنتَ الذي أيقظَ المُرشِدَ النائم: الـ .Heimweh

Hodie tibi, cras mihi. (اليوم أنت، وغداً أنا).

*

وبينما كنتُ أتمشّى في عصر ذلك اليوم، متنقِّلاً من شارعٍ إلى آخر، كنتُ أودِّعُ مُسبقاً المشاهد المألوفة للرعب والضجر، والرتابة المَرَضيّة، للعقُم الصحيّ والحب المجرَّد من الحب. أمرُّ بالجادَّة الخامسة، وأشقُّ طريقي بين المتبضِّعين والسيل المتدفِّق كسمكةِ حنكليز من السلك، والإحساس بالاحتقار والازدراء لكلّ ما قابَلَ عينيّ كاد يخنقني. أدعو اللّه ألاّ يطولَ تحمُّلي لمرأى هذه الفزّاعات المُضاءة، وهذه الأبنية المتداعية

للعالم الجديد، وهذه الكنائس الكئيبة، الشنيعة، وهذه الحدائق العامة المنثورة بالحمائم والمنبوذين. ومن شارع دكّان الخياطة إلى حي الباوري (مسارُ طريقي القديمة) عشتُ من جديد أيامَ تدرُّبي، التي كانت كألف عام من البؤس، والحوادث المؤسفة، والحظ العاثر. ألف عام من التغريب. أقتربُ من " اتحاد كوبر "، وطوال الوقت أقيسُ مستوى انخفاض معنوياتي، وأستيعدُ فقرات من الكتب التي كتبتُها ذات يوم داخل رأسي، كحوافٍ مجعَّدة لحُلمٍ ترفضُ أن تنبسط. سوف تبقى هناك تلك الحواف المجعَّدة ترفرفُ... ترفرفُ من كورنيش تلك الأكواخ الحقيرة ذات لون البني الخرائيّ، وتلك الحانات الضيّقةِ الواجهات، وأماكن الإنقاذ والإيواء القذرة حيث يتسكَّعُ العاطلون ذوو الوجوه الشبيهة بسمك القدّ والعيون المُتعَبَة حتى الإجهاد كذبابٍ كسول، ويا إلهي، كم كان منظرهم بائساً، ومزرياً، وشاحباً، كم كانوا ذاويّ الأجساد، وغائريّ الوجوه! ومع ذلك فهنا في هذا العالم المُدمَّر كان جون كاوبر بويز يُلقي محاضراته، ويرسلُ في الأجواء المشبَّعة بالسخام، والعابقة بالعنف أنباءه عن عالمِ الروح الأبدي - روح أوروبا، أورورباه، أوروبانا، أوروبا سوفوكليس، وأرسطو، ,أفلاطون، واسبينوزا، وبيكو ديلا ميراندولا، وإراسموس، ودانتي، وغوثه، وإبسن. في هذه المنطقة بالذات، ظهَرَ زيلوت[١٤٠] نيرانيون آخرون وخطبوا في الرعاع واستحضروا أسماءَ عظيمةً أخرى: هيغل، ماركس، لينين، باكونين، كروبوتكين، وإنغلز، وشيلي، وبليك. بدت الشوارع كما هي دائماً، بل أسوأ، في الواقع ؛ أقلّ إيحاءً بالأمل، وبالعدالة وبالانسجام. الآن يكاد لا يجدُ أشباه ثورو، أو ويتمَن، أو جون

twitter @baghdad_library

براون – أو روبرت.إ.لي فرصةً للظهور. كان إنسان الحشود الغفيرة قد بدأ يسيطرُ: مخلوقٌ حزين، يبدو غريباً، ينشطُ بأمرٍ من لوحة مفاتيح مركزية ؛ عاجز عن أن يقولَ نعم أو لا، لا يُميِّز الحقَّ من الباطل، لكنه دائماً منتظم الخطوة، خطوة متقاربة، دائماً ينشد مارشَ الموتى.

رحتُ أُردِّدُ، مُتابعاً سيري " الوداع، الوداع! الوداع لهذا كله! ". لم يُجبني أحدٌ، ولا حتى حمامة. " أأنتم صُمٌّ، أيها المهووسون الغافلون؟ "

كنتُ أمشي في قلب المدنية، وهذا هو الحال. على أحد جانبيها تجري الحضارة كمجرورٍ مفتوح ؛ وعلى الجانب الآخر تقوم الـ abattoirs (المسالخ) حيث كل شيء مُعلَّق من خطّافات، منفلِق ومفتوح، ملطَّخ بالدم، ويعجُّ بالذباب واليرقات. إنها جادَّة الحياة في القرن العشرين. أقواس النصر تتوالى واحداً إثر آخر. والأناس الآليون يتقدَّمون حاملين الكتاب المقدس بيد وبندقية بالأخرى. قوارض اللاموس تندفع نحو البحر. **إلى الأمام، أيها الجنود المسيحيون، تقدَّموا كما لو أنكم في حرب** ... مرحى لآل كارامازوف! أي حكمة مَرِحة! Encore un petit effort, si vous voulez etre republicains! (ابذلوا المزيد من الجُهد، إذا أردتُم أن تكونوا جمهوريين!)

أمشي في منتصف الشارع، أخطو بحذرٍ شديد وسط أكوام روث الخيل. أي قذارة وهراء يجب أن نخوض فيه بخطى متعثِّرة! آه، هاري، يا هاري، هاري هالر، هاري هلر، هاري سميث، هاري ميللر، هاري هاريد. أنا آتٍ، يا أسموديوس[١٤١] آتٍ! على عكازَين، كشيطانٍ مُعاق. لكني مُثقَلٌ بالميداليات، وأي ميداليات! الصليبُ الحديدي وصليب

فيكتوريا، و ...Croix de Guerre ذهبي، فضي، برونزي، حديديّ، زنكيّ، خشبيّ، قصديريّ... انتقِ ما تشاء!

ويسوع المسكين كان عليه أن يحملَ صليبَه الخاص!

الهواء يزدادُ حِدَّةً. ساحة تشاتام. تشاينا تاون القديم العزيز. تحت الرصيف قرصُ عسل من حجيرات الهاتف. أوكار الأفيون. أرض اللوتوس. نرفانا. ارقدْ بسلام، عُمّال العالم يعملون. كلنا نعمل - لكي نلجَ الخلود.

الآن جسر بروكلن يتأرجحُ كأوتار عود ممدودة بين ناطحات السحاب ومرتفعات بروكلن. مرةً أخرى يشقُّ السائرُ المُرهَقُ طريقه متوجهاً إلى منزله، خاوي الجيوب، خاوي البطن، خاوي القلب. غورغونزولا[١٤٢] يعْرُجُ متقدِّماً على جذعتين محروقتين. النهرُ في الأسفل، والنوارس في الأعلى. وفوق النوارس النجومُ الخفيّة. أي يومٍ مجيد! إنه مشوارٌ كان جديراً بعلبة الكرة العطرية[١٤٣] أن تستمتعَ به. أو أناكساغوراس[١٤٤]. أو ذلك الحَكَمْ ذو الذوق المنحرف: بترونيوس[١٤٥].

إنَّ شتاء الحياة، كما قال أحدهم، يبدأ عند الولادة. وأصعب السنوات هي التي تمتد بين العام الأول وسن التسعين. بعد ذلك، يكونُ إبحاراً سلساً.

تطير السنونو متّجهةً إلى أعشاشها. كل واحد منها يحملُ بمنقاره كسرة خبز، غُصيناً ميتاً، بارقة أمل " E pluribus unum (واحدٌ من كثير"، عبارة تُكتَب على العملة الأميركية).

حُفرة الفرقة الموسيقية ترتفعُ، العازفون الأربعة والثلاثون يرتدون

twitter @baghdad_library

ثياباً بيضاء ناصعة. فوق، النجومُ تبدأ بالظهور من زُرقَة قلب ليلِ السقف المُقبَّب. أعظم عرضٍ يُقَامُ على الأرض يوشكُ أن يبدأ، وقد اكتملَ بوجود حيوان الفقمة المُدرَّبة، والمتكلّمون من بطونهم وبهلوانات الألعاب الطيرانيّة. وسيد المراسم هو العم سام نفسه، ذلك الظريف الطويل القامة، النحيل، الشبيه بحمار الوحش الذي فرشَخَ فوق العالم بساقَيّ البارون منشوسن[١٤٦]، وسواءٌ هبَّتْ الريح أو كان برداً، أو ثلجاً، أو صقيعاً أو عفناً جافاً، فإنه دائماً مستعدٌ للهتاف **كوك-أ-دودلدوو!**

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع عشر

لدى انطلاقي في صباح ذات يومٍ جميل ومشرق لأقومَ بنزهتي، وجدتُ ماكغريغور في انتظاري عند عتبة الباب.

قال، مُضيئاً ابتسامته العريضة، " مرحبا! أهذا أنت، بلحمك ودمك؟ أخيراً قبضتُ عليك، هه؟ "، ومدَّ يده لي. " لماذا يجب أن أنتظرك هكذا يا هن؟ ألا تستطيع أن تُفرد خمس دقائق أحياناً لصديقك القديم؟ ما الذي تهرب منه؟ على أي حال، كيف حالك؟ كيف يجري العمل في الكتاب؟ أتمانع في أن أمشي معك؟ "

" أعتقد أنَّ صاحبة الدار قالت لك إني لست موجوداً؟ "

" كيف عرفت؟ "

باشرتُ في السير، فلحق خطوتي وكأننا نسيرُ في عرضٍ عام.

" هِنْ، أعتقد أنك لن تتغيَّر أبداً " (كان يتكلّم مثل أمي بصورة مخيفة) " في وقتٍ من الأوقات كنتُ أستطيع أن أتَّصل بك في أي ساعة من النهار أو الليل وكنتَ تأتي. الآن أنت كاتب... رجلٌ مهم... لا وقتَ لديك لأصدقاء قُدامى "

أجبت " هيا، كفى. أنتَ تعلم أنَّ هذا غير صحيح "

" ما هو الصحيح إذن؟ "

" هذا... لقد مللت إضاعة الوقت. ومشاكلك تلك - أنا لا أستطيع أن أحلَّها. لا أحدَ يستطيعُ، غيرك أنت. لستَ أوّل مَنْ هَجَرَته امرأة "

" وأنت؟ أنسيتَ كيف كنت تبقيني صاحياً طوال الليل وأنت تلوي أذني بكلامك عن أونا غيفورد؟ "

" كنا في الحادية والعشرين حينئذٍ "

" المرءُ لا يصبح أكبر سناً من أن يعشق. وفي هذا السن يكون الأمر أسوأ. لا أستطيع إلا أنْ أخسرها "

" ماذا تقصد بـ... لا أستطيع إلاّ ؟ "

" أقصد أنه ثقيل الوطأة على الذات. إنَّ الإنسان لا يقعُ أسير الحب الآن كثيراً أو بسهولة. لا أريد أن أقع خارج شباك الحب، سيكونُ ذلك كارثة. أنا لا أقولُ إنَّ عليها أن تتزوج مني، ولكن يجب أن أعرف أنها موجودة... يمكنُ بلوغها. أستطيع أن أحبها عن بُعد، إذا لزمَ الأمر "

ابتسمت. " غريبٌ أن تقولَ أنتَ هذا. قبل أيام تطرَّقتُ إلى هذه المقولة، في الرواية. أتعلم ماذا استنتجت؟ "

" ربما أنه من الأفضل أن أبقى دون زواج "

" لا، لقد توصّلتُ إلى النتيجة نفسها التي يتوصّل إليها أي حمار...وهي أنه لا شيء يهمّ ما عدا الاستمرار في الحب. وحتى إذا تزوجَتْ من رجلٍ آخر، تستطيع أن تبقى على حبها. ماذا تفهم من كلامي؟ "

" الكلام أسهل من الفعل، يا هن "

" بالضبط. وهذه فرصتك. إنَّ مُعظم الرجال يستسلمون. ماذا لو أنها قرَّرَتْ أن تعيشَ في هونغ كونغ؟ ما دخلُ المسافةِ في ذلك؟ "

twitter @baghdad_library

" أنتَ تتحدث عن العِلم المسيحي، يا رجل. أنا لستُ على علاقة حب مع مريم العذراء. لماذا يجب ألاّ أحرِّك ساكناً وأراقبها تنجرف بعيداً؟ إنَّ كلامك لا معنى له "

" هذا ما أحاولُ أن أقنعك به. لهذا من العبث أن تجلب لي مشاكلك، ألا تفهم؟ لم نعُد نتَّفِق حول أي شيء. إننا صديقان حميمان لا يجمع بينهما قاسمٌ مشترك واحد "

" أحقاً هذا ما تعتقده يا هِنْ؟ ". كانت نبرة صوته أقرب إلى الحزن منها إلى التأنيب.

قلت " اسمعْ، ذات يوم كنا متقاربَين كتقارُب حبَّات البسلة في القرنة، أنت، وجورج مارشال وأنا. كنا كالإخوة. كان هذا قبل زمن بعيد، بعيد. إنَّ الأمورَ تحدث. في موقعٍ ما انقطعت صِلة الوصل. جورج استقرَّ، كمُخادع مُصْلَح. وفازت زوجته... "

" وأنا؟ "

" أنتَ دَفَنْتَ نفسك في سلك القضاء، الذي تمقته. وذات يوم سوف تصبح قاضياً، عَلِّمْ على كلامي. لكنَّ ذلك لن يُغيِّر أسلوب حياتك. لقد تخلَّيتَ عن روحك. لم يعُد يُثير اهتمامك أي شيء - إلا إذا كان لعبة بوكر. وأنت تعتقد أنَّ أسلوبي في الحياة مخبول قليلاً. سأعترف بهذا. ولكن ليس كما تعتقد "

جوابه أدهشني قليلاً. " أنتَ لم تشذّ كثيراً يا هِنْ. نحنُ أفسدنا الأمر، جورج وأنا. والآخرون أيضاً، في هذا المجال " (كان يُشيرُ بذلك إلى أعضاء جمعية زيركس) " لا أحد منا ارتقى إلى مرتبة الملعون. ولكن ما دخلُ هذا كله في صداقتنا؟ هل يجب أن تغدو شخصيات هامة

في العالم لنبقى أصدقاء؟ يبدو ذلك لي موقفاً متغطرساً. نحن لن نتظاهر، جورج وأنا، بأننا سنحرق العالم. نحن كما نحنُ. ألا تجد هذا جيداً كفاية؟ "

أجبتُ " اسمع، لن يهمّني إذا لم تكن أكثر من متشرِّد ؛ يمكنك أن تبقى صديقي وأبقى صديقك. يمكنك أم تسخر من كل شيء أؤمن به، إذا كنتَ تؤمن بشيء آخر. لكنكَ لا تؤمن. أنت لا تؤمن بأي شيء. في اعتقادي على المرء أن يؤمن بما يفعل، وإلاّ أصبحَ كل شيء مهزلة. سوف أقفُ بكل قواي إلى جانبك إذا أردت أن تكون متشرداً وأصبحت متشرداً بكل قلبك وروحك. ولكن ما أنت؟ أنت أحد أولئك التافهين الذين ملؤونا بالاحتقار حين كنا أصغر سناً... حين كنا نسهرُ الليل كله نتناقشُ حول مفكّرين مثل نيتشه، وشو، وإبسن. أصبحوا الآن مجرَّد أسماء بالنسبة إليك. لم تكُن ستصبح مثل والدك، كلا يا سيدي! لم يكونوا ينوون أن يربطوك بحبلٍ ويروِّضوك. لكنهم فعلوا. أو أنت فعلت. لقد لبستَ بنفسك قميصَ المجانين ؛ اخترتَ الطريقَ الأسهل ؛ استسلمتَ حتى قبل أن تبدأ القتال "

هتفَ، رافعاً يده عالياً وكأنما ليقول " وأنت؟ اسمع، اسمع! نعم، أنت، ما العمل الرائع الذي أنجزتَه؟ ها أنت تقترب من الأربعين ولم تنشر أي شيءٍ بعد. ما العظيم في هذا؟ "

" لا شيء. إنه أمرٌ يدعو إلى الرثاء، هذا هو الواقع "

" وهذا يؤهِّلُكَ أنت لتعظَني أنا. هو هو! "

كان يجب أن أراوغَ قليلاً. " أنا لم أكن أعظكَ ؛ كنتُ أبيِّنُ أنه لم يعُد يجمعنا أي قاسم مشترك "

twitter @baghdad_library

" حسب ما يبدو فنحنُ الاثنان فاشلان. هذا هو القاسم الذي يجمع بيننا، إذا ما واجَهتَ الأمرَ بشجاعة "

" أنا لن أقُلْ أبداً إني فاشل. اللهم إلا بالنسبة إلى نفسي. كيف يمكن للمرء أن يكونَ فاشلاً ولا يزالُ يكافحُ، لا يزالُ يقاتل؟ قد لا أبلغ منزلةً رفيعة ؛ قد ينتهي بي الأمر إلى عازف ترومبون، ولكن مهما فعلتُ، مهما كان ما أختاره فذلك لأني أؤمنُ به. لن أطفو مع التيار. أُفضِّلُ أن أنزل إلى ساحة القتال... أنا فاشل، كما قلت. إنني أكره أن أفعل ما يفعله الآخرون ؛ أن أقفَ في الطابور، وأقولَ نعم في حين أعني لا "

ثم باشرَ بقول شيءٍ لكني أسكتُّهُ بحركةٍ من يدي.

" لا أعني صِراعاً لا هدفَ له، مقاومةً لا معنى لها. على المرء أن يبذلَ مجهوداً لكي يبلغَ المياه الصافية، الساكنة ؛ عليه أن يكافحَ لكي يكفَّ عن الكفاح ؛ عليه أن يعثُرَ على نفسه، هذا ما أعنيه "

قال " إنك تُحسِنُ الكلامَ ونواياكَ حَسَنة يا هِنْ. لكنكَ مشوَّش الذهن، وتفرطُ في القراءة، هذه هي مشكلتك "

أجبتُ " وأنت لا تتوقف أبداً لكي تفكِّر، ولن تقبل نصيبك من المعاناة. أنت تعتقد أنَّ هناك جواباً على كل سؤال. ولم يخطر في بالك أبداً أنه ربما لا يوجد ؛ أنَّه ربما الجواب الوحيد هو أنت نفسك، وكيف تنظُر إلى مشاكلك. أنت لا تريد أن تتصارع مع المشاكل. بل تريد أن يأتي مَنْ يُخلِّصك منها. هذا مِنْ شِيَمَكْ، الطريقة السهلة. خُذ فتاتك تلك... ومشكلة الحياة والموت تلك... ألا يعني لك أي شيء أنها لا ترى فيكَ ما يُثيرُ اهتمامها؟ إنكَ تتجاهل هذا، أليس كذلك؟ " أنا أريدها، **يجب أن أنالها!** ". هذا هو جوابك الوحيد. حتماً ستُغيِّر

أساليبك، وستجعل من نفسك شيئاً هاماً... ذلك إذا ما اتَّصَفَ أحدهم بما يكفي من اللطف بحيث يُسلّطُ مطرَقةً إلى رأسك. أنت تحب أن تقول - " هِنْ، أنا ابن حرام من النوعِ العنيد، لكنك لا ترفع إصبعاً لتُحدِث أي تغيير مهما قَلّ على نفسك. وتريد أن تُقبَل كما أنت، فإذا لم يقبلك أحدهم كما أنت، أيرك فيه! أليس كذلك؟ "

أمالَ رأسه إلى أحد الجانبَين، كقاضٍ يزِنُ الشهادة الحاليّة، ثم قال: "ربما. لعلّكَ على حق "

تابعنا السير بضع لحظات في صمت. وكطائرٍ في حوصلته نبتة شائكة، كان يهضم الدليل. ثم انتشرتْ شفتاه لترسمان تكشيراً عفريتيّاً، وقال " أحياناً تذكّرني بابن الحرام شالاكومب ذاك. يا إلهي، كم يستطيعُ ذلك الرجل أن يُثيرَ غضبي! كان دائماً يتكلّم من عليائه. وكنت تولع بهراءه ذاك كله، وتؤمن به... بكل ذلك الخراء الثيوصوفي... "

أجبتُ بحرارة " حتماً كنتُ كذلك! ولو أنه لم يذكُر قط أي شيءٍ آخر غير اسم سوامي فيفيكاناندا[147] لشعرتُ بأني مَدينٌ له حتى آخر ما تبقّى لي من حياة. تقول إنَّ هذا هراء، أما بالنسبةِ إليّ فكان نسيمَ الحياة. أنا أعلمُ أنه لم يمثّل فكرتكَ عن الصديق. إنه شديد الترفُّع، والانفصال، بالنسبة إلى ذوقك. لقد كان مُعلّماً، وأنت لم تستطع أن تراه مُدرّساً. من أين حصلَ على أوراق اعتماده وما إلى ذلك؟ إنه لم يتلقَّ أي منحة دراسية، ولا تدريب، ولا أي شيء، لكنه كان يعرفُ عما يتحدّث، على الأقل. هذا ما رأيته. لقد جعلكَ تبتلع قيأكَ ، ولم يُعجبكَ هذا ؛ أردتَ أن تتّكئ على كتفه وتتقيّأ حتى تلوِّثه كله - بعدئذٍ كان يمكن أن يصبح

twitter @baghdad_library

صديقاً. وهكذا رحتَ تفتشُ عن عيوبٍ في شخصيته، فعثرتَ على نقاط ضعفه، وعملتَ على اختزاله حتى يصبحُ في مستواك. وأنتَ تفعل هذا مع كل شخص يصعَبُ عليكَ فهمه. وحين تستطيع أن ترمي الشخص الآخر بنظرة ساخرة كما تنظر إلى نفسك فأنتَ سعيد... عندئذٍ يخرجُ كل شيءٍ بالتساوي... اسمع، حاول أن تفهم هذا. إنَّ أحوال العالم كلها ليست على ما يرام. في كل مكان هناك جهل، وتطيُّر، وتعصُّب أعمى، وظلم. وفي الغالب هكذا كان حال العالم منذ بدايته. وسيبقى الحال على ما هو عليه غداً وبعد غد. فماذا في ذلك؟ أهذا سببٌ للشعورِ بالهزيمة ؛ لغضبَكَ من العالم؟ أتعلَمْ ماذا قال سوامي فيفيكاناندا ذات يوم؟ قال: "لا يوجدُ إلا رذيلة واحدة، وهي الضعف... لا تُضِف جنوناً إلى آخر. ولا تُضِف ضعفك إلى الشرّ القادم... كن قوياً! "

سكتُّ، في انتظارِ أن يهضمَ ما قلت، ولكن بدل ذلك قال " تابع، هِنْ، أعطني أكثر! كلامكَ ممتع "

أجبتُ " هو ممتعٌ حقاً. وسوف يظلُ دائماً ممتعاً. وسوف يظلُ الناسُ يفعلون العكس تماماً. والذين صفَّقوا لكلماته أنفسهم خانوه حالما سَكَتَ عن الكلام. وهذا ينطبق على فيفيكاناندا، وسقراط، ويسوع، ونيتشه، وكارل ماركس، وكريشنا مورتي... واذكُر بنفسك أسماءً على غِرارهم ما شئت! على أي حال، ما الذي يدفعني إلى إخباركَ بهذا كله؟ أنت لن تتغيَّر، وترفض أن تنضج، وتريد أن تتقدَّم دون أن تبذلَ أدنى جهد، أو تجشُّم أقلّ عناء، أو تحمُّل أي ألم. الكلُ يفعل ذلك. رائعٌ أن تسمع حكاية عن الأساتذة أما أن " تصبح " أستاذاً، خراء! اسمع، كنتُ أقرأ كتاباً مؤخَراً... ولأكونَ صادقاً معك بقيتُ أقرأه على امتدا عامٍ أو أكثر.

لا تسألني عن عنوانه، لأني لن أبوحَ به. ولكن إليك ما قرأت، ولا يمكنُ لأي أستاذ أن يصوغه بشكلٍ أفضل من هذا. " إنَّ المعنى، والهدف، والنيّة، والسرّ الوحيد للمسيح، يا أعزائي، ليس أنْ يفهمَ الحياة، أو يصوغها، أو يُغيِّرها، أو حتى أن يحبها، بل أن يشربَ من جوهرها الخالد " "

" هلاَّ كرَّرتَ ما قلت، هِنْ؟ "

فعلتُ.

غمغمَ " أن نشربَ من جوهرها الخالد. رائعُ جداً. ولن تخبرني مَنْ قالها ؟ "

" لا "

" أوكيه، هِنْ، تابِعْ! ماذا لديكَ أيضاً تحت الحزام هذا الصباح؟ "

" لديَّ هذا... كيف تسيرُ أمورَكَ مع صاحبتكَ غيلدا ؟ "

" لا عليكَ! هذا أفضل بكثير "

" آمل أنكَ لا تتخلَّى عنها ؟ "

" هي التي تتخلَّى عني. إلى الأبد، هذه المرة "

" وأنت متصالحٌ مع الأمر؟ "

" ألا تُصغي إلى ما أقول أبداً؟ طبعاً لا! لهذا كنتُ أنتظركَ. ولكن، كما تقول، على كل إنسان أن يسلكَ طريقه. ألا تعتقد أني أعرفُ هذا ؟ ربما لم يعُد يجمعُ بيننا أي قاسمٍ مشترك. ربما لم يجمع بيننا هذا في أي وقت آخر، هل سبقَ أن فكَّرتَ في هذا ؟ لعلَّ ما جمعَ بيننا هو أكثر من ذلك. لا أستطيع إلاّ أن أحبك يا هِنْ، حتى ولو شويتني على الجمر. أحياناً تكونُ ابن حرام قاسي القلب. إنْ كان بيننا مَنْ هو خسيس

twitter @baghdad_library

فهو أنتَ، لا أنا. ولكن لديك شيئاً تقوله، فليتكَ تخرجه ؛ أقصد شيئاً توجِّهه إلى العالم، وليس إليّ. ليس روايةً ما يجب أن تكتب، يا هِنْ. أي شخص يستطيع أن يفعل هذا. لديك أشياء أكثر أهمية تقومُ بها. أنا جادّ. أفضِّلُ أن أراكَ تُحاضر حول فيفيكاناندا - أو مهاتما غاندي "

" أو بيكو ديلا ميراندولا "

" لم أسمع به قط "

" إذن هي ترفض أن تكونَ لها أي علاقة بك؟ "

" هذا ما قالتْ. المرأة تستطيعُ دائماً أن تبدِّلَ رأيها، طبعاً "

" سوف تفعل، لا تقلق "

" في آخر مرة رأيتُها فيها كانت ما تزالُ تتحدَّث عن قضاء الأجازة - في باريس "

" لِمَ لا تلحق بها؟ "

" سأفعلُ ما هو أفضلُ من هذا، يا هِنْ. لقد خططتُ للأمر كله. حالما أعرفُ أيَّ سفينةٍ ستستقل سأتوجه إلى مكتب السفينة البخارية وسأحجز، حتى وإنْ اضطررتُ إلى رشو الموظف، حجرة مجاورة لحجرتها على متن السفينة. وحين تخرج من غرفتها في صباح أول يوم سأكون موجوداً للترحيب بها. " مرحبا، يا حبيبتي! هذا اليوم جميل، أليس كذلك؟ "

" سوف تحبُ ذلك "

" لن تقفزَ من السفينة، هذا مؤكَّد "

" ولكنها قد تبلِّغَ القبطان بأنكَ تزعجها "

" أيري في القبطان! أستطيع أن أتولى أمره... لدي ثلاثة أيام أقضيها وسط البحر، وسواء شاءتْ أم لم تشأ سوف أسحقها "

قبضتُ على يده وهززتُها. "أتمنى لك التوفيق! هنا يجب أن أتركك"

" تناول القهوة معي! هيا! "

" كلا. سأعود إلى العمل. وكما قال كريشنا لأرجونا: " إذا توقّفتُ لحظةً واحدة عن العمل، فإنَّ العالمَ كله سوف... "

" سوف ماذا؟ "

" أعتقد أنه قال " سوف ينهار " "

" حسنُ، هِنْ "، ودارَ حول نفسه. ودون أن ينطق بأي كلمة أخرى انطلقَ في الاتجاه المعاكس.

لم أكنْ قد مشيتُ أكثر من بضع خطوات حين سمعتُه يصرخ "هيه، هِنْ!"

" ماذا؟ "

" سأراكَ في باريس، إذا لم يكن قبل ذلك. إلى اللقاء! "

قلتُ في نفسي " أراكَ في جهنم "، ولكن حين استأنفتُ سيري شعرتُ بوخز الندم. وقلتُ في نفسي " ينبغي ألاّ تُعامل أي إنسان هكذا، ولا حتى أفضل صديق لديك "

طوال الطريق حتى المنزل كنتُ منهمكاً في حوارٍ إفرادي. وجرى تقريباً على النحو التالي...

" وماذا إذا كان مزعجاً؟ حتماً، كل إنسان يجب أن يحلَّ مشاكله الخاصة، ولكن - أهذا سبب معقول لخذل رجل؟ أنتَ لستَ فيفيكاناندا. ثم، هل كان فيفيكاناندا سيتصرّفُ هكذا؟ لا يجوز أنْ تتعالى على رجلٍ مكتئب. ولستَ مضطرُ إلى أن تدعه يتقيَّأ عليك. لنفرض أنه يتصرَّف كطفلٍ، فماذا عندئذٍ؟ هل سلوكك دائماً هو سلوكُ إنسانٍ راشد؟

twitter @baghdad_library

ألم يكنْ ذلك أشبه بالكثير من الخراء، أي الحديث حول عدم وجود قاسمٍ مشتركٍ بيننا؟ كان يجب أنْ يبتعد عنكَ في اللحظةِ والتوّ. إنَّ القاسمَ الذي تشتركُ فيه معه، يا عزيزي الرائع سوامي، هو نقطة ضعفٍ عاديّة بسيطة. لعلّه كفَّ عن النموّ منذ وقتٍ طويل. أهذه جريمة؟ ومهما كانت النقطة الموجود عندها على الطريق فهو ما يزالُ كائناً بشرياً. تقدَّمْ إنْ شئت ... أبقِ عينيك تنظران أمامك مباشرةً... ولكن لا ترفض يداً مُساعدة متلكِّئة. إلامَ كان سيؤول أمركَ لو أنك اضطررتَ إلى التقدُّم وحيداً؟ هل أنت تقفُ على قدميك الخاصتين؟ ماذا عن كل أولئك النكِرات، المغفَّلين، الذين أعطوكَ ما في جيوبهم حينَ كنتَ في حاجةٍ ماسّة؟ هل أصبحوا الآن عديمي الفائدة بعد أن استغنَيتَ عنهم؟ "

" كلا، ولكن... "

" إذن لا جوابَ لديك! إنك تتظاهرُ بما ليس فيك ؛ وتخشى أن تعودَ إلى أساليبك القديمة. إنكَ تمدحُ نفسَكَ على اعتبار أنك مختلف، ولكن الحقيقة هي أنكَ شديد الشَبَه بالآخرين الذين تشجبهم دون تحفُّظ. عاملُ المصعد المجنون ذاك كان مُحقّاً بشأنك ؛ لقد غاص إلى أعماقك، أليس كذلك؟ بصراحة، ماذا حقَّقتَ بيديك، أو بذلك العقل الذي يبدو أنك فخورٌ به؟ في سن الحادية والعشرين انطلقَ الاسكندر ليغزو العالم، وفي سن الثلاثين كان يقبض على العالم بيديه. أنا أعرف أنك لا تهدف إلى غزو العالم - لكنك تحبّ أن تترك أثراً عليه، أليس كذلك؟ تريد أن تصبح معروفاً ككاتب. حسنٌ، مَنْ يمنعك؟ حتماً ليس ماكغريغور المسكين. نعم، لقد قال فيفيكاناندا أنه لا يوجد إلا رذيلة واحدة، وهي الضعف. احفظْ هذا الكلام، أيها العجوز... احفظه عن ظهر قلب! انزل

عن حصانك العالي! اخرجْ من برجك لعاجي وانضمْ إلى صفوف الجماهير! لعلّ في الحياة ما هو أكثر أهمية من تأليف الكتب. ثم ما هو الشيء الهامّ جداً الذي لديك لتقوله؟ أتُراك نيتشه آخر؟ إنك حتى لم تصبح نفسك بعد، أتدرك هذا؟ "

في الوقت الذي وصلَتْ فيه إلى منعطف شارعنا كنتُ قد ضربتُ نفسي حتى الانهماك. كان قد بقي فيّ من الحيوية والنشاط بقدر ما لدى حيوان القاقي[١٤٨]. وما زاد الطين بلّه أنَّ سِدّ إسِّن كان في انتظاري عند أسفل الدَرَج. كان مجدولاً بالابتسامات.

قال " ميللر، لن أُضيِّع وقتك الثمين. لم أستطع أنْ أحتفظ بما لدي أكثر من ذلك "

أخرَجَ مُغلّفاً وقدَّمَه إليّ.

قلت " ما هذا؟ "

" عربون من أصدقائك ؛ أولئك الزنوج يحترمونك كثيراً. يجب أن تبتاعَ شيئاً لزوجتك. إنه مبلغ صغير من المال جمعوه فيما بينهم "

كدتُ أبكي وأنا في تلك الحالة من خيبة الأمل.

قال ريب، وهو يطوِّقني بذراعيه " ميللر، ميللر، ماذا سنفعل من دونك؟ "

قلتُ، وأنا أحمرُّ خَجَلاً كأحمق، " إنها فقط مسألة بضعة أشهر "

" أعلمْ، أعلمْ، ولكن سنشتاق إليك. ألا تشرب القهوة معي؟ لن أؤخِّركَ. لدي ما أقوله لك "

مشيتُ معه عائداً إلى المنعطف ,إلى دكان القرطاسية والحلوى حيث تقابلنا أول مرة.

twitter @baghdad_library

قال، بعد أن اتّخذنا مجلساً عند النضد، " أتعلمْ، أكاد أفكِّر في أنْ أنضم إليك. لولا أني أعلم أني سأقفُ في طريقك "

أجبتُ، وقد ارتبكتُ قليلاً، " أعتقدُ أنَّ الجميع يحبّون أن يقضوا إجازة في باريس. وسوف يفعلون، ذات يوم... "

" أقصد، يا ميللر، أني أحبُّ أنْ أراها عبر عينيك "، ورماني بنظرة أذابتني.

قلتُ، متجاهلاً كلماته، " نعم، ذات يوم لن يكون ضرورياً اللجوء إلى سفينة أو طائرة لبلوغ أوروبا. كل ما نحتاج إلى معرفته الآن هو كيف نتغلب على مهزلة الجاذبية. فقط ابقَ حيث أنت ودَعْ الأرضَ تدور من تحت قدميك. إنَّ هذه الأرض العتيقة تتحرَّك بسرعة "، وتابعتُ على هذا المسار، مُحاولاً أن أتغلَّب على ارتباكي. محرِّكات، وعَنَفَاتْ، وقاطرات... ليوناردو دافنتشي. قلتُ " ونحن نتحرَّك كالحلازين. إننا حتى لم نبدأ باستخدام القِوى المغناطيسية التي تُغلِّفنا ؛ وما نزال نسكنُ الكهوف، ومحركاتٌ موضوعة في مكان رؤوسنا... "

المسكين ريب لم يدرِ ماذا يفهم من كلامي. كان مُتحرِّقاً إلى قولِ شيء، لكنه لم يُرِدْ أن يكونَ وَقِحاً ويُقاطعني. فتابعتُ بربرتي.

" إنَّ ما نحتاجُ إليه هو التبسيط. انظرْ إلى النجوم - إنها لا تحملُ محركات. هل تساءلتَ مرةً ما الذي يُبقي أرضنا هذه تدورُ كالكُرة؟ لقد فكَّرَ نيقولاي تسلا[١٤٩] كثيراً في هذا، وماركوني أيضاً. ولم يخرج أحد بعد بجواب نهائي "

نظر إليّ بحيرة تامة. وعرفتُ أنه مهما كان ما يدور في ذهنه فهو ليس كهرباءً مغناطيسية.

قلت " أنا آسف، أنت تريد أن تخبرني بشيء، أليس كذلك؟ "

قال " نعم، لكني لا أريدُ أن... "

" إنني فقط أفكِّرُ بصوتٍ عالٍ "

" حسنُ، إذن... "، وتنحنحَ. " كل ما أردتُ أن أقوله لك كان ما يلي... إذا كان لابد أن ترحل إلى هناك، فلا تتردَّد في الإبراق لي. أو إذا أردتَ أن تُطيل إقامتك. أنت تعلم أين تتّصل بي ". احمرَّ وجهه وأشاحَ بوجهه.

قلت، وأنا ألكزه بمرفقي، " ريب، أنتَ أجود من طاقتي على مُجاراتك. وأنتَ لا تكاد تعرفني. أعني، أنك لم تعرفني إلا منذ فترة وجيزة. ما كان يمكن لأيٍّ مما يُسمّون بأصدقائي أن يفعلوا القدر نفسه، أراهن "

أجابَ على هذا – " أخشى أنكَ لا تعرف ماذا يستطيع أصدقاؤكَ أن يفعلوا من أجلك. أنت لم تمنحهم فرصة "

انفجرتُ بقوة " أنا لم أمنحهم؟ يا رجل، لقد منحتهم الكثير من الفرص ولا يريدون أن يسمعوا اسمي "

" ألا تقسو عليهم قليلاً؟ ربما ليس لديهم ما يعطونه "

" هذا بالضبط ما يقولونه، جميعهم. لكنَّ هذا غير صحيح. إذا لم يكن معك، تستطيع أن تقترض – **إكراماً لصديق**. صح؟ سيدنا إبراهيم قدَّمَ ابنه، ألم يفعل؟ "

" تلك كانت تَقْدمةً ليهوه "

" أنا لم أكن أطلَب تقديم أضاحي. كل ما طلبته كان مبالغَ تافهة – سجائر، وجبة، ملابس قديمة. انتظر لحظة، أريدُ أن أعدِّلَ ما قلت. لقد

twitter @baghdad_library

كانت هناك فعلاً استثناءات. كان هناك شخص أذكره، أحد السُعاة العاملين لديّ... حدثَ ذلك بعد أن تركتُ العمل في شركة التلغراف... وحين علمَ أني أواجه موقفاً صعباً ذهب وسرقَ من أجلي. كان يجلب لي دجاجة أو بعض الخضروات... أحياناً يُحضِر مجرَّد حلوى، إذا كان هذا كل ما يستطيع وضع يده عليه. وكان هناك آخرون أيضاً، فقراء، أو مجانين. لم يكونوا يُقلِبون جيوبهم إلى الخارج ليُروني أنهم لا يملكون أي شيء. المجموعة التي سافرتُ معها لم يكن يحقّ لها أن تحرمني. فلم يسبق لأيٍ من أفرادها أن شعرَ بالجوع. لم نكن حثالة من الفقراء البيض؛ كلنا كنا منحدرين من عائلات مرتاحة وراقية. كلا، لعلَّ الجانب اليهودي من تكوينك هو الذي يجعلك شديد اللطف ومراعٍ للآخرين، واعذُرني على طريقتي في التعبير. حين يرى اليهودي رجلاً محزوناً، وجائعاً، ومضطَهَداً، ومقهوراً، فإنه يرى نفسَه فيه ؛ إنه يتطابقُ فوراً مع الشخص الآخر. وهذا ليس من شِيَمنا نحن. نحن لم نذُق بما يكفي مرارةَ الفقر وسوء الحظ، والمهانة، والمذلّة. نحن لم نكن أبداً منبوذين. نحن نجلسُ بارتياحٍ، حقاً، ونستبدُّ بباقي العالم.

قال " ميللر، لابد أنك تلقَّيتَ الكثير من العقاب. ومهما كان رأيي في أهلي - فهم أيضاً لهم عيوبهم، في الواقع - لم أكن أستطيع أن أتحدث عنهم كما تتحدث أنت عن أهلك. ويسعدني أكثر حين أتصوَّر كيف ستستمتع بوقتك بعض الوقت. السعادة مُقبلةٌ عليك، ولكن عليك أن تدفنَ الماضي! "

" تقصد أني يجب أن أكفَّ عن الرثاء لنفسي "، ورميته بابتسامةٍ رقيقة. " في الواقع يا ريب، إنني حقاً لا أشعرُ هكذا طوال الوقت. كما

هم. وأعتقد أنَّ ما لا أستطيع أن أتجاوزه هو أنَّ عليَّ أن أنتزع كل ما أحصل عليه منهم بالحيلة. وبماذا فزت؟ بفُتات. طبعاً أنا أُبالغ. ليس الكُلّ خذلَني. أولئك الذين تصرَّفوا بصورةٍ حَسَنة كان لديهم الحق بسلوكهم ذاك. الأمر أشبه بالإبريق الذي تجلبه أكثر مما ينبغي إلى البئر. وأنا أعرفُ حتماً كيف أجعلُ نفسي شخصاً مزعجاً. وبالنسبة إلى رجلٍ يرغبُ في أنْ يُذَلّ كنتُ شديد التكبُّر. كان لديَّ أسلوبٌ في سرقة الناس بطريقةٍ خاطئة، خاصةً حين أطلبُ مساعدة. في الواقع، أنا أحد أولئك الحمقى الذين يعتقدون أنَّ على الناس، الأصدقاء على أي حال، أن يفكِّروا في حقيقة أنَّ المرءَ في حاجة. حين تُصادفُ شحاذاً قذراً وفقيراً، فهل يتوجَّبُ عليه أن يجعلَ قلبَكَ يدمي قبل أن ترمي إليه قطعةً نقدية؟ لن يفعل إذا لم تكن كائناً حسّاساً، دمثاً. حين تراه مُطأطأ الرأس يفتِّشُ في المجرور عن عقب سيجارة منبوذ أو قطعة من شطيرةِ الأمس، ترفعُ له رأسه، وتعانقه، خاصّةً إذا كان القملُ يزحفُ عليه، وتقول: " ما هذا يا صديقي؟ هل أستطيع أن أقدِّمَ لك أي مساعدة؟ ". إنكَ لا تتجاهله وأنت تُثبِّتَ نَظَرَكَ على طائرٍ جالسٍ على سلكِ التلغراف ؛ لا تجعله يلاحقكَ بيدين ممدودتين. وهذا ما أقصده. لا عَجَبَ أنَّ أناساً كثيرين يصدّون شحاذاً حين يبادرهم بالحديث. من المُهين أن يتقدّمَ منكَ أحدهم هكذا: يجعلك تشعر بالذنب. إننا جميعاً كرماء، كلٌ على طريقته الخاصة. ولكن حالما يستجدي أحدهم شيئاً منا نوصد قلوبنا "

قال ريب، من الواضح أنه تأثُّراً بتلك التفجُّرات، " ميللر، أنتَ ما أسمِّيه باليهودي الصالح "

" تقصد يسوعُ آخر؟ "

twitter @baghdad_library

" نعم، ولِمَ لا ؟ إنَّ يسوع كان يهودياً صالحاً، على الرغم من أنه كان علينا أن نُعاني على مدى ألفَيّ عامٍ بسببه "

"والمغزى هو – لا تُرهق نفسك كثيراً! لا تحاول أن تُفرِطَ في الطيبة"

" أوه نعم يستطيعُ. قُمْ بما يلزم، وهذا كاف تماماً "

" أليسَ هو الأمر نفسه؟ "

تقريباً. المسالة هي أنَّ الله يعتني بأمرِ العالم. وعلينا نحنُ أن يعتني أحدنا بالآخر. ولو أنَّ الله سبحانه كان بحاجة إلى مساعدة لإدارة هذا العالم لوَهَبَنا قلوباً أكبر ؛ قلوباً، وليس عقول "

قال ريب " يا يسوع، ولكنك تتكلّم وكأنكَ يهودي. إنكَ تُذكّرني بفُقَهاء مُعيَّنين استمعتُ إليهم حين كنتُ طفلاً وكانوا يشرحون القانون. كان في استطاعتهم أن يقفزوا من أحد جانبي السياج إلى الجانب الآخر، كالماعز. فحين تكونُ بارداً يزوِّدونكَ بالحرارة، **والعكس بالعكس**. إنكَ لا تعرف أبداً أين تقف معهم. إليك ما أعني... وبما أنهم متحمِسون فإنهم دائماً يُنادون بالاعتدال. الأنبياء كانوا الرجال العنيفين ؛ كانوا طبقةً منفصلة. والورعون لم يكونوا يتحدثون بصَخَبٍ وهياج ؛ كانوا أنقياء، وهذا هو السبب. وأنت أيضاً نقي. أنا أعلم أنكَ كذلك "

بماذا كان يمكنُ أن أُجيبه؟ لقد كان ريب بسيطاً، وبحاجةٍ إلى صديق. وكائناً ما كان جوابي، وكيفما عاملته، لقد تصرَّفَ وكأني أغنيته. كنتُ صديقه. وسوف يبقى صديقي، مهما يحدث.

فيَ طريق عودتي إلى المنزل واصلتُ حواري الإفرادي الداخلي. " في الواقع، الأمرُ غاية في البساطة ؛ إنها الصداقة. كيف يجري القول المأثور القديم؟ لكي تحصل على صديقٍ يجب أن تكون صديقاً "

ولكن كان من الصعب تمييز الطريقة التي كنتُ بها صديقاً لريب - أو لأيّ شخصٍ، بهذا المعنى. كل ما استطعتُ أن أراه أني كنتُ صديقَ نفسي الحميم - وألدّ أعداء نفسي.

حين دفعتُ البابَ فاتحاً إياه كان لابد أن أقول لنفسي - " إذا كنتَ تعرف كل هذا القدر، يا صاحبي، فأنتَ تعرفُ الكثير "

اتخذتُ مجلسي المعتاد عند الآلة الكاتبة. قلتُ لنفسي " الآن ها أنت قد عدتَ إلى مملكتك الصغيرة. الآن تستطيع أن تلعب دور الله من جديد "

الموقفُ المضحكُ لي وأنا أكلِّمُ نفسي أسكتني. **يا إلهي!** وكأني بالأمس فقط كففتُ عن التواصُل معه. ووجدتني أتحادثُ معه وكأنه شيءٌ من الماضي. " لأنَّ اللهَ أحبَّ العالمَ إلى درجةِ أنه وَهَبَهُ ابنه الوحيد... ". وما أقلَّ ما أعطينا في المقابل. ماذا يمكنُ أن نقدِّمَ لك، أيها الآب العُلويّ، مقابل بركاتك؟ وجَهَرَ قلبي بما لديه وكأنَّ لديّ فكرةً عن المشاكل التي واجهتْ خالقَ الكون. ولم أشعر بالخجل من تآلفي مع خالقي. فهل كنتُ أُشكِّلُ جزءاً من ذلك الكُلّ الهائل الذي جَعَلَه واضحاً جليّاً، ربما لكي أدرك الحدود اللا متناهية لكينونته؟

كان قد مرَّ دهرٌ من الزمن منذ أن خاطبته بهذا الأسلوب الحميم. ما أشدّ الفَرق بين تلك الصلوات التي تخرجُ قسراً من يأسٍ صِرف، عندما أُناديه طَلَباً للرحمة - الرحمة، لا النعمة! - والأغاني السلسة التي يؤديها صوتان وتتولّد من الفهم المتواضع! أليسَ غريباً ذِكرُ هذا الحديث الأرضي-السماوي؟ سوف يظهرُ غالباً حين ترتفع معنوياتي... حين يتوفَّرُ سببٌ صغيرٌ، انتبه إلى هذا، لأُظهِرَ أي دلالة على الحيوية. وعلى

twitter @baghdad_library

الرغم من تنافُر ما سأقول، إلا أنه غالباً حين تُسدِّد الطبيعةُ القاسية لقَدَرِ الإنسان ضربةً بين عينيّ تحلِّقُ روحي ؛ وأيضاً حين، مثل دودة تحفرُ طريقها خلال الطين، كانت تأتيني الفكرةُ، المجنونة رما، القائلة إنَّ الأدنى مُرتبطٌ بالأسمى. ألم يخبرونا، ونحن أطفال، أنَّ الله يلاحظ سقوط طائر سنونو؟ وحتى لو أني لم أؤمن تماماً بهذا، مع ذلك أثار إعجابي. (" انظروا، وأنا الله، رب العالمين - هل يعصى عليّ شيء؟ ") إنه الوعي الكامل! سواء أكان مقبولاً أم غير مقبول، وهو إنجازٌ عظيم للفكر. أحياناً، وأنا طفل، حين يحدث أمرٌ خارق حقاً، كنتُ أهتفُ: "أرأيتَ هذا، يا الله؟ ". ما أروع الشعور بأنه كان حاضراً ضمن حدود السقف! لقد كان موجوداً فعلاً حينئذٍ، ولم يكن فكرةً تجريدية ما ورائيّة. كانت روحه تغمرُ كل شيء ؛ وكان جزءاً من كل شيء ومُهيمناً على كل شيء، في وقتٍ واحد. ثم تأتي أوقات - وحين أفكِّرُ في هذا أرسمُ ابتسامةً تكادُ تكونُ ملائكيّة - يضطرُ فيها المرء، لكي لا يُصابَ بجنونٍ هذيانيّ مُطلَق، إلى أن ينظر إلى الأمر (إلى الطبيعة الرهيبة، العبثية، للأشياء) ببساطةِ عينيّ الخالق، المسؤول عن كل شيء **ويفهمه**.

أتابعُ خُطايَ - هنا تحوَّلَ السير إلى قفز - وفكرة الخليقة، والعين التي ترى كل شيء، والحنو الذي يُعانقُ كل شيء، واقترابُ نأي الله، يُخيِّمُ فوقي كستار. يا لها من نكتة أن أكتب رواية عن شخصيات "متخيَّلة "، ومواقف " متخيَّلة "! ألم يتخيَّل رب الكون كلَّ شيء؟ أيُّ مهزلةٍ أنْ نسيطرَ على هذا العالم المُصْطَنَعْ! أمِنْ أجلِ هذا تضرّعتُ إلى الله تعالى أن يهبَني موهبة الكلام؟

سخافةُ موقفي التامة أوصلتني إلى نقطة السكون. ما الداعي إلى

الاستعجال إلى إنهاء الكتاب؟ في عقلي كان قد انتهى فعلاً. كنتُ قد أوصلتُ الدراما المتخيّلة إلى نهايتها المتخيّلة. كان في استطاعتي أن أرتاح برهة، مُعلّقاً فوق كياني الشبيه بكيان نملة، وتركتُ بضع شعرات تتحول إلى البياض.

عدتُ إلى الفراغ (حيث الله هو كل شيء) بأقصى إحساسٍ لذيذٍ بالارتياح. أستطيع أن أراه بكل وضوح - أعني نشوئي الأرضي، من المرحلة البرقيّة إلى الوقت الحاضر، وحتى ما بعد الحاضر. ماذا كان سبب الصراع أو هدفه؟ الاتحاد، ربما. ماذا يمكن أن تعني هذه الرغبة إلى التواصُل غير هذا؟ ما أروع الوصول إلى كل إنسان، الأرقى والأدنى، والحصول على جواب - يا لها من فكرةٍ مُدمِّرة! والارتعاش إلى الأبد، كقيثارة العالم. إنها مُخيفة، إذا ما دُفِعَتْ إلى مضامينها القصوى.

لعلّي لم أعنِ هذا بالضبط. ربما يكفي إقامة تواصل مع أقران المرء، الأرواح اللطيفة. ولكن مَنْ هم؟ أين كانوا؟ لا يمكن معرفة الجواب إلا إذا أطلقَ المرءُ سهماً في الهواء.

الآن تبرزُ صورة ؛ صورةُ العالم على هيئة شبكةٍ من القِوى المغناطيسية. وهذه الشبكة مُرصَّعةٌ بأرواحِ الأرضِ المُلتهبةِ كنوى تشعُّ حولها مراتبُ الإنسانيّة المتنوعة كالكويكبات. ونظراً للتوزُّع الهَرَميّ للقِوى والمؤهلات سادَ انسجامٌ رفيع. لم يكن التنافرُ ممكناً. وكل صِراع واضطراب، وفوضى، وشَغَب، حاول الإنسانُ عَبَثاً أن يتكيَّفَ معه كان بلا معنى. والعقلَ الذي غلّفَ الكونَ لم يُلاحظها. والنشاط المُهلك، الانتحاريّ، المهووس للكائنات الأرضيّة، بل حتى نشاطاتها الخيِّرة، والمُبجَّلة، والمُغرِقة في الإنسانيّة، كانت وهمية. وفي الشبكة المغناطيسية

twitter @baghdad_library

الحركةُ نفسها مُنعدمة. لا يوجد ما يمكنُ التوجُّه نحوه، ولا شيء للانسحاب منه، ولا شيء لبلوغه. ومجال القوة الشاسع اللا محدود كان أشبه بفكرةٍ مُعلّقةٍ، ملاحظةٍ مُعلّقة، والأيونات من الآن - وما هو "الآن"؟ - قد تُستبدَل بفكرةٍ أخرى.

بررررا كانت فكرةً مُصقعَةً أردتُ أن أضعها هناك على أرض العدم وأتأمّل إلى الأبد صورةَ الخليقة.

وعلى الفور خَطَرَ لي أنَّ عنصرَ الخلق، في مجال الكتابة، يكادُ لا تكون له صلةٌ بالفكر. " إنَّ الشجرةَ لا تبحث عن ثمارها ؛ إنها تُنتجُها". وانتهيتُ إلى أنَّ الكتابةَ تعني جمع ثِمار المُخيِّلة، والنضوج في حياةِ العقل كشجرةٍ تُنبتُ أوراقاً.

وسواءٌ أكانت فكرةً عميقة أم لا، إلا أنها كانت مُريحة. وبقفزةٍ واحدة أصبحتُ جالساً في حضن الآلهة. سمعتُ ضحكاً في كل مكان حولي. لا داعي للقيام بدورِ الله. لا داعي لإذهالِ أيّ شخص. خُذ القيثارةَ وانقُر نغمةً رنَّانة، تغطي على الفوضى كلها، وحتى على هدير الضحك. كانت هناك الموسيقا. موسيقا سرمديّة. ذلك كان معنى العقل الأسمى الذي غلّفَ الخليقة.

أتيتُ منزلِقاً أسفلَ السُلَّم بحركةٍ سريعة. وتلك كانت الفكرة اللذيذة التي أمسكتني من شعري... أنتَ، هناك، يا مَنْ تتظاهر بأنكَ ميِّتْ ومصلوب، أنتَ، هناك، أنتَ مع historia de calamitatis (تاريخ عَثَرات حظك) الرهيبة، لِمَ لا تُعيدُ تمثيلها برحٍ مسرحيّة؟ لِمَ لا تحكيها لنفسك وتستخلص شيئاً من الموسيقا منها؟ هل جراحُكَ حقيقية؟ أمَا تزال حيّةً، طريّةً؟ أم أنها أقربُ إلى مادةِ تلميع أظافر أدبيّة؟

ثم يأتي اللحنُ الختاميّ...

" قبِّلني، قبِّلني، **مرةً أخرى!** ". كنّا في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حينئذٍ، ماكغريغور وأنا، والفتاة التي صَحِبَها إلى الحفل كانت تدرسُ لتُصبحَ مغنّية أوبرا. كانت حسّاسة، وجذّابة، وأفضل ما استطاعَ أن يحصل عليه من فتيات حتى ذلك الحين، أو حتى بعد ذلك في هذا المجال. وقد أحبَّتهُ حبّاً مشبوباً ؛ أحبَّته على الرغم من معرفتها أنه طائش وغير وفيّ. وحين كان يقولُ بطريقته الرخيّة، المتهوِّرة - " أنا مجنونٌ بحبّك! " تنتشي. وكانت هناك أغنية تجمعُ بينهما، وكان لا يملُّ سماعها. " هلاّ غنّيتِها لي مرةً أخرى؟ لا أحد يُحسِنُ غِناءها مثلك ". وتغنّيها، مراراً وتكراراً. " قبِّلني، قبِّلني **مرة أخرى** ". وكنتُ كلما سمعتُها تغنيها أشعرُ بغصّة، ولكن في تلك الليلة شعرتُ أنَّ قلبي يكادُ ينفطر. ذلكَ أنه في تلك الليلة، وفي الزاوية الأبعد من المكان، التي بدَتْ لي بعيدة عني كبُعدها هي عني، جَلَسَتْ أونا غيفورد، العُلويّة، البعيدة عن المنال، أجملُ ألف مرة من بريما دونا ماكغريغور، الأشدّ غموضاً ألف مرة، والأبعد عن منالي ألف مرة. " قبِّلني، قبِّلني **مرةً أخرى!** ". كم كانت الكلمات تنفذ فيَّ! ولا أحد من تلك المجموعة المرحة، الصخّابة كان يعي وَجَعي. واقتربَ عازف الكمان، مرِحاً، لطيفاً، ووجنتاه ملتصقتان بآلته، وأخذ يرسمُ كل عبارة على الأوتار الصمّاء، ويعزف لحن الأغنية بنعومةٍ في أذني. **قبِّلني... قبِّلني... مرةً... أخرى.** لم أستطع أن أتحمَّل نغمةً واحدةً أخرى، فنحّيتُها، وانطلقتُ خارجاً. في الشارع ركضتُ، والدموعُ تنهمرُ على وجنتيَّ. وعند الناصية صادفتُ

twitter @baghdad_library

حصاناً يتجولُ في منتصف الشارع. كان أشدَّ ما رأتْ عينا إنسانٍ من الأفراس بؤساً وانكساراً. حاولتُ أن أخاطبَ ذا الأربع التائه ذاك - لم يعُد حصاناً، ولا حتى حيواناً. للوهلة الأولى حسبتُ أنه فهِمَ. فقد نظرَ إلى وجهي نظرةً طويلةً، ثم أصابَه الذُعرُ فأصدرَ صهيلاً يُجمِّدُ الدمَ في العروق وأطلقَ قائمه للريح. وحين وجدتُني وحيداً، أصدرتُ صوتاً أشبه بجَرَس مركبة جليد صدئ، وسقطتُ على الأرض. هدرَ الشارعُ الخالي بضجيجٍ مرِحٍ صاخبٍ. كان يَنْصَبُّ في أذنيّ كجَلَبَةٍ من ثُكناتٍ مملوءةٍ بجنودٍ سكارى. كانوا يُقيمون حفلاً من أجلي، وكانت حبيبتي موجودةً هناك ؛ شقراء كالثلج، وذات عينين مُرصَّعَتين بالنجوم، وبعيدة المنال إلى الأبد. إنها ملكة المنطقة القطبيّة.

لا أحدَ رآها هكذا. لا أحدَ غيري.

هذا الجرح يعودُ إلى عهدٍ بعيد. لم يعُد فيه الكثير من الدم. وسوف يليه آخر أسوأ منه ؛ أسوأ أكثر بكثير. أليس غريباً كيف أنه كلما أسرعتْ بالحدوث، توقَّعَ المرءُ أن تكونَ - نعم، **يتوقَّعها**! - أكبر حجماً، وأكثر دموية، وإيلاماً، وتدميراً، **وهكذا هو حالها دائماً**.

أغلقتُ كتابَ الذكريات. نعم، يجب استخلاصُ موسيقا من تلك الجِراح القديمة. لكنَّ الوقتَ لم يكن قد حان بعد. دعها تتقيَّح قليلاً في الظلام. حالما نصلُ إلى أوروبا سوف أُنمّي جَسَداً جديداً وروحاً جديدة. ما قيمة معاناةِ فتى من بروكلن بالنسبة إلى وارثي الوباء الأسود، وحرب المئة عام، وإبادة ساكني ألبي[١٥٠]، والصليبيين، ومحكمة التفتيش، مذبحة قبائل الهوغونوت[١٥١]، والثورة الفرنسية، وإعدام اليهود الذي لا

ينتهي، وغزوات قبائل الهَنّ، ومجيء الأتراك، وأمطار الضفادع والجراد، وأعمال الفاتيكان المُشينة، والزيادات المتفجِّرة في أعداد قاتلي الملوك، والشاذين جنسياً المهووسين، والفوضويين الضِعاف العقول، وأشباه روبسبيير وسان جوست، وآل هوهنشتاوفن وهوهنتزولرن، ومُطاردي الجرذان وساحقي العِظام؟ ماذا يمكنُ لحفنةٍ من البواسير العاطفية من الغلّة الأميركية أن تعني لراسكولنيكوف وآل كارامازوف في أوروبا القديمة؟

رأيتُني واقفاً على أعلى طاولة، أشبه بحمامةٍ تافهةٍ ترمي كُرات برازها الصغيرة البيضاء. أعلى الطاولة اسمه أوروبا، حولها يجتمعُ ملوكُ الروح، غافلون عن أوجاع العالم الجديد وآلامه. ماذا في وسعي أن أقول لهم بلغةِ الحمام الأبيض تلك؟ تقولُ الوفرةُ والأمانُ لأبناء وبنات الشهداء، ماذا يمكنُ للمرءِ أن يُنشئ في مناخٍ من السلام؟ صحيح أننا نشتركُ في الأسلاف أنفسهم، نتطابقُ في الأجداد المجهولي الأسماء الذين مُزِّقوا بالمدمة، وأُحرِقوا على الوتد، وتنقَّلوا من مكانٍ إلى آخر، ولكن – لم تعُد ذِكرى مصيرهم تكوينا ؛ لقد أدَرْنا ظهورنا لهذا الماضي المُعذَّب ؛ أنبَتنا أغصاناً غضَّةً من الجدعة المحروقة لشجرةِ النَسَب. وبما أننا شربنا من مياه نهر النسيان، أصبحنا سلالة من العاقّين الجاحدين، مجرَّدين من الحبل السُرّي، نتطوَّحُ وكأننا مؤلَّفين من قِطعٍ مُركَّبة.

قريباً، يا أعزائي رجال أوروبا، سننضمُ إليكم بلحمنا ودمنا. نحن قادمون – بحقائبنا الأنيقة، وجوازات سفرنا المُذهَّبةِ الحواف، وأوراقنا النقدية ذات فئة المئة دولار، وبوليصات التأمين ضد أخطار السفر، ودليل السائحين، وآرائنا المُملّة، وتحاملاتنا الحقيرة، وأحكامنا الفجّة،

twitter @baghdad_library

ونظاراتنا الورديّة التي تقودنا إلى الاعتقاد بأنَّ كل شيء على ما يرام، وأنَّ كل شيء يتحقَّقُ في نهاية المطاف، وأنَّ الله هو المحبَّة وأنَّ العقل هو كل شيء. حين ترونـنا كـمـا نحن، حين تسـمعـوننا نُثـرثرُ كـالغـربان، ستعرفون أنكم لم تخسروا شيئاً ببقائكم حيث أنتم. ليس لديكم سبب لتحسدونا على أجسادنا الجديدة النضرة، ودمنا الأحمر الكثيف. أشفقوا علينا نحنُ الشديدو الفجاجة، والهشاشة، والسريعو التأذَي، والجديدون حتى التقرُّح ولا نفقدُ بريقنا! إننا نذوي بسرعة...

twitter @baghdad_library

الفصل العشرون

مع اقتراب موعد رحيلنا، أخذ رأسي يمتلئُ بالشوارع وبساحاتِ القتال، والأنصاب التذكاريّة، والكاتدرائيات، والربيع يذوبُ كقمرٍ درافيدي[152]، والقلب يخفقُ بعنفٍ، والأحلام الأكثر تكاثراً، وكل خليّة في جسمي تصرخُ مُمَجِّدةً الله. في أوقات الصباح تشعرُ السيدة سكولسكي بثمالةِ عطر الربيع فتفتح النوافذ على مصارعها، ويكونُ صوت سيرتا الثاقب (Reizei, rezei) قد بدأ يستدعيني. لم يعُد سيروتا القديم المألوف، بل مُؤذِّناً في قمة انفعاله مُرسلاً نشيد الإنشاد إلى الشمس. وقرَّرتُ ألا أهتمَّ بما تعنيه كلماته، سواءٌ أكانت لعنات أم نواحاً. " اقبلْ شُكرنا، أيها الكيان العُلوي المجهول...! ". وأتابعه كأحد الأتقياء، وتتحرَّكُ شفتايَ بحركةٍ خرساء على إيقاع كلماته، وأهتزُّ إلى الأمام والخلف على كاحليّ قدَمَيّ، وأُرفرفُ رموش عينيّ، وأعفِّرُ نفسي بالرماد، وأنثرُ الدُررَ والتيجان المُرصَّعَةَ بالأحجار الكريمة في كل اتجاه، ومع وقع النغمات الأخيرة المُخيفة أنهضُ وأقفُ على أطراف أصابع قدميَّ لأُطلقها صوب السماء. ثم، أرفعُ ذراعي الأيمن، وألمسُ بأطراف الأصابع برفقٍ التاجَ الذي يتبوَّأ رأسي، وأدورُ ببطءٍ حول محور نعيمي، وشفتايَ تُصدِران صوت قيثارة يهودية. وكشجرة تنفض عنها نُعاس الشتاء،

تجمَّعَت الفراشات من رأسي هاتفةً المجدُ لله، المجدُ لله في الأعالي! باركتُ يعقوبَ، وحزقيالَ، وعلى التوالي راحيل، وساره، وراعوث، واستر. آه ما كان أشدَّ دفء تلك الموسيقا المنسابة عبر النوافذ المُشرَّعة، وتثبيتها الحقيقي للقلب! شكراً لك، يا صاحبة المنزل العزيزة، سوف أتذكّرك في أحلامي! شكراً لك، يا أبو الحنّاء، لأنكَ وَمَضتَ ماراً هذا الصباح! شكراً لكم يا إخوتي السود، إنَّ يومكم قادمٌ! شكراً لكَ، يا عزيزي ريب، سوف أصلّي لأجلك في كنيسٍ مُدمَّر! شكراً لكِ، يا براعم الصباح الباكر، لتشريفكِ لي بعطرك الرقيق! زوف، توفت، غيمل، بيمل... اسمعوا، اسمعوا، إنه يُغني، سيد المُغنّين! الحمد لله! المجد للملك داوود! ولسليمان المتألّق بحكمته! البحر مفتوحٌ أمامنا، والصقورُ تشيرُ إلى الطريق. ولكن غنِّ لي نغمةً أخرى، أيها المُغني الحبيب... نغمةً عالية وثاقبة! دعْها تُهشِّمُ درع صدر الكاهن الأكبر! دعها تنتزع صراخ الملعونين!

وفَعَلها، صاحبي المُغني الرائع، الرائع الـ cantatibus. بوركتَ، يا ابنَ إسرائيل! بوركت!

" ألستَ مجنوناً قليلاً هذا الصباح؟ "

" نعم، نعم، أنا كذلك. ولكن يمكنني أن أُصبِحَ أكثر جنوناً. ولِمَ لا؟ فحين يُطلَقُ سراح سجينٍ من زنزانته ألا يُصَابُ بالجنون؟ لقد خدمت ست حيوات بالإضافة إلى خمسٍ وثلاثين عاماً ونصف العام وثلاثة عشرَ يوماً. الآن أطلقوا سراحي. الحمدُ لله، لم يَفُتْ الأوان بعد! "

أمسكتُ بها بكلتا يديّ وانحنيتُ قليلاً، وكأنما لأباشِرَ رقصة مينيويت.

twitter @baghdad_library

" أنت، أنتِ التي وفَّرتِ لي العذر. أرجوكِ، تبوّلي عليَّ. سيكونُ ذلك أشبه بمَنْحِ البركة. آه، كم كنتُ كالسائر في نومه! "

ملتُ من النافذةِ واستنشقتُ نَفَساً عميقاً من الربيع (كان صباحاً جديراً بشيلي أن يختاره ليكونَ موضوعاً لقصيدة) " أتريدُ شيئاً خاصاً لطعام الإفطار هذا الصباح؟ ". استدرتُ لأواجهها. " فقط تصوَّري - لا كدَّاً عبودياً بعد اليوم، ولا استجداءً، ولا غشَّاً، ولا توسُّلاً أو تملُّقاً. إنني حرٌ في أن أمشي، حرٌ في أن أتكلَّم، حرٌ في أن أُفكر، حرٌ في أنْ أحلُمَ، حرٌّ، حرٌّ، حرّاً! "

ثم جاءني صوتُها الرقيق " ولكن يا فال، يا عزيزي، لن نمكُثَ هناك إلى الأبد، كما تعلم "

" إنَّ يوماً نقضيه هناك سيكونُ أشبه بالأبدية هنا. ثم ما أدراكِ إنْ كانت إقامتنا ستطولُ أم تقصُر؟ قد تندلعُ الحرب ؛ قد لا نتمكَّنُ من العودة. مَنْ يدري ما هو نصيبُ الإنسان على الأرض؟ "

" فال، أنتَ تُضخِّمُ الأمر كثيراً. إنها مجرَّدُ فترة عطلة، لا أكثر "

" ليس بالنسبةِ إليّ. بالنسبة إليّ هي اختراق. إنني أرفضُ أن أمكثَ وفِقَ وَعدٍ أقطعه. لقد أدَّيتُ فترةَ خدمتي، وانتهيتُ منها الآن "

جررتُها نحو النافذة. " انظري! انظري هناك! دقِّقي النظر! هذه هي **أميركا** . أترين تلك الأشجار؟ أترين تلك الأسيجة؟ أترين تلك المنازل؟ وأولئك البلهاء، المتدلّين من النافذة هناك؟ أتظنين أني سأشتاقُ إليهم؟ **مستحيل!** "، وبدأتُ أقومُ بإيماءاتٍ كأني مخبول. وأمسكتُ أنفي ساخراً منهم. " أأنا أشتاقُ إليكم، أيها المغفَّلون، أيها البُلَهاء؟ ليس هذا الرجل. **أ..بَـ..داً!** "

قـادتني إلى الطاولة؟ " تعالَ، يا فـال، تعـالَ واجلس. تناول شيئـاً على الإفطار "

" حسنٌ إذن، **إلى الإفطار!** هذا الصباح أحبُّ أن أتناولَ شريحةً من البطيخ، والجناح الأيسـر لديك الحبَش، وقطعـةً صغـيـرة من حـيـوان الأبوسوم[١٥٣] وبعضاً من خُبز الذرة على الطريقة القديمة. إنَّ سيدنا إبراهيم أعتقني. عيص نِفاح عائدٌ إلى كارولاينا. سيدنا إبراهيم أعتقنا كلنا. **المجدُ لله!** "

قلتُ، مُستعيداً نبرة صوتي البيضاء التافهة الخاصة، " وزيادةً على ذلك لقد تخلّيتُ عن تأليف الروايات. أنا عضوٌ مُنتَقَى من عائلة البط. سوفَ أؤرِّخُ بؤسي المُكتَسَب بقسوة وأعزفُه بنشاز - " بالنغمات الجُزيئيّةِ العُليا ". ما رأيك بهذا؟ "

وَضَعَتْ بيضَتين مسلوقتين سلقاً قليلاً أمامي، وقطعةً من الخبز المُحمَّص وبعض المربّى. " ستجهزُ القهوةُ حالاً يا عزيزي. استمرّ في الكلام! "

" أتُسمِّين هذا كلاماً، هه؟ اسمعي، أما زالتْ لدينا مقطوعة Poeme d'extase (قصيدة النشوة[١٥٤])؟ أديريها، إذا عثرتِ عليها. وارفعي الصوت. إنَّ موسيقاه تبدو كما أعتقد - أحياناً. فيها تلك اللهفة الكونيّة النائية. وهي تتشابكُ بتعقيدٍ قُدسيّ. كلها نار وهواء. في المرة الأولى التي تعرفتُ عليها أدرتُها مراراً وتكراراً. لم أقوَ على إيقافها. كان الأمرُ أشبه بحمّامٍ من الثلج، والكوكائين وأقواس قُزح. وبقيتُ علة مدى أسابيع في حالةٍ من الغشية. كان قد حدثَ لي شيء. الآن قد يبدو كلامي جنونياً، لكنه صحيح. كلما تملَّكتني فكرةٌ ما ينفتحُ

twitter @baghdad_library

داخل صدري بابٌ صغير، وهناك، يجلسُ عصفور، ويُغرِّدُ قائلاً " فكِّر مليّاً! فكِّر ملياً حتى تُشبعها تفكيراً! ". وأفعلُ وحقُّ الله. لم أبذل في ذلك أي جهد. مثل " دراسةٍ (*)" تنزلقُ على نهرٍ جليديّ... "

بينما كنتُ ألتهمُ البيضتين المسلوقتين قليلاً حوَّمَتْ ابتسامةٌ خاصةٌ على شفتيّ.

قالتْ " ما هذا؟ ماذا الآن، يا حبيبي المجنون؟ "

" جياد. هذا ما أفكِّرُ فيه. أتمنّى لو أننا نذهبُ إلى روسيا أولاً. أتذكرين غوغول والعربة التي يجرّها ثلاثةُ جياد؟ أتظنين أنه كانَ قد كتبَ تلك الفقرة لو أنَّ روسيا كانت مُمَكننة؟ لقد كان يتحدثُ عن الجياد. فحولاً، هذا ما كانوه. إنَّ الجوادَ ينطلقُ كالريح. جوادٌ يطير. إنه جوادٌ مفعمٌ بالحيوية، على أي حال. كيف كان يمكنُ لهومر أن يُحرِّكَ الآلهة جيئةً وذهاباً من دون تلك الجياد الناريّة التي استخدمها؟ أيمكنك أن تتصورينه يُناورُ تلك الآلهة المُحبةُ للنزاع بسيارةِ رولز رويس؟ فلنحثَّ النشوة... وهذا يُعيدُني إلى سكريابين... لمْ تجديه أليس كذلك؟... يجب أنْ تستخدمي العوامل الكونيّة. وإلى جانب الأذرُع، والسيقان، والحوافر، والمخالب، والأنياب، والكوسا، والبرغل يجب أن تُضيفي المواكب الاستوائية، والمدّ والجزر، واقترانات الشمس، والقمر، والكواكب، ونوبات هذيان الجنون. إلى جانب أقواس القزح، والمذنبات، والأنوار الشمالية يجب أن تحصلي على كسوفٍ وخسوفٍ، وبقعٍ شمسيةٍ، وأوبئة، ومعجزات... ومختلف أنواع الأشياء، بما فيها المهرِّجون، والسَحَرَة، والساحرات، وجانٌ خبثاء، وجاك الخنَّاق، وكَهَنَةٌ فاسقون، وملوك مُتخمون، وقديسون ورعون... ولكن ليس سيارات، ولا برّادات، ولا غسَّالات، ولا دبابات، ولا أعمدة تلغراف "

---

* – دراسة : مقطوعة موسيقية على البيانو .

صباحُ ربيعيٌّ جميل جداً. هل أتيتُ على ذِكرِ شيلي؟ إنه أجودْ من أن يُناسبَ أشباهه، أو أشباه كيتس أو ووردسوورث؛ إنه صباحُ جديرُ بجيكوب بوهمه، ولا أقلّ. لا ذباب بعد، ولا بعوض، ولا حتى صُرصار في الأفق. رائع. رائع جداً. (ليتها تعثُر على أسطوانة سكريابين تلك!)

لابدَّ أنه في صباحٍ من هذا عَبَرَتْ جان دارك شينو في طريقها إلى مقابلة الملك. ولسوء الحظ لم يكن رابليه قد وُلِدَ بعد، وإلا لكان لَمَحَها من مهده بالقُربِ من النافذة. آه، يا لروعة ذلك المشهد السماوي الذي كانت نافذته تُطلُّ عليه!

نعم، حتى لو أنَّ ماكغريغور ظهرَ فجأةً لما وَقَعتُ في الخطيئة. كنتُ سأجعله يجلس وأخبره عن ماساتشو[١٥٥] أو عن الـ Vita Nuova (الحياة الجديدة[١٥٦]). ويمكنني أيضاً أن أقرأ شيئاً من شيكسبير، في صباحِ يومٍ يفوح بالعطر كهذا. أقرأ من القصائد، وليس من المسرحيات.

سَمَّتْها عطلة. الكلمة أزعجتني. كان يمكنُ أيضاً أن تسمِّيها coitus interruptus (انسحابُ القضيب عمداً من الفرج قبل القذف)

(يجب أن أتذكَّر أنْ أحصل على عنوان أقربائها في فيينا ورومانيا)

*

لم يعُد هناك ما يشدُّني إلى داخل المنزل. ها قد اكتملت الرواية، والنقود في المصرف، وصندوق الملابس مزدحمٌ، وجوازا السفر مُعدّان، وملاك الرحمة يحرسُ الجَدَث. وفحولُ غوغول الجامحة ما تزال تسابقُ الريح.

" قُدنا، أيها الضوء الطيِّب! "

سألتْ، حين تحرَّكتُ باتجاه الباب، " لماذا لا تحضر عرضاً سينمائياً؟"

أجبتُ " قد أفعلُ. لا تقومي بأي عملٍ حتى أعود "

twitter @baghdad_library

قرَّرتُ بتهوُّرٍ أن أودِّعَ ريب. قد تكون المرة الأخيرة التي أطأ فيها محلّه الشبحي. (هكذا كان فعلاً). توقَّفتُ أمام كشكٍ لبيع الصحف كائنٍ عند ناصيةِ الشارع واشتريتُ صحيفة وتركتُ قطعةً بخمسين سنتاً في كأسٍ من القصدير؛ كتعويضٍ عن النكلات والدايمات التي كنتُ قد سلبتُها من بائع الصحف الأعمى في بورو هول. شعرتُ بتحسُّنٍ، على الرغم من أني وضعتُها في كأسِ الرجل الخطأ. سدّدتُ لنفسي ضربةً على بطني من أجل ذلك.

كان ريب موجوداً في خلفية المخزن يكنسه. وهتفَ " يا سلام، يا سلام، انظروا مَنْ هنا! "

"صباحٌ رائع، أليس كذلك؟ ألا يجعلُكَ تشعر برغبةٍ في الانطلاق؟"

قال، وهو يضع المكنسة جانباً، " علامَ تنوي؟ "

" ليستْ لديّ أدنى فكرة يا ريب. فقط جئتُ لأحييك "

" ألا ترغب في الذهاب في جولةٍ بالسيارة؟ "

" كنتُ أودُّ ذلك، لو كان لديك مركبةٌ يجرّها جوادان، أو زوجاً من الأحصنة. كلا، ليس اليوم. هذا اليوم مُخصَّصٌ للمشي، وليس للركوب"، وأرجعتُ مرفقيَّ إلى الخلف، وقوّستُ رقبتي، وخببتُ نحو الباب جيئةً وذهاباً. " أترى، سوف تحملاني بعيداً، هاتان الساقان. لا حاجةَ إلى أنْ أنطلق بسرعة تسعين أو مئة "

" تبدو في مزاجٍ رائق. قريباً ستسيرُ في شوارع باريس "

" باريس، فيينا، براغ، بودابست... وربما وارسو، وموسكو، وأوديسا. مَنْ يدري؟ "

" ميللر، إني أحسدُكَ "

صمتٌ وجيز.

" قُلْ لي، لِمَ لا تقوم بزيارة مكسيم غوركي ما دمتَ وصلتَ إلى هناك؟ "

" أما يزال غوركي حياً؟ "

" طبعاً حي[157]. وسأذكُر لك اسمَ رجلٍ آخر يجب أن تزوره، على الرغم من أنه ربما يكون قد توفي الآن "

" ومَنْ هو؟ "

" هنري باربوس "

" أودُّ حتماً أن أفعل، لكنكَ تعرفني... أنا رعديد. ثم، بأي ذريعة سأقتحمُ عليهما عزلتهما؟ "

صرخَ " ذريعة؟ بالعكس، سوف يسعدهما أن يتعرّفا عليك "

" ريب، إنكَ تحملُ رأياً مُضخَّماً عني "

" هراء! سوف يستقبلانك بأذرعٍ مفتوحة "

" حسنٌ، سأحتفظ بهذا في ذاكرتي، سوف أرحلُ الآن، سأقدِّمُ آخرَ احتراماتي للموتى. الوداع! "

على مَبعدةٍ بضعة أبواب صَدَحَ صوتُ مذياعٍ عالي. كان إعلاناً تجارياً عن مفارش مائدة " العشاء الأخير "، مقابل فقط دولارين للزوج منها.

طريقي يمرُّ من جادّة مرتل، موحشة، كئيبة، نخرة، جادّة مرتل يمرُّ من وسطها خط القطار المرفوع. كانت الشمسُ تصبُّ أَشعتها الذهبية من خلال قضبان الربط والعوارض الحديدية. وبما أني لم أعُد سجيناً اتَّخذَ

twitter @baghdad_library

الشارعُ هيئةً أخرى. الآن أصبحتُ سائحاً، لديّ الوقتُ كله وعينٌ توّاقةٌ إلى مشاهدةِ كل شيء. ذهبَ العفريتُ الخبيث الذي يميلُ إلى اليمين تحت ثقل ضَجَره. أمامَ المخبز حيثُ التهمتُ مع أومارا ذات يوم شوربةِ البيض توقّفتُ برهةً لأدقِّقَ النظر في واجهةِ العَرض. لا تزالُ في الواجهة أنواعُ الكعك الهشّ القديمة نفسها وكعك التفاح، محميّة بورقِ اللف القديم نفسه؟ كان مخبزاً ألمانياً، طبعاً. (طانت ميليا كانت دائماً تتكلّم بحبٍ عن الـ konditorei (المخابز) التي زارتْها في بريمن وهامبورغ. أقولُ بحبٍ، لأنها لم تكنْ تميِّز بين المعجّنات والكائنات الطيبة الأخرى[١٥٨]) كلا، لم يكن شارعاً شنيعاً في الأصل، إلا إذا كنتَ زائراً من كوكبِ عُطارد النائي.

أثناء تقدُّمي أفكِّرُ في آل بودنبروك[١٥٩]، ثم في تونيو كروغر[١٦٠]. إنه العزيز الحميم توماس مان. يا له من حِرَفيّ رائع. (كان يجب أن أشتري قطعةً من !Streuselkuchen) نعم، ففي إحدى صِوره الفوتوغرافيّة بدا شبيهاً قليلاً بصاحب محل. أكادُ أراه يكتبُ Novellen (رواياته) في خلفية مخزن بيع أطعمة مُعلّبة، مع ياردة من قطع السجق المُتَّصِلة ملفوفة حول عنقه. كم كان سيُحسِنُ استخدامَ جادة مرتل! اتَّصِلْ بغوركي ما دمتَ قد وصلتَ إلى هناك.أليس هذا رائعاً؟ والأسهل منه جلبُ جمهورٍ مع ملك بلغاريا. إنْ كان لابد من القيام باتصالات فقد اخترتُ الرجل الذي سأتَّصِلُ به: إنه إيلي فور. تُرى كيفَ سيتقبَّل الأمر إذا طلبت أن أُقبِّل يده؟

مرّتْ حافلة وهي تقرقعُ. لمحتُ شارب السائق الكثّ لدى اندفاعها

مارةً من أمامي. بريستو! قفز الاسم إلى ذاكرتي كالوميض. إنه كنوت هامسن. تصورّ هذا، الروائي الذي فازَ أخيراً بجائزة نوبل يعمل سائق حافلة في هذه الأرض التي تخلّى عنها الله! أين حدث ذلك - أفي شيكاغو؟ نعم، في شيكاغو. ثم عادَ إلى النرويج وألّفَ " الجوع ". أم هل ألّفَ أولاً " الجوع " ومن ثم عملَ كسائق حافلة؟ مهما يكن، لم يقدّمْ أبداً عملاً مُخفقاً.

لاحظتُ وجودَ مقعدٍ عند حافة الشارع، (شيء في منتهى الغرابة) ومثل الملاك جبريل أخفضتُ طيزي. أوف! ما معنى أن تسير حتى تُرهِقَ ساقيك؟ أسندتُ ظهري وفتحتُ فمي واسعاً لأشرب أشعة الشمس. **كيف حالك؟** سألتُ أميركا، بكل تكويناتها اللعينة. أليست بلداً غريب الأطوار؟ لاحظ العصافير! تبدو رثّةً، وكئيبةً، إه، ماذا، ماذا؟

أغمضتُ عينيّ، لا لأغفو بل لأستدعي صورة موطن السَلَف وكأنها منقولة من القرون الوسطى. كم بدتْ فاتنة، ومبهجة، تلك القرية المنسية! كانت متاهةً من الشوارع ذات الجدران، وأقنية تتلوى فيها كالأفاعي، وتماثيل (لموسيقيين فقط)، ومجمّعات تجارية، ونوافير مياه، وساحات، وزوايا - وكل زقاق يؤدي إلى محورٍ تقومُ في مركزه دارٌ حولاء للعبادة بأبراجها الدقيقة. كل شيء يتحرّك ببطء حلزون. ثمة بجع يطفو فوق سطح مياه البحيرة الساكنة؛ وحمام يهدل في برج جرس؛ الكنيسة، وظِلاّت، مُخطَّطة كالبناطيل، تُظلّل المساطب ذات الفسيفساء. كان كل شيء شديد السكينة، والرعوية، وأشبه بالحلم!

عركتُ عينيَّ. من أين أتيتُ بهذا؟ أمِنْ بوكستهوده[161] ربما؟

twitter @baghdad_library

(بالطريقة التي كان جدّي يلفظ بها الكلمة وكأنها اسم مكان وليس شخص)

" لا تدعه يُفرِط في القراءة ؛ إنها تؤذي عينيه "

كان يجلس على حافة مقعد عمله، متراكب لساقين، يصنع المعاطف لجماعة أيزاك ووكر من السادة الراقين، وأقرأ بصوتٍ عالٍ له من قصص هانز كريستيان أندرسُن.

ويقول برفقٍ " الآن ضعْ الكتاب جانباً، واخرجْ لتلعب "

وانزل إلى الفناء، وبما أنه لم يكن لدي لأي شيء مُثير للاهتمام أفعله، أسترقُ النظر من بين ألواح خشب السياج الذي يفصل ملكيّتنا عن معمل تدخين الأسماك، فأشاهدُ صفوفاً وصفوفاً من الأسماك يُغطيها السواد. ويكادُ العبق اللاذع، الحاد يكونُ طاغياً. إنها مُعلّقة من خياشيمها، تلك الأسماك المتصلّبة، المذعورة، عيونها الجاحظة تلمعُ في الظلام كأحجارٍ كريمة مُبلّلة.

وأعود إلى مقعد جدّي، وأسأله لماذا الأشياء الميّتة دائماً متيبّسة جداً. فيجيب: " لأنه لم يبقَ فيهم أي فرح "

أسأله " لماذا غادرتَ ألمانيا ؟ "

" لأني لم أرغب في أن أصبحَ جندياً "

قلتُ " أنا أحبّ أن أكون جندياً "

قال " انتظر حتى ينطلق الرصاص "

أخذ يهمهمُ لحناً وهو يُخيط. " ابعدي أيتها الذبابة، لا تزعجيني! "

" وماذا تريد أن تكون حين تكبر " خياطاً، كوالدك؟ "

أجبتُ بسرعة " أريد أن أكونَ بحّاراً ؛ أريدُ أن أشاهد العالم "

" إذن لا تُكثِر من القراءة. سوف تحتاج إلى عينين صحيحتين إذا أردتَ أن تصبح بحاراً "

" حاضر !Grasspapa" (هكذا كنا نناديه) "إلى اللقاء !Grasspapa"

أذكُرُ الطريقةَ التي كان ينظر بها إليّ وأنا أمشي قاصداً الباب. كانت نظرةً فضوليّة. فيمَ كان يفكّر يا تُرى؟ أفي أني لن أصبح بحّاراً أبداً؟"

قاطَعَ استعادتي لأحداث الماضي اقترابُ متشرِّدٍ يبدو عليه منتهى الرثاثة ويمد يده لي، فهل لي أن أمنحه قطعةً نقدية صغيرة، أراد أن يعرف.

قلتُ " طبعاً، أستطيعُ أن أمنحك الكثير منها، إذا كنتُ بحاجةٍ إليها "

اتَخذ له مجلساً إلى جواري. كان يرتعشُ كأنه مُصابٌ بالشلل الارتجافي؟ قدَّمتُ له سيجارة وأشعلتُها له.

قلتُ " أليسَ دولارٌ أفضل من دايم؟ "

رماني بنظرةٍ غريبةٍ، كحصانٍ يوشكُ أن ينفر. قال " ما الأمر؟ ما الموضوع؟ "

أشعلتُ سيجارةً لنفسي، ومددتُ ساقيّ على طوليهما، وببطء، كأني أحلُّ لغز بوليصة شحن، أجبت " حين يوشكُ رجلٌ أن يباشر رحلةً إلى أراضٍ أجنبية، لكي يأكل ويشرب حتى الامتلاء، ويتجوَّل كما يرغب أن يتجوَّل، ماذا يعني دولار زيادة أو نقصان؟ إنَّ ما تحتاجُ إليه هو جرعةٌ من الجودار، أنا تناولتُها. من ناحيتي، ما أريده هو أن أُحسِن الفرنسية، والإيطالية، والأسبانية، والروسية، وربما أيضاً قليلاً من

twitter @baghdad_library

العربيـة. ولو أنَّ الخيـار لي لأبحرتُ في هذه اللحظة. ولكن لا داعي لأن تقلق على هذا. اسمع، يمكنني أن أمنحكَ دولاراً، أو دولارين، أو خمسة دولارات. خـمسـة هو أعلى مـبلغ - إلا إذا كـانت نسـاء البـانشي[١٦٢] يلاحقنكَ. ما قولك؟ ولستَ مضطراً أيضاً إلى أن تُرتّل أي تراتيل... "

كان متوتر الأعصاب. فابتعدَ عني بحركةٍ غريزية، وكأني دواءٌ كريه.

قـال " يا سـيـد، إنّ مـا أحـتـاجُ إليـه هو ربع دولار... قطعـتـان صغيرتان، هذا يكفي. وسوف أكونُ لك من الشاكرين "

نهضَ نصف نهضة على قدميه، ومدَّ لي راحة يده.

ناشدتُه " لا داعي إلى العـجلة. تقـول، ربعـاً. ما فـائدة ربع؟ مـاذا يمكنك أن تشتـري به؟ لماذا تقـوم بأنصـاف الأعـمال؟ هذا ليس من شيم أميـركا. لِمَ لا تشتـري لنفسك دورقاً من الأحشاء العفنة؟ وحلاقةَ ذقنٍ وقصّ الشعـر أيضاً ؟ كل شيء مـا عدا رولز رويس. لقد قلتُ له، خمسة هو أعلى مبلغ. فقط انطق "

" صدقاً، يا سيد، لستُ بحاجة إلى ذلك المقدار "

"بل تحتاج إلى هذا أيضاً. كيف تقول هذا؟ أنتَ بحاجة إلى الكثير والكثير من الأشياء-طعام، ونوم، وصابون وماء، ومزيد من السُكَّر..."

" قطعتان، هذا كل ما أريده، يا سيد "

أخرجتُ ربعاً ووضعته في راحة يده. قلتُ " أوكيه، إذا كان هذا ما تريده "

كـان يرتجفُ إلى درجة أنَّ القطعـة النقدية انزلقتْ من يده وتدحرجتْ وسقطتْ في المجرور. حين انحنى ليلتقطها سحبتُه إلى الخلف.

قلت " دعها في مكانها. قد يأتي أحدهم ويجدها. الحظ الحَسَن، كما تعلم. هاكَ، خذ آخر. هذه المرة اقبضه جيداً! "

نهضَ واقفاً، وتسمَّرَت عيناه على القطعة المستقرّة في المجرور.

" ألا أستطيع أن أحصل على تلك أيضاً، يا سيد؟ "

" طبعاً تستطيع. ولكن، ماذا عن الشخص الآخر؟ "

" أي شخصٍ آخر؟ "

" أي رجل عجوز. ما الفرق؟ "

أمسكتُ به من كُمِّه. " انتظر لحظة، لدي فكرةٌ أفضل. اترك ذلك الربع حيث هو وسأعطيك ورقة نقدية بدلاً عنه. هل تمانع في أن تأخذ دولاراً؟ "، وأخرجتُ حزمةً من الأوراق الملية من جيب بنطالي وسحبتُ منها ورقةً بقيمة دولار. قلت له وأنا أُطبِق له يده عليها، " قبل أن تحوِّل هذه إلى مزيدٍ من السُم، أصغِ إليّ ما سأقول، إنها فكرةٌ جيدة حقاً. تخيَّل إنْ استطعتَ أنكَ في الغد وأنَّكَ تمرُّ من هذه البقعة بالذات، تتساءل مَنْ الذي سيعطيك دائماً. طبعاً أنا لن أكونَ حاضراً. سأكونُ على متن باخرة " إيل دو فرانس ". والآن، حلقُكَ جاف وما إلى ذلك. ومَنْ سيتقدَّم منك إلا رجلٌ حَسَنَ الهندام لا يشغله أي شيء - مثلي - ويرتمي... هنا على هذا المقعد نفسه. والآن ماذا ستفعل؟ تقتربُ منه، كما تفعل دائماً، وتقول - " هلاّ منحتني دائماً، يا سيد؟ " فيهزُّ رأسه رافضاً. كلا! والآن، هاكَ مفاجأةً. إليكَ الفكرةَ التي أعددتُها لك. لا تهرب جاراً ذيلك بين ساقيك. بل قِفْ بثبات وابتسم... ابتسامةً لطيفةً... ثم قُلْ: " يا سيد، إنني فقط أمزح. أنا لستُ بحاجة إلى أي

twitter @baghdad_library

دائم. هاكَ دولاراً لأجلك، وليـرحمكَ الله دائمـاً ". أترى؟ ألن يكونَ هذا شيئاً جميلاً؟ "

قـبضَ بقـوةٍ على الورقـة النقـدية التي كنتُ أحـملهـا بين أصـابعي مذعوراً وأخذ يُكافحُ ليتخلّصَ من قبضة يدي.

قال وهو يتراجع إلى الخلف، " يا سيد، أنت مجنون. مجنون تماماً " ثم استدارَ وابتـعدَ مسرعاً. وعلى مبعدَةٍ بضع ياردات توقّفَ، وتلفّتَ حوله . وهتفَ بأعلى صوته، وهو يلوِّح بقبضته في وجهي ويرسمُ ابتسامةً عريضةً كمخبول، " أنتَ، أنتَ أيها الأحمق المجنون! أنت صرصار، قذر! سأتبوّلُ عليك، أيهـا الأبله! "، ولوّحَ بالورقـة الماليـة في الهـواء، ورسمَ بضعـة تعـبيـرات قـذرة على وجـهـه، ومـدَّ لـي لسـانه، ثم وضعَ ذيله بين أسنانه وفرَّ هارباً.

قلتُ لنفسي " هذا هو حال الأمر. لم يتقبَّل مجرَّد مزحة صغيرة. لو أني منحتُهُ ستَّ قطعٍ وقلتُ له " والآن حاول أن تُقلِّد محبس الروائح النتنة في أنبوب القـازورات "، لكان أبدى لي امتنانه. وانحنيتُ والتقطتُ الربع من المجرور. غـمغـمتُ، وأنا أضعُ القطعة النقدية على المقعـد " الآن سوف يُدهَش حقاً "

فـتـحتُ الصـحيـفة، وانتـقلتُ إلى قـسم العـروض المسـرحيـة، وبدأتُ أسـتـعـرضُ البـرنامج. لا شيء يثـيـر الإعـجـاب. والأفـلام السـينمـائيـة؟ التوليفة القديمة نفسها. ومسرح المنوعات؟ مغلق للتصليحات.

يا لهـا من مـدينة! فـيـهـا المتـاحف وصـالات المعـارض الفنيـة، طبعـاً. والمَرْبى المائي. ولو أني كنتُ متـشرداً، وأعطاني أحدهم ورقـةً مالية بقيـمة ألف دولار، لَمَا عرفتُ ماذا أفعلُ بها.

والنهـارُ رائعٌ أيضـاً. كـانت الشـمسُ تنهـشني كـمليـون كـرة عث. مليونير في عالمٍ لا قيمةَ للمال فيه.

حـاولتُ أن أستـحضـرَ فكرةً ممتـعـة. حـاولتُ أن أفكّرَ في أمـيـركـا بوصفها مكاناً سمعتُ عنه فقط.

" افتحْ، باسم يهوه العظيم والكونغرس القارّي! "

وفُتِحَ كأنه بابُ سردابٍ خفيّ. وها هي: أميركا: جنة الآلهة، ونهر غراند كانيون في أريزونا، وجبال غريت سموكيز، والصحراء الملوّنة، وهضاب ميسا فيرده، وصحراء موجافه، والكلونذايك، والحافة العظمى، ونهر واباش البعيد جداً، وسربنت ماوند الكبرى، ووادي القمر، وسولت ليك العظمى، ونهر مونونغاهيلا، وجبال الأوزارك، وبلد المذر لورد، وبلو غراس في كنتكي، وروافد لويزيانا، ومنطقة باد لاندر في داكوتا، وسجن سنغ سنغ، ووالا والا، بونس دو ليون، أوريبي، جيس جيمس، ألامو، ومستنقعات إفرغليد، ومستنقع أوكيفينوكي، وبريد بوتي اكسبريس، وغيتيسبرغ، والسيد شاستا، وتيهاتشيبس، وحصن تيكونديروغا.

إنه يومُ بعد غد وأنا واقفٌ عند أعلى مقدَّم السفينة " س.س بدفورد "... أقصد " إيل دو فرانس ". (لقد نسيتُ، أنا لستُ مُبعَداً، بل أقضي فترة عطلة في الخارج) للوهلةِ الأولى حسبتُ أني تلك الفوضوية المحبوبة، إيما غولدمَن[١٦٣]، التي يُقالُ أنها، لدى اقترابها من أرض المنفى، قالت: " إنني أشتاقُ إلى الأرض (أميركا) التي جعلتني أعاني. ألمْ أعرف أيضاً الحبَّ والفرحَ هناك... ؟ ". هي أيضا قدَّمَتْ بحثاً

twitter @baghdad_library

عن الحرية، كالعديد غيرها. ألم تفتح أبوابها، أرض الحرية المباركة هذه، للجميع كي يفرحوا؟ (باستثناء، طبعاً، الهنود الحمر، والسود، وأصحاب البطون الصفراء من الآسيويين). بهذه الروح جاءَ جدّي وجدَّتي. رحلةُ العودة الطويلة إلى الوطن. السفن المبحرة. تسعون إلى مئة يوم في البحر، مع أمراض الزُحار، بيري بيري[١٦٤]، وقمل شعر العانة، والقمل العادي، وداء الكَلَبْ، واليرقان، والملاريا، والهدير الصاخب ومباهج المسافرين عبر المحيط. لقد وجدوا الحياة طيبةً هنا في أميركا، أقصد أسلافي، على الرغم من أنهم في خضمّ كفاحهم للحفاظ على الجسد والروح معاً انهاروا قبل الأوان. (ولكن، ما زالت قبورهم في حالة جيدة) وكانوا قد جاؤوا بعد أن اقتحمَ إيثان ألن تيكوندبروغا باسم يهوه العظيم والكونغرس القاريّ ببضعة عقود. ولأكونَ دقيقاً، لقد جاؤوا في الوقتَ المناسب ليشهدوا اغتيالَ أبراهام لينكولن وتبعَ ذلك اغتيالات أخرى - ولكن الشخصيات أقلّ أهمية. وقد نجونا نحن، نحن لاعبو الكرابس.

قريباً ستنطلق السفينة. حان وقت الوداع. هل سأشتاقُ أنا أيضاً إلى الأرض التي جعلتني لأعاني معاناةً شديدة؟ لقد أجبتُ عن هذا السؤال من قبل. ومع ذلك، أريدُ حقاً أن أودِّعَ أولئك الذين كانوا ذات يوم يعنونَ لي شيئاً. ما هذا الذي أقوله؟ **بل الذين ما زالوا يعنونَ لي شيئاً!** تقدَّموا، من فضلكم، ودعوني أصافحكم. تعالوا، يا رفاقي، فلتكُن المصافحة الأخيرة!

تقدَّم يا وليم. ف ز كودي، في أول الرتل. عزيزي بوفالو بيل، أي

نهايةٍ مُذلّة خصّصنا لك! الوداع، يا سيد كودي، وحظاً سعيداً! وهل هذا جيس جيمس؟ الوداع، جيس جيمس، لقد كنتَ ممتازاً! الوداع، يا هنود التوسكارور، وأنتم يا هنود نافاخوس والأباشي! الوداع، يا هنود هوبي، أيها المُحبّون السلام، أيها البواسل! وهذا السيد المتيِّز، ذو البشرةِ الزيتونيّة واللحية المُدبَّبة، أيمكن أن يكون و.إ بوغار دوبوا، الذي يمثّل روح الشعب الأسود؟ الوداع، أيها السيد المُشرِّف، العزيز، كم كنتَ بطلاً نبيلاً! وها أنتَ، يا آل جننغز، يا مَنْ كنتَ ذات يوم كاهن ولاية أوهايو، تحياتي إليك! أدعو لك أن تسيرَ بين الأشباح مع أرواحٍ أعظم من أو.هنري! الوداع يا جون براون، وبوركتَ لشجاعتك النادرة! الوداع، أيها العزيز العجوز والت! لن تُنجِب البلادُ مُغرِّداً آخر نظيرك. الوداع، يا مارتن إيدن، الوداع، يا شعب الأنكا، الوداع، يا ديفيد كوبرفيلد! الوداع، يا جون بارليكورن، وبلِّغ تحياتي إلى جاك! الوداع، يا متسابقي دراجات الأيام الستة... سوف أتقدَّمُ عليكم في جهنم! الوداع، يا عزيزي جين لوندوس، أيها الهرقل الصغير الصلد! الوداع، يا أوسكار هامرستاين، الوداع، يا غاتي-كاساتزا! وأنت أيضاً، يا رودولف فريمل! الوداع الآن، يا أعضاء جمعية زيريكس! Fratres Samper (أخوة إلى الأبد)! الوداع، يا إلزي جانيس! الوداع، يا جون ل. وجنتلمن جون! الوداع، يا كنتكي العجوز! الوداع، أيها العجوز شامروك! الوداع، يا مونتيزوما، يا آخر ملك عظيم على العالم الجديد القديم! الوداع، يا شرلوك هولمز! الوداع، يا هوديني! الوداع، أيها المضطربون ويا كُلَّ مخرّبي حركة التقدُّم! الوداع، يا سيد ساكو، الوداع، يا سيد فنزيتي!

twitter @baghdad_library

اغفرا لنا آثامنا! الوداع، يا مينيهاها، الوداع، يا هياواثا! الوداع، أيتها العزيزة بوكاهانتس! الوداع، أيها الروّاد، الوداع لويلز فارغو وكل ذلك! الوداع، يا والدن بوند! الوداع أنتم يا هنود الشيروكي والسمينول! الوداع، يا سفن مسيسيبي البخارية! الوداع، يا ساحة هيرالد! الوداع، آه يا نبع الشباب! الوداع، دانييل بون! الوداع، يا Grasspapa! (جدّي)! الوداع، يا شارع الأحزان المُبكِّرة، أتمنى ألا تقع عينايَ عليك أبداً! الوداع، للجميع... الوداع الآن! دعوا الاسبيدسترا تُحلّق!

--- انتهى ---

نهاية ثلاثيّة الصَلْبْ الوردي

twitter @baghdad_library

الهوامش

١ – الجبال الكارباثيّة : سلسلة جبال تمتد من شمال تشيكسلوفاكيا السابقة وحتى منتصف رومانيا – المترجم

٢ – ألما ماتر : لقب أي مدرسة أو جامعة . من أصل لاتيني . تعني الأم السخيّة .– المترجم

٣ – الأسماء السابقة هي أسماء رسّامين من جنسيات وعصور مختلفة .– المترجم

٤ – نسبةً إلى منطقة التيبت في جبال الهيمالايا .– المترجم

٥ – Virginibus Puerisque : مجموعة مقالات للكاتب الاسكتلندي روبرت لويس ستيفنسن (١٨٥٠– ١٨٩٥) . – المترجم

٦ – إرنو دوخناني (١٨٧٧ – ١٩٦٠) : موسيقي هنغاري ، وعازف بارع على آلة البيانو . له " تنويعات على لحن للأطفال " .– المترجم

٧ – أنظر الفصل الأخير من " بليكسوس " . – المترجم

٨ –الجاكس : لعبةٌ قِوامها مجموعة من الحصى أو القطع المعدنية يُقذفُ بها إلى أعلى ثم يتلقاها اللاعب . – المترجم

٩ –نظام برتيون : طريقة للتعرُف إلى هوية الأشخاص وخاصة المجرمين من سجل للمقاييس الفرديّة والعلامات الفارقة وبصمات الأصابع ، الخ

١٠ – أباهم : جمع إبهام .

١١ –المارشيونيّة : حركةٌ غنوسطيّة أسّسها مارشيون السنوبيّ (١٠٠ – ١٦٥) ، ويقول إنّ المادةَ شرٌ وأنّ الخلاص يأتي من المعرفة الروحيّة .

١٢ – نيقولاي برديف (١٨٧٤– ١٩٤٨) : فيلسوف روسي المولد .

١٣ – هيرونيموس بوش (١٤٦٢ – ١٥١٥) : رسام فلامنكي . كان يرسمُ شخصيات تتعرَّضُ لعذابات فظيعة بأسلوبٍ كابوسيّ ، سرياليّ .

١٤ – البنزدرين : شراب منبّه .

١٥ – بعلزبوب : الشيطان الأكبر .

١٦ – الداماپادا : الكتاب المقدس عند البوذيين .

١٧ – أكوند السواتي : قصيدة من مجموعة " أغانٍ سخيفة " للكاتب والرسام البريطاني إدوارد لير (١٨١٢ – ١٨٨٨) .

١٨ – البارون ريتشارد كرافت–إيبنغ (١٨٤٠ – ١٩٠٢) : طبيب أعصاب ومحلل نفسي ألماني ، صاحب كتاب "تحليل النفس الجنسي " .

١٩ - لمن لا يعلم نقول : إن قصيدة " القارب السكران " الشهيرة هي للشاعر الفرنسي رامبو .

٢٠ - يان فرمير (١٦٣٢ - ١٦٧٥) : رسام هولندي . عاش مغموراً ومات فقيراً ، مخلِّفاً أرملة وأحد عشر طفلاً ، ودَيناً كبيراً للخبَّاز !- المترجم

٢١ - بابلو كاسال (١٨٧٦ - ١٩٧٣) : عازف على آلة التشيللو ومؤلف موسيقي أسباني . عُرِفَ بعزفه لمؤلفات يوهان سيباستيان باخ . - المترجم

٢٢ - مآرب : جمع مأربة : أرضٌ تتوالد فيها الأرانب .

٢٣ - وولورث : سلسلة من المحال التجارية تحمل اسمَ صاحبها فرانك وولورث (١٨٥٢ - ١٩١٩) عام ١٨٧٩ ، ويتجاوز عددها الألف .

٢٤ - هومر وينسلو (١٨٣٦ - ١٩١٠) : رسام يرسم بالألوان المائية الخفيفة مناظر طبيعية ومشاهد بحرية .

٢٥ - أدولف بوغيرو (١٨٢٥ - ١٩٠٥) : رسام كان يرسم بأسلوب عصر النهضة مواضيع شتى .

٢٦ - البرت رايدر (١٨٤٧ -١٩١٧) : رسام رومانسي أميركي كان يرسم مشاهد بحرية غنية ، وكان الكاتب إدغار ألن بو معجباً برسومه .

٢٧ - ألبرت سيسلي (١٨٣٩ - ١٨٩٩) : رسام فرنسي إنطباعي ، من أنقى الانطباعيين . كان يرسم المشاهد الطبيعية .

٢٨ _عرضُ مستزنج : مسرحية هزلية يقومُ فيها ممثلون من البيض بأدوار زنوج ويُلقون النكات ويغنون . . .

٢٩ - قوة الدفع الخلفيَة : في الأصل هي حركة الماء أو الهواء الخلفيَة الناشئة عن فعل المجاذيف أو أية قوت أخرى دافعة .

٣٠ - جون رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) : كاتب وناقد فني إنكليزي . له " حجارة البندقية " .

٣١ - سبق ترجمته .

٣٢ - جون سينغر سارجنت (١٨٥٦ - ١٩٢٥) : رسام وباحث في الفن أميركي . عُرِفَ بلوحاته للأشخاص وبلوحاته المنفَّذة بالألوان المائية .

٣٣ - رافائيل ، أو رافائيللو سانتزيو (١٤٨٣ - ١٥٢٠) : أحد ثلاثة من أعظم مبدعي الرسم في عصر النهضة .

٣٤ - أنطونيو كوريجيو (١٤٩٤ أو ١٤٨٩ -١٥٣٤) : رسام إيطالي ، تأثَّرَ بالأسلوب الفرنسي الناعم . في أسلوبه إرهاصات عصر الباروك .

٣٥ - جان باتيست كاميل كورو (١٧٩٦ - ١٨٧٥) : رسام فرنسي ، عُرف بدقة ملاحظته . من أوائل الانطباعيين .

٣٦ - توماس غينسبورو (١٧٢٧ - ١٧٨٨) : رسام إنكليزي . عُرفَ بمناظره الريفية الرومانسية .

٣٧ - جون فرينش سلون (١٨٧١ - ١٩٥١) : رسام وطابع على الحجر . عرِفَ بحيويته في رسم الحياة اليومية بتفاصيلها . أميركي .

٣٨ - جورج لكس (١٨٦٧ - ١٩٣٣) : رسام أميركي . عرِفَ برسومه لمشاهد من المدن .

٣٩ _هسّيّ : نسبة إلى مقاطعة هسّه ، ألمانيا .- المترجم

٤٠ - جيوفاني تشيمابيو (١٢٤٠ ؟ - ١٣٠٢ ؟) : رسام إيطالي . أحد رواد الواقعية في الرسم .

٤١ - فيتوره كارباتشيو (١٤٦٠- ١٥٢٣) : رسام إيطالي ، عرف بصوره ذات المواضيع الدينية وصور القديسين .

twitter @baghdad_library

٤٢ – تيتيان (؟ ١٤٨٧ – ١٥٧٦) : أعظم رسامي مدينة البندقية .

٤٣ – جزر كارولاين : أرخبيل من ٥٠٠ جزيرة في غرب المحيط الهادئ . أميركية .– المترجم

٤٤– المقصود هنا طبعاً الشاعر ، أرتور رامبو (١٨٥٤ – ١٨٩١) ، صاحب " القارب السكران " و " إضاءات" . – المترجم

٤٥ – يواكين ميللر (١٨٣٧ – ١٩١٣) : الاسم المستعار لسينسيناتوس ميللر . شاعر وصحافي أميركي . كان يعكس عظمة الغرب الأميركي في كتاباته . وفي زمنه كان ملايين الأطفال يحفظون أشعاره . – المترجم

٤٦ – الكلب الدموم : الكلب الذي يتعقَّب طريدي العدالة .

٤٧ – الباينت : وحدة وزن تُعادلُ ثُمن غالون .

٤٨ – جيم لوندوس : ملاكم يوناني .

٤٩ – سكريابين (١٨٧٢ – ١٩١٥) : موسيقي روسي .

٥٠ – أراخين ، جمع أرخون : في الأصل تعني الحاكم الأول في أثينا القديمة . لكنَّ المعنى الوارد يدلُّ على أنَّ ميللر يقصدُ كلمةً أخرى هي آركوبلازم . _المترجم

٥١ – الأب داميين (١٨٤٠ – ١٨٨٩) : كاهن كرَّسَ نفسه للتبشير ، وانتقل للعيش بين البرص في هاواي . حين أُصيبَ أخيراً بالبرص رفضَ أن يتلقى العلاج لكي لا يفترق عن البرص . له تمثال في هاواي .

٥٢ – الألوة : نبات تُستخرَجُ منه عُصارةٌ يُستفادُ منها كمُسهِّل .

٥٣ – الرامايانا : قصيدة ملحمية هندوسية ألفها بالسنسكريتية للشاعر فالميكي .

٥٤ – فرسينغيتوريكس (ت ٤٥ ؟ ق م) : رئيس جماعة وبطل غاليّ . أُعدِمَ لقيادته حركة تمرُّد ضد الرومان في عهد يوليوس قيصر .– المترجم

٥٥ – دانييل بون (١٧٣٤ – ١٨٢٠) : مستكشف أميركي ، خاصة في ولاية كنتكي . – المترجم

٥٦ – Tipperary : في الأصل اسم منطقة في جنوب أيرلندا . لعلَّ ميللر يشيرُ إلى أغنية تخصُّ تلك المنطقة .

٥٧ – الشجارة : هي زراعة الأشجار والشجيرات ، خاصة بغرض التزيين .

٥٨ – العَدادة : دراسة معاني الأعداد السحرية والتنجيميّة .

٥٩ – الأبوكريفا : كتابات مُلحقة بالعهد القديم لا يعترف بها البروتستانت .

٦٠ – سفر أيوب : ٣٨ / ٤

٦١ – بيير أبيلار (١٠٧٩ – ١١٤٤ ؟) : لاهوتي وفيلسوف أخلاقي فرنسي ، اتُّهِمَ بالهرطقة . اشتُهِرَ بحبه لإلويز الذي تجلّى بمراسلاتهما الشهيرة .

٦٢ – وادي بني هنّوم : مذكور في العهد القديم ، الملوك الثاني ٢٣/ ١٠ . وهو وادٍ يقعُ تحت أورشليم ، كانت تُحرَقُ فيه الأشياء القذرة وتُمارَسُ الوثنية . وهو يرمز إلى مكانٍ أو حالةٍ من الألم والعذاب .– المترجم

٦٣ – الميناذة : في الأصل هي إحدى النساء التي كانت تشارك في مهرجانات باخوس القاصفة . وترمز إلى كل امرأة في حالة هياج جنسي أو عقلي . . . الخ

٦٤ – الفشاغ : نبات أميركي معترش .

٦٥ – جمع غريزيلدا : في الأساطير الأوروبية هي رمز الزوجة الصبور والمخلصة والتي تتحمل المشاق والظروف الصعبة .

٦٦ – عشب الطير : عشب تأكل أوراقه وحبوبه الطيور .

٦٧ - يوشيوارا : حي المواخير في طوكيو القرن التاسع عشر .

٦٨ - الثاويّ : الشخص الذي يتناول طعامه في منزل شخصٍ آخر مقابل مبلغ مالي صغير .

٦٩ - ماكس سترنر (١٨٠٦ - ١٨٥٦) : فوضوي ألماني . له " الأنا والآخر " .

٧٠ - ميخائيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) : كاتب وفوضوي روسي

٧١ - الكسلان : حيوانٌ استوائيّ يعيشُ مُعلّقاً بالأشجار .

٧٢ - جيمس كوك (١٧٢٨ - ١٧٧٩) : بحّار ومكتشف أستراليا ، ونيوزيلندا والعديد من الجزر في الهادئ والأطلسي .

٧٣ - هوغو فولف (١٨٦٠ - ١٩٠٣) : مؤلّف موسيقي نمساوي ، كان شديد الإعجاب بموسيقا فاغنر . له أغان "ليد " مشهورة .

٧٤ - مود : زوجة ميللر الأولى . - المترجم

٧٥ - عُسْر ,جمع أعسر : من يستخدم يده اليسرى .

٧٦ - القبلانية : فلسفةُ دينية سرّية مارسها أحبار اليهود وبعض النصارى في العصور الوسطى . وهي تقوم على أساس تفسير الكتاب المقدّس صوفياً .-

٧٧ - الميزوزاح : في اليهودية ؛ رقعةٌ تُنقَش عليها مقاطع توراتيّة وتُعلّقُ على قائمة باب المنزل اليهودي . - المترجم

٧٨ - دواليب الصلاة : في البوذية ؛ خاصة في التيبت . دولابٌ تُنقّشُ عليها صلوات وعندما تُدار يُعتَبَرُ ذلك كترديدٍ للصلوات مع كل دورة . - المترجم

٧٩ - الغيبليين : فئةٌ سياسية إيطالية في القرون الوسطى كانت تساند الامبراطور الألماني .

٨٠ - الباغافاد غيتا : الكتاب المقدس للهندوس ، عام ٢٠٠ قم .

٨١ - السنهدرين : المجلس الأعلى عند قدماء اليهود .

٨٢ - شيكيبو موراساكي (القرن الحادي عشر) : بارونة يابانية ، مؤلّفة . لعل روايتها " حكاية جنجي " هي أول رواية حديثة تُكتَب .

٨٣ - غوينيفر : في الأسطورة الأرثرية ، هي زوجة الملك آرثر ، وعشيقة الفارس لانسلوت . - المترحم .

٨٤ - لافكاديو هيرن (١٨٥٠ - ١٩٠٤) : بدأ كصحافي في أميركا ثم بدأ ترحاله . استقرّ في اليابان وتزوج من يابانية . سجل انطباعاته عن الحياة في اليابان في عدد من الكتب والقصص .

٨٥ - آرثر ماتشن (١٨٦٣ - ١٩٤٧) : روائي من مقاطعة ويلز في إنكلترا وكاتب مقلات . من مؤلفاته" هضبة الأحلام " و " الإله العظيم بان " .

٨٦ - هوكوياي (١٧٦٠ - ١٨٤٩) : رسّام ياباني . كان قدوة الانطباعيين في أوروبا . وله " مذكرات " .- المترجم

٨٧ - اللاموس : من القوارض .

٨٨ - العقعق : نوع من الغربان .

٨٩ - فَرَسي . نسبة إلى فَرَس ، أو حصان .

٩٠ - القبلانيّة : سبق شرحها .

٩١ - ساسة : الكلمة هنا هي جمع سانس : مدرِّب الخيول .

twitter @baghdad_library

٩٢ - العتاه المبكّر : نوع من الجنون يظهر عادةً في أواخر عهد المراهقة ويتميَّز بفقدان الاهتمام بالناس والأشياء وبسلوكٍ غريب منحرف .

٩٣ - ميغيل دو أونامونو (١٨٦٤ - ١٩٣٧) : كاتب أسباني .

٩٤ - بول مورفي (١٨٣٧ - ١٨٨٤) : بطل العالم في لعبة الشطرنج ما بين عاميَ ١٨٥٧ - ١٨٧١ . يُقال إنه أعظم لاعب شطرنج في كل الأزمان .

٩٥غوي : هو اللقب الذي يُطلقه اليهودي على مَنْ ليس يهودياً .

٩٦ - ميشا إلمن (١٨٩١ - ١٩٦٧) : عازف كمان أوكراني . كان طفلاً معجزة . ألّفَ مقطوعات صغيرة للكمان .

٩٧ - بيني ليونارد (١٨٩٦ - ١٩٤٧) : بطل أميركي في الملاكمة للوزن الخفيف من عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٢٥ . أحد أبرز الملاكمين في وزنه .

٩٨ - الموآبيين : من الشعوب السامية القديمة .

٩٩ - الرواق ، أو الرواق البولوني : منطقة ضيقة تسمي بومارينيا تقعُ على الساحل البولوني على بحر البلطيق . أُخذَتْ من ألمانيا وأُعطيتْ لبولونيا بعد الحرب العالمية الأولى ليكون لها منفذ إلى البحر .

١٠٠ - شارون : هي التسمية التاريخية للسهل الساحلي في فلسطين المحتلة الممتد طولاً من حيفا وحتى تل أبيب .

١٠١ - ألآ ناظيموفا (١٨٧٩ - ١٩٤٥) : ممثلة أميركية مسرحية وسينمائية من أصل روسي . جسَّدَتْ خاصةً شخصيات مسرحيا هنريك إبسن .

١٠٢ - يعني أنه أخطأ في لفظ الكلمة ولفظها أولاً " حوذي " بدل " مؤخرة " .

١٠٣ - زند فستا : كتاب الزرادشتيين المقدس .

١٠٤ - بوريس توماشيفسكي : ممثل يهودي نقل المسرح الييديّ من لندن إلى الولايات المتحدة .

١٠٥ - بتشورين : هو بطل رواية " بطل من هذا الزمان " للكاتب الروسي ميخائيل ليرمنتوف .

١٠٦ - أكساكوف : اسم عائلة كان عدد من أفرادها من الأدباء ، أبرزهم كان سيرغي أكساكوف (١٧٩١ - ١٨٥٩) : وهو الذي أدخل نوع الرواية -السيرة إلى الأدب الروسي .

١٠٧ - الصدّيقيَ : ما يشبه الولي .

١٠٨ - العماليق : قبيلة من البدو ، وردَ ذكرها في التوراة . سكنت الصحراء ، وكانت تكره الإسرائيليين . قضى عليها شاؤول وداوود .

١٠٩ - تجديد العماد : حركة نشأتْ في أوروبا بعد عام ١٥٢٠ وتميَّزت بالشروط القاسية التي وضعتها لعضوية الكنيسة ، وبإصرارها على إعادة تعميد البالغين ورفض عماد الأطفال .

١١٠ - يوجين .ف دبس (١٨٥٥ - ١٩٢٦) : زعيم عمّالي اشتراكي ، ترشَّحَ لرئاسة الولايات المتحدة خمس مرات بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ .

١١١ - كارمن سيلفا : الاسم المستعار للأميرة اليوابث فيد كشاعرة .وكانت زوجة الملك كارول الأول (١٨٣٩ - ١٩١٤) ملك رومانيا .

١١٢ - فوجيتش بوغسلافسكي (١٧٥٧ - ١٨٢٩) : كاتب مسرحي ، وممثل ، ومخرج بولوني في عصر التنوير البولوني . يُعتبر أبو المسرح البولوني .

١١٣ - كونت بيسي وفاتس والر : من أعظم مؤلفي وعازفي موسيقا الجاز .
١١٤ - والتر باتر (١٨٣٩ -١٨٩٤) : كاتب وناقد إنكليزي . له " ماريوس الأبيقوري " .
١١٥ - ثيودور مومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣) : مؤرِّخ ألماني . أشهر كتبه " تاريخ روما " . نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٢ .
١١٦ - التأسلية : العودة إلى صِفات الأجداد التي كانت قد اندثرَتْ .
١١٧ - الكلمة باليدية ، وتعني حرفياً قَلَفَة القضيب ، وبالعامية كما جاءت هنا ترجمتها : أير .
١١٨ - نسبةً إلى الكاتب النرويجي كنوت هامسن (١٨٥٩ - ١٩٥٢) .
١١٩ - " الحمار الذهبي " : كتاب من تأليف أبوليوس (ولد حوالي عام ١١٤ م) : وهو سيرة ذاتية ساخرة عن شخص تحوّلَ خطأً على يد خادم ساحرة إلى حمار ، وأخذ يتنقَّل من سيد إلى سيد ويحكي مشاهداته ويسخر من طبائع البشر .- المترجم .
١٢٠ - الترجمة الحرفية للعبارة الفرنسية هي " رجال الأحرف " .
١٢١ - لويزا تتراتزيني (١٨٧٤ - ١٩٤٠) : مغنية أوبرا إيطالية . - المترجم
١٢٢ - انريكو كاروزو (١٨٧٣ - ١٩٢١) : مغني أوبرا وممثل إيطالي . كان معروفاً بقوة صوته الهائلة .- المترجم
١٢٣ - المقصود به فلاديير هوروفيتز (١٩٠٤ - ١٩٨٩) : عازف البيانو الروسي الأشهر .- المترجم
١٢٤ - ياشا هيفتز (١٩٠١ - ١٩٨٧) : عازف كمان شهير روسي المولد .- المترجم
١٢٥ - جوزيف زيغيتي (١٨٩٧ -١٩٧٣) : عازف كمان هنغاري المولد . - المترجم
١٢٦ - يهودي مانوهن (١٩١٦ - ٢٠٠١ ؟) : أحد أشهر عازفي الكمان الألمان في القرن العشرين .
١٢٧ - خوان ميرو (١٨٩٣ - ١٩٨٣) : رسام أسباني .
١٢٨ - مارتن هايدغر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) : فيلسوف وجودي ألماني .
١٢٩ - لودفيغ فتغنشتاين (١٨٨٩ - ١٩٥١) : فيلسوف نمساوي المولد .
١٣٠ - كابادوسيا : منطقةٌ قديمة كانت تقعُ في شرق آسيا الصغرى . كانت مشهورة بالخيول .
١٣١ - ستوبات ، جمع ستوبا : برجٌ بوذيّ على هيئة هرم .
١٣٢ - ديكان : منطقة واسعة في الهند .
١٣٣ - المنداة : رمز الكون عند الهندوس والبوذيين . ويصوَّر على شكل دائرة تطوِّق مربعاً وعلى كل من جانبيها رسمٌ لإله .
١٣٤ - أنزال ، جمع نُزُل : مكان للإقامة والأكل والنوم مدة قصيرة .
١٣٥ - بليك ، وجون دَنْ ، وتراهيرن : من الشعراء الإنكليز .
١٣٦ - لورانس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨) : كاتب أيرلندي المولد . ساخر . أشهر مؤلفاته الكتاب العبثي "حياة وآراء تريسترام شاندي "
١٣٧ - " رسالة إلى البرلمان " : أطروحة وجَّهها الشاعر ميلتون إلى البرلمان الإنكليزي لإصدار هذا الأخير قانوناً يمنع بموجبه طباعة أي كتاب إلا بعد مروره على الرقابة وإجازة طباعته . ويرفض الرقابة على الكتاب . - المترجم
١٣٨ - مينيليك الثاني (١٨٤٤-١٩١٣) : ملك الحبشة . حقّقَ استقلال بلاد الحبشة في حقبة التوسُّع الأوروبي في أفريقيا .

twitter @baghdad_library

١٣٩ - يقصد أنَّ كلمة فرنسا (France) هي كنية الكاتب أناطول فرانس .
١٤٠ - الزيلوت : في الأصل تعني ثوريون من اليهود تمردوا على الرومان القدامى . هنا جاءت الكلمة بمعنى الزعماء الثوريين .
١٤١ - أسموديوس : الشيطان عند اليهود .
١٤٢ - غورغونزولا : في الأصل اسم بلدة في إيطاليا . ثم أصبحَ اسم الجبن الذي تُنتجه تلك البلدة .
١٤٣ - علبة الكرة العطرية : هي علبة تُملأ بالأعشاب العطرية تعلَّق من العنق كقلادة أو توضع داخل حجر الخاتم . كان يُعتقَد أنها تحمي من الأمراض وتطرد اروائح الكريهة .
١٤٤ _أناكساغوراس (٥٠٠ - ٤٢٨ ق م ؟) : فيلسوف يوناني . قال إنه لا يوجد شيء من العدم .
١٤٥ - بترونيوس (الحَكَمْ) (انتحر عام ٦٦ م) : كاتب روماني . له " ساتايركون " .
١٤٦ - البارون منشوسن : بطل "مغامرات البارون منشوسن" التي تُنسَبُ إلى رودولف إريش راسبه (١٧٣٧-١٧٩٧)
١٤٧ - سوامي فيفيكاناندا (١٨٦٣ - ١٩٠٢) : اسمه الأصلي ناريندرانات داتا . زعيمٌ روحيّ هندوسيّ . حاولَ الجمع بين الروحانية الهندية والتقدُّم المادي الغربي ، قائلاً إنهما يتكاملان .
١٤٨ - القاقي : حيوان من فصيلة بنات عرس .
١٤٩ - نيقولاي تسلا (١٨٥٦ - ١٩٤٣) : مخترع صربي- أميركي . اكتشف المجال المغناطيس . وهناك عدد كبير من الاختراعات المسجّلة باسمه .
١٥٠ - ساكنو ألبي : هم معتنقو مذهب ماني الذين سكنوا جنوب فرنسا ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر .
١٥١ - الهوغونوت : هو لقب البروتستانت الفرنسيين خاصة في القرن السادس عشر أو السابع عشر .
١٥٢ - درافيدي : نسبةً إلى لغةٍ يتكلمها أهالي جنوب الهند والتاميل والماليزيين . . .
١٥٣ - الأبوسوم : حيوان أميركي من ذوات الجِراب .
١٥٤ - قصيدة النشوة : قصيدة سيمفونية للموسيقي الروسي سكريابين (١٨٧٢ - ١٩١٥) مُصنَّف ٥٤ . وتصوِّرُ فرح الموسيقار بالإبداع .- المترجم
١٥٥ - ماساتشو (١٤٠١ - ١٤٢٨) : رسام إيطالي .
١٥٦ - الحياة الجديدة : كتاب للشاعر دانتي الليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١) .
١٥٧ - مكسيم غوركي (١٨٦٨ - ١٩٣٦)
١٥٨ - طانت ميليا هذه كانت مجنونة ، بالمناسبة ! - المترجم
١٥٩ - آن بودنبروك : إحدى شخصيات رواية " آل بودنبروك " للروائي الألماني توماس مان (١٨٧٥ - ١٩٥٥)
١٦٠ - تونيو كروغر : عنوان رواية واسم شخصية هذه الرواية للمؤلف الآنف الذكر .
١٦١ - ديتريش بوكستهوده (١٦٣٧ - ١٧٠٧) : مؤلف موسيقي وعازف أرغن دانماركي . يُقال إنَّ يوهان سيباستيان باخ كان شديد الإعجاب بعزفه إلى درجة أنه ذات مرة قطع مسافة ٣٠٠ كم مشياً على قدميه ليسمع عزفه . - المترجم
١٦٢ - البانشي : في الفولكلور الأيرلندي ، هي روح امرأة يُنذِرُ عويلها بالموت .
١٦٣ - إيما غولدمَن (١٨٦٩ - ١٩٤٠) : فوضوية روسية .
١٦٤ - بيري بيري : مرض ينشأ من نقص فيتامين ب .

henry
miller

nexus

The Rosy Crucifixion

• «إنَّ المشاهدَ الجنسيّة في الكتاب تتّسِمُ بطاقةٍ صاخبةٍ وحيويّةٍ هزليّةٍ غير مسبوقة ونادراً ما تجدُ ما يُضارعها في كتاباته الأخرى»

عن «تايمز ليتراري سبليمنت»

• «إنه متألّقٌ، ومُحيّرٌ، وعميقٌ ... يتّصِفُ بنوعٍ من الروعة الهادرة لا يمكنُ أن تولَدَ إلاّ من عقلِ ومُخيّلةِ فنّانٍ عبقريّ»

عن «الديلي تلغراف»

• «إنه قصفٌ خشنٌ ممتاز»

عن «صنداى تلغراف»

• «ليس هناك أيّ كاتب حيّ آخر يتمتّعُ بمثلِ هذه المقدرة المُلزِمة على الإبهاج، وإثارة الحنق، والسحر، وبعث الخوف، وأخيراً على الأسر»

عن «أوكسفورد ميل»

• «إنَّ الأدبَ الأميركي المُعاصِر يبدأ وينتهي بمغزى ما أنجزه ميللر»

عن الروائي لورانس دريل

لوحة الغلاف: جيا كوميتي

ISBN:2-84305-655-X
9 782843 056550

twitter @baghdad_library